

زاد المسير

في
علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادى

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

المجلد السابع

المكتب الاسلامى

حقوق الطبع محفوظة
للمكتب الإسلامي

لصاحبه
زهير الشاويش

الطبعة الثالثة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقية: اسلامية

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقية: اسلامية

سورة يس

وفيه قولان .

أحدها : أنها مكِّيَّة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور . وروي عن ابن عباس وقتادة أنها قالوا : إنها مكِّيَّة إلا آية منها ، وهي قوله : (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) [يس : ٤٥] .
والثاني : أنها مدنية ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وقال : ليس بالمشهور .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسَّ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ كَلِمَ التَّوَكُّلِ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾

وفي قوله : (يس) خمسة أقوال .

أحدها : أن معناها : يا إنسان ، بالحبشية ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل .

والثاني : أنها قسم قسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن معناها : يا محمد ، قاله ابن الحنفية ، والضحاك .

والرابع : أن معناها : يارجل ، قاله الحسن .

والخامس : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة ^(١) .

وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء : « يَسْنَ » بفتح الياء وكسر النون . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة : بفتح الياء والنون جميعاً . وقرأ أبو حصين الأسدي : بكسر الياء وإظهار النون . قال الزجاج : والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السور ، وبمض العرب يقول : « يَسْنَ والقرآن » بفتح النون ، وهذا جائز في العربية لوجهين . أحدهما : أن « يس » اسم للسورة ، فكأنه قال : اتلُ يس ، وهو على وزن هايل وقايل لا ينصرف والثاني : أنه فتح لالتقاء الساكنين ، والتسكين أجود ، لأنه حرف هجاء .

قوله تعالى : (والقرآن الحكيم) هذا قسم ، وقد سبق معنى « الحكيم » [البقرة : ٣٢] ، قال الزجاج : وجوابه : (إِنَّكَ كَلِمَ الْمُرْسَلِينَ) ؛ وأحسن ما جاء في العربية أن يكون « كَلِمَ الْمُرْسَلِينَ » خبر « إن » ، ويكون قوله : (على صراطٍ مستقيم) خبراً ثانياً ، فيكون المعنى : إِنَّكَ كَلِمَ الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّكَ على صراطٍ مستقيم . ويجوز أن يكون « على صراطٍ » من صلة « الْمُرْسَلِينَ » ، فيكون المعنى : إِنَّكَ كَلِمَ الْمُرْسَلِينَ الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة .

قوله تعالى : (تنزيل العزيز) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « تنزيل »

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة (البقرة) ، وسورة (طه) وانظر التليق الذي في أول سورة (العنكبوت) . وكلمة (يس) هنا من الحروف المقطعة أمثال (طه) وغيرها ، وقد قال ابن جرير الطبري في تفسير كلمة (طه) بعدما ذكر في معناها عدة أقوال : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه ، قول من قال : معناه : يارجل ، وتأويل الكلام : يارجل ما أزلنا عليك القرآن لتشقى ، ما أزلناه عليك فنكثك مالا طاقة لك به من العمل . اهـ . وكلمة (يس) هنا معناها قريب من (طه) كأنه قال : يارجل والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ بوحى الله عز وجل إلى عباده ، يريد به محمداً ﷺ .

برفع اللام . وقرأ ابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « تنزيل » بنصب اللام .
وعن عاصم كالقراءتين . قال الزجاج : من قرأ بالنصب ، فعلى المصدر ، على معنى :
نزل الله ذلك تنزيلاً ، ومن قرأ بالرفع ، فعلى معنى : الذي أنزل إليك
تنزيل العزيز . وقال الفراء : من نصب ، أراد : إنك لمن المرسلين تنزيلاً
حقاً منزلاً . ويكون الرفع على الاستئناف ، كقوله : ذلك تنزيل العزيز .
وقرأ أبي بن كعب ، وأبورزين ، وأبو العالية ، والحسن ، والجدري : « تنزيل »
بكسر اللام . وقال مقاتل : هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه ، الرحيم بخلقه .
قوله تعالى : (لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ) في « ما » قولان .

أحدهما : أنها نفي ، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين .

والثاني : أنها بمعنى « كما » ، قاله مقاتل . وقيل : هي بمعنى « الذي » .

قوله تعالى : (فَهُمْ غَافِلُونَ) أي : عن حُجج التوحيد وأدلة البعث .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا
فِي آعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ بُشِيرًا وَمُنْذِرًا وَأَجْرُ
كَرِيمٍ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ
وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

(لقد حَقَّ القول) فيه قولان . أحدهما : وجب المذاب . والثاني : سبق

القول بكفرهم .

قوله تعالى : (على أكثرهم) يعني أهل مكة ، وهذه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة لكفرهم (فهم لا يؤمنون) لما سبق من القدر بذلك .

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها مثل ، وليس هناك غُلُّ حقيقة ، قاله أكثر المحققين ، ثم لهم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنها مثل لمنهم عن كل خير ، قاله قتادة . والثاني : لحبسهم عن الإنفاق في سبيل الله بموانع كالأغلال ، قاله الفراء ، وابن قتبية . والثالث : لمنهم من الإيعان بالله ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أنها موانع حسبيّة منعت كما يمنع الغُلُّ ؛ قال مقاتل بن سليمان : حلف أبو جهل لئن رأى النبي ﷺ يصلّي أيّد منّته ، فجاءه وهو يصلّي ، فرفع حجراً فبيّست يده والتصق الحجر بيده ، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، فقام رجل منهم فأخذ الحجر ، فلما دنا من رسول الله ﷺ طمس الله على بصره فلم يره ، فرجع إلى أصحابه فلم يُبصرهم حتى نادوه ، فنزل في أبي جهل : (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ...) الآية ، ونزل في الآخر : (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا) (١) .

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ، ١٣٩ ، ١٤٠ : رواه ابن إسحاق في « السيرة » في كلام طويل ، قال : ورواه أبو نعيم في « الدلائل » من طريق ابن إسحاق : حدثني محمد بن محمد بن سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس ، أن أبا جهل قال : « إني أعاهد الله لأجلسن غداً لحمد بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ... ، فذكر نحوه إلى قوله : « قد بيست يده على حجره حتى قذف الحجر بين يديه » . وقد ذكر سبب النزول هذا مختصراً الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا) إلى قوله : (فهم لا يبصرون) قال : فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . اهـ . وأصله في البخاري : ٥٥٧/٨ في سورة (اقرأ) عند قوله تعالى : (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة) عن —

والقول الثالث : أنه على حقيقته ، إلا أنه وَصَفُ لِمَا سَيُنْزِلُهُ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ فِي النَّارِ ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (فهي إلى الأذقان) قال الفراء : « فهي » كناية عن الأيمان ، ولم يُذْكَرْ ، لأنَّ القُلَّ لا يكون إلا في اليمين والعنق جامعاً لهما ، فاستُغْفِرَ بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا عَنْ صَاحِبِهِ . وقال الزجاج : « هي » كناية عن الأيدي ، ولم يذكرها إيجازاً ، لأنَّ القُلَّ يتضمن اليد والعنق ، وأنشد :

وما أدري إذا يَمَمْتُ أرضاً أريدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي ^(١)

ولمَّا قَالَ : أَيُّهُمَا ، لأنه قد علم أنَّ الخير والشرَّ معرَّضان للإنسان . قال الفراء : والدَّقْنُ : أسفل اللَّحْيَيْنِ ، والمُقَمَّحُ : الغاضُّ بصره بعد رفع رأسه . قال أبو عبيدة : كُلُّ رَافِعٍ رَأْسَهُ فَهُوَ مُقَمَّحٌ وَقَامِحٌ ، والجمع : قِمَاحٌ ، فإنَّ فَعَلَ ذَلِكَ بِنَاسٍ فَهُوَ مُقَمَّحٌ ، ومنه هذه الآية . وقال ابن قتيبة : يقال : بعيرٌ قَامِحٌ ، وإِبِلٌ قِمَاحٌ : إِذَا رَوَيْتَ مِنَ الْمَاءِ فَقَمَحَتْ ، قال الشاعر - وذكر سفينة - : وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا مُقَمُّودٌ نَعُضُّ الطَّرْفَ كَالِإِبِلِ الْقِمَاحِ ^(٢) وقال الأزهري : المراد أنَّ أَيْدِيَهُمْ لَمَّا غُلِّتْ عِنْدَ أَعْنَاقِهِمْ ، رَفَعَتْ الْأَغْلَالُ أَذْقَانَهُمْ وَرُؤُوسَهُمْ ، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إبتاهاً .

— عكرمة قال ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لو فعله لأخذته الملائكة » ، وسيأتي ذلك في محله من سورة (اقرأ) إن شاء الله تعالى .

(١) تقدم البيت في الجزء : ١٨٣/١ وتخرجه : ٤٤٣/١ ، وهو أيضاً في « معاني القرآن » :

٢٣١ ، و « مشكل القرآن » : ١٧٦ ، و « الطبري » : ١٥١/٢٢ .

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم الأسدي ، وهو في « مجاز القرآن » : ١٥٧/٢ ،

و « غريب القرآن » : ٣٦٣ ، و « القرطبي » : ٨/١٥ ، و « البحر المحيط » : ٣٢٤/٧ ،

و « روح المعاني » : ١٩٧/٢٢ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : قح .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بفتح السين ، والباقون : بضمها ، وقد نكسنا على الفرق [بينهما] في (الكهف : ٩٤) . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : منعناهم عن الإيمان بموانع ، فهم لا يستطيعون الخروج عن الكفر .
والثاني : حبسناهم عن أذى رسول الله ﷺ بالظلمة لما قصدوه بالأذى .
قوله تعالى : (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) قال ابن قتيبة : أغشينا عيونهم وأعميناهم عن الهدى .
وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ويحيى بن يعمر :
« فَأَغْشَيْنَاهُمْ » بعين غير معجمة . ثم ذكر أن الإنذار لا يفهم لإضلاله إياهم بالآية التي بعد هذه . ثم أخبر عن ينفعه الإنذار بقوله : (إِنَّمَا تُنذِرُ) أي :
إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ (مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) وهو القرآن ، فعمل به (وخشي الرحمن بالغيب) وقد شرحناه في (الأنبياء : ٤٩) ، والأجر الكريم : الحسن ، وهو الجنة . (إِنَّمَا نَحْنُ نُنْخِصُ الْمَوْتَ) للبعث (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) من خير وشر في دينهم . وقرأ النخعي ، والجحدري : « وَيُكْتُبُ » ياء مرفوعة وفتح التاء « وَآتَاهُمْ » برفع الراء .

وفي آثارهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها خطام بأرجلهم ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة . قال أبو سعيد الخدري : شككت بنو سلمة إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فأنزل الله تعالى : (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) ، فقال النبي ﷺ : « عليكم منازلكم ، فإنما نكُتِبُ آثَارُكُمْ » ^(١) ، وقال قتادة وعمر بن عبد العزيز : لو كان الله مُخَفِّلًا شيئاً ، لأغفل ما تمقي الرياح من أثر قدم ابن آدم .

(١) رواه الترمذي ١٥٥/٢ وقال : هذا حديث حسن غريب ، ورواه الطبري : ١٥٤/٢٢ ، —

والثاني : أنها الخطأ إلى الجمعة ، قاله أنس بن مالك ^(١) .
 والثالث : ما أنثروا من سنة حسنة أو سيئة يُعمل بها بعدهم ، قاله
 ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ^(٢) .
 قوله تعالى : (وكلّ شيء) وقرأ ابن السميع ، وابن أبي عملة : « وكلّ » ،
 برفع اللام ، أي : من الأعمال (أحصيناه) أي : حَفِطْنَاهُ (في إمام مُبين)
 وهو اللوح المحفوظ .

— والحاكم : ٤٣٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي ، ورواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٩ ،
 وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٦٠/٥ ، وزاد نسبه لبعد الزاقي ، والبزار ، وابن المنذر ،
 وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
 قال ابن كثير : وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكاملها مكية ، والله أعلم . اهـ .
 والحديث رواه مسلم في « صحيحه » : ٤٦٣/١ دون سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله
 رضي الله عنه قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمية أن ينتقلوا قرب المسجد ،
 فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : « إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » ،
 قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : « يا بني سلمية دياركم تكتب آثاركم ،
 دياركم تكتب آثاركم » .

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » : ٢٦٠/٥ : أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه
 في قوله : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) قال : هذا في الخطوب يوم الجمعة . اهـ . وروى الترمذي
 في « جامعه » عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من
 غسل يوم الجمعة واغتسل ، وبكّر واتكّر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ ،
 كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها » ، وقال : حديث حسن .
 ورواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وابن خزيمة وابن جبان في
 « صحيحهما » وهو حديث صحيح .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » : ٧٠٥/٢ عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال :
 قال رسول الله ﷺ : « من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده
 من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها —

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْنَكُم مَّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْنَكُم لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ الْمُسْلِينَ . قَالُوا إِنَّا نَطْغِيرُهَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مثلاً) المعنى : صف لأهل مكة مثلاً ؛ أي : شبهها . وقال الزجاج : المعنى : مثل لهم مثلاً (أصحاب القرية) وهو بدل من مثل ، كأنه قال : اذكر لهم أصحاب القرية . وقال عكرمة ، وقادة : هذه القرية هي أنطاكية ^(١) .

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) وفي اسميهما ثلاثة أقوال . أحدها : صادق وصدوق ، قاله ابن عباس ، وكعب . والثاني : يوحنا وبولس ، قاله وهب بن منبه . والثالث : تومان وبولس ، قاله مقاتل .

— ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . . وروى مسلم في صحيحه : ١٣٥٥/٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . (١) قال ابن كثير : ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، قال : ذكروه عند قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى) قال : قبل هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف ، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوفاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ .

قوله تعالى : (فَمَزَّزْنَا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ،
وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « فَمَزَّزْنَا » بتشديد الزاي ، قال
ابن قتيبة : المعنى : قَوَّيْنَا وَشَدَّدْنَا ، يقال : تمزَّز لحمُ النَّاقَةِ : إذا صَلَّسَ .
وقرأ أبو بكر ، والمفضل عن عاصم : « فَمَزَّزْنَا » خفيفة ، قال أبو علي : أراد :
فَقَلَّبْنَا . قال مقاتل : واسم هذا الثالث شمعون ، وكان من الحواريين ، وهو وصي
عيسى عليه السلام . قال وهب : وأوحى الله إلى شمعون يُخْبِرُهُ خبر الاثنين
ويأمره بِنُصْرَتِهِمَا ، فانطلق يؤمُّهُمَا . وذكر الفراء أن هذا الثالث كان قد أرسل
قبلهما ؛ قال : ونراه في التنزيل كأنه بعدهما ، وإنما المعنى : فَمَزَّزْنَا بِالثَّالِثِ الَّذِي
قبلهما ، والمفسرون على أنه إنما أرسل لنُصْرَتِهِمَا ، ثُمَّ إِنَّ الثَّالِثَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ
ثَانِيٍّ ، فَأَمَّا إِذَا سَبَقَ الْاِثْنَيْنِ فَهُوَ أَوَّلٌ ؛ وَإِنِّي لَا تَعْجَبُ مِنْ قَوْلِ الْفَرَاءِ .

واختلف المفسرون فيمن أرسل هؤلاء الرُّسُلَ على قولين .

أحدهما : أن الله تعالى أرسلهم ، وهو ظاهر القرآن ، وهو مروى عن ابن عباس ،
وكعب ، وهب .

والثاني : أن عيسى أرسلهم ، وجاز أن يُضَافَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُمْ
رسل رسوله ، قاله قتادة ، وابن جريج ^(١) .

قوله تعالى : (قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) أي : ما لكم علينا فضل في
شيء (وَمَا أَتَزَلْ لِرَحْمَنِ مِنْ شَيْءٍ) أي : لم يُنْزَلْ كِتَابًا وَلَمْ يُرْسَلْ رَسُولًا .

(١) قال ابن كثير : ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من
جهة المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : (إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَمَزَّزْنَا بِثَالِثٍ
فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) إلى أن قالوا : (رَبَّنَا يَلْمِزُ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)
قال : ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ،
والله تعالى أعلم ، قال : ثم لو كانوا رسل المسيح ، لما قالوا : (مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) . اهـ .

وما بعده ظاهر إلى قوله : (قالوا إنا تطيرنا بكم) وذلك أن المطر حُبس عنهم ، فقالوا : إنا أصابنا هذا من قبلكم (لئن لم تفتحوا) أي : نسكتوا عنا (لنرجمنكم) أي : لننقضنكم .

(قالوا طاركم معكم) أي : شوؤمكم معكم بكفركم ، لا بنا (أن) (ذكرتم) قرأ ابن كثير : « أين ذكرتم » بهمزة واحدة بعدها ياء ؛ وافقه أبو عمرو ، إلا أنه كان يمد . قال الأخفش : معناه : حيث ذكرتم ، أي : وعظمت وخوفتم ، وهذا استفهام جوابه محذوف ، تقديره : أن ذكرتم تطيرتم بنا ؛ أو قيل : أن ذكرتم قلتم هذا القول ؛ والمسرِفون هاهنا : المشركون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَفْهِمُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَالِيَ لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَاذَاهُمْ خَامِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) واسمه حبيب النجار ، وكان مجذوماً ، وكان قد آمن بالرسول لما وردوا القرية ، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب القرية ، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرسول وهما يقتلهم ، جاء يسعى ، فقال ما قصه الله علينا إلى قوله : (وهم مهتدون) يعني

الرُّسُل ، فَأَخَذُوهُ وَرَفَعُوهُ إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَفَأَنْتَ تَتَّبِعُهُمْ ؟ فَقَالَ :
(وَمَالِي) أَسْكُنُ هَذِهِ الْيَاءَ حِمْزَةً ، وَخَلْفَ ، وَيَمَقُوبَ (لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي)
أَي : وَأَيُّ شَيْءٍ لِي إِذَا لَمْ أَعْبُدْ خَالِقِي (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) عِنْدَ الْبَعْثِ ،
فَيَجْزِيكُمْ بِكُفْرِكُمْ ؟ !

فَان قِيلَ : لِمَ أَضَافَ الْفِطْرَةَ إِلَى نَفْسِهِ وَالْبَعْثَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
قَدْ فَطَرَهُمْ جَمِيعًا كَمَا يَبْتَلِيهِمْ جَمِيعًا ؟

فَالْجَوَابُ : أَنَّ إِيجَادَ اللَّهِ تَعَالَى نِعْمَةً يُوْجِبُ الشُّكْرَ ، وَالْبَعْثُ فِي الْقِيَامَةِ
وَعِيدٌ يُوْجِبُ الزَّجْرَ ، فَكَانَتْ إِضَافَةُ النِّعْمَةِ إِلَى نَفْسِهِ أَظْهَرَ فِي الشُّكْرِ ، وَإِضَافَةُ
الْبَعْثِ إِلَى الْكَافِرِ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ .

ثُمَّ أَنْكَرَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ بِقَوْلِهِ : (أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا تُشْنِ عَنِّي شِفَاعَتَهُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ لَا شِفَاعَةَ لَهُمْ فَتُنْفِي ،
(وَلَا يُنْفِذُونَ) أَثَبْتُ هَاهُنَا الْيَاءَ فِي الْحَالِينَ يَمَقُوبَ ، وَوَرَشَ ، وَالْمَعْنَى : لَا يُخْلَصُّونِي
مِنْ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ . (وَإِنِّي إِذَا) فَتَحَ هَذِهِ الْيَاءَ نَافِعَ ، وَأَبُو عَمْرٍو .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ) فَتَحَ هَذِهِ الْيَاءَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَبُو عَمْرٍو .

وَفِيمَنْ خَاطَبَهُمْ بِإِعْمَانِهِ قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ خَاطَبَ قَوْمَهُ بِذَلِكَ ، قَالَه

ابْنُ مَسْعُودٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ خَاطَبَ الرُّسُلَ .

وَمَعْنَى (فَاسْتَمْعُونِ) : اشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ ، قَالَه الْفَرَّاءُ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

الْمَعْنَى : فَاسْتَمْعُوا مِنِّي . وَأَثَبْتُ يَاءَ « فَاسْتَمْعُونِي » فِي الْحَالِينَ يَمَقُوبَ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ :
لَمَّا خَاطَبَ قَوْمَهُ بِذَلِكَ ، وَطَوَّاهُ بِأَرْجُلِهِمْ . وَقَالَ السَّيِّدِي : رَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ
يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) لَمَّا قَتَلُوهُ فَاتَّقَى اللَّهَ ، قِيلَ لَهُ : « ادْخُلِ الْجَنَّةَ » ،

فَلَمَّا دَخَلَهَا (قَالَ يَا بَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي) ، وَفِي « مَا » قَوْلَان .

أحدهما : أنها مع « غَفَرَ » في موضع مصدر ؛ والمعنى : بغفران الله لي .

والثاني : أنها بمعنى « الذي » ، فالمعنى : ليتهم يعلمون بالذي غَفَرَ لِي [به]

رَبِّي فَيُؤْمِنُونَ ، فنصحهم حياتاً وميتاً .

فَلَمَّا قَتَلُوهُ عَجَّلَ اللَّهُ لَهُمُ الْعَذَابَ ، فذلك قوله : (وَمَا أُنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ)

يعني قوم حبيب (مِنْ بَعْدِهِ) أي : مِنْ بَعْدِ قَتْلِهِ (مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ)

يعني الملائكة ، أي : لم ينتصر منهم بجند من السماء (وَمَا كُنَّا) نُنْزِلُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ

إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ . وقيل : المعنى : ما بعثنا إليهم بعده نبيّاً ، ولا أنزلنا عليهم رسالة .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) قَالَ الْمَفْسِرُونَ : أَخَذَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بَعْضُهَا نَتْنِي بَابِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ، فَذَا هُمْ مَيِّتُونَ لَا يُسْمَعُ لَهُمْ

حِسٌّ ، كَالْتَّسَارِ إِذَا طُفِئَتْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (فَذَا هُمْ خَامِدُونَ) أي : سَاكِنُونَ

كَهَيَاةِ الرَّمَادِ الْخَامِدِ (١)

﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ

إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلُّ لُكَّا جَمِيعٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . وَآيَةٌ

لَهُمْ الْأَرْضُ الْمِينَةُ أَخْبَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَهِنًا يَأْكُلُونَ .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ .

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ

الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : وَقَوْلُهُ : (فَذَا هُمْ خَامِدُونَ) : فَذَا هُمْ هَالِكُونَ .

قوله تعالى : (يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ) قال الفراء : المعنى : يا لها حسرة على العباد . وقال الزجاج : الحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له حتى يبقى قلبه حسيراً . وفي التحبير على العباد قولان .

أحدهما : أنهم يتحسرون على أنفسهم ، قال مجاهد والزجاج : استهزأهم بالرسول كان حسرة عليهم في الآخرة . وقال أبو العالية : لما عابنوا المذاب ، قالوا : يا حسرتنا على المرسلين ، كيف لنا بهم الآن حتى نؤمن .

والثاني : أنه تحسر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرسول ، قاله الضحاك .

ثم خوف كُفَّار مكَّة فقال : (أَلَمْ يَرَوْا) أي : ألم يعلموا (كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) فيمتبروا ويخافوا أن ننجِّل لهم الهلاك كما عجل لمن أهلك قبلهم ولم يرجعوا إلى الدنيا . قال الفراء : وألف (أنهم) مفتوحة ، لأن المعنى : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وقد كسرهما الحسن ، كأنه لم يوقع الرؤية على « كم » ، فلم يوقعها على « أن » ، وإن استأنفتها كسرناها .

قوله تعالى : (وَإِنْ كُلُّ لَمَّا) وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة : « كَمَا » بالتشديد ، (جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) أي : إن الأمم يُحضرون يوم القيامة ، فيجازون بأعمالهم ^(١) . قال الزجاج : من قرأ « كَمَا » بالتخفيف ، فـ « ما » زائدة مؤكدة ، والمعنى : وَإِنْ كُلُّ لَجَمِيعٌ ، ومعناه : وما كُلُّ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . ومن قرأ « كَمَا » بالتشديد ، فهو بمعنى « إِلَّا » ، تقول : « سَأَلْتُكَ كَمَا فَعَلْتَ » و « إِلَّا فَعَلْتَ » .

(١) قال ابن كثير : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، قال : ومعنى هذا كقوله جل وعلا : (وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ) . اهـ .

(وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ) (وَقَرَأَ نَافِعُ : « الْمَيْتَةُ » بِالْتَشْدِيدِ ، وَهُوَ الْأَصْلُ ، وَالتَّخْفِيفُ أَكْثَرُ ، وَكِلَاهُمَا جَائِزٌ ؛ وَ « آيَةُ » مَرْفُوعَةٌ بِالْإِبْدَاءِ ، وَخَبَرُهَا « لَهِمُ » ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهَا « الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ » ؛ وَالْمَعْنَى : وَعَلَامَةٌ تَدُلُّهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَنَّ اللَّهَ يَنْعَمُ الْمَوْتَى أَحْيَاءُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ .

قوله تعالى : (فَيَنْهَ يَا كُلُّونَ) يعني مَا يُقْتَاتُ مِنَ الْحُبُوبِ .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا فِيهَا) وقوله : (وَفَجَعَلْنَا فِيهَا) يعني فِي الْأَرْضِ .

قوله تعالى : (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) يعني النَّخِيلِ ، وَهُوَ فِي اللَّفْظِ مَذَكَّرٌ .

(وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَنَافِعٌ ، وَأَبُو عَمْرٍو ، وَابْنُ عَاصِمٍ ،

وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ : « عَمِلَتْهُ » بِهَاءٍ . وَقَرَأَ حَمْزَةً ، وَالْكَسَانِيُّ ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ

عَاصِمٍ : « عَمِلَتْ » بِغَيْرِ هَاءٍ . وَالْهَاءُ مُثَبَّتَةٌ فِي مَصَاحِفِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ

وَالْبَصْرَةِ ، وَمُحَذَّوْفَةٌ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْكُوفَةِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : مَوْضِعُ « مَا » خَفِضَ ؛

وَالْمَعْنَى : لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ « مَا » نَفِيًّا ؛

الْمَعْنَى : وَلَمْ تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ ، وَهَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ أَثَبَتَ الْهَاءَ ، فَإِذَا حُذِفَتِ الْهَاءُ ،

فَالِاخْتِيَارُ أَنْ تَكُونَ « مَا » فِي مَوْضِعِ خَفِضٍ ، وَتَكُونَ بِمَعْنَى « الَّذِي » ، فَيَحْسُنُ

حَذْفُ الْهَاءِ ؛ وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْقَوْلَيْنِ ، فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ ، قَالَ : لِيَأْكُلُوا

مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَهُوَ الْفُرُوسُ وَالْحُرُوثُ الَّتِي تَعْبُوا فِيهَا ، وَمَنْ قَالَ بِالثَّانِي ،

قَالَ : لِيَأْكُلُوا مَا لَيْسَ مِنْ صُنْعِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ فِعْلِ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ (أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

اللَّهُ تَعَالَى فَيُوحِدُهُ . !

ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا) يَعْنِي

الْأَجْنَاسَ كُلَّهَا (مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ) مِنَ الْفَوَاصِكِ وَالْحُبُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

(وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) وهم الذكور والإناث (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) من دواب البر والبحر وغير ذلك مما لم يَقِفُوا على علمه .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ .
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .
وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ
يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) أي : وعلامة لهم تبدل على توحيدنا وقد رتبنا الليل نسلخ منه النهار ؛ قال الفراء : نري بالنهار عنه ، و « منه » بمعنى « عنه » . وقال أبو عبيدة : نُخْرِجُ مِنْهُ النَّهَارَ وَنَعْمِيزُهُ مِنْهُ فَتَجِي الظُّلْمَةُ ، قال الماوردي : وذلك أَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ يَتَدَاخَلُ فِي الْهَوَاءِ فَيُضِي ، فإذا خرج منه أظلم . وقوله : (فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) أي : داخلون في الظلام . (وَالشَّمْسُ) أي : وَآيَةٌ لَهُمُ الشَّمْسُ (تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : إلى موضع قرارها ؛ روى أبو ذر قال : سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله : « لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال : « مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ » ، وقال : « إِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَي رَبِّهَا ، فَتَسْأَلُ فِي الطَّلُوعِ ، فَيُؤْذَنُ لَهَا » ^(١) .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » : ٢١٤/٦ و ٤١٦/٨ و ٣٥٠/١٣ ، ومسلم : ١٣٩/١ ،
والترمذي : ١٥٥/٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأورده السيوطي في « الدرر » : ٢٦٣/٥ —
زاد المسير ٧ م (٢)

— وزاد نسبه لبيد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في « المظنة » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي ذر رضي الله عنه .
قال ابن كثير : في معنى قوله تعالى : « استقر لها » قولان ، أحدهما : أن المراد مستقرها السكاني ، وهو تحت العرش بما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي جميع المخلوقات ، لأنه سقها ، والقول الثاني : أن المراد مستقرها ، هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكفور وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزماني .

وقال الامام النووي في « شرح مسلم » ١٩٥/٢ : وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر في الشمس : « مستقرها تحت العرش فتحرّ ساجدة » : فهذا ما اختلف المفسرون فيه ، فقال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدي : وعلى هذا القول ، إذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع من مغربها ، وقال قتادة ومقاتل : معناه : تجري إلى وقت لها وأجل لاتمهدها ، قال الواحدي : وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ، وهذا اختيار الزجاج ، وقال الكلبي : تسير في منازلها حتى تنتهي إلى آخر مستقرها الذي لا يتجاوز ثم ترجع إلى أول منازلها ، واختار ابن قتيبة هذا القول ، والله أعلم .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش : أنها تستقر تحته استقراراً لا تحيط به نحن ، ويحتمل أن يكون المعنى : أو علم ما سألت عنه من مستقرها تحت العرش في كتاب فيه ابتداء أمور العالم ونهايته ، فينقطع دوران الشمس وتستقر عند ذلك ويبطل فعلها ، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يفيق عن دورانها في سيرها . قلت (أي الحافظ ابن حجر) : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار : وقوعه في كل يوم ليلة عند سجودها ، ومقابل الاستقرار السير الدائم المعبر عنه بالجري ، والله أعلم .

قال الامام النووي في « شرح مسلم » : وأما سجود الشمس ، فهو بتمييز وإدراك بخلق الله تعالى فيها . وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قال ابن العربي : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم ، قال ابن حجر : ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة ، أو تسجد بصورة الحال ، —

والثاني : أن « مُسْتَقَرَّهَا مَغْرِبُهَا لَا تَجَاوِزُهُ وَلَا تَقْصُرُ عَنْهُ » ، قاله مجاهد .
والثالث : لوقت واحدٍ لا نعدُّوه ، قاله قتادة . وقال مقاتل : لوقت لها
إلى يوم القيامة .

والرابع : تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مُسْتَقَرَّهَا الذي لا تجاوزُهُ ، ثم
ترجع إلى أوَّل منازلها ، قاله ابن السائب . وقال ابن قتيبة : إلى مُسْتَقَرِّ
لها ، ومُسْتَقَرَّهَا : أقصى منازلها في الغروب ، [وذلك] لأنها لا تزال تتقدَّم إلى
أقصى مغاربها ، ثم ترجع .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وعلي بن الحسين ، والشيزري ^(١) عن
الكسائي : « لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا » والمعنى أنها تجري أبداً ، لا تثبت في مكان واحد .
قوله تعالى : (ذَلِكَ) الذي ذُكِرَ من أمر الليل والنهار والشمس (تقديرُ
الجزير) في مُلْكِهِ (العليم) بما يقدر .

قوله تعالى : (وَالْقَمَرَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وَالْقَمَرُ »
بالرفع . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « وَالْقَمَرَ » بالنصب .
قال الزجاج : من قرأ بالنصب . فالمعنى : وقدَّرْنَا القمر قدَّرناه منازل ، ومن قرأ
بالرفع ، فالمعنى : وآيةٌ لهم القمرُ قدَّرناه ، ويجوز أن يكون على الابتداء ،

— فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك الحين . وقال ابن حجر : قال ابن بطال :
استئذان الشمس معناه أن يخلق فيها حياة يوجب القول عندها ، لأن الله قادر على إحياء الجاد
واللوات ، قال : وقال غيره : يحتمل أن يكون الاستئذان أسند إليها مجازاً ، والمراد من هو
موكل بها من الملائكة . اهـ .

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي ، قال ابن الجزري
في « طبقات القراء » : أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي ، وله عنه افرادات .

و « قَدَرْنَاهُ » الخبر ^(١) .

قال المفسرون : ومنازلُ القمر ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها من أوّل الشهر إلى آخره ، وقد سمّيناها في سورة (يونس : ٥) ، فاذا صار إلى آخر منازلها ، دَقَّ فسادُ كالعرجون ، وهو عود المِذْق الذي تركته الشماريح ^(٢) ، فاذا جفَّ وقَدُمُ يُشبه الهلال . قال ابن قتيبة : و « القديم » هاهنا : الذي قد أتى عليه حَوْلٌ ، شَبَّهَ القمرُ آخرَ ليلةٍ يطلُّعُ به . قال الزجاج : وتقدير « عرجون » : فُعِلُون ، من الانعراج .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن السمين : « كالعِرْجُون » ، بكسر العين .

قوله تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : أنهما إذا اجتمعا في السماء ، كان أحدهما بين يدي الآخر ، فلا يشتركان في المنازل ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا يُشَبِّهُ ضوءُ أحدهما ضوءَ الآخر ، قاله مجاهد .
والثالث : لا يجتمع ضوءُ أحدهما مع الآخر ، فاذا جاء سلطانُ أحدهما ذهب سلطان الآخر ، قاله قتادة ؛ فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء ، لم يُعرف الليل .

قوله تعالى : (ولا الليلُ سابقُ النَّهارِ) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ،

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أنها قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى ، فبأيها قرأ القاريء فمصيب .

(٢) الشماريح : الشب التي على المِذْق ، واحدها شمراخ وشمروخ ، وكل غصن له شب فهي شماريح ، والشمراخ : الذي عليه بسر وأصله في المِذْق .

وأبو عمران ، وعاصم الجحدري : « سابق » بالتنوين « النهار » بالنصب ، وفيه قولان .

أحدهما : لا يتقدم الليل قبل استكمال النهار .

والثاني : لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بينهما . وباقي الآية مفسر

في سورة (الانبياء : ٣٣) .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) قرأ نافع ، وابن عامر :

« ذُرِّيَّتِهِمْ » على الجمع ؛ وقرأ الباقون من السبعة : « ذُرِّيَّتَهُم » على التوحيد . قال المفسرون : أراد : في سفينة نوح ، فنسب الذرية إلى المخاطبين ، لأنهم من جنسهم ، كأنه قال : ذرية الناس . وقال الفراء : أي : ذرية من هو منهم ، فجعلها ذرية لهم ، وقد سبقتهم . وقال غيره : هو حمل الأنبياء في أصلاب الآباء حين ركبوا السفينة ، ومنه قول العباس :

بَلْ نُطْفِئُ نَرَّ كَبِّ السُّفِينِ وَقَدْ أُلْجِمَ نَسْرًا وَأَهْلُهُ الْفَرَقُ^(١) قال المفضل بن سلمة : الذرية : النسل ، لأنهم من ذراع الله منهم ، والذرية

(١) البيت للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ في شعر يمدح به رسول الله ﷺ ، وهو في « اللسان » و « الناج » : نسر . قال ابن الأثير : يريد (أي بالنسر) الصم الذي كان يسمه قوم نوح ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

أيضاً : الآباء ، لأن الذرّ وقع منهم ، فهو من الأضداد ، ومنه هذه الآية ، وقد شرحنا هذا في قوله : (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) [آل عمران : ٣٤] ؛ والمشحون : المملوء .

قوله تعالى : (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ) فيه قولان .

أحدهما : مثل سفينة نوح ، وهي السفن ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، والمراد بهذا ذكر مِثْلِهِ بأن خَلَقَ الخشب الذي تُعْمَلُ منه السفن .

والثاني : أنها الإبل ، خَلَقَهَا لهم الرُّكُوب في البرِّ مثل السفن المركوبة في البحر ، رواه الموفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وعن الحسن وقتادة كالقولين ^(١) .

قوله تعالى : (فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) أي : لا مُنِيتَ ولا بُجِيرَ (وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ) أي : ينجون من الغرق ، يقال : أنقذه واستنقذه : إذا خلاصه من المكروه ، (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا) المعنى : إلا أن نرحمهم وننقذهم إلى آجالهم .
قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) يعني الكُفَّار (اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) فيه أربعة أقوال .

أحدها : « ما بين أيديكم » : ماضى من الذنوب ، « وما خلفكم » : ما يأتي من الذنوب ، قاله مجاهد .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال : عني بذلك السفن ، وذلك لدلالة قوله : (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) على أن ذلك كذلك ، وذلك أن الغرق معلوم أنه لا يكون إلا في الماء ، ولا غرق في البر . اهـ . وقال ابن كثير : ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله جل وعلا : (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ، لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ تَذَكْرًا وَسَيَرَبَّاهُ) . اهـ .

والثاني : [« ما بين أيديكم »] ^(١) ماتقدم من عذاب الله الأليم ، « وما خلفكم » من أمر الساعة ، قاله قتادة .

والثالث : « ما بين أيديكم » من الدنيا ، « وما خلفكم » من عذاب الآخرة . قاله سفيان .

والرابع : « ما بين أيديكم » من أمر الآخرة ، « وما خلفكم » من أمر الدنيا فلا تختاروا بها ، قاله ابن عباس والكلبي .

(لعلمكم ترحمون) أي : لتكونوا على رجاء الرحمة من الله . وجواب « إذا » مخوف ، تقديره : إذا قيل لهم هذا ، أعرضوا ؛ ويدل على هذا المخوف قوله : (وما تأتئهم من آية) أي : من دلالة تدل على صدق الرسول .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كُنَّا نَمُنُّ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . قَالِ الْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ وَلَا تَكْنُتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ . لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ . سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾

(١) زيادة ليست في الأصل .

قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .
 أحدها : في اليهود ، قاله الحسن . والثاني : في الزنادقة ، قاله قتادة . والثالث :
 في مشركي قريش ، قاله مقاتل ؛ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة : أنفقوا على
 المساكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام ، فقالوا : (أَنْطِمْ مِنْ
 لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) . وقال ابن السائب : كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين ،
 قال : اذهب إلى ربك فهو أولى بك مني ، ويقول : قد منعه الله ، أطعمه أنا ؛^(١)
 ومعنى الكلام أنهم قالوا : لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم ، فنحن نوافق مشيئة الله
 فيهم فلا نطعمهم ؛ وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر
 بعضاً ، ليلو الغني بالفقر فيما فرض له في ماله من الزكاة ، والمؤمن لا يعترض
 على المشيئة ، وإنما يوافق الأمر . وقيل : إنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء .
 وفي قوله : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) قولان . أحدهما : أنه من قول
 الكفار للمؤمنين ، يعنون : إنكم في خطأ من اتباع محمد . والثاني : أنه من قول الله
 للكفار لما ردّوه من جواب المؤمنين .

قوله تعالى : (متى هذا الوعد ؟) يعنون القيامة ؛ والمعنى : متى إنجاز هذا
 الوعد (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ؟ يعنون محمداً وأصحابه .

(مَا يَنْظُرُونَ) أي : ما ينتظرون (إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً) وهي النفخة
 الأولى . و (يَخْصِمُونَ) بمعنى يختصمون ، فأدغمت التاء في الصاد . قرأ
 ابن كثير ، وأبو عمرو : « يَخْصِمُونَ » بفتح الياء وإخفاء وتشديد الصاد . وروي
 عن أبي عمرو اختلاس حركة الخاء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، والكسائي :

(١) ذكر هذا المعنى الخازن في تفسيره ، ولم ينسبه لابن السائب ولا غيره ، بل قال :
 قيل : كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين . . . الخ ، والله أعلم . قال الآوسي : وظاهر ما تقدم
 يقتضي أنها نزلت في كفار مكة أمروا بالانفاق بما رزقهم الله تعالى ، وهو عام في الاطعام وغيره ،
 فأجابوا بني الاطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به ، دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى . اهـ .

« يَخْصِمُونَ » بفتح الياء وكسر الخاء . وعن حاصم كسر الياء والخاء . وقرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد . وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد ، أي : يَخْصِمُ بعضهم بعضاً . وقرأ أبي بن كعب : « يَخْصِمُونَ » بزيادة تاء ؛ والمعنى أن الساعة تأتيهم أغفل ما كانوا عنها وهم متشاغلون في متصرفاتهم ويهمهم وشرائهم ، (فلا يستطيعون توصية) قال مقاتل : أعجلوا عن الوصية فاتوا ، (ولا إلى أهلهم يَرْجِعُونَ) أي : لا يعودون من الأسواق إلى منازلهم ؛ فهذا وصف ما يَلْقَوْنَ في النفخة الأولى . ثم ذكر ما يَلْقَوْنَ في النفخة الثانية فقال : (وَتُفْسَخُ فِي الصُّورِ) فإذا هم من الأجداث (يعني القبور) (إلى ربهم يَنْدَسِلُونَ) أي : يخرجون بسرعة ^(١) ، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة (الأنبياء : ٩٦) . (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) ^(٢) وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، والضحاك ، وحاصم الجحدري : « مِنْ بَعَثَنَا » بكسر الميم والثاء وسكون الميم . قال المفسرون : إنما قالوا هذا ، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين . قال أبي بن كعب : ينامون نومة قبل البعث ، فإذا بُعِثُوا قالوا هذا .

(١) روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أُبَيِّتُ ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أُبَيِّتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أُبَيِّتُ ، « ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبثون كما ينبت البقل » قال : « وليس من الإنسان شيء إلا يبل ، إلا عظاماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، ومعنى قول أبي هريرة : « أُبَيِّتُ » : امتنعت عن الجواب لأنني لأدري ما هو الصواب . و « عجب الذنب » هو العظم الذي في أسفل الصلب ، وهو رأس المصمصة ، ويقال له : « عجم » بالميم ، وهو أول ما يخلق من آدمي ، وهو الذي يبقى من الإنسان ليماد تركيب الخلق عليه .

(٢) قال ابن كثير : يبنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) قال : وهذا لا يفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . اهـ .

قوله تعالى : (هذا ما وعد الرحمن) في قائل هذا الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قول المؤمنين ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن أبي ليلى . قال قتادة : أول الآية للكافرين ، وآخرها للمؤمنين .

والثاني : أنه قول الملائكة لهم ، قاله الحسن .

والثالث : أنه قول الكافرين ، يقول بعضهم لبعض : هذا الذي أخبرنا به المرسلون أننا نُبعث ونجازى ، قاله ابن زيد ^(١) .

قال الزجاج : « من مرقدنا » هو وقف التمام ، ويجوز أن يكون « هذا »

من نمت « مرقدنا » على معنى : مَنْ بَشَنَّا مِنْ مرقدنا هذا الذي كنّا راقدين فيه ؛ ويكون في قوله : « ما وعد الرحمن » أحد إضمارين ، إما « هذا » ، وإما « حق » ، فيكون المعنى : حق ما وعد الرحمن ^(٢) .

(١) قال ابن جرير الطبري : والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل ، وهو أن يكون من كلام المؤمنين ، لأن الكفار في قيلهم : (من يمشنا من مرقدنا هذا) دليل على أنهم كانوا ممن بَشَنَّا مِنْ مرقدنا جهلاً ، ولذلك من جهلهم استنبطوا ، ومحال أن يكونوا استنبطوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك . اهـ . قال ابن كثير : وهذا أصح ، وذلك كقوله تبارك وتعالى في (الصافات) : (وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) وقال الله عز وجل : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والايان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تفلحون) . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وفي قوله : « هذا » وجهان ، أحدهما : أن تكون إشارة إلى « ما » ويكون ذلك كلاماً مبتدئاً بعد تنافي الخبر الأول بقوله : « مَنْ بَشَنَّا مِنْ مرقدنا ؟ » فتكون « ما » حينئذ مرفوعة بـ « هذا » ، ويكون معنى الكلام : هذا وعند الرحمن ، وصدق المرسلون ؛ والوجه الآخر : أن تكون من صفة المرقد ، وتكون خفضاً رداً على المرقد ، وعند تمام الخبر الأول ؛ فيكون معنى الكلام : مَنْ بَشَنَّا مِنْ مرقدنا هذا ؟ ثم يتبدأ الكلام —

ثم ذكر النفخة الثانية ، فقال : (إن كانت إلا صيحة واحدة) ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (إن أصحاب الجنة اليوم) يعني في الآخرة (في سُغُلٍ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « في سُغُلٍ » باسكان النين . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزرة ، والكسائي : « في سُغُلٍ » بضم الشين والنين . وقرأ أبو هريرة ، وأبو رجاء ، وأيوب السخيتاني : « في سُغُلٍ » بفتح الشين والنين . وقرأ أبو جملز ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والضحاك ، والنخعي ، وابن يعمر ، والجحدري : « في سُغُلٍ » بفتح الشين وسكون النين ^(١) ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن شغلهم اقتضاض المذاوى ، رواه شقيق عن ابن مسعود ، ومجاهد عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن المسيب ، وقتادة ، والضحاك .
والثاني : ضرب الأوتار ، رواه عكرمة عن ابن عباس ^(٢) ؛ وعن عكرمة كالقولين ، ولا يثبت هذا القول .

والثالث : النعمة ، قاله مجاهد . وقال الحسن : شغلهم : نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب .

— فيقال : ما وعد الرحمن ، بمعنى : بشئكم وعند الرحمن ، فتكون « ما » حينئذ رفعا على هذا المعنى . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب في ذلك عندي قراءته بضم الشين والنين ، أو بضم الشين وسكون النين ، بأي ذلك قرأه القارئ فهو مصيب ، لأن ذلك هو القراءة المعروفة في قراء الأمصار مع تقارب معنيها ، قال : وأما قراءته بفتح الشين والنين ، فغير جائزة عندي ، لاجتماع الحجة من القراء على خلافها . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه : (في سُغُلٍ فاكهون) أي : بهام الأوتار ، قال : وقال أبو حاتم : لعله غلط من السمع ، وإنما هو اقتضاض الأبكار . اهـ . والاقتضاض والاقتضاض بمعنى واحد .

قوله تعالى : (فَاكِهُونَ) وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ،
وأبو المتوكل ، وقتادة ، وأبو الجوزاء ، والنخعي ، وأبو جعفر : « فَاكِهُونَ » .
وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .
أحدهما : أن بينهما فرقا .

فأما « فَاكِهُونَ » ففيه أربعة أقوال . أحدها : فَرِحُونَ ، قاله ابن عباس .
والثاني : مُعْجِبُونَ ، قاله الحسن ، وقتادة . والثالث : نَاعِمُونَ ، قاله أبو مالك ،
ومقاتل . والرابع : ذَوُو فَاكِهَةٍ ، كما يقال : فلان لابن تَامِرٍ ، قاله أبو عبيدة ،
وابن قتيبة .

وأما « فَاكِهُونَ » ففيه قولان . أحدهما : أن الفَاكِهَةَ : الذي يتفكّه ،
تقول العرب الرجل إذا كان يتفكّه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس : إن
فلانا لفَاكِهٌ بكذا ، ومنه يقال المُرْاح : مُفَاكِهَةٌ ، قاله أبو عبيدة . والثاني : أن
فَاكِهِينَ بمعنى فَرِحِينَ ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أن فَاكِهِينَ وفَاكِهِينَ بمعنى واحد ، كما يقال : حاذِرٌ وحَذِرٌ ،
قاله الفراء . وقال الزجاج : فَاكِهُونَ وفَاكِهُونَ بمعنى فَرِحِينَ . وقال أبو زيد :
الفَاكِهَةُ : الطَّيِّبُ النَّفْسِ الضَّحُوكُ ، يقال : رجل فَاكِهٍ وفَاكِهٌ ^(١) .

قوله تعالى : (م وَأَرْوَاهُمْ) يعني حلائلهم (في ظِلِّال) وقرأ حمزة ، والكسائي ،
وخلف : « في ظُلِّلٍ » . قال الفراء : الظِّلَال جمع ظِلٍّ ، والظُّلِّل جمع ظُلَّةٍ ،
وقد تكون الظِّلَال جمع ظُلَّةٍ أيضاً ، كما يقال : خُلَّةٌ وخُلِّلٌ ؛ فإذا
كثرت فهي الخِلَال والحِلَال والْقِلَال . قال مقاتل : والظِّلَال : أكنان القصور .

(١) قال ابن جرير : والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ بالألف (فَاكِهُونَ) ،
لأن ذلك هو القراءة المروفة : اه .

قال أبو عبيدة : والمعنى أنهم لا يَضْحَوْنَ . فأما الأرائك ، فقد يَتَنَاهَا في سورة (الكهف : ٣١) .

قوله تعالى : (ولهم ما يدعون) قال ابن قتيبة : ما يَتَمَنَوْنَ ، ومنه يقول الناس : هو في خيرٍ ما ادعى ، أي : ما تَمَنَّى ، والعرب تقول : ادع ما شئت ، أي : تَمَنَّ ما شئت . وقال الزجاج : هو مأخوذ من الدعاء ؛ والمعنى : كل ما يدعو به أهل الجنة بأنهم . وقوله : (سلام) بدل من « ما » ؛ المعنى : لهم ما يتمنون سلام ، أي : هذا مَنَى أهل الجنة أن يُسَلِّمَ اللهُ عليهم ^(١) . و (قولاً) منصوب على معنى : سلامٌ يقوله اللهُ قولاً . قال أبو عبيدة : « سلامٌ » رفع على « لهم » ؛ فالمعنى : لهم فيها فاكهة ولهم فيها سلام . وقال الفراء : معنى الكلام : لهم ما يدعون مسلِّم خالص ، ونصب القول ، كأنك قلت : قاله قولاً ، وإن شئت جعلته نصباً من قوله : ولهم ما يدعون قولاً ، كقولك : عِدَّة من الله . وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، والجدري : « سلاماً قولاً » بنصبها جميعاً .

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعِهْدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ . اهْذِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . وَإِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى بالصواب على ما جاء به الخبر عن محمد بن كعب القرظي أن يكون (سلام) خبراً لقوله : (ولهم ما يدعون) فيكون معنى ذلك : ولهم فيها ما يدعون ، وذلك هو سلام من الله عليهم . اهـ .

قوله تعالى : (وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمون) قال ابن قتيبة : أي : انقطعوا عن المؤمنين وتميّزوا منهم ، يقال : ميزت الشيء من الشيء : إذا عزلته عنه ، فامتاز وامتاز ، وميّزته فتميَّز .

قال المفسرون : إذا اختلط الإنس والجن في الآخرة ، قيل : « وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون » ، فيقال للمجرمين : (ألم أعهد إليكم ؟) أي : ألم آمركم ، ألم أوصيكم ، و « تعبدوا » بمعنى « تطيعوا » ، والشيطان هو إبليس ، زين لهم الشريك فأطاعوه ، (إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ) ظاهر العداوة ، أخرج أبويعمير عن الجنة .

(وأنِ اعبدوني) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي : « وأنِ اعبدوني » بضم النون . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمة : « وأنِ اعبدوني » بكسر النون ؛ والمعنى : وحيّدوني (هذا صراطٌ مستقيمٌ) يعني التوحيد .

(ولقد أضلّ منكم جبلاً) قرأ ابن كثير ، وحمة ، والكسائي ، وخلف : « جُبلاً » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : « جُبلاً » بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام . وقرأ نافع ، وعاصم : « جِبِلّاً » بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام . وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والزهري ، والأعمش : « جُبِلّاً » بضم الجيم والباء مع تشديد اللام . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن السميع : « جِبِلّاً » بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام . وقرأ سميد بن جبير ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القاري : « جِبِلّاً » برفع الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو العالية : وابن عمر : « جِبِلّاً » بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو عمران الجوني ، وعمرو بن دينار : « جِبِلّاً » مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف . ومعنى الكلمة كيف تصرفت في هذه اللغات : الخلق والجماعة ؛ فالعنى :

ولقد أضلّ منكم خلقاً كثيراً (أفلم تكونوا تعقلون ؟) ؛ فاللعننى : قد رأيتم آثار
الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان ، أفلم تعلموا ذلك ؟ ! وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ،
وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وابن عمر : « أفلم يكونوا
يعقلون » بالياء فيها ، فاذا أدنوا إلى جهنم قيل لهم : (هذه جهنم التي كنتم
توعدون) بها في الدنيا (اصلوها) أي : قاسوا حرّها .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ
فَأَسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ
مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ . وَمَنْ يَنْمِرْهُ
نُكْثَتُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء :
« يُخْتَمُ » بياء مضمومة وفتح التاء (وتكلمنا) قرأ ابن مسعود : « وَلِتُكَلِّمُنَا »
بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام . وقرأ أبي بن كعب ، وابن أبي عجلة :
« لَتُكَلِّمُنَا » بلام مكسورة من غير واو قبلها وبنصب الميم ؛ وقرأوا جميعاً :
« وَلِتَشْهَدَ أَرْجُلُهُمْ » بلام مكسورة وبنصب الدال .

ومعنى « نَخْتِمُ » : نطبع عليها ، وقيل : منمها من الكلام هو الختم عليها ،
وفي سبب ذلك أربعة أقوال .

أحدها : أنهم لما قالوا : (والله ربنا ما كنا مشركين) [الأنعام : ٢٣]
ختم الله على أفواههم ونطقت جوارحهم ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثاني : ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي صارت
شهوداً [عليهم] .

والثالث : ليمرّهم أهل الموقف ، فيتميّنوا منهم بذلك .

والرابع : لأن إقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نطق اللسان ، ذكرهنّ الماوردي .

فان قيل : ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة ؟

فالجواب : أن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى ، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل .

قوله تعالى : (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ولو نشاء لأذهبنا أعينهم حتى لا يبدوا لها شق ولا جفن .

والطمس : الذي لا يكون بين جفنيه شق ، (فاستبقوا الصراط) أي :

فتبادروا إلى الطريق (فأنى يبصرون) [أي] : فكيف يبصرون وقد أعينا

أعينهم ؟ ! وقرأ أبو بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو رجاء : « فاستبقوا »

بكسر الباء « فأنى تبصرون » بالناء . وهذا تهديد لأهل مكة ، وهو

قول الأكثرين .

والثاني : ولو نشاء لأضلّلناهم وأعيناهم عن الهدى ، فأنى يبصرون

الحق ؟ ! رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ولو نشاء لفقنا أعين ضلالتهم وأعيناهم عن غيرهم وحوّلنا

أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم ، فأنى يبصرون ولم أفعل ذلك

بهم ؟ ! روي عن جماعة منهم مقاتل .

قوله تعالى : (ولو نشاء لمسخنهم على مكانهم) وروي أبو بكر عن عاصم :

« على مكانهم » ؛ وقد سبق بيان هذا [البقرة : ٦٥] ،

وفي المراد بقوله : « لَمَسَخْنَاهُمْ » أربعة أقوال . أحدها : لأهلكناهم ، قاله ابن عباس . والثاني : لأعمدناهم على أرجلهم ، قاله الحسن ، وقادة . والثالث : لجمناهم حجارة ، قاله أبو صالح ، ومقاتل . والرابع : لجمناهم فردةً وخنازيرَ لأرواح فيها ، قاله ابن السائب .

وفي قوله : (فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) ثلاثة أقوال . أحدها : فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَلَا أَنْ يَتَأَخَّرُوا ، قاله قتادة . والثاني : فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا عَنِ الْمَذَابِ ، وَلَا رَجُوعًا إِلَى الْخَلِيقَةِ الْأُولَى بَعْدَ الْمَسْخِ ، قاله الضحاك . والثالث : مُضِيًّا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا رَجُوعًا إِلَيْهَا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قوله تعالى : (وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ) قرأ حمزة : « نُنَكِّسْهُ » مشددة مع ضم النون الأولى وفتح الثانية ؛ والباقون : بفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد^(١) ؛ وعن عاصم كالقراءتين . ومعنى الكلام : مَنْ نُطِلَّ عَمْرُهُ نُنَكِّسْ خَلْقَهُ ، فنجعل مكان القوة الضعف ، وبديل الشباب الهرم ، فنردُّه إلى أرذل العمر . (أَفَلَا يَعْقِلُونَ) قرأ نافع ، وأبو عمرو : « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » بالياء ، والباقون بالياء . والمعنى : أَفَلَا يَعْقِلُونَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا قَادِرٌ عَلَى الْبَيْتِ ؟

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
قوله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ) قال المفسرون : إِنْ كَفَّارٌ مَكَّةَ قَالُوا : إِنْ

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أنها قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار ، فبأبهما قرأ القاريء فصيب ، غير أن اتى عليها عامة قراء الكوفيين أعجب إليّ ، لأن التنكيس من الله في الخلق إنما هو حال بعد حال ، وشيء بعد شيء ، فذلك تأييد للتشديد . اهـ .

هذا القرآن شِعْرٌ وإنَّ محمداً شاعر ، فقال الله تعالى : « وما علمناه الشعر »
(وما ينبغي له) أي : ما يتسهّل له ذلك . قال المفسرون : ما كان يَتَنَزَّلُ له يَتُّ شِعْر ، حتى إنه روي عنه ﷺ أنه تمثّل يوماً فقال :

« كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا »

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنما قال الشاعر :

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا ^(١)

أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله ، ما علمَكَ اللهُ الشعر ، وما ينبغي لك ^(٢) . ودعا يوماً
عباس بن مرداس فقال : « أنت القائل :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ . . . دِينَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ » ؟ ^(٣)

فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي ، لم يقل كذلك ، فأنشده أبو بكر ، فقال

(١) البيت لسجيم عبد بني الحسحاس ، وهو في ديوانه : ١٦ ، و « مجمع البيان » : ٣٧/٢٣ ،
و « البحر المحيط » : ٣٤٥/٧ ، و « القرطبي » : ٥٢/١٥ ، و « اللسان » : نهى ، وهو بتمامه :

مُعْمِرَةٌ وَدَعُ إِذَا تَجَهَّزْتَ غَدَابًا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ الْمَرْءَ نَاهِيًا

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في « التفسير » من رواية ابن أبي حاتم عن حماد بن سلمة
عن علي بن زيد عن الحسن البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت
« كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله « كفى
الشيب والإسلام للمرء ناهياً » قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما : أشهد أنك رسول الله ،
يقول تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) . اهـ . وهذا الحديث مرسل ، وفي سنده
علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف . والحديث ذكره السيوطي في « الدرر » : ٢٦٨/٥ من رواية
ابن أبي حاتم ، وزاد نسبه لابن سعد ، والمرزباني في « مجمع الشعراء » عن الحسن
رضي الله عنه مرسلًا أن النبي ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت .

(٣) البيت لعباس بن مرداس ، وهو في « البحر المحيط » : ٣٤٥/٧ ، و « القرطبي » :

٥٢/١٥ ، و « روح المعاني » : ٢٣/٢٥ ، و « اللسان » و « التاج » : نهب ، وصوابه موزونًا :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ . . . دِينَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ؟

رسول الله ﷺ : « لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهَا بَدَأَتْ » ، فقال أبو بكر : والله ما أنت بشاعر ، ولا ينبغي لك الشعر ^(١) . وتمثل يوماً ، فقال :

« وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْهُ بِالْأَخْبَارِ » ^(٢)

فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال : « إِنِّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ ، وَلَا يَنْبَغِي لِي » ^(٣) . وإنما مُنِعَ من قول الشعر ، لئلا تدخل الشبهة على قوم فيما أتى به من القرآن فيقولون : قوي على ذلك بما في طبعه من الفطنة للشعر .

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » من رواية البيهقي في « الدلائل » ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٦٨/٥ من رواية ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال للعباس بن مرداس : « أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ » : « أَصْبَحَ نَهْيٍ وَنَهْيُ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةٍ » . . . الخ ، وفيه انقطاع ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، ويقال له : عبد الله بن ذكوان المدني ، صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد كما قال الحافظ بن حجر في « التقريب » .

(٢) البيت لطرفة بن العبد البكري ، وهو في « مختار الشعر الجاهلي » : ٣٢٣/١ ، و « مجمع البيان » : ٤٥/٢٣ ، و « البحر المحيط » : ٣٤٥/٧ ، و « القرطبي » : ٢١/١٥ ، ونصه بتمامه :

سَتُبْنِدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » من حديث هشيم عن منيرة عن الشعبي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخمر تمثل فيه بيت طرفة « وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ » ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٦٨/٥ من رواية ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها بهذا اللفظ . قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائي في « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها ، قال : ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شريح ابن هاني عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها كذلك ، ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . اهـ . والحديث رواه الطبري في « التفسير » : ٢٧/٢٣ ، من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجمل آخره أوله ، وأوله آخره ، فقال له أبو بكر : إنه ليس هكذا ، فقال بني الله : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ —

— ولا ينبغي لي « وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٦٨/٥ بهذا اللفظ عن عائشة وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأورده أيضاً من رواية ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنها قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » . اهـ .

قال ابن كثير : وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم ، فانهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لا همّ لولا أنت ما اعتدنا ولا تصدقنا ولا صليتنا
فأترن سكينة علينا وتبث الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا

ويرفع صوته ﷺ بقوله : « أينا » ويعدها . . . قال : وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في محور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد اليه ، قال : وكذلك ما ثبت في « الصحيحين » عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فكتبت أصبعه ، فقال ﷺ :

هـل أنت إلا أصبعٌ دميت وفي سبيل الله ما لقيت

قال ابن كثير : وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جملة كفار قريش ، ولا كهنة ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال ، قال : وقد كانت سجيته ﷺ نأى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً . ثم قال ابن كثير : على أن الشعر فيه ماهو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتماطه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين ، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ثم قال : وقد روى أبو داود ، من حديث أبي بن كعب ، وبريدة بن الحصيب ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حيكماً » . اهـ .

قوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ) يعني القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ) إلا موعظة (وقرآنٌ مُبِينٌ) فيه الفرائض والسنن [والأحكام] .

قوله تعالى : (لِيُنْذِرَ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي : « لِيُنْذِرَ » بالياء ، يعنون القرآن . وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : « لِيُنْذِرَ » بالثاء ، يعنون النبي ﷺ ، أي : لِيُنْذِرَ بِأَمْرِهِ فِي الْقُرْآنِ . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن السميع : « لِيُنْذِرَ » بياء مرفوعة وفتح الذال والراء جميعاً .

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ حَبِيصًا) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حيّ القلب حيّ البصر ، قاله قتادة .

والثاني : من كان عاقلاً ، قاله الضحاك . قال الزجاج : من كان يعقل ما يخاطب به ، فإن الكافر كالميت في ترك النذير .

والثالث : مهتدياً ، قاله السدي وقال مقاتل : من كان مهتدياً في علم الله .

والرابع : من كان مؤمناً ، قاله يحيى بن سلام ؛ وهذا على المعنى الذي قد سبق في قوله : (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) [فاطر : ١٨] ، ويجوز أن يريد : إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذْذَارُكَ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِي عِلْمِ اللَّهِ .

قوله تعالى : (وَيَحَقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) معناه : يجب . وفي المراد بالقول قولان . أحدهما : أنه العذاب . والثاني : الحجة .

﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ

جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ . فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٢﴾

ثم ذكرهم قدرته فقال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ
أَيْدِينَا أَنْعَامًا) قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون المعنى : مما عملناه بقوتنا وقدرتنا ،
وفي اليد القدرة والقوة على العمل ، فتستعار اليد فتوضع موضعها ، هذا مجاز
للعرب يحتمله هذا الحرف ، والله أعلم بما أراد . وقال غيره : ذكر الأيدي هاهنا
يدل على انفراده بما خلق ، والمعنى : لم يشاركنا أحد في إنشائنا ؛ والواحد مبتا
إذا قال : عملت هذا يدي ، دل ذلك على انفراده بعمله . وقال أبو سليمان الدمشقي :
معنى الآية : مما أوجدناه بقدرتنا وقوتنا ؛ وهذا إجماع أنه لم يرد هاهنا
إلا ما ذكرنا .

قوله تعالى : (فهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) فيه قولان .

أحدهما : ضابطون ، قاله قتادة ، ومقاتل . قال الزجاج : ومثله في الشعر :
أصبحت لأحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا ^(١)
أي : لا أضبط رأس البعير .

والثاني : قادرون عليها بالتسخير لهم ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ) أي : سخرناها ، فهي ذليلة لهم (فنها
رَكُوبُهُمْ) قال ابن قتيبة : الرُّكُوب : ما يركبون ، والحلّوب : ما يحبون .
قال الفراء : ولو قرأ قارئ : « فنها رُكُوبُهُمْ » ، كان وجهاً ، كما تقول : منها
أكلهم وشربهم وركوبهم . وقد قرأ بضم الراء الحسن ، وأبو العالصة ،

(١) البيت للربيع بن منيع الفزاري ، وهو في « البحر المحيط » : ٣٤٧/٧ ، و« روح
الماني » : ٤٧/٢٣ .

والأعشى ، وابن يعمر في آخرين . وقرأ أبي بن كعب ، وعائشة : « رَكُوبَتُهُمْ »
بفتح الراء والباء وزيادة تاء مرفوعة . قال المفسرون : يركبون من الأنعام الإبل ،
ويأكلون النعم ، (ولهم فيها منافع) من الأصواف والأوبار والأشعار والنسل
(ومشارب) [من] ألبانها ، (أفلا يشكرون) رب هذه النعم فيوجدونه ؟ !
ثم ذكر جهلهم فقال : (واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون)
أي : لئمنهم من عذاب الله ؛ ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله : (لا يستطيعون
نصرهم) أي : لا تقدر الأصنام على منعه من أمر الله بـهم (وهم)
يعني الكفار (لهم) يعني الأصنام (جندٌ محضرون) وفيه أربعة أقوال .
أحدها : جندٌ في الدنيا محضرون في النار ، قاله الحسن .
والثاني : محضرون عند الحساب ، قاله مجاهد .

والثالث : المشركون جندٌ للأصنام ، يفضبون لها في الدنيا ، وهي لا تسوق
إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً ، قاله قتادة ^(١) . وقال مقاتل : الكفار يفضبون
للآلهة ويحضرونها في الدنيا . وقال الزجاج : هم الأصنام ينتصرون ، وهي
لا تستطيع نصرهم .

والرابع : هم جندٌ محضرون عند الأصنام يعبدونها ، قاله ابن السائب .
قوله تعالى : (فلا يحزُوكَ قولُهم) يعني قول كفار مكة في تكذيبك
(إنا نعلم ما يسرون) في ضامرهم من تكذيبك (وما يُعَمِّنونَ) بالسنتهم من
ذلك ؛ والمعنى : إنا نثيبك ونجازيهم .

(١) قال ابن جرير الطبري : وهذا الذي قاله قتادة أولى عندنا بالصواب في تأويل ذلك ،
لأن المشركين عند الحساب تبرز منهم الأصنام وما كانوا يبدونه ، فكيف يكونون لها جنداً حينئذ ؟
ولكنهم في الدنيا لهم جند يفضبون لهم ويقاتلون دونهم ، وقال ابن كثير : وهكذا قال
الحسن البصري ، وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . اهـ .

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَلَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ) اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية والتي بعدها على خمسة أقوال .

أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي ، أخذ عظاماً من البطحاء ففتته يده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أَيْحْيِي اللَّهُ هَذَا بَدَ مَا أَرَى ؟ فقال : « نَعَمْ ، يُعْيِيكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ » ، فزالت هذه الآيات ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (١) .

والثاني : أنه عبد الله بن أبي بن سلول ، جرى له نحو هذه القصة ، رواه الموفي عن ابن عباس (٢) .

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٣٠/٢٣ من رواية سعيد بن جبيرة مرسلاً ، ورواه ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وأورده السيوطي في « الدرر » ، ٢٦٩/٥ ، وزاد نسبه لابن المنذر ، والاسماعيلي في « مجمع » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » ، والضياء في « المختارة » ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبري : ٣١/٢٣ من رواية عطية الموفي عن ابن عباس ، قال ابن كثير : وهذا منكر ، لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة .

والثالث : أنه أبو جهل ابن هشام ، وأن هذه القصة جرت له ، رواه الضحاك عن ابن عباس ^(١) .

والرابع : أنه أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، قاله الحسن ^(٢) .

والخامس : أنه أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ ^(٣) ، وهذه القصة جرت له ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والجمهور ، وعليه المفسرون .

ومعنى الكلام : التمجُّبُ مِنْ جَهْلِ هَذَا الْمُخَاصِمِ فِي إِنْكَارِهِ الْبَعْثِ ؛ والمعنى : ألا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَيَتَفَكَّرُ فِي بَدْءِ خَلْقِهِ فَيَتْرَكَ خُصُومَتَهُ ؟ وقيل : هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأه من نطفة فصّار مجادلاً .

(وضرب لنا مثلاً) في إنكار البعث بالمعظم البالي حين قتله يده ، وتجبب ممن يقول : إن الله يُحْيِيهِ (وَلَسِيَ خَلْقُهُ) أي : نَسِيَ خَلْقَنَا له ، أي :

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٧٠/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس . والله أعلم .

(٢) وهكذا ذكره الشوكاني في « فتح القدير » عن الحسن ولم يسنده لأحد .

(٣) رواه الطبري : ٣٠/٢٣ عن مجاهد وقتادة ، والواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٩ من طريق حصين عن أبي مالك ، قال الحافظ ابن حجر في « تخریج الکشاف » : ١٤٠ ، ورواه البيهقي في « الشعب » من طريق حصين عن أبي مالك ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٦٩/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس ، ومن رواية سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي في « البعث » عن أبي مالك ، ومن رواية عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ، ومن رواية عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة ، ومن رواية ابن أبي حاتم عن السدي ، ومن رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة . قال ابن كثير : وعلى كل تقدير ، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ، أو الناس بن وائل ، أو فيها ، فهي عامة في كل من أنكر البعث ، قال : والآلف واللام في قوله تعالى : (أولم ير الإنسان) للجنس ، يعم كل منكر البعث . اهـ .

تَرَكَ النَّظَرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ إِذْ خَلَقَ مِنْ نُطْفَةٍ (قَالَ مِنْ مُخْيِيِ الظَّنَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ ١) أَي : بَالِيَةً ، يُقَالُ : رَمَّ الْمَظْمُ ، إِذَا بَلَّيَ ، فَمَوْ رَمِيمٌ ، لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ فَاعِلِهِ ، وَكُلُّ مَعْدُولٍ عَنْ وَجْهِهِ وَوَزْنِهِ فَهُوَ مَصْرُوفٌ عَنْ إِعْرَابِهِ ، كَقَوْلِهِ : (وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَنِيًّا) [مريم : ٢٨] ، فَاسْقَطَ الْهَاءَ لِأَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ عَنْ « بَاغِيَةٍ » ؛ فَقَاسَ هَذَا الْكَافِرُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِقُدْرَةِ الْخَلْقِ ، فَأَنكَرَ إِحْيَاءَ الْمَظْمِ الْبَالِي لَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْخَلْقِ . (مُقْلٌ مُخْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا) أَي : ابْتَدَأَ خَلْقَهَا (أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ) مِنْ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِعَادَةِ (عَلِيمٌ) . (الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا) قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : أَرَادَ الزُّنُودَ الَّتِي تُورِي بِهَا الْأَعْرَابُ مِنْ شَجَرِ الْمَرْخِ وَالْمَقَارِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمْ قَالَ : « الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ » ، وَلَمْ يَقُلْ : الشَّجَرِ الْخُضْرُ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّ الشَّجَرَ جَمَعَ ، وَهُوَ يُؤْنَتُ وَيَذَكَّرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (فَاتَّوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ) [الواقعة : ٥٣] ، وَقَالَ : (فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ) .

ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، فَقَالَ : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ) وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ : « يَقْدِرُ » بَيَاءً مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ (عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ١) وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ؛ وَالْمَعْنَى : مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ الْعَظِيمِ ، قَدَرَ عَلَى هَذَا الْيَسِيرِ ^(١) . وَقَدْ فَمَرْنَا

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ : فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبِحَارٍ وَقَفَارٍ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمُرْشِدًا إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَاهُنَا : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ١٢) أَي : مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ١٢ قَالَ : وَهَذِهِ

معنى « أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » في (بني إسرائيل : ٩٩) ؛ ثم أجاب هذا الاستفهام فقال : (بلى وهو الخلاقُ) يَخْلُقُ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ . وقرأ أبي بن كعب ، والحسن ، وعاصم الجحدري : « وهو الخَالِقُ » (العليمُ) بجميع المعلومات .
وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمَلَائِكَةُ وَاحِدٌ . وباقي السورة قد تقدم شرحه ^(١) [البقرة: ١١٧، ٣٢، الأنعام : ٧٥] .



— الآية الكريمة ، كقوله عز وجل : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلُقْ بِنَادٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تبارك وتعالى ها هنا : (بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أَنْ يَقُولَ كُنْ فَيَكُونُ) أي : إنما بأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) أي : تنزيهه وتقديسه وتبرئته من الموء للهي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم الماد فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل الختم المتفضل . اهـ .

سورة الصافات

وهي مكيّة كلّتها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا .
إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ ﴾

قوله تعالى : (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) فيها قولان .

أحدهما : أنها الملائكة ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ،
وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . قال ابن عباس : هم الملائكة صُفوفُ في
السماء ، لا يَعْرِفُ مَلِكٌ مِنْهُمْ مَنْ إِلَى جَانِبِهِ ، لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْذُ خَلَقَهُ
اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . وقيل : هي الملائكة تصفُ أجنتها في الهواء وافقة إلى أن
يأمرها الله عز وجل بما يشاء .

والثاني : أنها الطيّر ، كقوله : (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) [النور : ٤١] ،

حكاه النعلبي .

وفي الزاجرات قولان .

أحدهما : أنها الملائكة التي تزجر السحاب ، قاله ابن عباس ، والجمهور .
والثاني : أنها زواجر القرآن وكل ما ينهى ويزجر عن القبيح ، قاله قتادة ^(١) .
وفي التآليات ذكر ثلاث أقوال .

أحدها : أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى ، قاله ابن مسعود ،
[والحسن] ، والجمهور .

والثاني : أنهم الرسل ، رواه الضحاك عن ابن عباس .
والثالث : ما يئلى في القرآن من أخبار الأمم ، قاله قتادة .
وهذا قسم بهذه الأشياء ، وجوابه : (إنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) ^(٢) . وقيل :
معناه : ورب هذه الأشياء إنَّه واحد .

قوله تعالى : (وربَّ المشارق) قال السدي : المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً ،
والمغرب مثلها ، على عدد أيام السنة .
فان قيل : لم ترك ذكر المغرب ؟

(١) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا ، ما قال مجاهد ومن قال :
م الملائكة ، لأن الله تعالى ذكره ابتدأ القسم بنوع من الملائكة ، وهم الصافئون باجماع من
أهل التأويل ، فلا أن يكون الذي بعده قسمًا بسائر أصنافهم أشبه . اهـ .
(٢) قال ابن كثير : هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض
وما بينهما ، أي : من المخلوقات ، ورب المشارق ، أي : هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره
بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتقرب من المغرب ، قال : واكتفى
بذكر المشرق عن المغرب لدلالته عليه ، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل : (فلا أقسم
رب المشارق والمغرب إنا لقادرون) وقال تعالى في الآية الأخرى : (رب المشرقين ورب المغربين)
يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر . اهـ .

فالجواب : أن المشرق تدلُّ على المغرب ، لأن الشروق قبل الغروب .
 ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ
 كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ
 فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا) يعني التي تلي الأرض ، وهي أدنى
 السموات إلى الأرض (بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ،
 وأبو عمرو ، والكسائي : « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » مضافاً ، أي : بحسنها وضئها .
 وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « بِزِينَةٍ » منوثة وخفض « الْكَوَاكِبِ »
 [وجعل « الْكَوَاكِبِ » بدلاً من الزينة لأنها هي ، كما تقول : مررتُ
 بأبي عبد الله زيدٍ ؛] فالمعنى : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِالْكَوَاكِبِ . وقرأ أبو بكر
 عن عاصم : « بِزِينَةٍ » بالتثنية وبنصب « الْكَوَاكِبِ » [؛ والمعنى : زَيْنَّا
 السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِأَنَّ زَيْنَّا الْكَوَاكِبِ فِيهَا حِينَ أَلْقَيْنَاهَا فِي مَنَازِلِهَا وَجَمَلْنَاهَا ذَاتَ نُورٍ .
 قَالَ الزَّجَّاجُ : وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ « الْكَوَاكِبِ » فِي النَّصْبِ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ :
 « بِزِينَةٍ » لِأَنَّ قَوْلَهُ : « بِزِينَةٍ » فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ . وَقَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ ،
 وَمَعَاذُ الْقَارِي ، وَأَبُو نَيْكٍ ، وَأَبُو حَصِينِ الْأَسَدِيِّ فِي آخِرِينَ : « بِزِينَةٍ » بالتثنية
 « الْكَوَاكِبِ » برفع الباء ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ : وَالْمَعْنَى : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِأَنَّ
 زَيْنَتَهَا الْكَوَاكِبُ وَأَنَّ زَيْنَتِ الْكَوَاكِبِ . (وَحِفْظًا) أي : وَحَفِظْنَاهَا
 حِفْظًا . فَأَمَّا الْمَارِدُ ، فَهُوَ الْعَاتِي ، وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا فِي قَوْلِهِ : (شَيْطَانًا مَرِيدًا)
 [السَّاءُ : ١١٧] .

قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ) قال الفراء : « لا » هاهنا كقوله : (كَذَلِكَ

سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) [الشعراء : ٢٠٠ ، ٢٠١] ؛
ويصلح في « لا » على هذا المعنى الجزم ، فان العرب تقول : ربطتُ الفرس
لَا يَنْفَلِكُ . وقال غيره : لكي لَا يَسْمَمُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وهم الملائكة الذين
في السماء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم وخلف : « لَا يَسْمَمُونَ »
بتشديد السين ، وأصله : يَسْمَمُونَ ، فَأُدْغِمَتِ التاء فِي السِّن . وإنما قال : (إِلَى
الْمَلَأِ الْأَعْلَى) لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ : سَمِعْتُ فُلَانًا ، وَسَمِعْتُ مِنْ فُلَانٍ ، وَإِلَى فُلَانٍ .
(وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) بِالشَّهْبِ (دُحُورًا) قَالَ قَتَادَةُ : أَيِ
قَذْفًا بِالشَّهْبِ . وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ : أَيِ : طَرْدًا ، يُقَالُ : دَحَرْتُهُ دَحْرًا وَدُحُورًا ،
أَيِ : دَفَعْتُهُ . وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبُو رَجَاءٍ ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَالضَّعَاكُ ،
وَأَبُوبِ السَّخْتِيَانِي ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ : « دَحُورًا » بِفَتْحِ الدَّالِ .
وفي « الواصب » قولان .

أحدهما : أَنَّهُ الدَّائِمُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعُكْرَمَةُ ، وَقَتَادَةُ ،
وَالْفَرَاهُ ، وَابْنُ قَتِيْبَةَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ الْمَوْجِعُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ ، وَالسَّيْدِي .

وفي زمان هذا المذهب قولان . أحدهما : أَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ . وَالثَّانِي : [أَنَّهُ]
فِي الدُّنْيَا ، فَهْمٌ يُخْرِجُونَ بِالشَّهْبِ وَيُخْبِلُونَ إِلَى التَّفْنِخَةِ الْأُولَى فِي الصُّورِ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطِفَةَ) قَرَأَ ابْنُ السِّبْغِيِّ : « خَطِيفَ »
بِفَتْحِ الْخَاءِ وَكَسْرِ الطَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا . وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ ، وَالْجَحْدَرِيُّ : بِكَسْرِ الْخَاءِ
وَالطَّاءِ جَمِيعًا وَالتَّخْفِيفِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : خَطِفَ وَخَطِيفَ ، بِفَتْحِ الطَّاءِ وَكَسْرِهَا ،
يُقَالُ : خَطَفْتُ أَخْطِيفًا ، وَخَطِيفْتُ أَخْطِيفًا : إِذَا أَخَذْتَ الشَّيْءَ بِسُرْعَةٍ ،

ويجوز « إِلَّا مَنْ خَطِفَ » بفتح الخاء وتشديد الطاء ، ويجوز « خِطَفَ » بكسر الخاء وفتح الطاء ؛ والمعنى : اختطف ، فأدغمت التاء في الطاء ، وسقطت الألف لحركة الخاء ؛ فمن فتح الخاء ، ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في « اختطف » ، ومن كسر الخاء ، فليسكونها وسكون الطاء . فأما من روى [« خِطِفَ »] بكسر الخاء والطاء ، فلاوجه لها إلا وجهاً ضعيفاً جداً ، وهو أن يكون على إتياع الطاء كسرة الخاء . قال المفسرون : والمعنى : « إِلَّا مَنْ اختطف الكلمة من كلام الملائكة مُسَارَقَةً (فَأَتْبَعَهُ) أي : لحقه (شِهَابٌ نَاقِبٌ) قال ابن قتيبة : أي كوكبٌ مُضِيٌّ ، يقال : أَتَقِبُ نَارَكَ ، أي : أضيتها ، والثقبوب : ما تذكى به النار .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُونُونَ . أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ . وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَفْتِهِمْ) أي : فسألهم سؤال تقرير (أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا) أي : أأنكم صنعة (أَمْ مَنْ خَلَقْنَا) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : أمّ مَنْ عَدَدْنَا خَلْقَهُ مِنَ الملائكة والشياطين والسموات والأرض ، قاله ابن جرير .

والثاني : أمّ مَنْ خَلَقْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمم السالفة ، والمعنى : إنهم ليسوا بأقوى من أولئك وقد أهلكناهم بالتكذيب ، فما الذي يؤمّن هؤلاء ؟

ثم ذكر خلق الناس فقال : (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) قال الفراء ، وابن قتيبة : أي : لاصق لازم ، والباء تُبدلُ من الميم لقرب تحريكيهما . قال ابن عباس : هو الطين الحرّ الجيد اللزق . وقال غيره : هو الطين الذي ينشف عنه الماء وتبقى رطوبته في باطنه فيلتصق باليد كالشمع . وهذا إخبار عن تساوي الأصل في خلقهم وخلق مَنْ قَبْلَهُمْ ؛ فمن قدر على إهلاك الأقوياء ، قدر على إهلاك الضعفاء .

قوله تعالى : (بَلْ عَجِبْتَ) « بل » معناه : ترك الكلام الأول والاخذ في الكلام الآخر ، كأنه قال : دع يا محمد ما مضى .

وفي « عَجِبْتَ » قراءتان قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن مامر : « بَلْ عَجِبْتَ » بفتح التاء . وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبو جاز ، والنخعي ؛ وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، وابن أبي ليلى ، وحزمة ، والكسائي في آخرين : « بَلْ عَجِبْتَ » بضم التاء ، [واختارها الفراء] . فمن فتح ، أراد : بَلْ عَجِبْتَ يا محمد ، (وَيَسْخَرُونَ) هم . قال ابن السائب : أنت تَعْجَبُ منهم ، وهم يَسْخَرُونَ منك . وفي ما عجب منه قولان ، أحدهما : من الكفار إذ لم يؤمنوا بالقرآن ، والثاني : إذ كفروا بالبعث . ومن ضمّ ، أراد الإخبار عن الله عز وجل زاد المسير ٧ م (٤)

أنه عَجِبَ ، قال القراء : وهي قراءة عليّ ، وعبد الله ، وابن عباس ، وهي أحبُّ إليّ ؛ وقد أنكر هذه القراءة قوم ، منهم شريح القاضي ، فانه قال : إن الله لا يَعْجَبُ ، إنما يَعْجَبُ مَنْ لا يَعْلَمُ . قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأنَّ العَجَبَ من الله خلاف العَجَبِ من الآدميين ، وهذا كقوله : (وَنُكِّرُ اللهُ) [الأنفال : ٣٠] وقوله : (سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ) [التوبة : ٧٩] ، وأصل العَجَبِ في اللغة : أن الإنسان إذا رأى ما يُنْكَرُهُ وَيَقِلُّ مِنْهُ ، قال : قد عَجِبْتُ من كذا ، وكذلك إذا فَعَلَ الآدِمِيُّونَ ما يُنْكَرُهُ اللهُ عز وجل ، جاز أن يقول : عَجِبْتُ ، واللهُ قد عَلِمَ الشيءَ قبل كونه . وقال ابن الأنباري : المعنى : جازيتهم على عجبهم من الحق ، فسمي الجزء على الشيء باسم الشيء الذي له الجزء ، فسمي فعله عَجَبًا وليس بعَجَبٍ في الحقيقة ، لأنَّ التَعْجَبَ يدهش ويتعجَّر ، واللهُ عز وجلَّ قد جَلَّ عن ذلك ؛ وكذلك سُمِّيَ تعظيم الثواب عَجَبًا ، لأنه إنما يَتَعْجَبُ من الشيء إذا كان في النهاية ، والعرب تسمي الفعل باسم الفعل إذا دأب من بعض وجوهه وإن كان مخالفاً له في أكثر معانيه ، قال عدي :

« ثُمَّ أَضْحَوْا كَيْبَ الدَّهْرِ بِهِمْ » [وكذلك الدهرُ يُودِي بالرَّجَالِ] ^(١)

فجعل لإهلاك الدهر وإفساده كَيْبًا . وقال ابن جرير : من ضم التاء ، فالمعنى : بل عَظُمَ عندي وكَبُرَ اتِّخَاذُهُمْ لي شريكاً وتكذيبُهُمْ تنزيلاً . وقال غيره : إضافة العَجَبِ إلى الله على ضربين ، أحدهما : بمعنى الإنكار والدم ، كهذه الآية ، والثاني : بمعنى الاستحسان والإخبار عن تمام الرضى ، كقوله عليه السلام : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍ لَيْسَ لَهُ صَبُوءٌ » ^(٢) .

(١) البيت لعدي بن زيد اليبادي ، وهو في « الأغاني » طبعة الدار : ١٣٥/٢ .

(٢) روى أحمد في « المسند » : ١٥١/٤ من حديث ابن أبي ليبة عن أبي عثانة عن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لي عجب من الشاب ليس له صبوة » ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : ولنمّا في « فوائده » —

قوله تعالى : (وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ) أي : إذا وعظوا بالقرآن لا يَذْكُرُونَ ولا يَتَعَمَّلُونَ . وقرأ سعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وأبو عمران : « دُكِّرُوا » بتخفيف الكاف .

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً) قال ابن عباس : يعني انشقاق القمر (يَسْتَسْخِرُونَ) قال أبو عبيدة : يَسْتَسْخِرُونَ وَيَسْخَرُونَ سواء . قال ابن قتيبة : يقال : سَخِرَ واستَسْخَرَ ، كما يقال : قرَّ واستَقَرَّ ، وعَجِبَ واستَعَجَبَ ، ويجوز أن يكون : يسألون غيرهم من المشركين أن يَسْخَرُوا من رسول الله ^(ص) ، كما يقال : استَعْتَبْتُهُ ، أي : سألتُه المُتَبَيِّ ، واستَوْهَبْتُهُ ، أي : سألتُه الهَبَّةَ ، واستَعَفَّيْتُهُ : سألتُه المَفْوَ .

(وقالوا إن هذا) يعنون انشقاق القمر (إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أي : يَتَنَبَّأُ لِمَنْ تَأْمَلُهُ أَنَّهُ سِحْرٌ .

(إِذَا مِتْنَا) قد سبق بيان [هذه] الآية [مريم : ٦٦] .

— والقضاعي في « مسنده » من حديث ابن لهيعة : حدثنا أبو عثانة عن عقبة بن عامر مرفوعاً « إن الله ليمحى من الشاب الذي ليست له صبوة » قال : وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى ، وسنده حسن ، قال : وضعفه شيخنا (يعني الحافظ ابن حجر) في فتاويه لأجل ابن لهيعة . اهـ .

والحديث ذكره الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » من رواية أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » : وكذا رواه أبو يعلى عن عقبة بن عامر (أي الجني) قال : قال الهيثمي : وإسناده حسن ، وضعفه ابن حجر في فتاويه لضعف ابن لهيعة . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) يقول : وإذا رأوا حجةً من حجج الله عليهم ودلالة على نبوة نبيه محمد ^(ص) يَسْتَسْخِرُونَ ، يقول : يَسْخَرُونَ ويستَهْزِئُونَ . اهـ .

(أَوْ آبَاؤُنَا) هذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف، كقوله: (أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى [الاعراف : ٩٨] . وقرأ نافع ، وابن عامر : «أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» بسكون الواو هاهنا وفي (الواقعة : ٤٨) .

(قُلْ نَعَمْ) أي : نَعَمْ يُبْعَثُونَ (وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ) أي : صَاغِرُونَ .
(فَاتَّبَعَهَا زُجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) أي : فَاتَّبَعَتْ قِصَّةَ الْبَيْتِ صَبِيحَةً وَاحِدَةً مِنْ إِسْرَافِيلَ ، وَهِيَ نَفْخَةُ الْبَيْتِ ، وَتُسَمَّى زُجْرَةٌ ، لِأَنَّ مَقْصُودَهَا الزُّجْرُ (فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ) قَالَ الرَّجُلُ : أَيُّ : يُحْيَوْنَ وَيُبْعَثُونَ بَصَرَاءَ يَنْظُرُونَ ، فَإِذَا عَايَنُوا بِهِمْ ، ذَكَرُوا إِخْبَارَ الرُّسُلِ عَنْ الْبَيْتِ ، (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)
أي : يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : (هَذَا يَوْمُ الْقَصْلِ) أي : يَوْمُ الْقَضَاءِ الَّذِي يُفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ ؛ وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمَلَائِكَةِ : (أَحْشَرُوا) أي : اجْمَعُوا (الَّذِينَ ظَلَمُوا) مِنْ حَيْثُ هُمْ ، وَفِيهِمْ قَوْلَانِ .
أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ ظَالِمٍ . وَفِي أَزْوَاجِهِمْ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .
أَحَدُهَا : أَمْثَلُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ عَمْرٍ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالنِّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، وَجَاهِدٍ فِي آخَرِينَ . وَرَوَى عَنْ عَمْرٍ قَالَ : يُحْشَرُ صَاحِبُ الرِّبَا مَعَ صَاحِبِ الرِّبَا ، وَصَاحِبُ الرِّبَا مَعَ صَاحِبِ الرِّبَا ، وَصَاحِبُ الْخَمْرِ مَعَ صَاحِبِ الْخَمْرِ .
وَالثَّانِي : أَنَّ أَزْوَاجَهُمْ : الْمُشْرِكَاتُ ، قَالَ الْحَسَنُ .

وَالثَّلَاثُ : أَشْيَاعُهُمْ ، قَالَ قَتَادَةُ .

وَالرَّابِعُ : مُقَرَّنَاؤُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ ، قَالَه مِقَاتِلُ .

وَفِي قَوْلِهِ : (وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ . أَحَدُهَا : الْأَصْنَامُ ، قَالَه عِكْرَمَةُ ، وَقَتَادَةُ . وَالثَّانِي : لِإِبْلِيسَ وَحْدَهُ ، قَالَه مِقَاتِلُ . وَالثَّلَاثُ : الشَّيَاطِينُ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ وَغَيْرُهُ .

[قوله تعالى : (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أي : دلوهم على طريقها ؛ والمعنى : اذهبوا بهم إليها . قال الزجاج : يقال : هديت الرجل : إذا دللته ، وهديت العروس إلى زوجها ، وأهديت الهدية ، فإذا جمعت العروس كالهدية ، قلت : أهديتها] .

قوله تعالى : (وَفَقِّهُهُمْ) أي : احبسوهم (إنهم مسؤولون) وقرا ابن السيف : « أنهم » بفتح الهمزة . قال المفسرون : لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط ، لأن السؤال هناك . وفي هذا السؤال ستة أقوال .

أحدها : أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا . والثاني : عن « لا إله إلا الله » ، روى جيمًا عن ابن عباس . والثالث : عن خطاياهم ، قاله الضحاك . والرابع : سألهم خزنة جهنم : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) [الملك : ٨] ونحو هذا ، قاله مقاتل والخامس : أنهم يسألون عما كانوا يعبدون ، ذكره ابن جرير . والسادس : أن سؤالهم قوله : (ما لكم لا تتبصرون ؟) ، [ذكره الماوردي] . قال المفسرون : المعنى : ما لكم لا ينصرون بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا ؟ وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر : (نحنُ جميعٌ مُنتَصِرٌ) [القمر : ٤٤] ، فقبل لهم ذلك يومئذ توخيًا . والمُسْتَدْسَلِمُ : المنقاد الدليل ؛ والمعنى أنهم منقادون لاحيلة لهم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنْهُمْ كُتِّمْنَا نَاطُوْنَا عَنْ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُتِّمْنَا قَوْمًا طَافِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمُ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَارِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .

وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ أَتَانَا بِشَاعِرٍ يَجْحَدُونَ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ
وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . أُولَئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَآكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى
سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْنَهُمَا لَذَّةُ
لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عَيْنٍ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ❦

توله تعالى : (وأقبل بعضهم على بعضٍ) فيهم قولان . أحدهما : الإنس
على الشياطين . والثاني ، الاتباع على الرؤساء (ينساءلون) تسأل تويخ وتأنيب
ولوم ، فيقول الاتباع للرؤساء : [لم] غررتمونا ؛ ويقول الرؤساء : لم قبلتكم منا ؛
فذلك قوله : (قالوا) يعني الاتباع للتبوعين (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين)
وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كنتم تقهرونا بقدرتكم علينا ، لأنكم كنتم أعزَّ منا ، رواه
الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : من قبل الذين فضلونا عنه ، قاله الضحاك . وقال الزجاج : تأتوننا
من قبل الذين فتخدعوننا بأقوى الأسباب .

والثالث : كنتم توثقون ما كنتم تقولون بأيمانكم ، فتأتوننا من قبل الأيمان
التي تحلفونها ، حكاه علي بن أحمد النيسابوري . فيقول التبوعون لهم : (بل
لم تكونوا مؤمنين) أي : لم تكونوا على حق فتفضلتكم عنه ، إنما الكفر من قبلكم .
(وما كان لنا عليكم من سلطان) فيه قولان . أحدهما : أنه القهر . والثاني :

الحُجَّة . فيكون المعنى على الأول : وما كان لنا عليكم من قوة تقهركم بها

وَنُكْرِهَكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِنَا ، وَعَلَى الثَّانِي : لَمْ نَأْتِكُمْ بِحُجَّةٍ عَلَى مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ كَمَا أَنْتَ الرَّسُلُ .

قوله تعالى : (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا) أي : فوجبت علينا كلمة العذاب ، وهي قوله : (لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ) [الاعراف : ١٨] (إِنَّا لَدَائِقُونَ) العذاب جميعاً نحن وأنتم ، (فَأَغْوَيْنَاكُمْ) أي ، أضللناكم عن الهدى بدعائكم إلى ما نحن عليه ، وهو قوله : (إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) .

ثم أخبر عن الأتباع والمتبوعين بقوله : (فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) ، والجريمون هاهنا : المشركون ، (إِنَّهُمْ كَانُوا) في الدنيا (إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي : قولوا هذه الكلمة (يَسْتَكْبِرُونَ) أي : يَتَعَظَّمُونَ عن قولها ، (ويقولون أَنُؤْتَا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا) المعنى : أَنُتْرِكُ عِبَادَةُ آلِهَتِنَا (لِشَاعِرٍ) أي : لاتباع شاعر ! يعنون رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فردَّ اللَّهُ عليهم فقال : (بَلِ) أي : ليس الأمر على ما قالوا ، بل (جَاءَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد والقرآن ، (وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) الذين كانوا قبله ؛ والمعنى أنه أتى بما أُنْتُوا به . ثم خاطب المشركين بما بعد هذا إلى قوله : (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) يعني الموحدين . قال أبو عبيدة : والعرب تقول : إِنَّكُمْ لَكَاهِبُونَ إِلَّا زَيْدًا . وفي ما استنتاهم منه قولان .

أحدهما : من الجزاء على الأعمال ، فالمعنى : إِنَّا لَا نَتَوَخَّذُهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ ، بَلْ نَغْفِرُ لَهُمْ ، قاله ابن زيد .

والثاني : من دون العذاب ؛ فالمعنى : فَانْهَمُوا لَا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ ، قاله مقاتل . قوله تعالى : (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) فيه قولان . أحدهما : أنه الجنة ، قاله قتادة . والثاني : أنه الرِّزْقُ في الجنة ، قاله السدي .

فعلی هذا ، فی معنی « معلوم » قولان . أحدهما : أنه بمقدار الفداء والمشي ، قاله ابن السائب . والثاني : أنهم حين يشتهونه يؤثثون به ، قاله مقاتل .

ثم يسن الرزق فقال : (فواكه) [وهي جمع فاكهة] وهي الثمار كلها ، رطبها ويابسها (وهم مُكْرَمُونَ) بما أعطاهم الله . وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحجر : ٤٧] إلى قوله : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ) قال الضحاك : كل كأس ذكرت في القرآن ، فإنما عني بها الخمر ، [قال أبو عبيدة : الكأس : الإناء بما فيه ، والمعين : الماء الطاهر الجاري . قال الزجاج : الكأس : الإناء الذي فيه الخمر] ، ويقع الكأس على كل إناء مع شرابه ، فإن كان فارغاً فليس بكأس . والمعين : الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون .

قوله تعالى : (يضاء) قال الحسن : خمر الجنة أشد ياضاً من اللبن . قال أبو سليمان الدمشقي : ويدل على أنه أراد بالكأس الخمر ، أنه قال : « يضاء » ، فأثت ، ولو أراد الإناء على انفراد ، أو الإناء والخمر ، لقال : أبيض . وقال ابن جرير : إنما أراد بقوله : « يضاء » الكأس ، ولثأثت الكأس أثتت البيضاء .

قوله تعالى : (لَذَّةٍ) قال ابن قتيبة : أي : لذیذة ، يقال : شراب لذاذ : إذا كان طيباً . وقال الزجاج : أي : ذات لذة ^(١) .

(لافيا غول) فيه سبعة أقوال .

أحدها : ليس فيها صداع ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : ليس فيها وجع بطن ، [رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد] .

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) أي : طعمها طيب كلونها ، قال : وطيب الطعم دليل على طيب الربح ، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك . اهـ .

والثالث : ليس فيها صُداع رأس ، قاله قتادة .

والرابع : ليس فيها أذى ولا مكروه ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : لا تَغْتَال عقولهم ، قاله السدي . وقال الزجاج : لا تَغْتَالُ عقولهم

فتذهب بها ولا يُصيبهم منها وجع .

والسادس : ليس فيها إثم ، حكاه ابن جرير .

والسابع : ليس فيها شيء من هذه الآفات ، لأنَّ كُلَّ مَنْ ناله شيء من

هذه الآفات ، قيل : قد غَالَتْهُ غُوْلٌ ، فالصواب أن يكون نفي الغَوْل عنها

يَعْمُ جميع هذه الأشياء ، هذا اختيار ابن جرير .

قوله تعالى : (ولا م عنها يُنْزَفُونَ) قرأ حمزة ، والكسائي : بكسر الزاي

هاهنا وفي (الواقعة : ١٩) . وفتح عاصم الزاي هاهنا ، وكسرها في (الواقعة : ١٩) .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : بفتح الزاي في السورتين .

قال الفراء : فن فتح ، فالمعنى : لا تذهبُ عقولهم بشربها . يقال للسكران :

نزيف ومَنزوف ؛ [ومن] ^(١) كسر ، فقيه وجهان . أحدهما : لا يُنْفِدُونَ شرابهم ،

أي : هو دائم أبداً . والثاني : لا يَسْكُرُونَ ، قال الشاعر :

لَعَمْرِي كَلِّنْ أَنْزَقْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ

كَبَيْتَسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا ^(٢)

قوله تعالى : (وعندهم قاصراتُ الطُّرْفِ) فيه قولان .

أحدهما : أنهنَّ النِّسَاءُ قد قصرت طُرْفهنَّ على أزواجهنَّ فلا يَنْظُرْنَ

إلى غيرهم . وأصل القصْر : الحبس ، قال ابن زيد : إنَّ المرأةَ منهنَّ لَتَقُولُ

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) البيت للأبيبرد الرياحي من بني عَنَجَل ، كما في « معارج القرآن » : ١٦٩/٢ ،

و « الطبري » : ٥٥/٢٣ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : زف .

لزوجها : وعِزَّةٌ رَبِّي مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ ، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي .

والثاني : أنهم قد قصَّرنَ طَرَفَ الأزواج عن غيرهنَّ ، لكمالِ حُسْنِهِنَّ ، سمَّته من الشيخ أبي محمد ابن الخشاب النحوي .

وفي العين ثلاثة أقوال . أحدها : حِسانُ الميُون ، قاله مجاهد . والثاني : عِظامُ الأعمى ، قاله السدي ، وابن زيد . والثالث : كِبَارُ الميُون حِسانُها ، وواحدتهنَّ عَيْنَاءُ ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) في المراد بالبَيْض هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : أنه اللؤلؤ ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة .

والثاني : بَيْضُ النَّعَام ، قاله الحسن ، وابن زيد ، والزجاج . قال جماعة من أهل اللغة : والعربُ تُشَبِّهُ المرأةَ الحسَناءَ في بياضها وحُسْنِ لونِها بِبَيْضَةِ النَّعَامِ ، وهو أحسن ألوان النساء ، وهو أن تكون المرأةُ بِيضَاءَ مُشْرِبةً صُفْرَةً . والثالث : أنه البَيْضُ حين يُقَشَّرُ قبل أن تَمَسَّهُ الأيدي ، قاله السدي ، وإلى هذا المعنى ذهب سميد بن جبير ، وقتادة ، وابن جرير ^(١) .

فأما المكنون ، فهو المصون . فعلى القول الأول : هو مكنون في صدْفِهِ ، وعلى الثاني : هو مكنون بريش النَّعَام ، وعلى الثالث : هو مكنون بقشرة .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : شَبَّهَهُنَّ في بياضهنَّ وأنهن لم يَمَسَّهِنَّ قبل أزواجهنَّ إناس ولا جانٌ بياض البَيْض الذي هو داخل القشر ، وذلك هو الجلد الملبس المحَّ قبل أن تَمَسَّهُ يد أو شيء غيرها ، وذلك لاشك هو المكنون ، فأما القشرة العليا ، فإن الطائر يَمَسُّها ، والأيدي تباشرها ، والمشَّ يلقاها ، والعرب تقول لكل مصون : مكنون ، ما كان ذلك الشيء ، لو أَوَّأ كان ، أو بِيضاً ، أو متاعاً . اهـ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ
إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ . إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
أُزْرَاءَ وَعِظَامًا إِنَّنَا كَادِبِينَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْعِمُونَ . فَاطْلَع
فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ . وَلَوْ لَا نِعْمَةُ
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا
الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِيُثْلِ هَذَا
فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يعني أهل الجنة (يتساءلون) عن
أحوال كانت في الدنيا ^(١) .

(قال قائل منهم إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ) فيه أربعة أقوال . أحدها : أنه
الصاحب في الدنيا . والثاني : أنه الشريك ، روي عن ابن عباس . والثالث :
أنه الشيطان ، قاله مجاهد . والرابع : أنه الأنخ ؛ قال مقاتل : وهما الأخوان
المذكوران في سورة (الكهف : ٣٢) في قوله : (واضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ) ؛
والمعنى : كان لي صاحب أو أخ يُنْكِرُ البعث ، (يقول أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)
قال الزجاج : هي غففة الصاد ، من صدق يصدق فهو مصدق ، ولا يجوز هاهنا
تشديد الصاد . قال المفسرون : والمعنى : أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بالبعث ؛ وقرأ
بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة : « الْمُصَدِّقِينَ » بتشديد الصاد .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي :
عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يماثلون منها ، وذلك من حديثهم على
شراهم واجتماعهم في تادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على الشرر والخدم بين أيديهم
يَسْتَمِعُونَ وَيَحِثُّونَ بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اهـ .

قوله تعالى : (أَتُنَادِيتُمُونَا) أي : تَجْزِيئُونَنَا بِأَعْمَالِنَا ؛ يقال : ذَرَّشْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ ، أي : جازيته . فَأَحَبُّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرَى قَرِينَهُ الْكَافِرَ ، فقال لأهل الجنة : (هل أنتم مُطَّلِعُونَ) أي : هل تَجِبُونَ الاطِّلَاعَ إِلَى النَّارِ لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَنَازِلَكُمْ مِنْ مَنَزَلَةِ أَهْلِهَا ؟ وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وأبو عمران ، وابن عمر : « هل أنتم مُطَّلِعُونَ » بِاسْكَانِ الطَّاءِ وَتَخْفِيفِهَا (فَاطَّلَعَ) بِهَمْزَةٍ مَرْفُوعَةٍ وَسُكُونِ الطَّاءِ . وقرأ أبو رزین ، وابن أبي عَبدِة : « مُطَّلِعُونَ » بِكَسْرِ النُّونِ . قال ابن مسعود : اطَّلَعَ ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ تَهْتَاجُ الْقَوْمَ تَغْلِي ؛ قال ابن عباس : وَذَلِكَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوفَى يَنْظُرُ مِنْهَا أَهْلُهَا إِلَى النَّارِ .

قوله تعالى : (فَرَأَاهُ) يَعْنِي قَرِينَهُ الْكَافِرَ (فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ) أي : فِي وَسْطِهَا . وقيل : إِنَّمَا سُمِّيَ الْوَسْطُ سَوَاءً ، لِاسْتَوَاءِ الْمَسَافَةِ مِنْهُ إِلَى الْجَوَانِبِ . قال خُايدِ الْعَصْرِيُّ : وَاللَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَرَفَهُ وَإِيَّاهُ ، مَا عَرَفَهُ ، لَقَدْ تَغَيَّرَ حَبِيرُهُ وَسَبْرُهُ ^(١) . فَمِنْ ذَلِكَ (قَالَ نَالَهُ إِنْ كِدَتْ لَتَتَرَدِّدَ) قَالَ الْمَفْسُورُونَ : مَعْنَاهُ : وَاللَّهُ مَا كِدَتْ إِلَّا تَهْلِكُنِي ؛ يُقَالُ : أَرَدَيْتُ فُلَانًا ، أَي : أَهْلَكْتُهُ . (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي) أَي : لِإِنَّمَا عَلِيَ بِالْإِسْلَامِ (لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ) مَعَكَ فِي النَّارِ . قوله تعالى : (أَفَمَّا نَحْنُ بِحَيَاتَيْنِ) فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّهُ إِذَا ذُبِحَ الْمَوْتُ ^(٢) ، قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ : « أَفَمَّا نَحْنُ بِحَيَاتَيْنِ ،

(١) قَالَ فِي « اللِّسَانِ » : أَي : لَوْنُهُ وَهَيْئَتُهُ .

(٢) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » : ٣٢٥/٨ ، وَمُسْلِمٌ فِي « صَحِيحِهِ » : ٤/٢١٨٨ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبِشٌ أَمْلَحٌ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَشْرَبُونَ (أَي يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ إِلَى الْمَنَادِيِّ) وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ : —

إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى « التي كانت في الدنيا (وما نحن بَعْدَ بَيْنَ) ؛ فيقال لهم : لا ؛ فمِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْمَظِيمُ) ، فيقول الله تعالى : (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) ، قاله ابن السائب . وقيل : يقول ذلك للملائكة .

والثاني : أَنَّهُ قول المؤمن لأصحابه ، فقالوا له : إِنَّكَ لَأَمُوتُ ، فقال : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْمَظِيمُ » ، قاله مقاتل . وقال أبو سليمان الدمشقي : إِنَّمَا خَاطَبَ الْمُؤْمِنُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِهَذَا عَلَى طَرِيقِ الْفَرَحِ بِدَوَامِ النِّعَمِ ، لَأَعْلَى طَرِيقِ الْاسْتِفْهَامِ ، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ أَيْسَوْا بِمَيِّتَيْنِ ، وَلَكِنْ أَعَادَ الْكَلَامَ لِيُزَادَ بِتَكَرُّارِهِ عَلَى سَمْعِهِ سُرُورًا .

والثالث : أَنَّهُ قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُشْكِرُهُ ، ذَكَرَهُ الثُّمَلِي .

قوله تعالى : (لِمِثْلِ هَذَا) يعني النعيم الذي ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ : « أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ » [الصفات : ٤١] (فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) ، وَهَذَا تَرْغِيبٌ فِي طَلَبِ ثَوَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِطَاعَتِهِ ^(١) .

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ مُنْزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقُومِ . إِنَّا جَمَعْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ النَّجْحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

— فيؤمر به فيَذْبَحُ ، قال : ثم يقال : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ يَفُضَى الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وأشار بيده إلى الدنيا ، واللفظ للم .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (لِمِثْلِ هَذَا فليعمل الماملون) يقول تعالى ذكره : لِمِثْلِ هَذَا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة ، فليعمل في الدنيا لأنفسهم الماملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم .

رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كِيدُونَ مِنْهَا قَالُوا مِنْهَا الْبُطُونُ .
 ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ .
 إِنَّهُمْ أُلْقُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . وَلَقَدْ
 ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ .
 فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٦٣﴾
 (أَذْكَاءٌ خَيْرٌ) يشير إلى ما وصف لأهل الجنة (نُزُلًا) قال ابن قتيبة :
 أي : رزقًا ، ومنه : إقامةُ الانزال ، وأنزال الجنود : أرزاقها . وقال الزجاج :
 النزل هاهنا : الرِّيع ^(١) والفضل ، يقال : هذا طعام له نُزْلٌ ونُزْلٌ ، بتسكين الزاي
 وضما ؛ والمعنى : أَذْكَاءٌ خير في باب الانزال التي تُنْقَوْتُ ويمكن معها الإقامة ،
 أم نُزْلُ أهل النار ؟ ! وهو قوله : (أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ) ، ^(٢)

واختلف العلماء هل هذه الشجرة في الدنيا ، أم لا ؟

فقال قطرب : هي شجرة مُرَّةٌ تكون بأرض تهامة من أخبت الشجر .
 وقال غيره : الرَّقُومُ : ثمرة شجرة كريهة الطعم . وقيل : إنها لا تعرف في شجر
 الدنيا ، وإنما هي في النار ، يُكره أهل النار على تناولها .

قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) يعني للكافرين . وفي المراد بالفتنة
 ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لما ذكر أنها في النار ، افْتُنُوا وكذبوا ، فقالوا : كيف يكون

(١) قال في « اللسان » : الرِّيع : النماء والزيادة .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين
 وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة ، ورزقهم فيها من النسيم ، خير ، أو ما أعددت لأهل النار
 من الرَّقُومِ ؟ !

في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ؛ افترلت هذه الآية ، قاله قتادة ^(١) . وقال السدي : فتنة لأبي جهل وأصحابه .

والثاني : أن الفتنة بمعنى المذاب ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن الفتنة بمعنى الاختبار ، اختبروا بها فكذبوا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) أي : في قعر النار . قال الحسن : أصلها في قعر النار ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما . (طلعها) أي : ثمرها ، ومسمي طلعاً ، لطلوعه (كأنه رؤوس الشياطين) .

فإن قيل : كيف شبهها بشيء لم يشاهد ؟ فمئة ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه قد استقر في النفوس قبح الشياطين - وإن لم يشاهد - فجاز

تشبيهها بما قد علم قبحه ، قال امرؤ القيس :

أَيْقُنْ لِي وَالْمُشْرِفِي مُضَاجِمِي

وَمَسْنُونَةُ زُرْقُ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ ^(٢)

قال الزجاج : هو لم ير النول ولا أنيابها ، ولكن التمثيل بما يُستقبح أبلغ في باب المذكور أن يُمثل بالشياطين ، وفي باب المؤنث أن يشبه بالنول .

والثاني : أن بين مكة واليمن شجر يسمى : رؤوس الشياطين ، فشبها بها ، قاله

ابن السائب .

(١) روى ابن جرير الطبري عن قتادة قال : لما ذكر شجرة الرقيم افترق الظلمة فقالوا : ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ؛ فأزل الله ما سمعون أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم غذيت بالنار ومنها خلقت . وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٧٧/٥ ، وزاد نسبه لبدي بن حميد ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٢) ديوانه : ٣٣ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٣٩/١ ، و « مجمع البيان » : ٦٢/٢٣ ، و « روح المعاني » : ٨٧/٢٣ ، و « اللسان » : غول .

والثالث : أنه أراد بالشیاطین : حیّات لها رؤوس ولها أعراف ، فشبه ظلّها برؤوس الحیّات ، ذكره الزجاج . قال الفراء : والعرب تسمي بعض الحیّات شیطاناً ، وهو حیة ذو عُرف قبيح الوجه .

فوله تعالى : (فَانْتَبِهُوا وَلَا تَكُلُوا مِنْهَا) أي : من ثمرها (فالتون منها البطون) وذلك أنهم يُكثرون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم ^(١) .

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ) قال ابن قتيبة : أي : خلطاً من الماء الحار يشربونه عليها . قال أبو عبيدة : تقول العرب : كل شيء خلطته بغيره فهو مشوب . قال المفسرون : إذا أكلوا الزقوم ثم شربوا عليه الحميم ، شاب الحميم الزقوم في بطونهم فصار شوباً له .

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ) أي : بعد أكل الزقوم وشرب الحميم (إِلَى الْجَحِيمِ) وذلك أن الجحيم خارج من الجحيم ، فهم يوردونه كما تورد الإبل الماء ، ثم يردون إلى الجحيم ؛ ويدل على هذا قوله : (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ) [الرحمن : ٤٤] . و (أَلْفَوْا) بمعنى وجدوا . و (يُهْرَعُونَ) مشروح في (هود : ٧٨) ، والمعنى أنهم يتهمعون آباءهم في سرعة ^(٢) . (ولقد ضلّ قَبْلَهُمْ) أي : قبل هؤلاء المشركين (أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) من الأثم الخالية .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فَانْتَبِهُوا وَلَا تَكُلُوا مِنْهَا فَالتون منها البطون) ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ، ولا أقبح من منظرها ، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فانهم يضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في مضاعفها ، كما قال تعالى : (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ، لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ) . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ) يقول : إن هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم : قولوا : لا إله إلا الله يستكبرون ، وجدوا آباءهم ضاللاً عن قصد السبيل ، غير سالكين بحجة الحق (فهم على آثام يهرعون) يقول : هؤلاء يسرع بهم في طريقهم ليقفوا آثام وسنهم . اهـ .

قوله تعالى : (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) يعني الموحدين ، فانهم نجوا من العذاب . قال ابن جرير : وإنما حسن الاستثناء ، لأن المعنى : فانظر كيف أهلكنا المُنذَرين إِلَّا عباد الله .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ (ولقد نادانا نوحٌ) أي : دعانا . وفي دعائه قولان . أحدهما : أنه دعا مستنصراً على قومه . والثاني : أن^(١) ينجيه من الغرق (فلنعم المجيبون) نحن ؛ والمعنى : إنا أنجينا وأهلكنا قومه .

وفي (الكَرْبِ العظيم) قولان : أحدهما : [أنه] الفرق . والثاني : أذى قومه . (وجعلنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) [وذلك] أن نسل [أهل] السفينة اقرضوا غير نسل ولده ، فالتاس كلهم من ولد نوح^(٢) ، (وتَرَكْنَا عَلَيْهِ) أي : تركنا عليه ذِكْرًا جَمِيلًا (في الْآخِرِينَ) وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة . قال الزجاج : وذلك الذِّكْرُ الْجَمِيلُ قَوْلُهُ : (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) وهم الذين جاؤوا

(١) في الأصل : ، أنه ، .

(٢) قال ابن كثير : لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما أتى من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعا ربه أني مطلوب فانتصر ، فنضب الله تعالى لنضبه عليهم ، ولهذا قال عز وجل : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون) أي : فلنعم المجيئون له ، (ونجينا وأهله من الكرب العظيم) وهو التكذيب والأذى ، (وجعلنا ذريته هم الباقين) . اهـ .

زاد السير ٧ م (٥)

من بعده ؛ والمعنى : تركنا عليه أن يُصلّى عليه في الآخرين إلى يوم القيامة .
(إنا كذلك نجزي المحسنين) قال مقاتل : جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين .

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَتُنْفِكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ .
فَظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ
أَلَا تَأْتَاكُمْ . مَا لَكُمْ لَا تَنْتَبِهُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ .
فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا
بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْقَلِينَ . وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ .
رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ) أي : من أهل دينه ومِلّته .
والهاء في « شيعته » عائدة على نوح في قول الأكثرين ؛ وقال ابن السائب : تعود
إلى محمد ﷺ ، واختاره الفراء ^(١) .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى ذلك : وإن من شيعته
محمد لأبراهيم ، وقال : ذلك مثل قوله : (وآية لهم أننا حملنا ذريتهم) بمعنى أنا حملنا ذرية من
هم منه ، فجعلنا ذرية لهم وقد سبقتهم . اهـ .
وقال الآلوسي : (وإن من شيعته) أي : ممن شابع نوحاً وتابعه في أصول الدين (لأبراهيم)
وإن اختلفت فروع شريعتيهما ، أو ممن شايه في التصلب في دين الله تعالى ومصاربة الكذابين ،
قال : ونقل هذا عن ابن عباس . قال : وذهب الفراء إلى أن ضمير « شيعته » لنبينا محمد ﷺ ،
قال : والظاهر ما أشرنا إليه ، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ، قال :
وقلها يقال للمتقدم : هو شيعته للتأخر . اهـ .

فان قيل : كيف يكون من شيعته ، وهو قبله ؟

فالجواب : أنه مثل قوله : (حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) [يس : ٤١] ، فجعلها ذُرِّيَّتَهُمْ وقد سبقَتْهُمْ ، وقد شرحنا هذا فيما مضى [يس : ٤١] .

قوله تعالى : (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ) أي : صدَّقَ اللهَ وَأَمَنَ بِهِ (بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) من الشِّرْكَ وكلِّ دَنَسٍ ، وفيه أقوال ذكرناها في (الشعراء : ٨٩) .

قوله تعالى : (ماذا تَبُذُّونَ ؟) هذا استفهام توبيخ ، كأنه وبَّخهم على عبادة غير الله . (أَلِفْكَآ ١ ٢) أي : أَنَا فَيَكُونُ إِفْكَآ وَتَبُذُّونَ آلِهَةً سِوَى اللَّهِ ! (فَاظُنُّكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ) إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمُ غَيْرَهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : فَاظُنُّكُمْ أَن يَصْنَعَ بِكُمْ ؟

(فَتَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) فيه قولان .

أحدهما : [أنه] نظر في عِلْمِ النجوم ، وكان القومُ يَتَعَاطَوْنَ عِلْمَ النُّجُومِ ، فماملهم من حيث هم ، وأراهم أَنِّي أَعْلَمُ من ذلك مَا تَعْلَمُونَ ، لِثَلَاثِ أَشْيَاءَ : عليه ذلك . قال ابن المسيَّب : رأى نجماً طالماً ، فقال : إِنِّي مَرِيضٌ غَدًا .

والثاني : أنه نظر إلى النجوم ، لا في عِلْمِهَا .

فان قيل : فما كان مقصوده ؟

فالجواب أنه كان لهم عيد ، فأراد التخلص عنهم لِيَكِيدَ أَصْنَامَهُمْ ، فاعْتَلَّ بهذا القول .

قوله تعالى : (إِنِّي سَقِيمٌ) من معاريض الكلام . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : سَأَسْقُمُ ، قاله الضحاك . قال ابن الأباري : أَعْلَمَهُ اللَّهُ عز وجل أَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بِالسَّقَمِ إِذَا طَلَعَ نَجْمٌ يَعْرِفُهُ ، فَلَمَّا رَأَى النَّجْمَ : عَلِمَ أَنَّهُ سَيَسْقُمُ .

والثاني : إني سقيم القلب عليكم إذ نكمتهم بنجوم لا تنضر ولا تنفع ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنه سقيم لعلّة عرضت له ، حكاه الماوردي . وذكر السدي أنه خرج معهم إلى يوم عيدهم ، فلما كان ببعض الطريق ، ألقى نفسه وقال : إني سقيم أشكي رجلي ^(١) ، (فتولّوا عنه مُدْبِرِينَ ، فراغ إلى آلهتهم) أي : مال إليها - وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على زعمهم - (فقال) إبراهيم استهزاء بها (ألا تأكلون ؟) .

وقوله : (ضرباً باليمين) في اليمين ثلاثة أقوال .
أحدها : أنها اليد اليمنى ، قاله الضحاك ^(٢) .

(١) قال ابن كثير : إذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فانه كان قد أرف خروجهم إلى عيدهم ، فأحب أن يحتج بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يمتقدونه (فتولّوا عنه مدبرين) قال : قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال : (إني سقيم) أي : ضعيف ، قال ابن كثير : فأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات ، متين في ذات الله تعالى ، قوله : (إني سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله في سارة : « هي أختي » قال : فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يندم فاعله ، حاشا وكلاءاً وثأً ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوّزاً ، وإنما هو من الماريض لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث : « إن في الماريض للمدوحة عن الكذب » . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم في سورة (الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك . اهـ . وقال الآلوسي : فراغ عليهم ضرباً باليمين ، أي : باليد اليمنى كما روي عن ابن عباس ، قال : وتقيد الضرب باليمين ، للدلالة على شدته وقوته ، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّها في الثأب ، قال : وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوّته . اهـ .

والثاني : بالقُوَّة والقُدرة ، قاله السدي ، والقراء .

والثالث : باليمين التي سبقت منه ، وهي قوله : « وَتَاللَّهِ لَا كِيدَنَّا صُنَامَكُمْ »

[الأنبياء : ٥٧] ، حكاه الماوردي .

قال الزجاج : « ضَرَبًا » مصدر ؛ والمعنى : قال على الأصنام يضربها ضَرْبًا باليمين ؛ وإنما قال : « عليهم » ، وهي أصنام ، لأنهم جعلوها بمنزلة ما يُمَيِّز .

(فَأَقْبِسُوا إِلَيْهِ يَزِفْثُونَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « يَزِفْثُونَ » بفتح الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء . وقرأ حمزة ، والمفضل عن عاصم : « يُزِفْثُونَ » برفع الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء . وقرأ ابن السمين ، وأبو المتوكل ، والضحاك : « يَزِفْثُونَ » بفتح الياء وكسر الزاي وتخفيف الفاء . وقرأ ابن أبي عملة ، وأبو نهيك : « يَزِفْثُونَ » بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء ^(١) . قال الزجاج : أعربُ القراءات فتح الياء وتشديد الفاء ، وأصله من زفيف النعام ، وهو ابتداء عَدْوِ النعام ، يقال : زَفَّ النعامُ يَزِفُّ ؛ وأما ضم الياء ، فعناه : يصيرون إلى الزَفِيف ، وأنشدوا :
[تَمَسَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِدَاعُهُ]

فأضحي حُصَيْنٌ قد أَذَلَّ وأَقْهَرَا ^(٢)

أي : صار إلى القَهَر . وأما كَسَرُ الزاي مع تخفيف الفاء ، فهو من : وَزَفَ يَزِفُّ ، بمعنى أَسْرَعَ يُسْرِعُ ، ولم يَعْرِفْهُ الكسائي ولا الفراء ، وعرفه غيرها .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأه بفتح الياء وتشديد الفاء ، لأن ذلك هو الصحيح المروى من كلام العرب والذي عليه قراءة الفصحاء من القراء . اهـ .

(٢) البيت المُنْخَبَلُ السَّمْدِي كما في « الطبري » : ٧٤/٢٣ . و « اللسان » و « الناج » : قهر ، جذع ، وروي : قد أَذَلَّ وأَقْهَرَا ، مبنياً للجَهِول .

قال المفسرون : بلغهم ماصنع إبراهيم ، فأسرعوا ، فلما اتهموا إليه ، قال لهم محتجاً عليهم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) بأيديكم (والله خلقكم وما تعملون ١٩) ، قال ابن جرير : في « ما » وجهان .

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر ، فيكون المعنى : والله خلقكم [وعملكم] .
والثاني : أن تكون بمعنى « الذي » ، فيكون المعنى : والله خلقكم [وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام ^(١)] ؛ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة [لله] .

فلما كثرمتهم الحجّة (قالوا ابنوا له بُنياناً) وقد شرحنا قصته في سورة (الأنبياء : ٥٢ - ٧٤) ، ويثناً معنى الجحيم في (البقرة : ١١٩) ، والكيد الذي أرادوا به : إحراقه .

ومعنى قوله : (فجعلناهم الأسفلين) أن إبراهيم علام بالحجّة حيث سلمه الله من كيدهم وحلّ الهلاك بهم ^(٢) .

(وقال) يعني إبراهيم (إني ذاهب إلى ربّي) في هذا الذهاب قولان . أحدهما : أنه ذاهب حقيقة ، وفي وقت قوله هذا قولان . أحدهما : أنه حين أراد هجرة قومه ؛ فالمعنى : إني ذاهب إلى حيث أمرني ربّي عز وجل (سيهدين) إلى حيث أمرني ، وهو الشام ، قاله الأكثرون . والثاني : حين أُلّي في النار ، قاله سليمان بن صرد ؛ فعلى هذا ، في المعنى قولان . أحدهما : ذاهب إلى الله بالموت ،

(١) قال ابن كثير : والأول أظهر ، لما رواه البخاري في كتاب « أفعال العباد » ، عن علي بن الديني عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن ربيعي بن حيراش عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال : « إن الله تعالى يصنع كل صنعة وصنفته » . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول الله : (فجعلناهم) أي : فجعلنا قوم إبراهيم (الأسفلين) يعني الأدنى حجة ، وغلبنا إبراهيم عليهم بالحجة ، وأتقناه بما أرادوا به من الكيد . اهـ .

سَيِّدِينَ إِلَى الْجَنَّةِ . والثاني : [ذاهب] إلى ماضى [به] ربى ، سيَّدين إلى الخلاص من النار .

والقول الثاني : إني ذاهب إلى ربِّي بقلبي وعقلي ونيتي ، قاله قتادة ^(١) . فلما قَدِمَ الأرض المقدَّسة ، سأل ربَّه الولدَ فقال : (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) أي : ولداً صالحاً من الصَّالِحِينَ ، فاجتزأ بما ذكرَ عما تركَ ، ومثله : (وكانوا فيه من الزاهدين) [يوسف : ٢٠] ، فاستجاب له ، وهو قوله : (فبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) وفيه قولان . أحدهما : أنه إسحاق . والثاني : أنه إسماعيل . قال الزجاج . هذه البشارة تدلُّ على أنه مبشَّرُ بَابٍ ذَكَرَ ، وأنه يبقى حتى ينتهي في السنَّ ويوصف بالحليم .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّمْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وقال إني ذاهب إلى ربِّي سيَّدين) يقول : وقال إبراهيم لما أظفجه الله على قومه ونجَّاه من كيدهم : (إني ذاهب إلى ربِّي) يقول : إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله ، أي : إلى الأرض المقدَّسة ، ومفارقهم فمتزلهم لعبادة الله . اهـ .

قوله تعالى : (فَلَمَّا بَلَغَ مِمَّ السَّعْيِ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المراد بالسعي هاهنا : العمل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه المشي ، والمعنى : مشى مع أبيه ، قاله قتادة . قال ابن قتيبة :

بلغ أن يتصرفَ مِمَّه وَيُعِينَه . قال ابن السائب : كان ابن ثلاث عشرة سنة .

والثالث . أن المراد بالسعي : العبادة ، قاله ابن زيد ؛ فلي هذا ، يكون قد بلغ .

قوله تعالى : (إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) أكثر العلماء على أنه لم ير

أنه ذبحه في المنام ، وإنما المعنى أنه أُمرَ في المنام بذبحه ، ويدل عليه قوله :

(افعل ما تُؤْمَرُ) . وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه ، ولم يرَ إراقة

الدَّم . قال قتادة : ورؤيا الأنبياء حَقٌّ ، إذا رَأَوْا شَيْئًا ، فعلوه . وذكر السدي

عن أشياخه أنه لما بُشِّرَ جبريلُ سارة بالولد ، قال إبراهيم : هو إذاً لله ذبيح ،

فلمَّا قَرَّعَ من بُنيان البيت ، أتى في المنام ، فقبل له : أَوْفَ بِذِكْرِكَ^(١) . واختفوا

في الدَّيَّحِ على قولين .

أحدهما : [أنه] إسحاق ، قاله عمر بن الخطاب ، وعليّ بن أبي طالب ، والعباس

ابن عبد المطلب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وأبو هريرة ، وأنس ،

وكعب الأحمار ، ووهب بن منبه ، [ومسروق] ، وعبيد بن عمير ، والقاسم ابن أبي بزة ،

ومقاتل بن سليمان ، واختاره ابن جرير . وهؤلاء يقولون : كانت هذه القصة

بالشام . وقيل : طويت له الأرضُ حتى حمله إلى المَحْجَرِ بِمِثْنَى فِي سَاعَةٍ .

والثاني : أنه إسماعيل ، قاله ابن عمر ، وعبد الله بن سلام ، والحسن البصري ،

وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، ومجاهد ، ويوسف بن مهران ، وأبو صالح ،

(١) ذكر ذلك البغوي في « تفسيره » بدون سند والله أعلم .

ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن سابط ^(١) . واختلفت الراوية عن ابن عباس ، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق ، وروى عنه عطاء ، ومجاهد ، والشعبي ، وأبو الجوزاء ، ويوسف بن مهران أنه إسماعيل ، وروى عنه سعيد بن جبير كالثقلين . وعن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهرري ، وقتادة ، والسدي روايتان . وكذلك عن أحمد رضي الله عنه روايتان . ولكل قوم حجة ليس هذا موضعها ، وأصحابنا ينصرون القول الأول ^(٢) .

الإشارة إلى قصة الذئب

ذكر أهل العلم بالسيرة والتفسير أن إبراهيم لما أراد ذبح ولده ، قال له : انطلق فتقرب قرباناً إلى الله عز وجل ، فأخذ سيكتيناً وحبلاً ، ثم انطلق ، حتى إذا ذهباً بين الجبال ، قال له الغلام : يا أبت أين قربانك ؟ قال : يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك ، فقال له : اشدد رباطي حتى لا أضرب ، واكفف عني نيا بك حتى لا ينتضح عليك من دمي فتراه أمي فتحزن ، وأسرع صر السكتين على حلقتي ليكون أهون الموت علي ، فإذا أتيت أمي فافقرأ عليها السلام مني ؛ فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويبكي ويقول : نعم المون أنت يا بني

(١) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تقريب التهذيب» : عبد الرحمن بن سابط ، ويقال : ابن عبد الله بن سابط ، وهو الصحيح . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : قال الله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فانه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، قال : بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام أولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، —

— قال : وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً ، وفي نسخة أخرى : « بكثرة » ، قال : فأفحموا هاهنا كذباً وبهتاناً إسحاق ، قال : ولا يجوز هذا ، لأنه يخالف لنص كتابهم ، قال : وإنما أفحموا إسحاق لأنه أبوم ، وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوم فزادوا ذلك ، وحرّفوا « وحيدك » بمعنى « الذي ليس عندك غيره » ، — فإن إسماعيل كان ذهب به وبأبيه إلى مكة — ، وهو تأويل وتحرّيف باطل ، فانه لا يقال : وحيدك إلا لأن ليس له غيره ، قال : وأيضاً فإن أول ولد له ممزوجة ما ليس ابن بعمه من الأولاد ، فالأمر يذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار ، قال : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً . ثم قال : وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة ، قال : وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فانه ذكر البشارة بسلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) وقال : ولا بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : (إنا نبشرك بغلام عليم) . وقال ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) من سورة (هود : ٧٩) أي : يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد لإسحاق ، قال : ومن هاهنا استدلال من استدلل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، قال : فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ؟ قال : فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، قال : فتبين أن يكون هو إسماعيل ، قال : وهذا من أحسن الاستدلال وأسنه وأبينه ، والله الحمد . اهـ .

وقد قال الحافظ ابن قيم الجوزية في المهدى النبوي : « إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم » ، وأما القول بأنه إسحاق ، فردود بأكثر من عشرين وجهاً ، ونقل عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم ، فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكثرة ، وفي لفظ : « وحيد » ، وقد حرّفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم . اهـ .

على أمر الله عز وجل ، ثم [إنه] أمر السكّين على حلقه فلم يحك شيئاً^(١) .
وقال مجاهد : لما أمرها على حلقه انقلبت ، فقال : مالك ؟ قال : انقلبت ، قال :
اطمن بها طمناً . وقال السدي : ضرب الله على حلقه صفيحة من نحاس ؛
وهذا لا يحتاج إليه ، بل منعها بالقُدرة أبلغ . قالوا : فلما طمّن بها ، نبتت ،
وعلم الله منها الصّدق في التسليم ، فنودي : يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا ،
هذا فداء ابنك ؛ فنظر إبراهيم ، فإذا جبريل معه كبش أملح .

قوله تعالى : (فانتظر ماذا تری) لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر
الله عز وجل ، ولكن أراد أن ينتظر ما عنده من الرأي . وقرأ حمزة ، والكسائي ،
وخلف : « ماذا تري » بضم التاء وكسر الراء ؛ وفيها قولان . أحدهما : ماذا
تري من صبرك أو جزأك ، قاله الفراء . والثاني : ماذا تبين ، قاله الزجاج . وقال
غيره : ماذا تشير .

قوله تعالى : (افعل ما تؤمر) قال ابن عباس : افعل ما أوحى إليك
من ذمّي (ستجدني إن شاء الله من الصّابرين) على البلا .
قوله تعالى : (فلما أسلما) أي : استسلما لأمر الله عز وجل فأطاعا ورضيا .
وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبیر ، والأعمش ،
وابن أبي عبة : « فلما سلما » بتشديد اللام من غير همز قبل السين ؛ والمعنى :
سلما لأمر الله عز وجل .

وفي جواب قوله : « فلما أسلما » قولان .
أحدهما : أن جوابه : « وناديناه » ، والواو زائدة ، قاله الفراء .
والثاني : أن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ والمعنى : فلما
فعل ذلك ، سجد وأجزل ثوابه ، قاله الزجاج .

(١) ذكر نحو هذا المعنى البنوي والخازن عن ابن عباس بدون سند ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وثَلَّثَهُ لِلْجَبِينِ) قال ابن قتيبة : أي : صَرَعَهُ على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض ، وهما جبينان ، والجهة بينهما ، وهي مَأْصَابُ الْأَرْضِ في السجود ، والناس لا يكادون يفرقون بين الجبين والجهة ، فالجهة مسجد الرجل الذي يصيبه نَدَبُ السَّجُودِ ، والجبينان يكتنفانها ، من كل جانب جبين .

قوله تعالى : (ونَادِيَاهُ) قال المفسرون : نودي من الجبل : (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان .

أحدهما : قد كَمَحْتُ مَا أَمَرْتُ ، وذلك أنه قصد الذَّبْحَ بِمَا أَمَرَكَ ، وطأوه الابن بالتمكين من الذَّبْحِ ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ صرف ذلك كما شاء ، فصار كأنه قد ذَبَحَ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقِ الذَّبْحُ .

والثاني : أنه رأى في المنام معالجة الذَّبْحِ ، ولم ير إراقة الدَّمِ ، فلما فعل في اليقظة ما رأى في المنام ، قيل له : « قد صدقت الرؤيا » .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والمجدي : « قد صدقت

الرؤيا » بتخفيف الدال ، وهاتان تم الكلام . ثم قال تعالى : (إِنَّا كَذَلِكَ) أي : كما ذَكَرْنَا من العفو من ذبح ولده (نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (١) .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي : « كَذَا » نصرف عن أطاعنا المسكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، كقوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً (قال : وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المتزلة ، قال : والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ، ثم نسخ عنه وصرفه إلى الفداء ، قال : وإفغا كان المقصود من شرعه أولاً ، إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، قال : ولهذا قال تعالى : (إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) أي : الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى ، متقاداً لطاعته ، قال : ولهذا قال الله تعالى : (وإبراهيم الذي وفى) . اهـ .

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) في ذلك قولان . أحدهما : النِّعْمَةُ الْبَيِّنَةُ ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والثاني : الاختبار العظيم ، قاله ابن زيد ، وابن قتيبة . فملى الأول ، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذَّيِّج . وعلى الثاني ، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده .

قوله تعالى : (وَقَدْ يَنْشَأُ) يعني : الذَّيِّجُ (بِذَبْحٍ) وهو بكسر الذال : اسم ما ذُبِحَ ، وبفتح الذال : مصدر ذَبَحْتُ ، قاله ابن قتيبة . ومعنى الآية : خَلَّصْنَاهُ مِنَ الذَّيِّجِ بِأَنْ جَعَلْنَا الذَّيِّجَ فِدَاءً لَهُ . وفي هذا الذَّيِّجُ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً ، قاله ابن عباس في رواية مجاهد ، وقال في رواية سعيد بن جبير : هو الكبش الذي قرَّبه ابنُ آدم فمُقْبَلٌ منه ، كان في الجنة حتى فُدي به .

والثاني : أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أقرنين ، رواه أبو الطفيل عن ابن عباس ^(١) .

والثالث : [أنه] ما فُدي إلاّ بنيس من الأروى ^(٢) ، أهبط عليه من كبير ، قاله الحسن ^(٣) .

وفي معنى (عظيم) أربعة أقوال .

أحدها : لأنه كان قد رعى في الجنة ، قاله ابن عباس ، وابن جبير .

(١) الذي في الطبري وابن كثير من رواية أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه قال : كبش أبيض أقرن أعين .

(٢) الأروى : الوعول .

(٣) قال ابن كثير في « التاريخ » ، بعد أن ذكر نحوه من هذا : ثم غالب ماهاهنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات ، وفي القرآن كفاية مما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، قال : وقد روى في الحديث أنه كان كبشاً . اهـ . وقال في التفسير : والصحيح الذي عليه الأكثر أن يَفْدَى بكبش . اهـ . و « ثبير » : جبل بمكة .

والثاني : لأنه ذُبح على دين إبراهيم وسُنَّته ، قاله الحسن .

والثالث : لأنه مُتَقَبَّلٌ ، قاله مجاهد . وقال أبو سليمان الدمشقي :
لما قرَّبه ابن آدم ، رُفِعَ حيًّا ، فرعى في الجنة ، ثم جُعِلَ فداءً للذييخ ،
فَقَبِلَ مرتين .

والرابع : لآله عظيم الشخص والبركة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وَنَرَكُنَّا عَلَيْهِ) قد فسرناه في هذه السورة [الصفات : ٧٨] .
قوله تعالى : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ) من قال : إن إسحاق الذييخ ، قال : بُشِّرَ
إبراهيم بنبوءة إسحاق ، وأُثِيبَ إسحاق بصبره النبوءة ، وهذا قول ابن عباس في رواية
هكرمة ، وبه قال قتادة ، والسدي ^(١) . ومن قال : الذييخ إسماعيل ، قال : بَشَّرَ اللهُ
إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة ، جزاء لطاعته وصبره ، وهذا قول سعيد
ابن المسيب .

قوله تعالى : (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ) يعني بكثرة ذُرِّيَّتِهِمَا ، وم الأسباط
كلّهم (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ) أي : مطيع لله (وَظَالِمٌ) وهو العاصي له .
وقيل : الْمُحْسِنُ : المؤمن ، وَالظَالِمُ : الكافر .

(١) قال ابن كثير في « التاريخ » : وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ،
قال : وإنما أخذوه - والله أعلم - من كتب الأخبار أو صحف أهل الكتاب ، قال : وليس
في ذلك حديث صحيح عن المصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، قال : ولا يفتهم هذا
القرآن ، بل المفهوم ، بل المنطوق ، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل ، قال : وما أحسن
ما استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله تعالى : (فَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ) ومن وراء إسحاق يعقوب (قال : فكيف البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم
يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ! هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة ،
والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْبَرُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَنَرَكُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَنَرَكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) أي : أنمنا عليهما بالنبوة . وفي (الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) قولان . أحدهما : استبعاد فرعون وبلاؤه ، وهو معنى قول قتادة . والثاني : الفرق ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وَنَصَرْنَاهُمْ) فيه قولان . أحدهما : [أنه] يرجع إلى موسى وهارون وقومهما . والثاني : [أنه] يرجع إليهما فقط ، فجُئما ، لأن العرب تذهب بالرئيس إلى الجمع ، لجنوده وأتباعه ، ذكرهما ابن جرير . وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأنبياء : ٤٨] إلى قوله : (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) فيه قولان .

أحدهما : أنه نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إدريس ، قاله ابن مسعود ، وقطادة ، وكذلك كان يقرأ

ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : « وَإِنَّ إدريسَ » مكان « إِلْيَاس » .

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ) أي : ألا تخافون الله فتوحّدونه وتعبدونه ؟! (أُنَدُّعُونَ بَعْلًا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الرّبّ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . وقال الضحاك : كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف ، فبينما هو جالس ، إذ مرّ أعرابي قد ضلّت ناقته وهو يقول : من وجد ناقه أنا بطلها ، فبعمه الصبيان يصيحون به : يا زوج الناقة ، يا زوج الناقة ، فدعاه ابن عباس فقال : ويحك ، ما عنيت بطلها ؟ قال : أنا ربّها ، فقال ابن عباس : صدق الله « أُنَدُّعُونَ بَعْلًا » : ربّا . وقال قتادة : هذه لغة يمانية .

والثاني : أنه اسم صنم كان لهم ، قاله الضحاك ، وابن زيد . وحكى ابن جرير أنه به مُسمّيت « بعلبك » .

والثالث : أنها امرأة كانوا يعبدونها ، حكاه محمد بن إسحاق (١) .

قوله تعالى : (اللَّهُ رَبُّكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « الله ربكم » بالرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : « الله » بالنصب .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (لمن المرسلين) يقول جل ثناؤه : المرسل من المرسلين (إذ قال لقومه أَلَا تَتَّقُونَ) ؟ يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل : أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ أيها القوم فتخافونه وتحذرون عقوبته على عبادتكم ربّاً غير الله وإسلاً سواه (وتذرون أحسن الخالقين ؟) يقول : وتَدْعُونَ عبادة أحسن من قيل له خالق ؟ ! ثم قال ابن جرير : وللبس في كلام العرب أوجه ، يقولون ربّ الشيء : هو بَعْلُهُ ، يقال : هذا بعل هذه الدار ، يعني ربّها ، ويقولون لزوج المرأة : بطلها ، ويقولون لا كان من الفروس والزرع مستغنياً بماء السماء ولم يكن سقيّاً : بطل . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله : (أُنَدُّعُونَ بَعْلًا) أي : أتعبدون صنّاً (وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟) أي : هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

قوله تعالى : (فكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم مُّحْضَرُونَ) النار ، (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)
الذين لم يكذبوه ، فانهم لا يُحْضَرُونَ النار .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالتفسير والسِّيَر أنه لما كَثُرَت الأحداث بعد قبض حزقيل
النبي عليه السلام ، وعُبِدَت الأوثان ، بَعَثَ اللَّهُ تعالى إليهم إلياس . قال ابن إسحاق :
وهو إلياس بن تشي بن فنحاص بن الميزار بن هارون بن عمران ، فجعل يدعوهم
فلا يسمعون منه ، فدعا عليهم بحبس المطر ، فجهدوا جهداً شديداً ، واستخفى
إلياس خوفاً منهم على نفسه . ثم إنه قال لهم يوماً : إنكم قد هلكتم جَهْداً ،
وهلكت البهائم والشجر بخطاياكم ، فاخرجوا بأصنامكم وادعوها ، فإن استجابت
لكم ، فالأمر كما تقولون ، وإن لم تفعل ، علمتم أنكم على باطل فترَ عثم عنه ،
ودعوتُ الله فقرَّجَ عنكم ، فقالوا : أنصفت ، فخرجوا بأصنامهم وأوثانهم ، فدعوا
فلم يُستجب لهم ، فعفرُوا ضلالهم ، فقالوا : ادعُ الله لنا ، فدعا لهم ، فأرسل
المطر وعاشت بلادهم ، فلم ينزعوا عما كانوا عليه ، فدعا إلياس ربّه أن يقبضه
إليه ويُريجه منهم ، فقبل له : اخرج يومَ كذا إلى مكان كذا ، فما جاءك من
شيء فاركبهُ ولا تهبنهُ ، فخرج ، فأقبل فرَسٌ من نار ، فوثب عليه ، فانطلق
به ، وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذّة المَطْعَم والمَشْرَب ، فطار
في الملائكة ، فكان إنسياً ملكيّاً ، أرضياً سماوياً ^(١) .

(١) ذكر نحو هذا المعنى مطولاً الطبري في « تفسيره » من رواية ابن إسحاق عن وهب
ابن منبه وغيره ، وذكر نحوه ابن كثير في « التفسير » و « التاريخ » ، وقال في « التفسير » : هكذا —
زاد السير ٧ م (٦)

قوله تعالى : (سلامٌ على إياسين) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « إياسين » موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام ، فجعلوها كلمة واحدة ؛ وقرأ الحسن مثلهم ، إلا أنه فتح الهزة . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعبد الوارث ، ويعقوب إلا زيدا : « إل ياسين » مقطوعة ، فجعلوها كلمتين .

وفي قراءة الوصل قولان .

أحدهما : أنه جمعٌ لهذا النبي وأُمَّته المؤمنين به ، وكذلك يُجمع ما يُنسب إلى الشيء بلفظ الشيء ، فنقول : رأيت المهالبة ، تريد : بني المهلب ، والمسامعة ، تريد : بني مسمع .

والثاني : أنه اسم النبي وحده ، وهو اسم عبراني ، والعجمي من الأسماء قد يُفعل به هكذا ، [كما] تقول : ميكال وميكائيل ، ذكر القوانين الفراء والزجاج . فأما قراءة من قرأ : « إل ياسين » مفصولة ، ففيها قولان .

أحدهما : أنهم آل هذا النبي المذكور ، وهو يدخل فيهم ، كقوله عليه السلام : « اللهم صل على آل أبي أوفى » ^(١) ، فهو داخل فيهم ، لأنه هو المراد بالدعاء .

— حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحته . وقال في « التاريخ » : ففي هذا نظر ، وهو من الاسرائيليات التي لاتصدق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة ، والله أعلم . اهـ .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » ٢٨٦/٣ بَابُ صَلَاةِ الْإِمَامِ وَدَعَائِهِ لِصَاحِبِ الصَّدَقَةِ ، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا : ١٤٥/١١ بَابُ هَلْ يَصَلِّي عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ : ٧٥٧/٢ وَلَفْظُهُ بِتَمَامِهِ عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَرْثَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا آتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » . —

• • • • •

— قال الحافظ بن حجر في « الفتح » : ٢٨٦/٣ : قوله « على آل أبي أوفى » يريد أبا أوفى نفسه ، لأن الآل يطلق على ذات الشيء ، كقوله (ﷺ) في قصة أبي موسى (الأشعري) « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » قال : واسم أبي أوفى : علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي ، شهد هو وابنه عبد الله بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وعُمِّر عبد الله إلى أن كان آخر من مات من الصحابة بالكوفة ، وذلك سنة سبع وثمانين (هجرية) . قال ابن حجر : واستدل به (أي الحديث) على جواز الصلاة على غير الأنبياء ، قال : وكرهه مالك والجمهور ، قال : قال ابن التين : وهذا الحديث بكثير عليه ، قال : وقد قال جماعة من العلماء : يدعو أخذ الصدقة للتصدق بهذا الدعاء ، لهذا الحديث ، قال : وأجاب الخطابي عنه قديماً بأن أصل الصلاة : الدعاء ، إلا أنه يختلف بحسب المدعو له ، فصلاة النبي ﷺ على أمته : دعاء لهم بالمغفرة ، وصلاة أمته عليه : دعاء له بزيادة القربى والرفق ، ولذلك كان لا يليق بغيره انتهى . قال : واستدل به على استحباب دعاء أخذ الزكاة لمطها ، قال : وأوجه بعض أهل الظاهر ، وحكام الحنطلي وجهاً لبعض الشافعية ، وتعتب بأنه لو كان واجباً لطعمه النبي ﷺ السعة ، ولأن سائر ما يأخذه الإمام من الكفارات والديون وغيرها لا يجب عليه فيها الدعاء ، فكذلك الزكاة ، قال : وأما الآية (يريد قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ») فيحتمل أن يكون الوجوب خاصاً به (ﷺ) لكون صلاته سكناً لهم ، بخلاف غيره . اهـ .

هذا وقد اختلف العلماء في الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً ، فقال الامام النووي في « شرح مسلم » ١٨٥/٧ : قال أصحابنا : لا يصلّى على غير الانبياء إلا تباً ، لان الصلاة في لسان السلف مخصوصة بالانبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، قال : واختلف أصحابنا في النهي عن ذلك هل هو نهى تنزيه ، أم محرم ، أو مجرد أدب ؟ على ثلاثة أوجه ، الأصح الأشهر أنه مكروه ، قال : واتفقوا على أنه يجوز أن يحمل غير الأنبياء تباً لهم في ذلك ، فيقال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته وأتباعه » لان السلف لم يمنوا منه ، وقد أمرنا به في التشهد وغيره . اهـ .

وقال ابن حجر في « الفتح » : ١٤٦/١١ ، في حكم الصلاة على الأنبياء من المؤمنين : —

والثاني : أنهم آل محمد ﷺ ، قاله الكلبي . وكان عبد الله بن مسعود يقرأ : « سلامٌ على إدراسين » وقد يئتنا مذهبه في أن إلياس هو إدريس .
فان قيل : كيف قال : « إدراسين » وإنما الواحد إدريس ، والمجموع إدريسي ، لا إدراس ولا إدراسي ؟

فالجواب : أنه يجوز أن يكون لغة ، كإبراهيم وإبراهيم ، ومثله :

قَدْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْصَرِ الْخَبِيثِينَ قَدِي^(١)

وقرأ أبي بن كعب ، وأبو نهيك : « سلام على ياسين » بحذف الهزة واللام^(٢) .

— اختلف فيه ، قيل : لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة ، وحكي عن مالك ، قال : وقالت طائفة : لا تجوز مطلقاً استقلالاً ، وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص أو الحق به ، لقوله تعالى : (لا تعجلوا دعاء الرسول بيمينكم كدعاء بعضكم بعضاً) قال : ولأنه لما علمهم السلام قال : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته . قال : وهذا القول اختاره القرطبي في « المفهم » ، وأبو المال من الحنابلة ، قال : وقالت طائفة : تجوز تبعاً مطلقاً ، ولا تجوز استقلالاً ، قال : وهذا قول أبي حنيفة وجماعة ، قال : وقالت طائفة : تكره استقلالاً لا تبعاً ، قال : وهي رواية عن أحمد ، قال : وقال النووي : هو خلاف الأولى ، قال : وقالت طائفة : تجوز مطلقاً ، قال : وهو مقتضى صنيع البخاري ، فانه صدر بالآية ، وهي قوله تعالى : (وصلّ عليهم) ، ثم علّق الحديث الدال على الجواز مطلقاً ، وعقبه بالحديث الدال على الجواز تبعاً ، ثم قال الحافظ ابن حجر : وقال ابن القيم : المختار أن يصلّي على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وآله وذريئته وأهل الطاعة على سبيل الاجمال ، وتكره في غير الأنبياء لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً ، ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه ، كما يفعله الرافضة ، فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً في بعض الأحايين من غير أن يتخذ شعاراً ، لم يكن به بأس ، ولهذا لم يرد في حق غير من أمر النبي ﷺ بقول ذلك لهم وهم من أدعى زكاته إلا نادراً . اهـ .

(١) الرجز لحيد الأرقط كما في « الصحاح » و « اللسان » : قد د ، و « القرطبي » : ١١٨/١٥ .

(٢) قال الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأه (سلام على إلياسين) —

﴿ وَإِنَّ لَوْطًا كُنَّ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ .
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ
عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إِذْ نَجَّيْنَاهُ) « إِذْ » هاهنا لا يتعلق بما قبله ، لأنه لم يُرْسَل
إِذْ نُجِّيَ ، ولكنه يتعلق بمحذوف ، تقديره : واذكُر يا محمد إِذْ نَجَّيْنَاهُ ^(١) . وقد
تقدم تفسير ما بعد هذا [الشراء: ١٧١] إلى قوله : (وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ
مُصْبِحِينَ) هذا خطاب لأهل مكة ، كانوا إذا ذهبوا إلى الشام وجاؤوا ، مرّوا
على قري قوم لوط صباحاً ومساءً ، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتعبرون !

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ كُنَّ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُكِّ الْمَشْحُونِ .
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ .
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

— بكسر ألفها ، على مثال « إدراسين » ، لأن الله تعالى ذكره إنما أخبر عن كل موضع ذكر فيه
نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم في هذه السورة ، بأن عليه سلاماً ، لا على آله ، فكذلك
السلام في هذا الموضع ، ينبئ أن يكون على إلياس ، كسلامه على غيره من أنبيائه ، لا على آله
على نحو ما بينا من معنى ذلك ، ثم قال : فان ظن ظان أن إلياسين غير إلياس ، فان فيها حكينا
من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غنى عن الزيادة فيه . اهـ .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه
فكذبوه ، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فانها هلكت مع من هلك من
قومها ، فان الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلّهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة
المظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مغير يمر بها السافرون ليلاً ونهاراً ، ولهذا قال تعالى :
(إِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟) أي : أفلا تعبرون بهم كيف دمر
الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ؟

فَنَبَذْنَاهُ بِالْمَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَثْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ .
وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَاَمْتُوا فَتَتَعَنَّاهُمْ (إِلَى حِينٍ) *
قوله تعالى : (إِذْ أَبَقَ) ^(١) قال المبرد : تأويل « أَبَقَ » : تباعد ؛ وقال
أبو عبيدة : فَرَعَ ؛ وقال الزجاج : هرب ؛ وقال بعض أهل الماني : خرج
ولم يؤذَن له ، فكان بذلك كالمهرب من مولاه . قال الزجاج : والفلك : السفينة ،
والشحون : الملوء ، وسام بمعنى [قارع] ، (من المُدْحَضِينَ) أي : الملوطين ؛
قال ابن قتيبة : يقال : أدْحَضَ اللهُ حُجَّتَهُ ، فدَحَضَتْ ، أي : أزالها
[فزالت] ، وأصل الدَّحَضُ : الزَّلَق .

الإشارة إلى قصته

قد شرحنا بعض قصته في آخر (يونس) وفي (الأنبياء : ٨٦) على قدر
ما تحتمله الآيات ، ونحن نذكر هاهنا ما تحتمله . قال عبد الله بن مسعود : لما
وعد يونسُ قومه بالعذاب بعد ثلاث ، جَاءُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَغْفَرُوا ،
فكفَّ عنهم العذاب ، فانطلق مغاضباً حتى انتهى إلى قوم في سفينة ، فغرقوه
فحملوه ، فلما رَكِبَ السَّفِينَةَ وَقَفَتْ ، فقال : ما السفينتكم ؟ قالوا : لاندري ،
قال : لكنني أدري ، فيها عبد أبق من ربه ، وإنها والله لا تسير حتى تُلْقُوهُ ،
فقالوا : أمّا أنت يا نبي الله فوالله لا نُلقِيكَ ؛ قال : فاقرعوا ، فن قرع فليقع ،
فاقرعوا ، فغرق يونس ، فأبوا أن يُعَكِّتُوهُ مِنَ الْوُقُوعِ ، فمادوا إلى القرعة حتى قرع
يونس ثلاث مرات . وقال طاووس : إن صاحب السفينة هو الذي قال : إِنَّمَا يَنْتَعِمُ أَنْ تَسِيرَ

(١) قال ابن جرير الطبري : وإن يونس أرسل من المرسلين إلى أقوامهم إذ أبق إلى
الفلك الشحون . اهـ .

أَنْ فِيمَ رَجُلًا مَشْؤُومًا ، فَاقْتَرِعُوا لِنُتْقِ أَحَدَنَا ، فَاقْتَرِعُوا ، فَقَرَعَ يُونُسَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

قال المفسرون : ﴿ كَتَّلَ اللَّهُ بِهِ حَوْتًا ، فَلَمَّا أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ التَّقْمَةَ ، وَأَمَرَ أَنْ لَا يَضُرَّهُ وَلَا يَكْتَلِبَهُ ، وَسَارَتِ السَّفِينَةُ حَيْثُذ . وَمَعْنَى التَّقْمَةِ : ابْتَلَمَهُ . (وَهُوَ مُلِيمٌ) قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : أَيُّ : مُذْنِبٌ ، يَقَالُ : أَلَامَ الرَّجُلُ : إِذَا أَتَى ذَنْبًا يُلَامُ عَلَيْهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

[تَعُدُّ مَعَاذِرًا لَا عُدْرَ فِيهَا] وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَهُ ^(١) قوله تعالى : (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ . أَحَدُهَا : مِنَ الْمُصَلِّينَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ . وَالثَّانِي : مِنَ الْمَابِدِينَ ، قَالَ مجاهد ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبِهٍ . وَالثَّالِثُ : قَوْلُ (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الْأَنْبِيَاءُ : ٨٧] ، قَالَ الْحَسَنُ . وَرَوَى عُمَرَانُ الْقَطَّانُ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : وَاللَّهِ مَا كَانَتْ إِلَّا صَلَاةٌ أَحْدَثَهَا فِي بَطْنِ الْحَوْتِ ؛ فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ ، يَكُونُ تَسْبِيحُهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ . وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ قَبْلَ النِّقَامِ الْحَوْتِ إِتْيَاءً مِنَ التَّسْبِيحِ ، (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قَالَ قَتَادَةُ : لَصَارَ بَطْنُ الْحَوْتِ لَهُ قَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ ، فَنَجَّاهُ اللَّهُ نَجَاتًا بِذَلِكَ ^(٢) .

(١) الْبَيْتُ لِأَمِّ عَمِيرِ بْنِ سُلَيْمٍ الْخَنْزِيِّ ، وَهُوَ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ : ٤٢٢ ، وَدِ الصَّحَاحِ ، وَدِ الْإِسَانِ ، وَدِ التَّاجِ : لَوْمْ .

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : بِقَوْلِ تَعَالَى ذِكْرَهُ : (فَلَوْلَا أَنَّهُ) بِمَعْنَى يُونُسَ (كَانَ) مِنَ الْمَصْلُومِينَ قَبْلَ الْبَلَاءِ الَّذِي ابْتَلَى بِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِالْحَبْسِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) يَقُولُ : لَبَقِيَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَوْمَ يَمِثُّ اللَّهُ فِيهِ خَلْقَهُ عَجُوسًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ قَبْلَ الْبَلَاءِ ، فَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي حَالِ الْبَلَاءِ فَأَنْقَذَهُ وَنَجَّاهُ . اهـ .

وفي قَدَر مَكْنَه في بطن الحوت خمسة أقوال . أحدها : أربعون يوماً ،
قاله أنس بن مالك ، وكعب ، وأبو مالك ، وابن جريج ، والسدي . والثاني :
سبعة أيام ، قاله سعيد بن جبير ، وعطاء . والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مجاهد ،
وقتادة . والرابع : عشرون يوماً ، قاله الضحاك . والخامس : بعض يوم ، التقمه
ضحى ، وبذره قبل غروب الشمس ، قاله الشعبي ^(١) .

قوله تعالى : (فَنَبَذْنَاهُ) قال ابن قتبية : أي : ألقيناه (بالراء) وهي
الأرض التي لا يتوارى فيها شجر ولا غيره ، وكأنه من عري الشيء .
قوله تعالى : (وَهُوَ سَقِيمٌ) أي : مريض ؛ قال ابن مسعود : كهيئة
الفرخ المموط الذي ليس له ريش . وقال سعيد بن جبير : أوحى الله تعالى إلى
الحوت أن ألقه في البر ، فألقاه لاشعر عليه ولا جلده ولا ظفر .

قوله تعالى : (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ) قال ابن عباس : هو القرع ،
وقد قال أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام :

فَأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ الْفِي ضَاحِيَا ^(٢)
قال الزجاج : كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتد على وجه الأرض نحو القرع
والبطيخ والحنظل ، فهي يقطين ، واشتقاقه من : قطن بالمكان : إذا أقام ، فهذا
الشجر ورقه كله على وجه الأرض ، فلذلك قيل له : يقطين . قال ابن مسعود :
كان يستظل بها ويصيب منها فيسب فبكى عليها ، فأوحى الله إليه : أنبكي على
شجرة أن يبست ، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكم ؛ قال
يزيد بن عبد الله بن قسيب : قبض [الله] له أروية من الوحش تروح عليه
بكرة وعشياً فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه .

(١) قال ابن كثير : بعد أن ذكر هذه الأقوال : والله أعلم بمقدار ذلك . اهـ .

(٢) البيت في الطبري : ١٠٣/٢٣ ، وجمع البيان : ٨٤/٢٣ ، والبحر المحيط : ٣٧٥/٧ .

فان قيل : ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها ؟

فالجواب : أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا ، وجلده قد ذاب ، فأذني شيء يمر به يؤذيه ، وفي ورق اليقطين خاصية ، وهو أنه إذا ترك على شيء ، لم يقربه ذباب ، فأثبت الله عليه لينطيه ورقها ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه (١) .

قوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف) اختلفوا ، هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه ، أم بعد ذلك ؟ على قولين .
أحدهما : أنها كانت بعد نبذ الحوت إياه ، على ما ذكرنا في (يونس : ٩٨) ، وهو مروى عن ابن عباس .

والثاني : أنها كانت قبل التقام الحوت له ، وهو قول الأكثرين ، منهم الحسن ، ومجاهد ، وهو الأصح ، والمعنى : وكنا أرسلناه إلى مائة ألف ، فلما خرج من بطن الحوت ، أمر أن يرجع إلى قومه الذين أرسل إليهم (٢) .
وفي قوله : (أو) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى « بل » قاله ابن عباس ، والفراء .

والثاني : أنها بمعنى الواو ، قاله ابن قتيبة . وقد قرأ أبي بن كعب ، ومعاذ القاري ، وأبو التوكل ، وأبو عمران الجوني : « ويزيدون » من غير ألف .

(١) قال ابن كثير : وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونموته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بله وقشره أيضاً ، قال : وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب اللبلاء ويتبعه من حواشي الصحف . اهـ .
(٢) قال ابن كثير : قلت : ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً ، أمر بالسود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم . اهـ .

والثالث : أنها على أصلها ، والمعنى : أو يزيدون في تقديركم ، إذا رآهم الرائي قال : هؤلاء مائة ألف أو يزيدون .

وفي زيادتهم أربعة أقوال . أحدها : أنهم كانوا مائة ألف يزيدون عشرين ألفاً ، رواه أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ^(١) . والثاني : أنهم كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً . والثالث : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً ، رواه عن ابن عباس . والرابع : أنهم كانوا يزيدون سبعين ألفاً ، قاله سعيد بن جبيرة ، ونوف .

قوله تعالى : (فَأَمِّنُوا) في وقت إيمانهم قولان . أحدهما : عند معاينة العذاب . والثاني : حين أرسل إليهم يونس (فتغاثم إلى حين) إلى منتهى آجالهم . ﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ يَقُولُونَ . وَلَهُ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَأَنُتُوا بِكِتَابِكُمْ . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . إِنْ أَعْبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ . فَأَتَّكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَانِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَفْتِهِم) أي : سل أهل مكة سؤال توبيخ وتقرير ، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله . (وهم شاهدون) أي : حاضرون . (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ) أي : كذبهم (يَقُولُونَ ، وَلَهُ اللَّهُ) حين زعموا أن الملائكة بناته .

(١) رواه ابن جرير الطبري : ١٠٤/٢٣ ، والترمذي : ١٥٥/٢ وقال : حديث غريب ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢١٩/٥ ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

قوله تعالى : (اصْطَفَى الْبَنَاتِ) قال الفراء : هذا استفهام فيه توبيخ لهم ، وقد أُطرح ألف الاستفهام من التوبيخ ، ومثله : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَانِكُمْ) [الأحقاف: ٢٠] ، و « أَذْهَبْتُمْ » يُسْتَفْهَمُ بِهَا وَلَا يُسْتَفْهَمُ ، ومعناها واحد . وقرأ أبو هريرة ، وابن المسيّب ، والزهرى ، وابن جاز عن نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة : « وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ اصْطَفَى » بالوصل غير مهموز ولا ممدود ؛ قال أبو علي : وهو على [وجه] الخبر ، كأنه قال : اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ كَمَا يَقُولُونَ ، كقوله : (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان : ٤٩] .

قوله تعالى : (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) لله بالبنات وَلَا تُقْسِمُ بِالْبَنِينَ !! (أم لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) أي : حُجَّةٌ [يَبِّئْهُ] عَلَى مَا تَقُولُونَ ، (فَاثْبُتُوا بَكُتَابِكُمْ) الَّذِي فِيهِ حُجَّتُكُمْ .

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أَنَّهُمْ قَالُوا : هُوَ وَإِبْلِيسُ أَخَوَانٌ ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ قال الماوردي : وهو قول الزنادقة والذين يقولون : الْخَيْرُ مِنَ اللَّهِ ، وَالشَّرُّ مِنْ إِبْلِيسَ . والثاني : أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ، وَالْجَنَّةُ صِنْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمْ : الْجَنَّةُ ، قاله مجاهد .

والثالث : أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ : إِنْ اللَّهُ تَعَالَى تَزَوَّجَ إِلَى الْجِنِّ فَخَرَجَتْ مِنْ بَيْنِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، قاله قتادة ، وابن السائب .

فخرج في معنى الْجَنَّةِ قولان . أحدهما : أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ . والثاني : الْجِنُّ . فملى الأول ، يكون معنى قوله : (وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجَنَّةَ) أي : عَلِمْتِ الْمَلَائِكَةَ (إِنَّهُمْ) أي : إِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ (لَمُحْضَرُونَ) النَّارِ .

وعلى الثاني ، [« ولقد عَلِمَتِ الْجِنَّةُ »] إناهم « أي : إن الجن أُنفسها
« لَمُحْضَرُونَ » الحساب ^(١) .

قوله تعالى : («إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ») يعني الموحدين . وفيما استثنوا
منه قولان .

أحدهما : أنهم استثنوا من حضور النار ، قاله مقاتل . والثاني : مما يصف
أولئك ، وهو معنى قول ابن السائب .

قوله تعالى : (فَأَنكُمْ) يعني المشركين (وَمَا تَعْبُدُونَ) من دون الله ،
(مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ) أي : على ما تَعْبُدُونَ (بِفِتَانَيْنِ) أي : بِمُضِلِّينَ أَحَدًا ،
(إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ) أي : مَنْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ النَّارَ .
﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْدُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ .
وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ . وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّا عِنْدَنَا
ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .
إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ .
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ . وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى
حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
مَهْمَا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
ثم أخبر عن الملائكة بقوله : (وَمَا مِنَّا) والمعنى : مَا مِنَّا مَلَكَ (إِلَّا لَهُ

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : إناهم
لمحضرون المذاب ، لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الاحضار في هذه السورة إنما عني به
الاحضار في المذاب ، فكذلك في هذا الموضع . اهـ .

مَقَامٌ مَعْلُومٌ) أي : مكان في السموات مخصوص يعبد الله فيه ، (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) قال قتادة : صفوف في السماء . وقال السدي : هو الصلاة . وقال ابن السائب : صفوفهم في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ^(١) .

قوله تعالى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) فيه قولان . أحدهما : المصلّون . والثاني : المنزهون لله عز وجل عن السوء . وكان عمر بن الخطاب إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه وقال : يا أيها الناس استووا ، فإنما يريد الله بكم هدي الملائكة ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ .

ثم عاد إلى الإخبار عن المشركين ، فقال : (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُوا) اللام في « لَيَقُولُوا » لام تأكيد ؛ والمعنى : وقد كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبي ﷺ : (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا) أي : كتاباً (مِنْ الْأَوَّلِينَ) أي : مثل كتب الأولين ، وهم اليهود والنصارى ، (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) أي : لأخلصنا العبادة لله عز وجل .

(فَكَفَرُوا بِهِ) فيه اختصار ، تقديره : فلما آتاهم ما طلبوا ، كفروا به ، (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة كفرهم ، وهذا تهديد لهم .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا) أي : تقدّم وعدنا للرسلين بنصرهم والكلمة قوله : (كَتَبَ اللَّهُ الْأَغْلِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي) [المجادلة : ٢١] ، (لَأَنهَمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ) بالحجّة ، (وَإِنْ جُنَدْنَا) يعني حزبنا المؤمنين (لَهُمُ الْغَالِبُونَ) بالحجّة أيضاً والظفر . (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أي : أعرض عن كفار مكة (حَتَّى حِينٍ) أي : حتى تنقضي مُدَّةُ إِمهالهم . وقال مجاهد : حتى نأمرك بالقتال ؛

(١) روى مسلم في « صحيحه » : ٣٧١/١ عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثَ : جِئْتُ صَفُوفًا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجِئْتُ لَنَا الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِدًا ، وَجِئْتُ حُرْبَهَا لَنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ » .

فملى هذا ، الآية مُحْكَمَةً . وقال في رواية : حتى الموت ؛ وكذلك قال قتادة .
وقال ابن زيد : حتى القيامة ؛ فملى هذا ، يتطرق نسخها . وقال مقاتل بن حيان :
نسخها آية القتال .

قوله تعالى : (وَأَبْصِرْهُمْ) أي : انظر إليهم إذا نزل العذاب . قال
مقاتل بن سليمان : هو العذاب يدر ؛ وقيل : أَبْصِرْ حالهم بقلبك (فسوف
يُنْصِرُونَ) ما أنكروا ، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكذيباً به ، فقيل :
(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) (١) .

(فإذا نزل) يعني العذاب . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران ، والجحدري ،
وابن عمر : « فإذا نُزِلَ » برفع النون وكسر الزاي وتشديدها (بِسَاحَتِهِمْ)
أي : بفنائهم وناحياتهم . والسَّاحَةُ : فناء الدَّار . قال الفراء : العرب تكفي
بالساحة والمعقوة من القوم ، فيقولون : نزل بك العذاب وبساحتك . قال الزجاج :
فكان عذاب هؤلاء القتل (فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) أي : بِئْسَ صَبَاحُ الَّذِينَ
أُنْذِرُوا العذاب (٢) .

ثم كرر ما تقدم توكيذا لوعده بالعذاب ، فقال : (وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ ...) الآيتين .
ثم نزه نفسه عن قولهم بقوله : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ) قال
مقاتل : يعني عِزَّةَ مَنْ يَتَعَزَّزُ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا .

قوله تعالى : (عَمَّا يَصِفُونَ) أي : من اتخذ النساء والأولاد .

(١) قال ابن كثير : (فسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) أي : بِئْسَ مَا يَصْبِحُونَ ، أي : بِئْسَ الصَّباحُ
صباحهم ، قال : ولهذا ثبت في « الصحيحين » عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صَبَّحَ
رسول الله ﷺ خيراً ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومسايحهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون :
مُحَمَّدٌ وَآلُهُ ، مُحَمَّدٌ وَالْحَبَشِيُّ ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا
بساحة قوم فسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » . اهـ .

(وسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) فِيهِ وَجْهَان . أَحَدُهُمَا : تَسْلِيمُهُ عَلَيْهِمْ إِكْرَامًا
لَهُمْ . وَالثَّانِي : إِخْبَارُهُ بِسَلَامَتِهِمْ .
(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) عَلَى هَلَاكِ الْمُشْرِكِينَ وَنُصْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ ^(١) .



(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِي : (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يَقُولُ تَمَآلَى ذِكْرَهُ : وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ خَالصًا دُونَ مَا سِوَاهُ ، لِأَنَّهُ كُلُّ نِعْمَةٍ لِعِبَادِهِ ، فَتَنَةٌ ، فَالْحَمْدُ لَهُ خَالِصٌ
لِاشْرِيكَ لَهُ ، كَمَا لِاشْرِيكَ لَهُ فِي نَيْصِهِ عِنْدَهُمْ ، بَدَلُ كُلِّهَا مِنْ قِبَلِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ . اهـ .

سورة ص

ويقال لها : سورة داود ، وهي مَكِّيَّة [كُلُّهَا] باجماعهم

فأما سبب نزول أولها ، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن قريشاً
شكروا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك ؟
فقال : « يا عم ، إنما أريد منهم كلمة تَذِلُّ لهم بها العرب وتؤدِّي إليهم الجزية
بها العجم » ، قال : كلمة ؟ قال : « كلمة واحدة » ، قال : ماهي ؟ قال :
« لا إله إلا الله » ، فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ! فنزلت فيهم : (ص
والقرآن) إلى قوله : (إن هذا إلا اختلاق) (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ
وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَكَلَّتْ حِينَ
مَنَاصٍ ﴾

(١) رواه أحمد ، والترمذي : ١٥٥/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الترمذي :

هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم في « مستدركه » : ٣٢٢/٢ وصححه ، —

واختلفوا في معنى « ص » على سبعة أقوال .
أحدها : أنه تَسَمَّ أَقْسَمَ اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة
عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى : صَدَقَ مُحَمَّدٌ ، رواه عطاء عن ابن عباس .
والثالث : صَدَقَ اللهُ ، قاله الضحاك . وقد روي عن ابن عباس أنه قال :
معناه : صادق فيما وَعَدَ . وقال الزجاج : معناه : الصادقُ اللهُ تعالى .
والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، أَقْسَمَ اللهُ به ، قاله قتادة .
والخامس : أنه اسم حَيَّةَ رأسها تحت العرش وذنبها تحت الأرض السفلى ،
حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وقال : أظنه عن عكرمة .

والسادس : أنه بمعنى : حَادِثِ القرآن ، أي : انظر فيه ، قاله الحسن ،
وهذا على قراءة من كسروا ، منهم ابن عباس ، [والحسن] ، وابن أبي عبله . قال
ابن جرير : فيكون المعنى : صَادِرٍ بِمَمْلِكِ القرآن ^(١) ، أي : عارضه . وقيل :
اعْرِضْهُ على مملك ^(٢) ، فانظر أين هو [منه] .

والسابع : أنه بمعنى : صَادَ مُحَمَّدٌ قُلُوبَ الْخَلْقِ واسمائها حتى آمنوا به وأحبوه ،
حكاه الثعلبي ^(٣) ، وهذا على قراءة من فتح ، وهي قراءة أبي رجا ، وأبي الجوزاء ،

— ووافقه الذهبي . ورواه الطبري : ١٢٥/٢٣ ، والواحدي : ٢٠٩ ، وذكره السيوطي في
« الدرر » : ٢٩٥/٥ ، وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ،
وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها .

(١) في الأصل : صاد بملك القرآن ، ولعله سهو من الناسخ ، وقد كتب على العوالم بمد
قليل ، وما أثبتاه من الطبري وكتب التفسير و « اللسان » : صدي .
(٢) تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور في التعليل الذي في أول سورة
(المنكوت) وغيرها بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وقد تكلم المصنف على ذلك في أول
سورة (البقرة) .
زاد المسير ٧ م (٧)

وحيد ، ومحبوب عن أبي عمرو . قال الزجاج : والقراءة « صاد » بتسكين الدال ، لأنها من حروف التهجّي . وقد قرئت بالفتح وبالكسر ؛ فمن فتحها ، فعلى ضربين . أحدهما : لالتقاء الساكنين . والثاني : على معنى : أثل « صاد » ، ويكون [صاد] اسماً للسورة لا ينصرف ؛ ومن كسر ، فعلى ضربين . أحدهما : لالتقاء الساكنين أيضاً . والثاني : على معنى : صاد القرآن بملك ، من قولك : صَادَى بُصَادِي : إذا قَابَلَ وعَادَلَ ، يقال : صَادَيْتُهُ : إذا قَابَلْتَهُ ^(١) .

قوله تعالى : (ذِي الذِّكْرِ) في المراد بالذِّكْرِ ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الشَّرَف ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والسدي . والثاني : البيان ، قاله قتادة . والثالث : التذكير ، قاله الضحاك ^(٢) .

فان قيل : أين جواب القسم بقوله : « ص - وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » ؟
فمنه خمسة أجوبة :

أحدها : أن « ص - » جواب لقوله : « وَالْقُرْآنِ » ، فـ « ص » في معناها ، كقولك : وَجِبَ وَاللَّهِ ، نَزَلَ وَاللَّهِ ، حَقٌّ وَاللَّهِ ، قاله الفراء ، وطلب .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكون في كل ذلك ، لأن ذلك القراءة التي جاءت بها قراء الأمصار مستفيضة فيهم ، وأنها حروف هيء لأسماء المسميات ، فيُسَرَّبْنَ لإعراب الأسماء والأدوات والأصوات ، فيُسَلِّكُ بهن مسالكهن ، فتأويلها إذا كانت كذلك تأويل نظرهما التي قد تقدم بيانها فيما مضى . اهـ .

(٢) رجع الطبري القول الثالث ، وهو أنه معنى التذكير ، قال : لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكراً لعباده ذكراً به ، وأن الكفار من الأيمان به في عزة وشقاق . اهـ . وقال ابن كثير : إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يستبر ، وإنما لم يتفجع به الكافرون ، لأنهم (في عزة) أي : استكبار عنه وحمية (وشقاق) أي : ومخالفة له ومعاودة ومفارقة . اهـ .

والثاني : أن جواب « ص » قوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » ، ومعناه : لَكُمْ ، فلما طال الكلام ، حُذِفَت اللامُ ، ومِثْلُهُ : (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) (قَدْ أَفْلَحَ) [الشمس : ١ و ٩] ، قَاتِ الْمُنَى : لقد أَفْلَحَ ، غير أنه لما اعترض بينهما كلام ، تبعه قوله : « قَدْ أَفْلَحَ » ، حكاه الفراء ، وتعلب أيضاً .

والثالث : أنه قوله : « إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ » [ص : ١٤] ، حكاه الأَخْفَشُ .

والرابع : أنه قوله : « إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » [ص : ٦٤] ، قاله الكسائي ، وقال الفراء : لا نجد مستقيماً في العربية ، لتأخره جداً عن قوله : « وَالْقُرْآنِ » .

والخامس : أن جوابه محذوف ، تقديره : والقرآن ذي الذِّكْرِ ما الأَمْرُ كما يقول الكُفَّار ، ويدل على هذا المحذوف قوله : (بَلِّ الْقَيْنِ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) ، ذكره جماعة من المفسرين ، وإلى نحوه ذهب قتادة ^(١) . والعِزَّةُ : الحِمِيَّةُ والتكبر عن الحق . وقرأ عمرو بن العاص ، وأبو رزين ، وابن عمر ، وعاصم الجحدري ، ومحبوب عن أبي عمرو : « فِي غِرَّةٍ » بنين معجزة وراء غير معجزة . والشِّقَاقُ : الخِلاف والمداوة لرسول الله ﷺ ، وقد سبق بيان الكلمتين مشروحاً [البقرة : ٢٠٦ ، ١٣٨] .

ثم خوفهم بقوله : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) يعني الأمم الخالية (فَنَادَوْا) عند وقوع الهلاك بهم . وفي هذا النداء قولان أحدهما : أنه الدعاء . والثاني : الاستغاثة .

(١) وهو الذي رجحه الطبري في « تفسيره » .

قوله تعالى : (ولاتَ حِينَ مَنَاصٍ) وقرأ الضحاك ، وأبو المتوكل ،
 وماسم الجحدري ، وابن يعمر : « ولاتَ حِينُ » بفتح التاء ورفع النون . قال
 ابن عباس : ليس حين يروه فرار . وقال عطاء : في لغة أهل اليمن « لاتَ »
 بمعنى « ليس » . وقال وهب بن منبه : هي بالسريانية . وقال الفراء : « لاتَ »
 بمعنى « ليس » ، والمعنى : ليس بحين فرار . ومن القراء من يخفف « لاتَ » ،
 والوجه التصب ، لأنها في معنى « ليس » ، أنشدني المفضل :
 تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لَاتَ حِينًا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِيْنًا^(١)
 قال ابن الأنباري : كان الفراء والكسائي والخليل وسيبويه والأخفش وأبو عبيدة
 يذهبون إلى أن التاء في قوله : « ولاتَ » منقطعة من « حين » ، قال : وقال
 أبو عبيدة : الوقف عندي على هذا الحرف « ولا » ، والابتداء « تحين »
 لثلاث حُجج .

إحداهن : أن تفسير ابن عباس يشهد لها ، لأنه قال : ليس حينَ يروهُ
 فرار ؛ فقد عُلِمَ أنَّ « ليس » هي أخت « لا » وفي معناها .
 والحجة الثانية : أننا لانجدُ في شيء من كلام العرب « ولات » ، إنما
 المعروفة « لا » .

والحجة الثالثة : أن هذه التاء ، إنما وجدناها تلتحق مع « حين » ومع « الآن »
 ومع الـ « أوان » ، فيقولون : كان هذا تحين كان ذلك ، وكذلك : « تأوان » ،
 ويقال : اذهب تَلانَ ، ومنه قول أبي وجزة السعدي :

(١) البيت في « الطبري » : ١٢٢/٢٣ ، و « جمع البيان » : ٩٥/٢٣ ، و « القرطبي » :

الْمَاطِفُونَ تَحِينَ مَامِينَ عَاطِفِ

وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَامِينَ مُطْعِمِ^(١)

وذكر ابن قتيبة عن ابن الأعرابي أن معنى هذا البيت : « الماطفونة » بالهاء ، ثم تبدى : « حين مامين عاطف » ؛ قال ابن الأنباري : وهذا غلط ، لأن الهاء إنما تُفَحِّم على الثون في مواضع القَطْع والسُّكُون ، فأما مع الاتصال ، فإنه غير موجود . وقال علي بن أحمد النيسابوري : التحويثون يقولون في قوله : « ولات » : هي « لا » زبدت فيها التاء ، كما قالوا : « ثم وثمت » ، ورُبَّ ورُبَّتْ ، وأصلها هاءٌ وصِلَتْ بـ « لا » ، فقالوا : « لاه » ، فلتاً وصلوها ، جملوها تاءً ؛ والوقف عليها بالتاء عند الزجاج ، وأبي علي ، وعند الكسائي بالهاء ، وعند أبي عبيد الوقف على « لا »^(٢) .

فأما المناس ، فهو الفرار . قال الفراء : النَّوْصُ في كلام العرب : التأخر ؛ والبَوْصُ : التقدم ، قال امرؤ القيس :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلَمَى إِذْ نَأَتْكَ تَنْوُصُ

قَتَّةٌ نَصُرُ عَنْهَا خَطْوَةً وَتَبْوُصُ^(٣)

(١) البيت في « مشكل القرآن » : ٤٠٤ ، و « الطبري » : ١٢٣/٢٣ ، و « اللسان » و « التاج » : حين .

(٢) قال ابن كثير : وهذه الكلمة ، وهي « لات » هي « لا » التي لفتي زبدت مما التاء - كما زاد في « ثم » ، فيقولون : « ثمت » ، و « رب » فيقولون : « ربَّت » - وهي مفصلة (يعني كلمة « لا ») ، والوقف عليها ، قال : ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بـ « حين » ، ولا تحين مناس « قال : والمشهور الأول ، قال : ثم قرأ الجمهور ينصب « حين » تقديره : وليس الحين حين مناس . اهـ .

(٣) ديوانه : ١٧٧ ، و « غريب القرآن » : ٣٧٦ ، و « الطبري » : ١٢٠/٢٣ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١٢٧/١ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » بوس .

وقال أبو عبيدة : المَنَاصُ : مصدر نَاصَ بَنُوصُ ، وهو المنجى والفوز .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَكُنْفًى يَرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مَنْ يَذِّنْنا بَلْ مُمٌ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَبْذُوقُوا عَذَابَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ . جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾

قوله تعالى : (وعجبوا) يعني الكفار (أن جاءهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) يعني رسولا من أنفسهم يُنْذِرُهم النَّارَ .

(أجعل الآلهة إلهاً واحداً) لأنه دعاء إلى الله وحده وأبطل عبادة آلهم ؛ وهذا قولهم لما اجتمعوا عند أبي طالب ، وجاء رسول الله ﷺ فقال : « أَتُمَطُونِي كَلِمَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمَ ، وَهِيَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، فقاموا يقولون : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا » ، ونزلت هذه الآية فيهم^(١) . (إن هذا) [الذي] يقول محمد من أن الآلهة إله واحد (لَشَيْءٌ عُجَابٌ) أي : لأمرٌ عَجَبٌ . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المالية ، وابن يعمر ، وابن السميع :

(١) تقدم تخريج الحديث في أول السورة حيث ذكر المصنف هناك سبب نزول هذه الآيات من أول السورة إلى هنا ، وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٤١ : وروى الترمذي والنسائي وابن جبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمار عن سميد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها قال : مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي ﷺ . . . الحديث .

« عَجَبٌ » بتشديد الجيم . قال اللغويون : العُجَاب والمُعْجَاب والمعجيب بمعنى واحد ، كما تقول : كَبِيرٌ وَكُبَارٌ وَكُبَّارٌ ، وَكَرِيمٌ وَكُرَامٌ وَكُرَّامٌ ، وَطَوِيلٌ وَطُؤَالٌ وَطُؤَالٌ ؛ وأنشد الفراء :

جَاؤُوا بِصَيْدٍ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبِ أَذْيَرِقِ الْعَيْنِينَ طُؤَالِ الذَّنَبِ^(١)
قال قتادة : عجب المشركون أن دُعي الله وَحْدَهُ ، وقالوا : أَيْسَمَعُ لِحَاجَتِنَا
جميعاً إلهٌ واحد ؛

قوله تعالى : (وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ) قال المفسرون : لما اجتمع أشرف قريش عند أبي طالب وَشَكُّوا إليه رسولَ الله ﷺ على ما سبق بيانه ، نفروا من قول : « لا إله إلا الله » ، وخرجوا من عند أبي طالب ، فذلك قوله : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ » . والانطلاق : الدَّهَابُ بسهولة ، ومنه طَلَاقَةُ الْوَجْهِ . والمَلَأُ : أشرف قريش . فخرجوا يقول بعضهم لبعض : (امشُوا) . و (أن) بمعنى « أي » ؛ فالمعنى : أي : امشُوا . قل الزجاج : ويجوز أن يكون المعنى : انْطَلَقُوا بِأَنْ امشُوا ، أي : انْطَلَقُوا بهذا القول . وقال بعضهم : المعنى : انْطَلَقُوا يَقُولُونَ : امشُوا إلى أبي طالب فاشْكُوا إليه ابن أخيه ، (واصبروا على ألهمكم) أي : اثبتوا على عبادتها (إنَّ هذا) الذي نراه من زيادة أصحاب محمد (كَشَى بُرَادٌ) أي : لَأَمْرٌ يُرَادُ بِنَا .

(مَا سَمِعْنَا بهذا) الذي جاء به محمدٌ من التوحيد (فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ)

وفيهما ثلاثة أقوال .

أحدها : النصرانية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد ، وبه قال محمد بن كعب القرظي ، ومقاتل .

(١) البيت في « جمع البيان » : ٩٤/٢٣ .

والثاني : أنها مِلَّةٌ قريش ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة .
 والثالث : اليهودية والنصرانية ، قاله الفراء ، والزجاج ؛ والمعنى أن اليهود
 أشركت بعزير ، والنصارى قالت : ثالث ثلاثة ، فهذا أَذْكَرَتِ التوحيدَ .
 (إن هذا) الذي جاء به محمدٌ ﷺ (إلا اختلاقٌ) أي : كذب . (أنزل
 عليه الذكر) يمنون القرآن . « عليه » يمنون رسول الله ﷺ ، (من بيننا) أي :
 كيف خُصَّ بهذا دوننا وليس بأعلانا نسباً ولا أعظمنا شرفاً ؛ قال الله تعالى :
 (بَلْ لَّكُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي) أي : من القرآن ؛ والمعنى أنهم ليسوا على
 يقين مما يقولون ، إنما هم شاكِّون (بَلْ لَمَّا) قال مقاتل : « لَمَّا » بمعنى « لم »
 كقوله : (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات : ١٤] . وقال غيره : هذا
 تهديد لهم ؛ والمعنى أنه لو نزل بهم العذاب ، علموا أن ما قاله محمدٌ حقٌ . وأثبت
 ياء (عذابي) في الحاليين يعقوب .

قال الزجاج : ولما دَلَّ قولهم : « أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » على حسدِهم له ،
 أعلم الله عز وجل أن المُلْكُ والرِّسَاله إليه ، فقال : (أَمْ عِنْدَ خَزَائِنِ رَحْمَةِ
 رَبِّكَ) ؛ قال المفسرون : ومعنى الآية : بأيديهم مفاتيحُ النبوة فيضمونها حيث
 شاؤوا ؛ والمعنى : ليست بأيديهم ، ولا مُلْكُ السموات والأرض لهم ، فإن
 ادَّعَوْا شيئاً من ذلك (فَكَيْفَ تَقْبَلُوا فِي الْأَسْبَابِ) قال سعيد بن جبیر :
 أي : في أبواب السماء . وقال الزجاج : فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء .
 قوله تعالى : (جُنْدٌ) أي : مُمَّ جُنْدٌ . والجُنْد : الأتباع ؛ فكانه قال :
 مُمَّ أَتْبَاعٌ مقلِّدون ليس فيهم حَالِمٌ راشد . و (ما) زائدة ، و (هنالك)
 إشارة إلى بدر . والأحزاب : جميع مَنْ تقدَّمهم من الكفار الذين تحزَّبوا على

الأنبياء . قال قتادة : أخبر الله نبيه وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين ، فجاء تأويلها يوم بدر .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَنَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ . وَمَا يَنْتَظِرُ هَوَلَاءُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْتِيًا مِنْ فَوْاقِ ﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) ^(١) قال أبو عبيدة : قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ يُؤْتُونَ « الْقَوْم » ، وقوم يذكرون ، فإن احتج عليهم بهذه الآية ، قالوا : وقع المعنى على المشيرة ، واحتجوا بقوله : (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) [عبس : ١١] ، قالوا : والمضمّر مذكّر .

قوله تعالى : (وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ) فيه ستة أقوال .

أحدها : أنه كان يمدّب الناس بأربعة أوتاد يشدّهم فيها ، ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتشدّخه ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد : كان يمدّب الناس بأوتاد يُونِدُها في أيديهم وأرجلهم .

والثاني : أنه ذو البناء المحكم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضحاك ، والقرظي ، واختاره ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : مُّمٌّ في عزٍّ ثابت الأوتاد ، ومثلك ثابت الأوتاد ، يريدون أنه دائم شديد ، وأصل هذا ، أن البيت [من بيوتهم] يثبت بأوتاد ، قال الأسود بن يعفر :

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حلّ بهم من المذاب والنكال والفقاه في غافلة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال : وقد تقدمت قصصهم مبسوطاً في أماكن متعددة . اهـ .

[ولقد غنّوا فيها بأنهم عيشة] في ظل ملك كاتبت الأوتاد^(١)
 والثالث : أن المراد بالأوتاد : الجنود ، رواه عطية عن ابن عباس ، وذلك
 أنهم كانوا يشدون ملكه ويقوون أمره كما يقوي الوتد الشيء .
 والرابع : أنه كان يني مناراً يذبح عليها الناس .
 والخامس : أنه كان له أربع أسطوانات ، يأخذ الرجل فيمده كل قاعة
 إلى أسطوانة فيمده ، روي القولان عن سعيد بن جبير .
 والسادس : أنه كانت له أوتاد وأرساف وملاعب يلعب له عليها ، قاله
 عطاء ، وقادة^(٢) .

ولما ذكر المكذبين ، قال : (أولئك الأحزاب) فأعلمنا أن مشركي قريش
 من هؤلاء ، وقد عذبوا وأهلكوا ، (فحق عقاب)^(٣) ، أثبت الياء في الحاليين

(١) البيت في « غريب القرآن » : ٣٧٧ ، و « البحر المحيط » : ٣٨٦/٧ ، و « القرطبي » :
 ١٥٥/١٥ ، و « الفضليات » : ٣١٧ . ومعنى « غنّوا » : أقاموا ، يقال : غنينا بمكان
 كذا وكذا .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بذلك
 الأوتاد ، إما لتعذيب الناس ، وإما ليلعب كان يلعب له بها ، وذلك أن ذلك هو المعروف من
 معنى الأوتاد (وغود وقوم لوط) وقد ذكرنا أخبار كل هؤلاء فيما مضى قبل من كتابنا
 هذا ، قال : (وأصحاب الآية) يعني : وأصحاب النيضة . اهـ .

(٣) في الأصل : فكيف كان عقاب ، ولعل المصنف رحمه الله اشتبهت عليه هذه الآية بآية سورة
 (الرعد : ٣٣) . قال ابن جرير الطبري : وقوله : (أولئك الأحزاب) يقول تعالى ذكره :
 هؤلاء الجماعات المتممة والأحزاب المنحزبة على معاصي الله والكفر به ، الذين منهم يا محمد مشركو
 قومك ، ومسلوكهم سيئهم (إن كل إلا كذب الرسل) يقول : ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب
 رسل الله (فحق عقاب) يقول : فوجب عليهم عقاب الله إياهم . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله تعالى :
 (أولئك الأحزاب) أي : كانوا أكثر منكم ، وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك
 عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ، قال : ولهذا قال عز وجل : (إن كل إلا كذب الرسل
 فحق عقاب) فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . اهـ .

يعقوب . (وما ينظر) أي : وما ينتظر (هؤلاء) يعني كفار مكة (إلا صيحة واحدة) وفيها قولان . أحدهما : أنها النفخة الأولى ، قاله مقاتل . والثاني : النفخة الأخيرة ، قاله ابن السائب ^(١) .

وفي الفَوَاق قراءتان . قرأ حمزة ، وخلف ، والكسائي : بضم الفاء . وقرأ الباقون : بفتحها . وهل بينهما فرق ، أم لا ، فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو معنى قول الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج . قال الفراء : والمعنى : مالها من راحة ولا إفاقة ، وأصله من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركتها حتى تنزل شيئاً من اللبن ، فتلك الإفاقة . وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « العيادة قَدْرُ فُوقِ ناقة » ^(٢) . ومن يفتح الفاء ، فهي لنة جيدة عالية . وقال ابن قتيبة : الفُوق والفُواق واحد ، وهو أن تُحَلِّبَ الناقة وتترك ساعة حتى تنزل شيئاً من اللبن ، ثم تُحَلِّب ، فما بين الحلبتين فُواق ، فاستمير الفُواق في موضع المكث والانتظار . وقال الزجاج : الفُواق : ما بين حلبتي الناقة ، وهو مشتق من الرجوع ، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، يقال : أفاق من مرضه ، أي : رجع إلى الصحة . والثاني : أن مَنْ فتحها ، أراد : مالها من راحة ، ومن ضمها ، أراد : فُوقِ الناقة ، قاله أبو عبيدة .

(١) قال ابن كثير : وهذه الصيحة ، هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرائيل أن يطولها فلا يبق أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله عز وجل . اهـ .
(٢) هذا الحديث ذكره الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » من رواية البيهقي في « شعب الإيمان » ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « العيادة فُوقِ ناقة » ولم يتكلم عليه الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » ، شيء ، بل قال : ورواه عنه الديلمي بلا سند . اهـ .

والمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : مالها من رجمة ، ثم فيه قولان . أحدهما : مالها من ترداد ، قاله ابن عباس ، والمعنى أن تلك الصيغة لا تُكْرَرُ . والثاني : مالها من رجوع إلى الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة ، والمعنى أنهم لا يمودون بمدّها إلى الدنيا .

والثاني : مالهم منها من إفاقة ، بل تُهْلِكُهم ، قاله ابن زيد .

والثالث : مالها من مُتَوَرِّ ولا انقطاع ، قاله ابن جرير .

والرابع : مالها من راحة ، حكاه جماعة من المفسرين .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ . إِنْصَبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُنْكَهٖ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا ربنا عجل لنا قطننا) في سبب قولهم هذا قولان .

أحدهما : أنه لما ذكر لهم مافي الجنة ، قالوا هذا ، قاله سميد بن جبير ، والسدي .

والثاني : أنه لما نزل قوله : (فأما من أوتي كتابه يمينه ...) الآيات

[الحاقة : ١٩ - ٢٧] ، قالت قرش : زعمت يا محمد أننا نؤتى كتبنا بشئنا ١٥

فجّل لنا قطننا ، يقولون ذلك تكديفاً له ، قاله أبو العالية ، ومقاتل (١) .

وفي المراد بالقِطِّ أربعة أقوال .

أحدها : أنه الصحيفة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال الفراء : القِطُّ

(١) ذكر هذين القولين الطبرسي في « جمع البيان » كما هما بدون سند ، وكذلك ذكر هذا المعنى البنوي والغازن بدون سند .

في كلام العرب : الصَّكَّ وقال أبو عبيدة : القِطُّ : الكتاب ، والقُطُوط : الكتب بالجواز ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : أن القِطَّ : الحساب ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه القضاء ، قاله عطاء الخراساني ، والمعنى أنهم لما وعدوا بالقضاء بينهم ، سألوا ذلك .

والرابع : أنه النصيب ، قاله سعيد بن جبير ^(١) . [قال الزجاج : القِطُّ : النصيب ، وأصله : الصحيفة يُكْتَبُ للإنسان ^(٢) فيها شيء يصل إليه ، واشتقاقه من قَطَطْتُ ، أي : قَطَعْتُ ، فالتَّصِيبُ : هو القطعة من الشيء . ثم في هذا القول للفسرين قولان . أحدهما : أنهم سألوه نصيبهم من الجنة ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : سألوه نصيبهم من العذاب ، قاله قتادة . وعلى جميع الأقوال ، إنما سألوا ذلك استهزاء ، لتكذيبهم بالقيامة .

(إصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) أي : من تكذيبهم وأذام ؛ وفي هذا قولان .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن القوم سألوا ربهم تمجيل سكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا ، استهزاءً بوعيد الله ، قال : وإنما قلنا : إن ذلك كذلك ، لأن القِطَّ هو ما وصفت من الكتب بالجواز والحظوظ ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تمجيل ذلك لهم ، ثم أتبع ذلك قوله لئيبه : (إصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) فكان معلوماً بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي ﷺ ، لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم ، لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه ، ولكن لما كان ذلك استهزاءً ، وكان فيه لرسول الله ﷺ أدنى أمره الله بالصبر عليه منهم حتى يأتيه قضاؤه فيهم ، ولا لم يكن في قوله : (عجل لنا قسطاً) بيان أي القِطُّ إرادتهم ، لم يكن لنا توجيه ذلك إلى أنه معني به القِطُّ يعض معالي الخير أو الشر ، فلذلك قلنا : إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر . اهـ .

(٢) في الأصل : الإنسان .

أحدهما : أنه أُمِرَ بالصبر ، سلوكاً لطريق أولي العزم ، وهذا مُحْكَمٌ .
والثاني : أنه منسوخ بآية السيف فيما زعم الكلبي .

قوله تعالى : (وَأُذْكَرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ) في وجه المناسبة بين قوله : « إصبر »
وبين قوله : « وَأُذْكَرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ » قولان .

أحدهما : أنه أُمِرَ أَنْ يَتَّقِيَ عَلَى الصَّبْرِ بِذِكْرِ قُوَّةِ دَاوُدَ عَلَى
العبادَةِ والطاعة .

والثاني : أَنْ الْمَعْنَى : عَرَفَهُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مَعَ طَاعَتِهِمْ - كَانُوا خَائِفِينَ
مِنْهُ ، هَذَا دَاوُدُ مَعَ قُوَّتِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ ، لَمْ يَزَلْ بَاكِياً مُسْتَغْفِراً ، فَكَيْفَ حَالُهُمْ
مَعَ أَفْعَالِهِمْ ؟!

فَأَمَّا قَوْلُهُ : (ذَا الْأَيْدِ) فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ الْقُوَّةُ فِي الْعِبَادَةِ . وَفِي
« الصَّحِيحِينَ » مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً ،
وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ
سُدُسَهُ » (١) .

وَفِي الْأَوَابِ أَقْوَالٌ قَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي (بَنِي إِسْرَائِيلَ : ٢٥) .

(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ) قَدْ ذَكَرْنَا تَسْبِيحَ الْجِبَالِ مَعَهُ فِي
(الْأَنْبِيَاءَ : ٧٩) ، وَذَكَرْنَا مَعْنَى الْمَشِيِّ فِي مَوَاضِعَ مِمَّا تَقْدِمُ [آلِ عِمْرَانَ : ٤١ ،
الْأَنْعَامَ : ٥٣] ، وَذَكَرْنَا مَعْنَى الْإِشْرَاقِ فِي (الْحَجَرِ : ٧٣) عِنْدَ قَوْلِهِ : (مُشْرِقِينَ) .
قَالَ الزَّجَّاجُ : الْإِشْرَاقُ : طُلُوعُ الشَّمْسِ [وَإِضَاءَتُهَا] . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » : ١٤/٣ ، وَمُسْلِمٌ : ٨١٦/٢ بِاخْتِلَافٍ يَسِيرٍ فِي الْفَافَةِ ،
وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ أَيْضاً أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَةَ وَغَيْرُهُمْ .

أنه قال : طَلَبْتُ صَلَاةَ الضُّحَى ، فلم أَجِدْهَا إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وقد ذكرنا عنه أن صلاة الضُّحَى مذكورة في (النور : ٣٦) في قوله : (بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ) . قوله تعالى : (وَالطَّيِّبُ مَحْشُورَةٌ) وقرأ عكرمة ، وأبو الجوزاء ، والضحاك ، وابن أبي عملة : « وَالطَّيِّبُ مَحْشُورَةٌ » بالرفع فيها ، أي : مجموعة إليه ، تَسْبِيحُ اللَّهِ معه (كُلُّ لَه) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى داود ، أي : كُلُّ لَدَاوُدَ (أَوَّابٌ) أي : رَجَاعٌ إلى طاعته وأمره ، والمعنى : كُلُّ لَه مُطِيعٌ بالتسبيح معه ، هذا قول الجمهور . والثاني : [أنها] ترجع إلى الله تعالى ، فالمعنى : كُلُّ مَسْبُوحٌ لِّلَّهِ ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وَشَدَدْنَا مُلْكَكَ) أي : قَوَّيْنَاهُ . وفي ما شُدَّ بِهِ مُلْكُهُ قولان .

أحدهما : أنه الحَرَمُ والجَنُودُ ؛ قال ابن عباس : كان يحرُسُه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل .

والثاني : أنه هَيْبَةٌ أَثْقِيَتْ لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ؛ وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : (وَأَنبَاهُ الْحِكْمَةَ) وفيها أربعة أقوال أحدها : أنها الفَهْمُ ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد . والثاني : الصَّوَابُ ، قاله مجاهد . والثالث : السَّنَّةُ ، قاله قتادة . والرابع : النُّبُوَّةُ ، قاله السدي .

وفي فصل الخطاب أربعة أقوال .

أحدها : عَلِمُ الْقَضَاءِ وَالْعَدْلُ ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : بيان الكلام ، روي عن ابن عباس أيضاً . وذكر الماوردي أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود .

والثالث : قوله : «أما بعد» ، وهو أول من تكلم بها ، قاله أبو موسى الأشعري ، والشمي .

والرابع : تكليف المدّعيّ اليدين ، والمدّعيّ عليه اليمن ، قاله شريح ، وقادة ؛ وهو قول حسن ، لأن الخُصومة إنما تُفصل بهذا .

﴿ وَهَلْ آتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَاحَكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُوا وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ أَيْبَنِي بِمَعْصِيَّتِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ . يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾

قوله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخضم) قال أبو سليمان : المعنى : قد أتاك فاستمع له نقصص عليك .

واختلف العلماء في السبب الذي امتحن لأجله داود عليه السلام بما امتحن به على خمسة أقوال .

أحدها : أنه قال : يارب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذِّكْر ما لو ودِدْتُ أَنَّكَ أعطيتني مِنْهُ ، فقال الله تعالى : إني ابتليتهم بما لم آبتلك به ، فإن شئتَ ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم ؛ قال : نعم ، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة ، فأراد أن يأخذها فطارت ، فذهب ليأخذها ، فرأى امرأة تنزل ، رواه الموفى عن ابن عباس ، وبه قال السدي (١) .

والثاني : أنه ما زال يجتهد في العبادة حتى برز له قرناؤه من الملائكة وكانوا يصلون معه ويُسعدونه بالبكاء ، فلما استأنس بهم ، قال : أخبروني بأي شيء أنتم موكلون ؛ قالوا : ما نكتب عليك ذنباً ، بل نكتب صالح عملك ونثبتك ونوفقك ونصرف عنك السوء ، فقال في نفسه : ليت شعري ، كيف أكون لو خلوتني ونفسي ؛ وتمنى أن يُخلّى بينه وبين نفسه ليعلم كيف يكون ، فأمر الله تعالى قرآنه أن يمتزلوه ليعلم أنه لا غناء به عن الله [عز وجل ، فلما قدم ، جدّ واجتهد ضعيف عبادته إلى أن ظن أنه قد غلب نفسه ، فأراد الله تعالى أن يُمرِّقه ضعفه ، فأرسل إليه طائراً من طيور الجنة ، فسقط في محرابه ، فقطع صلاته ومدّ يده إليه ، فتحنى عن مكانه ، فأتبعه بصراً ، فاذا امرأة أوريا ، هذا قول وهب بن منبه (٢) .

(١) رواه الطبري من رواية الموفى عن ابن عباس : ١٤٦/٢٣ والموفى ضعيف ، ورواه

عن السدي بنحوه : ١٤٧/٢٣ .

(٢) ذكره الطبري : ١٤٩/٢٣ بسند فيه جهالة من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم

زاد المسير ٧ م (٨)

عن وهب بن منبه ، والله أعلم .

والثالث : أنه تذاكر هو وبنو إسرائيل ، فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً ، فأخبر داود في نفسه أنه سيُطبق ذلك ، فلما كان يوم عبادته ، أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكب على قراءة الزبور ، فاذا حمامة من ذهب ، فأهوى إليها فطارت ، فتبسمها فرأى المرأة ، رواه مطر عن الحسن ^(١) .

والرابع : أنه قال لبي إسرائيل حين ملك : والله لأعدين بينكم ، ولم يستن ، فابتلي ، رواه قتادة عن الحسن .

والخامس : أنه أعجبه كثرة عمله ، فابتلي ، قاله أبو بكر الوراق ^(٢) .

الإشارة إلى قصة ابتلائه

قد ذكرنا عن وهب أنه قال : كانت الحمامة من طيور الجنة . وقال السدي : تصور له الشيطان في صورة حمامة . قال المفسرون : إنه لما تبع الحمامة ، رأى امرأة في بستان على شطيرة لها تمسلس ، وقيل : بل على سطح لها ، فمجب

(١) رواه الطبري : ١٤٨/٢٣ من رواية مطر عن الحسن ، ومطر هو ابن طهان الوراق ، أبو رجاء ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : صدوق كثير الخطأ .

(٢) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المصوم حديث يجب اتبعه ، قال : ואمكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، وزيد وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، قل : فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يُردَّ عليها إلى الله عز وجل ، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً . اهـ . وخبر يزيد الرقاشي ، ذكره بطوله الطبري في « تفسيره » من رواية ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو خبر لا يصح سنده كما قال الحافظ ابن كثير .

من حسننها ، فحانت منها التفانة فرأت ظلَّه ، فنقضت شعرها ، ففطسَ بدنَّها ، فزاده ذلك إعجاباً بها ، فسأل عنها ، فقيل : هذه امرأة أوريا ، وزوجها في غزاة ، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابث أوريا إلى موضع كذا وكذا ، وقدمه قبل التابوت ، وكان مَنْ "مُقدِّم على التابوت لا يحِلُّ له أن يرجع حتى يُفتَّح عليه أو يستشهد ، ففعل ذلك ، ففتَّح عليه ، فكتب إلى داود يخبره ، فكتب إليه أن ابثه إلى عدوِّ كذا وكذا ، ففتَّح له ، فكتب إليه أن ابثه إلى عدوِّ كذا وكذا ، فقتل في المرأة الثالثة ، فلما انتقضت عِدَّة المرأة تزوجها داود ، فهي أم سليمان ، فلما دخل بها ، لم ^(١) يلبث إلا يسيراً حتى بث الله عز وجل ملكين في صورة إنسيين ، وقيل : لم يأنه الملكان حتى جاء منها سليمان وشبَّ ، ثم أتياه فوجداه في محراب عبادته ، فتمنَّها الحرس من الدُّخول إليه ، فتسوروا المحراب عليه ؛ وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين ^(٢) ، وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس ، وروي عن الحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل في آخرين . وذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة ، سأل عنها ، وبث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قُتل ، فتزوجها ؛ وروي مثلُ [هذا] عن ابن عباس ، ووهب ، والحسن في جماعة . قال المصنِّف : وهذا لا يصح من طريق النقل ، ولا يجوز من حيث المعنى ، لأن الأنبياء منزَّهون عنه .

وقد اختلف المحقِّقون في ذنبه الذي عُتِب عليه على أربعة أقوال . أحدها : أنه لما هوَّيَّها ، قال لزوجها : تحوَّل لي عنها ، فعُتِب على ذلك . وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما زاد داود على أن قال لصاحب

(١) في الأصل : فلم .

(٢) وقد رأيت قول ابن كثير قبل قليل : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ

من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المصوم حديث يجب انتياعه .

المرأة : أَكْفَلْنِيهَا وَتَحَوَّلَ لِي عَنْهَا ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(١) : وَقَدْ
 حَكَى أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى أوريا فَأَقْدَمَهُ مِنْ غَزَاتِهِ ، فَأَدْنَاهُ وَأَكْرَمَهُ
 جَدًّا ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ يَوْمًا : انْزِلْ لِي عَنْ امْرَأَتِكَ ؛ وَانْظُرْ أَيَّ امْرَأَةٍ
 شِئْتَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَزَوِّجُكَهَا ، أَوْ أَيَّ أُمَّةٍ شِئْتَ أَتَبَاعُهَا لَكَ ، فَقَالَ :
 لَا أُرِيدُ بِامْرَأَتِي بَدِيلًا ؛ فَلَمَّا لَمْ يُجِِبْهُ إِلَى مَا سَأَلَ ، أَمَرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى غَزَاتِهِ .
 وَالثَّانِي : أَنَّهُ تَمَتَّى تِلْكَ الْمَرْأَةُ حَلَالًا ، وَحَدَّثَتْ نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، فَاتَّفَقَ غَزَوْهُ
 أوريا وَهَلَكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسَمَّى فِي سَبَبِ قَتْلِهِ وَلَا فِي تَعْرِيفِهِ لِلْهَلَاكِ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ
 قَتْلُهُ ، لَمْ يَجْزَعْ عَلَيْهِ كَمَا جَزَعَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ « جُنْدِهِ » ، ثُمَّ تَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ ،
 فَعُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ . وَذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِنْ صَغُرَتْ ، فَهِيَ عَظِيمَةٌ
 عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ بِصَرُّهِ عَلَيْهَا ، أَشْبَعَ النَّظَرَ إِلَيْهَا حَتَّى عَلِقَتْ بِقَلْبِهِ ^(٢) .
 وَالرَّابِعُ : أَنَّ أوريا كَانَ قَدْ خَطَبَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ ، فَخَطَبَهَا دَاوُدُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنْ
 أوريا قَدْ خَطَبَهَا ، فَتَزَوَّجَهَا ، فَاعْتَمَّ أوريا ، وَعَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى دَاوُدَ إِذْ لَمْ يَتْرُكْهَا
 لِحَاطِبِهَا الْأَوَّلِ ؛ وَاخْتَارَ الْقَاضِي أَبُو بَلَى هَذَا الْقَوْلَ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ :
 (وَعَزَّيْتُ فِي الْخِطَابِ) ، قَالَ : فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ لِأَمَّا كَانَ بَيْنَهَا فِي
 الْخِطْبَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَدَّمَ تَزَوُّجُ الْآخَرِ ، فَعُوتِبَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِشَيْئَيْنِ
 يَنْبَغِي لِلْأَنْبِيَاءِ التَّنَزُّهُ عَنْهُمَا ، أَحَدُهُمَا : خِطْبَتُهُ عَلَى خِطْبَتِهِ غَيْرِهِ ، وَالثَّانِي : إِظْهَارُ
 الْحِرْصِ عَلَى التَّزْوِيجِ مَعَ كَثْرَةِ نِسَائِهِ ، وَلَمْ يَمْتَقِدْ ذَلِكَ مَعْصِيَةً ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 عَلَيْهَا ؛ قَالَ : فَأَمَّا مَا رَوَى أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ فَهَوَّيَسَهَا وَقَدَّمَ زَوْجَهَا لِلْقَتْلِ ،

(١) « الطَّبْرِي » : ١٤٤/٢٣ ، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّر » : ٣٠٣/٥ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ ،

وَابْنُ جُرَيْرٍ ، وَابْنُ النَّذَرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمِنْ رِوَايَةِ ابْنِ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

(٢) وَكَذَلِكَ يَنْزِعُ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ قَبْلَ قَلِيلٍ .

فانه وجه لا يجوز على الأنبياء ، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها^(١) .
قال الزجاج : إنما قال : « الخَصْم » بلفظ الواحد ، وقال : « تَسَوَّرُوا
المِحْرَابَ » بلفظ الجماعة ، لأن قولك : خصم ، يَصْلُحُ للواحد والاثنتين
والجماعة والذكر والأنثى ، تقول : هذا خصم ، وهي خصم ، وهما خصم ، وم
خصم ؛ وإنما يصلح لجميع ذلك لأنه مصدر ، تقول : خَصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ خَصِمًا .
والمحراب هاهنا كالغرفة ، قال الشاعر :

(١) قال القاضي عياض في « الشفا » : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت
إلى ماسطره الاخباريون على أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين ، قال :
ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح ، قال : والذي نص الله عليه
قوله : (وظن داود أنما قتله فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً) وأناب (وقوله فيه : (أوّاب) ،
قضى (قتله) أي : اختبره ، و (أوّاب) قال قتادة : مطيع ، قال : وهذا التفسير أولى ،
قال : قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد على أن قال للرجل : ازل لي عن امرأتك وأكفيلنيها ،
فماتته الله على ذلك ونبّه عليه ، وأنكر عليه شغله بالدنيا . ثم قال : وإلى نبي ما أضيف في
الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر ، وأبو تمام وغيرهما من المحققين ، قال : قال
الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت ، ولا بظن بني حجة قتل مسلم . اه .
وقال الخازن في « تفسيره » : اعلم أن من خصه الله بنبوته ، وأكرمه برسائه ، وشرّفه
على كثير من خلقه ، واثمنه على وجهه ، وجعله واسطة بينه وبين خلقه ، لا يليق أن ينسب إليه
مالو نسب إلى آحاد الناس لاستكف أن يحدث به عنه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام
الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك . اه . قال الخازن : وقال الامام فخر الدين الرازي : حاصل القصة
يرجع إلى أمرين : إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، قال :
وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بمأكل أن بظن بداود عليه السلام هذا . اه . وقال القاضي البيضاوي :
وما قيل : أنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً ، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها (يعني امرأته) ،
هرأه واقتراء . اه .

رَبَّةٌ مَحْرَابٍ إِذَا جِثَّتْهَا كَلِمَ أُلْقِيَتْ أَوْ أَرْتَقِي سَلْمًا^(١)
و « تسوروا » يدل على علو .

قال المفسرون : كانوا مَلَكين ، وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما السلام ،
أتياه لينبئاه على التوبة . وإنما قال : « تسوروا » وهما اثنان ، لأن معنى الجمع
ضم شيء إلى شيء ، والاثنان فافوقها جماعة .

قوله تعالى : (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ) قال الفراء : يجوز أن يكون معنى
« تسوروا » : دخلوا ، فيكون تكراراً ؛ ويجوز أن تكون « إذ » بمعنى « لما » ،
فيكون المعنى : إذ تسوروا المحراب لما دخلوا ، ولما تسوروا إذ دخلوا .
قوله تعالى : (فَفَزَعَ مِنْهُمْ) وذلك أنهما أتيا على غير صفة بحبي الخصوم ،
وفي غير وقت الحكومة ، ودخلا تسوراً من غير إذن^(٢) . وقال أبو الأحوص :
دخلوا عليه وكل واحد منها أخذ برأس صاحبه . و (خَصِمَانِ) مرفوع
باضمار « تَحْنُ » ، قال ابن الأنباري : [المعنى] : نحن كخصمين ، ومثل
خصمين ، فسقطت الكاف ، وقام الخصمان مقامهما ، كما تقول العرب : عبد الله
القمر حُسْنًا ، وم يريدون : مثل القمر ، قالت هند بنت عتبة ترني أباهما
وعمهما :

مَنْ حَسَّ لِي الْأَخَوَيْنِ كَالْـ
أَسَدَيْنِ فِي عَيْلٍ يَحِيدُ الْـ
نَخْصَيْنَيْنِ أَوْ مَنْ رَاهُمَا
قَسَوْمٌ عَنْ عُرَاهُمَا

(١) البيت لوضاح اليمن : وهو في « مجاز القرآن » : ١٤٤/٢ ، و « الأغاني » : ٢٣٧/٦ .
و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : حرب . وقد سبق البيت في الجزء ١ صفحة ٣٨٠ .
(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فَفَزَعَ مِنْهُمْ) إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو
أشرف مكان في داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين
قد تسورا عليه المحراب ، أي : احتاطا به بسألانه عن شأنهما . اهـ .

صَقْرَيْنِ لَا يَتَذَلَّلَا نِ وَلَا يُبَاحُ حِمَاهُمَا
رُمَحَيْنِ خَطِيئَتَيْنِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ تَرَاهُمَا^(١)

أرادت : مثل أسدين ، ومثل صقرين ، فأسقطت مثلاً وأقامت الذي بعده مقامه .
ثم صرف الله عز وجل النون والالف في « بَعْضُنَا » إلى « نحن » المضمر ، كما تقول
العرب : نحن قوم شرف أبونا ، ونحن قوم شرف أبوم ، والمعنى واحد .
والحق هاهنا : العدل .

(وَلَا تُشْطِطُ) أي : لَا تَجُرُ ، يقال : شَطَّ وأَشْطَطَ : إذا جار . وقرأ
ابن أبي عبلة : « وَلَا تُشْطِطُ » بفتح التاء وضم الطاء . قال الفراء : وبعض العرب
يقول : شَطَطْتُ عَلَيَّ فِي السَّوْمِ ، وأكثر الكلام « أَشْطَطْتُ » بالالف ، وشَطَطْتُ
الدَّارُ : تباعدت .

قوله تعالى : (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) أي : إلى قَصْدِ الطَّرِيقِ^(٢) ؛
والمعنى : احمِدْنَا على الحق . فقال داود : تَكَلَّمْنَا ، فقال أحدهما : (إِنَّ هَذَا
أَخِي) قال ابن الأنباري : المعنى : قال أحد الخصمين اللذين شَبَّهَ الْمَلَكَانِ بهما :
إِنَّ هَذَا أَخِي ، فأضمر القول لوضوح معناه (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً)
قال الزجاج : كُنِي عن المرأة بالنَّعْجَةِ . وقال غيره : العرب أشبه النساء بالنعاج ،
وتورِّي عنها بالشاء والبقر . قال ابن قتيبة : ورئى عن ذكر النساء بذكر النعاج ،
كما قال عنزة :

(١) الأبيات في « شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام » : ١٣٠ ، ود الأغاني ، « ثقافة » :

٢١٢/٤ . حَسَّ ، من باب نصر ، كاحس ، وأصل « رَاهِمَا » : رَأَاهُمَا ، فخفضت فيه الهمزة .

(٢) أي : بحيث لا تقبل عن الحق أصلاً .

يَأْشَاءَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حُرْمَتٌ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْزُمْ^(١)
يعرّض بحارية ، يقول : أيّ صيد أنتِ لِمَنْ حَلَّ له أَنْ يَصِيدَكَ ! فَأَمَّا أَنَا ،
فَأَنَّ حُرْمَةَ الْجَوَارِ قَدْ حُرِّمَتْكَ عَلَيَّ . وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمَلِكُ هَذَا الْمَدَدَ لِأَنَّهُ عَدَدُ
نِسَاءِ دَاوُدَ .

قوله تعالى : (وَلِيَّ نَعْجَةٍ وَاحِدَةٌ) فتح الياء حفص عن عاصم ،
وَأَسْكَنَهَا الْبَاقُونَ .

(فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا) قَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ : أَيُّ : مُضَمًّا إِلَيَّ وَاجْعَلْنِي كَافِلَهَا .
وَقَالَ الزَّجَاجُ : انْزَلَتْ أَنْتَ عَنْهَا وَاجْعَلْنِي أَنَا أَكْفُلُهَا .

قوله تعالى : (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أَيُّ : غَلَّبَنِي فِي الْقَوْلِ . وَقَرَأَ
عمر بن الخطاب ، وأبو رزّين [العقيلي] ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عملة :
« وَعَازَّنِي » بِالْف ، أَيُّ : غَالَبَنِي . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ
« وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » : مَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ : انْزَلْتُ لِي عَنْهَا . وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنْ دَعَوْتُ وَدَعَا كَانَ أَكْثَرُ ، وَإِنْ بَطَشْتُ وَبَطَشَ كَانَ
أَشَدَّ مِنِّي .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ الْمَلِكُ هَذَا ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ مَوْجُودٌ عِنْدَهَا ؟
فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا : إِنَّمَا هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ وَالتَّشْبِيهِ بِقِصَّةِ دَاوُدَ ،
وَتَقْدِيرُ كَلَامِهَا : مَا تَقُولُ إِنْ جَاءَكَ خَصْمَانُ فَقُلَا كَذَا وَكَذَا ، وَكَانَ دَاوُدَ لَا يَرَى
أَنْ عَلَيْهِ تَبِعَةٌ فِيمَا فَعَلَ ، فَتَبَّهَهُ اللَّهُ بِالْمَلَكَيْنِ . وَقَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ : هَذَا مَثَلٌ
ضَرَبَهُ اللَّهُ [لَهُ] وَتَبَّهَهُ عَلَى خَطِيئَتِهِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا آنفًا أَنَّ الْمَعْنَى : نَحْنُ كَخَصْمَيْنِ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَالَ) يَعْنِي دَاوُدَ (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)

(١) الْبَيْتُ مِنْ مَطْلَعَتِهِ ، وَهُوَ فِي دِيْوَانِهِ : ١٥٢ ، وَدُ مَثَلُ الْقُرْآنِ : ٢٠٦ ،
وَدُ الْمُدَّة : ٢٨١/١ ، وَدُ مَخْتَارُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ : ٣٧٨/١ ، وَدُ شَرْحُ شَوَاهِدِ الْمَنِيِّ : ٢٥٢ .

قال القراء : أي : بسؤاله نمجتك ، فإذا ألقيتَ الهاءَ من السؤال ، أضفتَ الفعلَ إلى التَّعْجَةِ ، ومِثْلُهُ : (لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) [فصلت : ٤٩] ، أي : من دعائه بالخير ، فلما ألقى الهاءَ ، أضافَ الفعلَ إلى الخير ، وألقى من الخير الباءَ ، وأنشدوا :

فَلَسْتُ مُسَلِّتًا مَا دُمْتُ حَيًّا عَلَى زَبْدٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ^(١)
أي : بتسليم على الأمير .

قوله تعالى : (إِلَى نِعَاجِهِ) أي : لِيَضُمَّهَا إِلَى نِعَاجِهِ . قال ابن قتيبة : المعنى : بسؤال نمجتك مضمومةً إِلَى نِعَاجِهِ ، فاختصر . قال : ويقال « إِلَى » بمعنى « مع » .

فان قيل : كيف حكم داود قبل أن يسمع كلامَ الآخر ؟

فالجواب : أن الخصم الآخر اعترف ، فحكم عليه باعترافه ، وحذف ذكر الاعتراف اكتفاءً بفهم السامع ، والعرب تقول : أمرتُك بالتجارة فكسبتَ الأموال ، أي : فانتجرتَ فكسبتَ ، وبدلُ عليه قولُ السدي : إن داود قال للخصم الآخر : ما تقول ؟ قال : نعم ، أريد أن آخذها منه فأكل بها نعاجي وهو كاره ، قال : إذا لاندعُك ، وإن رُمْتَ هذا ضربنا منك هذا - ويشير إلى أنفه وجبهته - فقال : أنت يا داودُ أحقُّ أن يُضربَ هذا منك حيث لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأوريا إلا واحدة ، فنظر داود فلم ير أحداً ، فعرف ما وقع فيه .

قوله تعالى : (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ) يعني الشركاء ، واحدم : خليط ، وهو المُخَالِطُ في المال . وإنما قال هذا ، لأنه ظنَّها شريكين ، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(١) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » : ١٠٠ ، وانظر خبر الأعرابي قائل البيت

لمن بن زائدة في « بحر الأدب » : ٢٦٣/٣ .

أي : فانهم لا يَظْلِمُونَ أحداً ، (وقليلٌ ما هم) « ما » زائدة ، والمعنى : وقليلٌ هم ، وقليل : المعنى : هم قليل ، يعني الصالحين الذين لا يَظْلِمُونَ .

قوله تعالى : (وَظَنَّ دَاوُدُ) أي : أيقن وعلم (أَنَّهُ فِتْنَاهُ) فيه قولان . أحدهما : اختبرناه . والثاني : ابتليناه بما جرى له من نظره إلى المرأة واقتتانه بها ^(١) . وقرأ عمر بن الخطاب : « أَنَّهُ فِتْنَاهُ » بتشديد التاء والنون جميعاً . وقرأ أنس بن مالك ، وأبو رزين ، والحسن ، وقتادة ، وعلي بن نصر عن أبي عمرو : « أَنَّهُ فِتْنَاهُ » بتخفيف التاء والنون جميعاً ، يعني الملكين ، قال أبو علي الفارسي : يريد : صمداله . وفي سبب علمه وتنبئه على ذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الملكين أفصحا له بذلك ، على ما ذكرناه عن السدي . والثاني : أنهما عرَّجا وهما يقولان : قضى الرجلُ على نفسه ، فعلم أنه عني بذلك ، قاله وهب .

والثالث : أنه لما حكم بينهما ، نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك ، ثم صعدا إلى السماء وهو ينظر ، فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، قاله مقاتل . قوله تعالى : (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ) قال المفسرون : لما فطن داودُ بذنبه خَرَّ رَاكِعاً ، قال ابن عباس : أي : ساجداً ، وعبرَ عن السجود بالركوع ، لأنها بمعنى الانحناء . وقال بعضهم : المعنى : فخرَّ بعد أن كان رَاكِعاً .

فصل

واختلف العلماء هل هذه من عزائم السجود ؟ على قولين . أحدهما : ليست

(١) تقدم القول في أن مثل هذا لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، والصواب هو القول الأول وهو أنه بمعنى اختبرناه .

من عزائم السجود ، قاله الشافعي . والثاني : أنها من عزائم السجود ، قاله أبو حنيفة . وعن أحمد روايتان ^(١) . قال المفسرون : فبقي في سجوده أربعين ليلة ، لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لأبد منها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فأكلت الأرض من جبينه ، ونبت العشب من دموعه ، ويقول في سجوده : رب داود ، زل داود زلّة أبعد مما بين المشرق والمغرب . قال مجاهد : نبت البقل من دموعه حتى غطى رأسه ، ثم نادى : رب قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء ، فنودي : أجامع فتطعم ، أم مريض فتشفي ، أم مظلوم فينتصر لك ؟ فنحب نجياً حاج كل شيء نبت ، فعند ذلك غفر له ^(٢) . وقال ثابت البناني : اتخذ داود سبع حشايا من شعر وحشاهن من الرماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً ، ولم يشرب شرباً إلا ممزوجاً بدموع عينه ^(٣) . وقال وهب بن منبه : نودي : يا داود ارفع رأسك فإنا قد غفرنا لك ، فرفع رأسه وقد زمن وصار مرعشاً .

(١) قال ابن كثير : اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين ، الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه : أنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، قال : والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في السجدة في (ص) : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، قال : ورواه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي في « تفسيره » من حديث أيوب به ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر هذا المعنى السيوطي في « الدر » : ٣٠٣/٥ من رواية أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : يونس بن خباب الأسدي الكوفي : صدوق بخطه ورمي بالرفض . اهـ .

(٣) ذكره السيوطي من رواية أحمد عن ثابت البناني ، والله أعلم .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَأُنَابَ) فَمَعْنَاهُ : رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ تَائِبًا إِلَى رَبِّهِ ، (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) يَعْنِي الذَّنْبَ (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى) [قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ] : أَيِ : تَقْدِيمٌ وَقُرْبَةٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَحُسْنِ مَآبٍ) قَالَ مِقَاتِلُ : حُسْنُ مَرْجِعٍ ، وَهُوَ مَا أُعِدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا دَاوُدُ) الْمَعْنَى : وَقَلْنَا لَهُ يَا دَاوُدَ (إِنَّا جَعَلْنَاكَ) أَيِ : صَيَّرْنَاكَ (خَافِقَةً فِي الْأَرْضِ) أَيِ : مُنْدَبِرًا أَمَرَ الْعِبَادَ مِنْ قِبَلِنَا بِأَمْرِنَا ، فَكَانَ نِكَ خَلِيفَةً عَنَّا (فَاحْشَكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) أَيِ : بِالْعَدْلِ (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى) أَيِ : لَا تَعْمَلْ مَعَ مَا تَشْتَهِي إِذَا خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أَيِ : عَنْ دِينِهِ ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ) وَقَرَأَ أَبُو نُهَيْكٍ ، وَأَبُو حَيَوَةَ ، وَابْنُ يَعْمَرَ : « يُضِلُّونَ » بَضْمِ الْيَاءِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : بِمَا تَرَكَوْا الْعَمَلَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ، قَالَ السَّيِّدِي قَالَ الزَّجَّاجُ : لَمَّا تَرَكَوْا الْعَمَلَ لِفُلْكَ الْيَوْمِ ، صَارُوا بِمَنْزِلَةِ النَّاسِ .

وَالثَّانِي : أَنْ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا ، تَقْدِيرُهُ : لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ بِمَا نَسُوا ، أَيِ : تَرَكَوْا الْقَضَاءَ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ قَوْلُ عِكْرَمَةَ ^(٢) .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْإِتِّزَالُ مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا يَمْدُلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ : وَقَدْ تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : وَقَوْلُهُ : (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَإِنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَذَلِكَ الْحَقُّ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ وَأَمَرَهُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ فَيَجُورُونَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا ، لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الْحِسَابِ عَذَابٌ شَدِيدٌ عَلَى ضَلَالِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا نَسُوا أَمْرَ اللَّهِ . اهـ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) أي : عبثاً (ذلك ظنُّ الذين كفروا) أن ذلك خلقٌ لغير شيء ، وإنما خلق للثواب والعقاب .

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا) قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطى في الآخرة مثل ما نعطون ، فنزلت هذه الآية ^(١) . وقال ابن السائب : نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر ، علي رضي الله عنه ، وحزمة رضي الله عنه ، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنه ، وعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ^(٢) ، فذكر أولئك بالفساد في الأرض لعمَلهم فيها بالمعاصي ، وسمي المؤمنين بالمتقين لانتقامهم الشريك ، وحكمهم الآية عامٌ .

قوله تعالى : (كتابٌ) أي : هذا كتاب ، يعني القرآن ، وقد بينّا معنى برّكته في سورة (الأنعام : ٩٢) .

(١) ذكر سبب النزول هذا البغوي عن مقاتل بدون سند ، وكذلك ذكره الخازن والآلوسي بدون سند ولم ينسبوا لأحد ، قال الآلوسي : وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ ، لا لخصوص السبب .
(٢) ذكر سبب النزول هذا السيوطي في « الدر » ٣٠٨/٥ من رواية ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) قال : « الذين آمنوا » : علي ، وحزمة ، وعبيدة بن الحارث ، و « المفسدين في الأرض » : عتبة ، وشيبة ، والوليد ، قال : و « الذين تبارزوا يوم بدر » .

(لِيَدَّبَرُوا آيَاتِهِ) وقرأ عاصم في رواية : « لِيَدَّبَرُوا آيَاتِهِ » بالتاء خفيفة الدال ، أي : ليتفكروا فيها فيتقرر عندهم صحتها (وَلِيَتَذَكَّرَ) بما فيه من المواعظ (أُولُوا الْأَلْبَابِ) ، وقد سبق بيان هذا [الرعد : ١٩] ^(١) .

﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِبَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فطُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَجْدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِن لَّكَ لَعِنْدَنَا لِرُزْقٍ وَحُسْنِ مَّآبٍ . وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ عَلَيَّ وِعْداً . أُرْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُمْغَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَآوِلِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ قوله تعالى : (نِعَمَ الْعَبْدِ) يعني به سليمان ^(٢) .

(١) قال ابن جرير الطبري : (وليتذكر أولو الْأَلْبَابِ) يقول : وليعتبر أولو القول والنجاة ما في هذا الكتاب من الآيات فيرتدعوا عما هم عليه مقيمون من الضلالة ، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : (وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ) ابنه ولداً —

وفي الأَوَابِ أقوال قد تقدمت في (بني إسرائيل : ٢٥) أَلَيْقُهَا بهذا المكان أنه رَجَاعٌ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا يَقَعُ مِنْهُ مِنَ السَّهْوِ وَالغَفْلَةِ .
قوله تعالى : (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ) وهو ما بعد الزَّوَالِ (الصَّافَّاتُ)
وهي الخيل . وفي معنى الصَّافَّاتِ قولان .

أحدهما : أنها القاعة على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل ؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وابن زيد ، واختاره الزجاج ، وقال : هذا أَكْثَرُ قِيَامِ الْخَيْلِ إِذَا وَقَفَتْ كَأَنَّهَا تَرَاوَحُ بَيْنَ قَوَائِمِهَا ، قال الشاعر :
أَلِفَ الصَّفُوفِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا ^(١)
والثاني : أنها القاعة ، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث ، قال الفراء :
على هذا رأيت العرب ، وأشمارهم تَدُلُّ على أنه القيام خاصة . وقال ابن قتيبة :
الصَّافِنُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْوَاقِفُ مِنَ الْخَيْلِ وَغَيْرِهَا ، ومنه قوله ﷺ :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ لَهُ الرِّجَالُ صُفُوفًا ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(٢) ،

— (نعم العبد) يقول : نعم العبد سليمان (إنه أواب) يقول : إنه رَجَاعٌ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، ثَوَابٌ إِلَيْهِ مِمَّا يَكْرِهُهُ مِنْهُ ، وقيل : إنه عُنِيَ بِهِ أَنَّهُ كَثِيرُ الذِّكْرِ وَالطَّاعَةِ . اهـ وقال ابن كثير :
يقول تعالى غيبراً أنه وهب لداود سليمان ، أي نبياً ، كما قال عز وجل : (وورث سليمان داود)
أي في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر . اهـ .
(١) البيت في « مجمع البيان » : ١١١/٢٣ ، و « البحر المحيط » : ٣٨٨/٧ ، و « القرطبي » :
١٩٣/١٥ ، و « روح المعاني » : ١٧٢/٢٣ ، و « اللسان » ، و « التاج » : ص ١٥٠ .

(٢) لم نره بهذا اللفظ ، ورواه الترمذي : ١٠٠/٢ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
بلفظ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وقال : هذا حديث حسن ،
قال : وفي الباب عن أبي أمامة . ورواه أبو داود رقم (٥٢٢٩) من حديث معاوية بلفظ :
« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ورواه أحمد في « المسند » : ٩١/٤
بلفظ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَثَّلَ لَهُ عِبَادُ اللَّهِ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ، وهو حديث صحيح .

أي : يُدْعَوْنَ الْقِيَامَ لَهُ ^(١) .

فَأَمَّا الْجَبَادُ ، فَهِيَ السَّرَاعُ فِي الْجَرِيِّ . وَفِي سَبَبِ عَرْضِهَا عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّهُ عَرَضَهَا لِأَنَّهُ أَرَادَ جِهَادَ عَدُوِّهِ لَهُ ، قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ دَوَابِّ الْبَحْرِ . قَالَ الْحَسَنُ : بَلَّغَنِي أَنَّهَا كَانَتْ خَيْلًا خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ لَهَا أَجْنَعَةٌ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التِّيمِيُّ : كَانَتْ عَشْرِينَ فَرَسًا ذَاتَ أَجْنَعَةٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : أَخْرَجْتُهَا لَهُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْبَحْرِ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ وَرِثَهَا مِنْ أَبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعُرِضَتْ عَلَيْهِ ، قَالَهُ وَهَبُ بْنُ مُنْبَهٍ ، وَمُقَاتِلُ :

وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ غَزَا جَيْشًا ، فَظَفِرَ بِهِ وَغَنِمَهَا ، فَدَعَا بِهَا فَعُرِضَتْ عَلَيْهِ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ .

وَفِي عَدَدِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ . أَحَدُهَا : ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفًا ، قَالَهُ وَهَبُ . وَالثَّانِي : عَشْرُونَ أَلْفًا ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْرُوقٍ . وَالثَّلَاثُ : أَلْفُ فَرَسٍ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ ، وَمُقَاتِلُ . وَالرَّابِعُ : عَشْرُونَ فَرَسًا ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيِّ ^(٢) .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْمَشِيِّ الصَّافَاتُ الْجَبَادُ) أَيُّ : إِذْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْخَيْلَ الصَّافَاتِ ، قَالَ : قَالَ مُجَاهِدٌ : رَمَى الَّتِي يَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ وَطَرَفٍ حَافِرِ الرَّابِعَةِ ، قَالَ : وَالْجَبَادُ : السَّرَاعُ ، قَالَ : وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ . اهـ .

(٢) ذَكَرَ الْقَوْلَ الرَّابِعَ الطَّبْرِيُّ : ١٥٤/٢٣ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيِّ ، وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الذُّرِّ» : ٣٠٩/٥ ، وَزَادَ نُسْبَتَهُ لِلْفَرَايِي ، وَعَبِيدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قال المفسرون : ولم تزل تُعَرَضُ عليه إلى أن غابت الشمس ، فقافته صلاة
المصر ، وكان مهيباً لا يبتدئه أحد بشيء ، فلم يذكره ، ونسي هو ، فلما غابت
الشمس ذكر الصلاة ، (فقال لئنني أحببت) فتح الياء ^(١) أهل الحجاز وأبو عمرو
(حُبَّ الخَيْرِ) وفيه قولان . أحدهما : أنه المال ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .
والثاني : حُبُّ الخليل ، قاله قتادة ، والسدي . والقولان يرجعان إلى معنى واحد ،
لأنه أراد بالخير الخليل ، وهي مال . وقال الفراء : العرب تسمي الخليل : الخير .
قال الزجاج : وقد سمي رسول الله ﷺ زَيْدَ الخليل : زَيْدَ الخير ^(٢) ، ومعنى
« أَحَبَبْتُ » : آثرتُ حُبَّ الخير على ذكر ربي ؛ وكذلك قال غير الزجاج :
« عن » بمعنى « على » . وقال بعضهم : يحتمل المعنى : فشغلني عن ذكر
ربي . وقال أبو عبيدة : ومعنى [الكلام] : أَحَبَبْتُ حُبًّا ، ثم أضاف الحُبَّ إلى
الخير . وقال ابن قتيبة : سمي الخليل خَيْرًا ، لما فيها من الخير . والمفسرون
على أن المراد بذكر ربه : صلاة مصر ، قاله علي ، وابن مسعود ، وقاتدة في
آخرين . وقال الزجاج : لا أدري هل كانت صلاة مصر مفروضة ، أم لا ! ،
إلا أن اعتراضه الخليل شغله عن وقت كان يذكر الله فيه (حتى توارت بالحجاب)

(١) يعني الياء من كلمة « لئن » .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الإصابة » في ترجمة زيد الخليل : وفد في سنة تسع ، وسماه
النبي ﷺ : زيد الخير ، قال : وروى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعشى
عن أبي وائل عن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ ، فأقبل راكب حتى أتانا ، فقال :
يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع أسألك عن خصلتين ، فقال : « ما اسمك ؟ » قال :
أنا زيد الخليل ، قال : « بل أنت زيد الخير ، سل » قال : أسألك عن علامة الله فيمن يريد ،
وعلامته فيمن لا يريد . . . الحديث . قال ابن حجر : وأخرجه ابن عسدي في ترجمة بشير
(يعني بشير مولى بني هاشم) وضعفه . اهـ . وكان زيد الخليل شاعراً خطيباً شجاعاً كريماً ،
بكى أبا مكنف رضي الله عنه .

قال المصنف : وأهل اللغة يقولون : يعني الشمس ، ولم يحجر لها ذكر ، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكر حقّه ، لأن في الآية دليلاً على الشمس ، وهو قوله : « بالمشي » ومعناه : عُرضَ عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر ، أو دليل ذكر فيكون بمنزلة الذكر ؛ وأما الحجاب ، فهو ما يحجبها عن الأبصار ^(١) .

قوله تعالى : (رُدُّوْهَا عَلَيَّ) قال المفسرون : لما شغله عرضُ الخيل عليه عن الصلاة ، فصلاًها بعد خروج وقتها ، اغتمَّ وغضب ، وقال : « رُدُّوْهَا عَلَيَّ » ، يعني : أعيدوا الخيلَ عَلَيَّ (فطَفِقَ) قال ابن قتيبة : أي : أقبل (مَسْحًا) قال الأخفش : أي : يَمْسَحُ مَسْحًا .

فأما السُّوق ، فجمع ساق ، مثل دُور ودار . ومم السُّوق ابن كثير ، قال أبو علي : وغيرُ الهمز أحسنُ منه . وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن محيصن : « بالسُّوق » مثل الرُّؤوس . وفي المراد بالمسح هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضربها بالسيف . روى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ في

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بمرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، ثم قال ابن كثير : والذي يَقْطَعُ به أنه لم يتركها عمداً ، بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، قال : وذلك ثابت في « الصحيحين » من غير وجه ، قال : من ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس ، فجعل يسبُّ كفار قريش ويقول : يا رسول الله ، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » فقال : قمنا إلى بطحان ، فتوضأُ نبي الله ﷺ للصلاة ، وتوضأنا لها ، فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب . اهـ .

قوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ » قال : « بالسيف »^(١) . وروى مجاهد عن ابن عباس قال : مسح أعناقها وسوقها بالسيف . وقال الحسن ، وقتادة ، وابن السائب : قطع أعناقها وسوقها ، وهذا اختيار السدي ، ومقاتل ، والفراء ، وأبي عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة ، وأبي سليمان الدمشقي ، والجمهور^(٢) .
والثاني : أنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : مسحها بيده ، وهذا اختيار ابن جرير^(٣) ، والقاضي أبي بلى .

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٠٩/٥ من رواية الطبراني في « الأوسط » ، والاسماعيلي في « معجمه » ، وابن مردويه عن أبي بن كعب رضي الله عنه . قال الحافظ المهيمني في « مجمع الزوائد » ٩٩/٨ : رواه الطبراني في « الأوسط » وفيه سعيد بن بشر ، وثقه شعبة وغيره ، وضعفه ابن معين وغيره ، قال : وبقيّة رجاله ثقات . اهـ . وقد ضعف سعيد بن بشر الحافظ ابن حجر في « التقرّب » .

(٢) قال البغوي في « تفسيره » : (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) فجعل بضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قال : هذا قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل ، وأكثر المفسرين ، قال : وكان ذلك مباحاً له ، لأنّ نبي الله لم يكن يقدم على عرثم ، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر . اهـ . وقال ابن كثير : قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، قال : ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوفه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، قال : فهذا أسرع وخير من الخيل . اهـ . وقال الشوكاني في « فتح القدير » ، عن هذا القول : وهذا أولى بسياق الكلام ، فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاته صلاة العصر ، ثم أمرم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهمه عن ذلك ، وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه . اهـ . وقال آخرون غير هذا ، منهم ، الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري ، وسبأني في التطبيق الذي بعد هذا ، والله أعلم .

(٣) قال ابن جرير الطبري ١٥٦/٢٣ : حدثني علي قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية عن علي (يعني ابن أبي طلحة) عن ابن عباس قوله : (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) يقول : —

والثالث : أنه كَوَّأى سَوْقَهَا وَأَعْنَقَهَا وَحَبَسَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، حَكَاهُ الطَّبْرِيُّ .
والمفسِّرون على القول الأول ، وقد اعترضوا [على] القول الثاني ، وقالوا :
أي مناسبة بين شغلها لإتياء عن الصلاة وبين مَسَحَ أَعْرَافَهَا حُبًّا لَهَا ؟ ولا أعلم
قوله : « حُبًّا لَهَا » ثبت عن ابن عباس . وحملوا قول مجاهد « مَسَحَهَا يَدَهُ »
أي : تَوَلَّى ضَرْبَ أَعْنَقِهَا .

فان قيل : فالقول الأول يفسد بأنه لا ذَنْبٌ لِلْحَيَوَانِ ، فكيف وجَّه العقوبة
إليه وقصد التشفي بقتله ، وهذا يشبه فِعْلَ الْجَبَّارِينَ ، لَا فِعْلَ الْأَنْبِيَاءِ ؟
فالجواب : أنه لم يكن لِيَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا وَقَدْ أُيِّحَ لَهُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يُبَاحَ لَهُ
مَا يُنْتَمِعُ مِنْهُ فِي شَرْعِنَا ، عَلَى أَنَّهُ إِذَا ذَبَحَهَا كَانَتْ قَرْبَانًا ، وَأَكْلُ لَحْمِهَا جَائِزٌ ، فَوَاقِعُ
تَقْرِيطِ . قَالَ وَهَبُ بْنُ مَنِبِّهٍ : لَمَّا ضَرَبَ سَوْقَهَا وَأَعْنَقَهَا ، شَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى
لَهُ ذَلِكَ ، فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ مَكَانَهَا ، وَهِيَ أَحْسَنُ فِي الْمَنْظَرِ ، وَأَسْرَعُ فِي السَّبْرِ ،
وَأَعْجَبُ فِي الْأُخْدُوتَةِ .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ قَتَلْنَا سُلَيْمَانَ) أي : ابتليناه وامْتَحَنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ
(وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ) أي : على سريره (جَسَدًا) وفيه قولان .
أحدهما : أنه شيطان ، قاله ابن عباس ، والجمهور . وفي اسم ذلك الشيطان
ثلاثة أقوال . أحدها : ضُخْر ، رواه العوفي عن ابن عباس . وذكر العلماء أنه كان
شيطانًا صَرِيدًا لم يُسَخَّرْ لِسُلَيْمَانَ . والثاني : آصَف ، قاله مجاهد ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ
بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي عِنْدَهُ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ نَاقِلِي التفسير حكى أنه

— جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها ، قال الطبري : وهذا القول الذي ذكرناه عن
ابن عباس ، أشبه بتأويل الآية ، لأن في الله ﷻ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانًا بالعرقبة
(يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف) ويهلك ماله من ماله بغير سبب ، سوى أنه اشتغل
عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذَنْبَ لَهَا بِاشْتِغَالِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا . اهـ .

آصف الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب ، وأنه لما قُتِنَ سليمان سقط الخاتم من يده فلم يَبُتْ ، فقال آصف : أنا أقوم مقامك إلى أن يتوبَ الله عليك ، فقام في مقامه ، وسار بالسيرة الجميلة ، وهذا لا يَصِحُّ ، ولا ذكره مَنْ يوثق به . والثالث : حقيق ، قاله السدي ؛ والمعنى : أجلسنا على كرسية في ملكه شيطانا . (ثم أناب) أي : رَجَعَ . وفيما رجع إليه قولان . أحدهما : تاب من ذنبه ، قاله قتادة . والثاني : رَجَعَ إلى ملكه ، قاله الضحاك .

وفي سبب ابتلاء سليمان بهذا خمسة أقوال . أحدها : أنه كانت له امرأة يقال لها : جرادة ، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، ففُضِيَ بينهم بالحق ، إلا أنه وَدَّ أن الحق كان لأهلها ، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً ، وأوحى الله تعالى إليه أنه سيُصيبك بلاء ، فكان لا بدري أبأتيه من السماء ، أو من الأرض ، رواه سميد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : أن زوجته جرادة كانت آتَرَ النساء عنده ، فقالت له يوماً : إن أخي بينه وبين فلان خصومة ، وإني أُحِبُّ أن تَقْضِيَ له ، فقال : نعم ، ولم يفعل ، فابْتُلِيَ لأجل ما قال ، قاله السدي . والثالث : أن زوجته جرادة كان قد سبها في غزاةٍ له ، وكانت بنتَ مَلِكٍ فأُسْلِمَتْ ، وكانت تبكي عنده بالليل والنهار ، فسألها عن حالها ، فقالت : أَذْكَرُ أبي وما كنتُ فيه ، فلو أنك أَمَرْتَ الشياطين فصوروا صورته في داري فَأَتَسَلَّى بها ، [ففعل] ، فكانت إذا خرج سليمان ، تسجد له هي وولاندها [أربعين صباحاً ، فلما عَلِمَ سليمان ، كسر تلك الصورة ، وعاقب المرأة وولاندها] ثم تضرَّع إلى الله تعالى مستغفراً مما كان في داره ، فَسَلَّطَ الشيطانُ على خاتمه ، [هذا قول وهب بن منبه . والرابع : أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله تعالى

إليه : ياسليمان ، احتجبت^(١) عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تُنصف مظلوماً من ظالم . فسلط الشيطان على خاتمه [، قاله سعيد ابن المسيب . والخامس : أنه قارب امرأة من نسائه في الحيض أو غيره ، قاله الحسن^(٢) .

والقول الثاني : أن المراد بالجسد الذي أُلقي على كرسيه : أنه وُلد [له ولد] فاجتمعت الشياطين ، فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد ، لم تنفك من البلاء ،

(١) في الأصل : احتجب .

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر بعض هذه الروايات في سبب ابتلاء سليمان عليه السلام : وهذه كلها من الاسرائيليات ، ثم ذكر أن من أنكرها مارواه ابن أبي حاتم من رواية المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وسرد الرواية بطولها بنحو القول الأول الذي ذكره المؤلف هنا في سبب ابتلاء سليمان عليه السلام ، ولكن بأطول منه . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الكشاف » ، ١٤٣ : وأما ما يحكى من حديث الحاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام ، فآلة أعلم بصحته ، ثم قال : وروى النسائي من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وإسناده قوي ، وكذلك قال الحافظ السيوطي في « الدرر » ، ٣١٠/٥ : وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس رضي الله عنها قال : أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه . . . وسرد القصة بطولها . قال ابن كثير بعد أن سرد هذا القول بطوله من رواية ابن أبي حاتم : إسناده إلى ابن عباس قوي ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنها - إن صح عنه - من أهل الكتاب ، قال : وفيهم طائفة لا يستقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، قال : ولهذا كان في هذا السياق منكرات ، من أشدها ذكر النساء ، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الحني لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصم^١ الله عز وجل منه تشريقاً وتكريماً لنبه عليه السلام ، قال : وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، قال : وكلّتها متلفئة من قصص أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . اهـ .

فسبيلُنَا أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَهُ أَوْ نَخْبِلَهُ ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ سُلَيْمَانُ ، [فَأَمَرَ السَّحَابَ] فَحَمَلَهُ ،
وَعَدَا ابْنَهُ فِي السَّحَابِ خَوْفًا مِنَ الشَّيَاطِينِ ، فَمَاتَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَخَوُّفِهِ مِنَ
الشَّيَاطِينِ ، وَمَاتَ الْوَلَدُ ، فَأُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيْتًا جَسَدًا ، قَالَ الشَّعْبِيُّ .
وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ^(١) . وَنَحْنُ نَذْكُرُ قِصَّةَ ابْتِلَاءِ عَلَى قَوْلِ الْجَهْوَرِ .

الإشارة إلى ذلك

اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين .

أحدهما : أنه كان جالساً على شاطئ البحر ، فوقع منه في البحر ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أن شيطاناً أخذه ، وفي كيفية ذلك أربعة أقوال .

أحدها : أنه دخل ذات يوم الحمام ووضع الخاتم تحت فراشه ، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر ، وجعل الشيطان يقول : أنا نبي الله ، قاله سميد ابن المسيب .

والثاني : أن سليمان قال للشيطان : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرني خاتمك أخبرك ، فأعطاه إياه ، فنبذه في البحر ، فذهب ملك سليمان ، وقعد الشيطان على كرسيه ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه دخل الحمام ، ووضع خاتمته عند أوتق نساءه في نفسه ، فأناها الشيطان فتمثل لها في صورة سليمان وأخذ الخاتم منها ، فلما خرج سليمان ، طلبه

(١) يريد به القول الأول الذي ذكره عند قوله تعالى : (وألقينا على كرسيه جسداً)

قال : وفيه قولان . أحدهما : أنه شيطان ، قاله ابن عباس والجمهور .

منها ، فقالت : قد دفعته إليك ، فهرب سليمان ، وجاء الشيطان فجلس على مُلكه ،
قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنه دخل الحُتّام ، وأعطى الشيطانَ خاتمه فألقاه الشيطان في البحر ،
فذهب مُلك سليمان ، وألقي على الشيطان شِبْهُهُ ، قاله قتادة .

فأما قصّة الشيطان ، فذكر أكثر المفسرين أنه لما أخذ الحُتّام رمى به
في البحر ، وألقي عليه شِبْهُهُ سليمان ، فجلس على كرسيه ، وتحكّم في سُلْطانه .
وقال السدي : لم يُلقه في البحر حتى فرّ من مكان سليمان . وهل كان يأتي
[نساء] سليمان ؛ فيه قولان . أحدهما : أنه لم يَقْدِر عليهنّ ، قاله الحسن ،
وقتادة . والثاني : أنه كان يأتيهنّ في زمن الحِض ، فَأُنْكَرَتْهُ ، قاله سعيد
ابن المسيّب ؛ والأول أصحّ ^(١) . قالوا : وكان يقضي بقضايا فاسدة ، ويحكم
بما لا يجوز ، فأنكره بنو إسرائيل ، فقال بعضهم لبعض : إما أن تكونوا قد
هَلَكْتُمْ أنتم ، وإما أن يكون ملككم قد هَلَكَ ، فاذهبوا إلى نساءه فاسألوهنّ ،
فذهبوا ، فَقُلْنَ : إنا والله قد أنكرنا ذلك ؛ فلم يزل على حاله إلى أن انقضى
زمن البلاء .

وفي كيفية بُعْدِ الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال .

أحدها : أن سليمان وجد خاتمه فتختم به ، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان ،
قاله سعيد بن المسيّب .

(١) وقد رأيت قبل قليل كيف قال ابن كثير : فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من
أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً
لنبيه عليه السلام ، قال : وقد رويت هذه القصة عن جماعة من السلف ، ثم قال : وكلّها
متلفة من قصص أهل الكتاب ، والله أعلم بالصواب . اهـ .

والثاني : أن سليمان لما رَجَعَ إلى مُلْكِهِ وجاءته الرِّيح والطَّير والشياطين ،
فرَّ الشيطان حتى دخل البحر ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه لما مضى أربعون يوماً ، طار الشيطان من مجلسه ، قاله وهب .

والرابع : أن بني إسرائيل لما أنكروه ، أتوه فأحدقوا به ، ثم نَشَرُوا
التَّوراة فقرؤوا ، فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه في
البحر فابتلمه حوت ، قاله السدي .

وفي قدر مكث الشيطان قولان . أحدهما : أربعون يوماً ، قاله الأكثرون .

والثاني : أربعة عشر يوماً ، حكاه الثعلبي .

وأما قصة سليمان عليه السلام ، فإنه لما سَلَبَ خاتمه ، ذهب ملكه ، فانطلق
هارباً في الأرض . قال مجاهد : كان يَسْتَطْعِمُ فلا يُطْعَمُ ، فيقول : لو عَرَفْتُمُونِي
أُعْطَيْتُمُونِي ، أنا سليمان ، فيطردونه ، حتى أعطته امرأة حوتاً ، فوجد خاتمه في
بطن الحوت . وقال سميد بن جبير : انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر ، فوجد
صيادين قد صادوا سمكاً كثيراً وقد أتن عليهم بعضه ، فاتاهم يَسْتَطْعِمُ ، فقالوا :
اذهب إلى تلك الحيتان فخذ منها ، فقال : لا ، أطعموني من هذا ، فأبوا عليه ،
فقال : أطعموني فأتي سليمان ، فونب إليه رجلٌ منهم فضربه بالعصا غَضَباً
لسليمان ، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً ، فشقَّ بطنَ حوت ، فاذا هو بالخاتم .
وقال الحسن : ذُكِرَ لي أنه لم يُؤْوَهِ أحدٌ من الناس ، ولم يُعْرِفْ أربعين ليلةً ،
وكان يأوي إلى امرأة مسكينة ، فبينا هو يوماً على شطِّ نهر ، وجد سمكةً ، فأتى
بها المرأة فشقتها فاذا بالخاتم . وقال الضحاك : اشترى سمكة من امرأة فشقَّ بطنها
فوجد خاتمه .

وفي المدة التي سَلَبَ فيها الملك قولان . أحدهما : أربعون ليلةً ،

كما ذكرنا عن الحسن والثاني : خمسون ليلة ، قاله سعيد بن جبير . قال المفسرون : فلما جعل الخاتم في يده ، ردَّ الله عليه بهاءه ومُنكته ، فأظلمت الطير ، وأقبل لا يستقبله جني ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له ، حتى انتهى إلى منزله . قال السدي : ثم أرسل إلى الشيطان ، فجيء به ، فأمر به فجعل في صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه وأقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فألق في البحر ، فهو فيه إلى أن تقوم الساعة . وقال وهب : جاب^(١) صخرة فأدخله فيها ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم قذفه في البحر .

قوله تعالى : (وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) . فتح الياه^(٢) نافع ، وأبو عمرو . وفيه قولان .

أحدهما : لا يكون لأحد بعدي ، قاله مقاتل ، وأبو عبيدة . وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَقْلَسْتُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لَيْقَطُوعَ عَلَيَّ صَلَاتِي ، فَأُمْكِنِي اللَّهُ مِنْهُ ، فَأُخَذْتُه ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ : (هَبْ لِي مَلَكًا لَا يُتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) ، فَزَادَتْهُ خَاسَةً »^(٣) .

(١) جاب : قطع .

(٢) أي : ياء « بعدي » .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣٢٩/٦ ، ٤٢٠/٨ ، ومسلم : ٣٨٤/١ ، والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٣١٣/٥ ، وزاد نصه إمام بن حميد ، والنسائي ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وقوله « تَقْلَسْتُ عَلَيَّ » أي : ترمض لي قطة ، أي : بنته ، وقوله « الْبَارِحَةَ » أي : الليلة الحالية الزائلة ، قال : والبارح : الزائل ، قال : ويقال من بعد الزوال إلى آخر —

والثاني : لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي ، كما فعل الشيطان الذي جلس على كرسيه ، قاله الحسن ، وقتادة ^(١) . وإنما طلب هذا الملك ، ليعلم أنه قد غُفر له ، ويعرف منزلته بإجابة دعوته ، قاله الضحاك . ولم يكن في ملكه حين دعا بهذا الريح ولا الشياطين (فسخرنا له الريح) ^(٢) وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو جعفر ، وأبو المتوكل : « الريح » على الجمع .

— النهار : البارحة ، قال : وقوله : « فذكرت دعوة أخي سليمان ، أي : قوله : (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) قال : وفي هذا إشارة إلى أنه عليه السلام كان بقدر على ذلك ، إلا أنه تركه رعاية سليمان عليه السلام ، قال : ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريد لا في هذا القدر فقط ، قال : واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن في أشكلهم وهيتهم حال تصرفهم ، قال : وأما قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) فالمراد : الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم ، قال : ونُقِبَ بأن نفي رؤية الانس للجن على هيتهم ليس بقاطع من الآلة ، بل ظاهرها أنه ممكن ، فإن نفي رؤيتنا إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا ، قال : ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة ، قال : ويحتمل العموم ، وهو الذي فهمه أكثر العلماء ، حتى قال الشافعي : من زعم أنه يرى الجن ، أبطلنا شهادته ، واستدل بهذه الآلة . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : قوله : (قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) يقول تعالى ذكره : قال سليمان واغنياً إلى ربه : رب استر عليّ ذنبي الذي أذنبت بيني وبينك فلا تصاقني به (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) لا يسلبني أحد كما سلبني قبل هذه الشيطان . اهـ . وقال ابن كثير : قال بعضهم : مناه : لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي : لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي ، كما كان من قضية الحمد الذي ألقى على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، قال : والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، قال : وهذا هو ظاهر السياق من الآلة ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : فاستجبنا له دعاءه فأعطيناه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخرنا له الريح .

قوله تعالى : (رُخَاءٌ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مُطِيعة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والضحاك .
والثاني : أنها الطيبة ، قاله مجاهد . والثالث : اللينة ، مأخوذ من الرخاوة ،
قاله اللخويثون .

فان قيل : كيف وصفها بهذا بعد أن وصفها في سورة (الأنبياء : ٨٤)
بأنها عاصفة ؟

فالجواب : أن المفسرين قالوا : كان يأمر العاصف تارة ويأمر الرخاء أخرى .
وقال ابن قتبية : كأنها كانت تشتد إذا أراد ، وتلين إذا أراد .

قوله تعالى : (حيثُ أصاب) أي : حيث قصد وأراد . قال الأصمعي : تقول
العرب : أصاب فلان الصواب فأخطأ الجواب ، أي : أراد الصواب .

قوله تعالى : (والشیاطین) أي : وسخرنا له الشياطين (كُلُّ بَنَاءٍ)
ينون له ما يشاء (وغواص) يفوصون له في البحار فيستخرجون الدر^(١) ،
(وآخرين) أي : وسخرنا له آخرين ، وهم مردة الشياطين ، سخرهم له
حتى قرّتهم في الأصفاد لكفرهم . قال مقاتل : أوثقهم في الحديد . وقد شرحنا

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (والشیاطین كلُّ بَنَاءٍ وغواص) يقول تعالى ذكره :
وسخرنا له الشياطين فسلطناه عليها مكان ما ابتليناه بالذي ألقينا على كرسيه منها ، يستعملها
فيما شاء من أعماله ، من بناء وغواص ، فالبناء منها يصنعون محاريب وقمائل ، والناصلة
تخرجون له الحلي من البحار ، وآخرون ينحتون له جفانا وقصورا ، والمردة في الأغلال
قرنوت . اه . وقال ابن كثير : وقوله جل جلاله : (والشیاطین كلُّ بَنَاءٍ وغواص)
أي : منهم من هو مستعمل في الأبنية المائلة من محاريب وقمائل وجفان كالجواب وقصور راسيات
إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، قال : وطائفة غواصون في البحار
يستخرجون ما فيها من الآلى والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها . اه .

معنى (مُقَرَّرَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ) فِي سُورَةِ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [إِبْرَاهِيم: ٤٩] .
 (هَذَا عَطَاؤُنَا) الْمَعْنَى : قُلْنَا لَهُ : هَذَا عَطَاؤُنَا . وَفِي الْمَشَارِ إِلَى قَوْلَانِ .
 أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ جَمِيعُ مَا أُعْطِيَ ، (فَاْمُنُّنْ أَوْ أُمْسِكْ) أَي : أَعْطِ مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ ، وَامْنَعْ مَنْ شِئْتَ . وَالْمَنْ : الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ لَا يُطَلَّبُ ثَوَابُهُ .
 وَالثَّانِي : أَنَّهُ إِمَارَةٌ إِلَى الشَّيَاطِينِ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ ؛ فَالْمَعْنَى : فَاْمُنُّنْ عَلَى مَنْ شِئْتَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَأُمْسِكْ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ . وَقَدْ رَوَى مَعْنَى الْقَوْلَيْنِ عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (بَنِيَرِ حِسَابِ) قَالَ الْحَسَنُ : لَا تَبِعِمَّةَ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا
 وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَالَ سَمِيدُ بْنُ جَبْرِ : لَيْسَ عَلَيْكَ حِسَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ : فِي
 الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : هَذَا عَطَاؤُنَا بَنِيَرِ حِسَابِ فَاْمُنُّنْ أَوْ أُمْسِكْ ^(١) .
 وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ سَبَقَ تَفْسِيرُهُ [سَبَأ: ٣٧ ، الرُّعْد: ٢٩ ، الْإِنْبِيَاء: ٨٣] ^(٢) إِلَى قَوْلِهِ :
 (مَسْنِي الشَّيْطَانُ) وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ سَلَّطَ عَلَيْهِ ، فَأَصَافَ مَا أَصَابَهُ إِلَيْهِ .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَنْصُبِ) قَرَأَ الْآكْثَرُونَ بِضَمِّ الزَّوْنِ وَسُكُونِ الصَّادِ ؛ وَقَرَأَ

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ مَا لَمْ يَسْخَرْ لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ ،
 وَذَلِكَ تَسْخِيرُهُ لَهُ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ قَالَ : ثُمَّ قَالَ عَزَّ ذِكْرُهُ : هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمَلِكِ
 وَتَسْخِيرُنَا مَا سَخَّرْنَا لَكَ ، عَطَاؤُنَا ، وَهَبْنَا لَكَ مَا سَأَلْتَنَا أَنْ نَهَبَ مِنَ الْمَلِكِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِكَ ،
 ثُمَّ قَالَ : وَآلَهُ لَا يَحْسَبُ عَلَى مَا أُعْطِيَ مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ وَالسَّالْطَانِ . هـ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :
 (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنْ أَوْ أُمْسِكْ بَنِيَرِ حِسَابِ) أَي : هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمَلِكِ التَّامِّ وَالسَّالْطَانِ
 الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتَنَا ، فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرَمْ مَنْ شِئْتَ ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ مِمَّا فَتَتْ ، فَهُوَ جَائِزٌ
 لَكَ ، أَحْكَمُ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ . هـ .

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : (وَادْكُرْ) أَيْضًا
 بِأَمْحَدَ (عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ) مُسْتَفْتِيًا بِهِ فَيَا زُلْ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ يَرْبُ (إِنِّي مَعَنِي
 الشَّيْطَانُ يَنْصُبِ) . هـ .

الحسن ، وابن أبي عذبة ، وابن السميع ، والجحدري ، ويعقوب : بفتحها . وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها سواء . قال الفراء : هما كالرشد والرشد ، والعُدْم والعُدْم ، والحُزْن والحُزْن ؛ وكذلك قال ابن قتيبة ، والزجاج . قال المفسرون : والمراد بالنصب : الضرب الذي أصابه .

والثاني : أن النصب بتسكين الصاد : الشر ، وبتحريكها : الإعياء ، قاله أبو عبيدة .

وقرأت مائشة ، ومجاهد ، وأبو عمران ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وأبو عمارة عن حفص : « بَنَصْب » بضم النون والصاد جميعاً . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو الجوزاء ، وهبيرة عن حفص : « بَنَصْب » بفتح النون وسكون الصاد ^(١) . وفي المراد بالعذاب قولان . أحدهما : أنه العذاب الذي أصاب جسده . والثاني : أنه أخذ ماله وولده .

قوله تعالى : (أَرْكَضْ) أي : اضرب الأرض (بِرَجْلِكَ) ^(٢) ،

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار ، وذلك الضم في النون والسكون في الصاد . اهـ .

(٢) قال القاسمي : أي : استجبنا له وقتلنا : اركض برجلك ، أي : اعد بها واهش فقد برئت وشفيت من مرضك وقوي جسمك وصح بدنك « هذا منسل بارد وشراب » أي : ماء تقتسل به وتخرب منه ، قال : [والإشارة إلى عين أو نهر أو نخوها] .

وقال الطبري : فاعتسل وشرب ، ففرجنا عنه ما كان فيه من البلاء ، ووهبنا له أهله من زوجة وولد (ومثلهم معهم رحمة مثلاً) له (وذكرى) يقول : وتذكيراً لأولي العقول ليمتروا بها فينظروا . اهـ .

ومنه : رَكَضْتُ الْفَرَسَ ^(١) . فَرَكَضَ فَنَبِطَ عَيْنُ ماء ، فذلك قوله عز وجل : (هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) . قال ابن قتيبة : المَغْتَسَلُ : الماء ، وهو الغسل أيضاً . قال الحسن : رَكَضَ بَرَجْلَه فَنَبِطَ عَيْنُ [فَاغْتَسَلَ مِنْهَا ، ثُمَّ مَشَى نَحْواً مِنْ أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً ، ثُمَّ رَكَضَ بَرَجْلَه فَنَبِطَ عَيْنُ] فَشَرِبَ مِنْهَا ؛ وَعَلَى هَذَا جَهْرُورُ الْعَمَاءِ أَنَّهُ رَكَضَ رَكَضَيْنِ فَنَبِطَ لَهُ عَيْنَانِ ، فَاغْتَسَلَ مِنْ وَاحِدَةٍ ، وَشَرِبَ مِنَ الْآخَرَى .

قوله تعالى : (وَخُذْ يَدَكَ مِنْهُ) كَانَ قَدْ حَلَفَ لَنْ شَفَاهُ اللَّهُ لِيَجْلِدَنَّ زَوْجَتَهُ مِائَةَ جَلْدَةٍ ^(٢) . وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال .

أحدها : أن إبليس جلس في طريق زوجة أيوبَ كأنه طيب ، فقالت له : يا عبد الله : إن هاهنا إنساناً مبتلياً ، فهل لك أن تدأويه ؟ قال : نعم ، إن شاء شفيته ، على أن يقول إذا برأ : أنت شفيتني ، فجاءت فأخبرته ، فقال : ذاك الشيطان ، لله عَليَّ إن شفاني أن أجلك مائة جلدَةٍ ، رواه يوسف بن مهران

(١) في « الصحاح » و « اللسان » : وَرَكَضْتُ الْفَرَسَ بَرَجْلِي : إِذَا اسْتَحْضَيْتَهُ لِيَحْدُوَ ، ثُمَّ كَثُرَ حَقُّ قِيلَ : رَكَضَ الْفَرَسَ : إِذَا عَدَا ، وَلَيْسَ بِالْأَصْلِ ، وَالصَّوَابُ : رَكَضَ الْفَرَسَ ، عَلَى مَا يَسْمُ فَاعِلُهُ ، فَهُوَ مَرَكُوزٌ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (وَخُذْ يَدَكَ مِنْهُ ضَرْباً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ) وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ فُلْتِهِ - قِيلَ : بَاعَتْ ضَعْفَ نَفْسِهَا بِخَبْزٍ فَأَطْمَعَتْهُ إِلَاهُ - فَلَمَّا عَلَى ذَلِكَ وَحَلَفَ إِنَّ شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَضْرِبَهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَقِيلَ لغير ذلك من الأسباب ، فَلَمَّا شَفَاهُ اللَّهُ عز وجل وعافاه ، مَا كَانَ جَزَائُهَا مَعَ هَذِهِ الْخُدْعَةِ التَّامَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تَقَابِلَ بِالضَّرْبِ ، فَأَتَاهُ اللَّهُ عز وجل أَنْ يَأْخُذَ ضَرْباً وَهُوَ الشِّعْرَاخُ فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ فَيَضْرِبُهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَقَدْ بَرَّتْ بَيْنَهُ وَخَرَجَ مِنْ حَتِّهِ وَوَفَّى بِنَذْرِهِ ، قَالَ : وَهَذَا مِنَ الْفَرَجِ وَالْخُرُجِ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى وَأَتَى إِلَيْهِ . اهـ .

عن ابن عباس (١).

والثاني : أن إبليس لقيها فقال : إني أنا الذي فعلتُ بأَيُّوبَ مابه ، وأنا آله الأرض ، وما أخذته منه فهو يدي ، فانطلقني أريك ، فمشى بها غير بعيد ، ثم سَحَرَ بَصَرَهَا ، فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها ومالها ، فأنت أَيُّوبَ فأخبرته ، فقال : ذاك الشيطان ، وبحك كيف وعى قوله سمعك ؟ والله لئن شفاني الله عز وجل لأَجْلِدَنَّكَ مائةً ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : لِيَذْبَحْ لي هذه وقد برأ ؛ فأخبرته ، فحَلَفَ لِيَجْلِدَنَّهَا ، وقد ذكرنا هذا القول في سورة (الأنبياء : ٨٣) عن الحسن .

فأما الضغث ، فقال الفراء : هو كُـلُّ ما جمته من شيءٍ مثل الحِزْمَةِ الرُّطْبَةِ ، قال : وما قام على ساق واستطال ثم جمته ، فهو ضِغْثٌ . وقال ابن قتيبة : هو الحِزْمَةُ من الحلال والعيدان . قال الزجاج : هو الحِزْمَةُ من الحشيش والريحان وما أشبهه . قال المفسرون : جزى الله زوجته بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها فسئل الأمر ، فجمع لها مائة عود ، وقيل : مائة سنبله ، وقيل : كانت أسلاً (٢) ، وقيل : من الإذخِر (٣) ، وقيل : كانت شماريخ ، فضربها بها ضربة واحدة ولم يَحْنَثْ في يمينه . وهل ذلك خاصُّ له ، أم لا ؟ فيه قولان .

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣١٦/٥ من رواية أحمد في « الزهد » ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) قال في « الصحاح » : الأسَلُ : شجرٌ ، ويقال : كل شجر له شسوك طويل فشوكه أسَلٌ .

(٣) قال في « المصباح » : الإذخِر ، بكسر الهمزة والخاء : نبات معروف ذكي الريح ، وإذا جَفَّ أبيض .

أحدهما : أنه عامٌ ، وبه قال ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، [وابن أبي ليلى] .
والثاني : أنه خاصٌ لأيوب ، قاله مجاهد .

❦ فصل ❦

وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجعلها كلها وضربه بها ضربة واحدة ، فقال مالك ، والليث بن سعد : لا يبرأ ، وبه قال أصحابنا . وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا أصابه في الضربة الواحدة كل واحد منها ، فقد برأ ، واحتجوا بموم قصة أيوب عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا) أي : على البلاء الذي ابتليناه به ^(١) .
﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَبْدَانِ وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ . وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكُفُلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ . هَذَا ذِكْرٌ وَلِئَلَّ الْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ . جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَعَةٍ لَهُمْ فِيهَا الْأَنْبُوبُ . مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَّابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثَرَابٍ . هَذَا مَتَّوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا) يقول : إِنَّا وَجَدْنَا أَيُّوبَ صَابِرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، لَا يَجْعَلُهُ الْبَلَاءُ عَلَى الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْدُخُولِ فِي مَعْصِيَتِهِ (نَمِ الْعَبْدُ لِمَنْهُ أَوْثَابٌ) يقول : إِنَّهُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ مُقْبِلٌ ، وَإِلَى رِضَا رَجُلٍ . اهـ .

قوله تعالى : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا) وقرأ ابن عباس ، وبجاهد ، وحيد ، وابن محيصن ، وابن كثير : « عبدنا » ، إشارة إلى إبراهيم ، وجعلوا إسحاق ويعقوب عطفاً عليه ، لأنه الأصل وهما ولده ، والمعنى : اذكُرْ صبرهم ، فإبراهيم أُلقي في النار ، وإسحاق أُضجع المذبح ^(١) ، ويعقوب صبر على ذهاب بصره وابتلي بفقد ولده ؛ ولم يُذكر إسماعيل معهم ، لأنه لم يُبَدَل كما ابتلوا ^(٢) .

(أولي الأيدي) يعني القوة في الطاعة (والأبصار) البصائر في الدين والمِلَم . قال ابن جرير : وذكر الأيدي مثل ، وذلك لأن باليد البطش ، وبالبطش تُعرف قُوَّة القوي ، فلذلك قيل للقوي : ذو يد ؛ وعنى بالبصر : بصر القلب ، وبه تُنال معرفة الأشياء . وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وابن أبي عملة : « أولي الأيدي » بغير ياء في الحالين . قال الفراء : ولها وجهان . أحدهما : أن يكون القارىء لهذا أراد الأيدي ، فحذف الياء ، وهو صواب ، مثل الجوار والمناد . والثاني : أن يكون من القُوَّة والتأييد ، من قوله : (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) [البقرة : ٨٧] .

قوله تعالى : (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ) أي : اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين ، فأفردناهم بمُفَرَّدَةٍ من خصال الخير ؛ ثم أبان عنها بقوله : (ذَكَرَى الدَّارَ) . وفي المراد بالدار هاهنا قولان . أحدهما : الآخرة . والثاني : الجنة . وفي الذكرى قولان .

- (١) هذا على رأي من قال بأن الذبيح هو إسحاق ، وبذلك قال المصنف ، وقد رجح ذلك الطبري ، وقد تقدم أن الصواب في ذلك أن الذبيح إسماعيل عليه السلام ، لا إسحاق ، وعليه الجمهور .
- (٢) قال ابن كثير : يقول تبارك وتعالى خبراً عن فضائل عباده المرسلين وأتبيائه العابدِينَ (واذكر عبادة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع ، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . اهـ .

أحدهما : أنها من الذِّكْر ، فعلى هذا يكون المعنى : أخلصناهم بذكر
الآخرة ، فليس لهم ذِكر غيرها ، قاله مجاهد ، وعطاء ، والسدي . وكان الفضيل
ابن عياض رحمه الله عليه يقول : هو الخوف الدائم في القلب .
والثاني : أنها التذكير ، فالمعنى أنهم يدعون الناس إلى الآخرة وإلى عبادة
الله تعالى ، قاله قتادة .

وقرأ نافع : « بخالصة ذِكرى الدار » ، فأضاف « خالصة » إلى « ذِكرى الدار » .
قال أبو علي : تحتل قراءة من نوّن وجهين ، أحدهما : أن تكون « ذِكرى »
بدلاً من « خالصة » ، والتقدير : أخلصناهم بذكر الدار ، والثاني : أن يكون
المعنى : أخلصناهم بأن يذكروا الدار بالتأهب للآخرة والزهد في الدنيا . ومن
أضاف ، فالمعنى : أخلصناهم باخلاصهم ذِكرى الدار بالخوف منها . وقال ابن زيد :
أخلصناهم بأفضل ما في الجنة ^(١) .

قوله تعالى : (وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ) أي : من الذين اتخذهم الله
صَفْوَةً فصَّاهم من الأنداس (الاختيار) الذين اختارهم .
(واذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ) أي : اذكرهم بفضلهم
وصبرهم لِمَسْلُوكِ طَرِيقَتِهِم وَالْيَسَعَ نَبِيٌّ ، واسمه أعجمي مرَّ بـ ، وقد ذكرناه
في (الأنعام : ٨٥) ، وشرحنا في سورة (الأنبياء : ٨٥) قصة ذي الكفل ،
ونسكلمنا في (البقرة : ١٢٥) في اسم إسماعيل ، وزعم مقاتل أن إسماعيل هذا ليس
بإبراهيم .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على قراءة من قرأه بالتنوين
أن يقال : ممناه : إنا أخلصناهم بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا فأطاعوا
الله وراقبوه . اهـ .

قوله تعالى : (هذا ذِكْرٌ) أي : شرف وثناء جميل يُذكرون به أبداً
(وإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) أي : حُسْنَ مَرْجِعٍ يرجعون إليه
في الآخرة .

ثم يبين ذلك المَرْجِع ، فقال : (جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ
الْأَبْوَابُ) قال الفراء : إنما رُفِعَتْ « الأبواب » لأنَّ المعنى : مفتحة لهم
أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، فيقولون : طهرت على
رَجُلٍ حَسَنَ الْعَيْنِ ، قبيح الأنف ، والمعنى : حسنة عينه ، قبيح أنفه ، ومنه
قوله تعالى : (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) [التازعات : ٣٩] والمعنى : مأواه . وقال
الزجاج : المعنى : مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْآبُوابُ منها ، فالألف واللام للتعريف ، لا للبدل .
قال ابن جرير : والفائدة في ذِكْرٍ تفتيح الأبواب ، أن الله عز وجل أخبر عنها
أن أبوابها تُفْتَحُ لَهُمْ بغير فتح سُكَّانِهَا لها يد ، ولكن بالامر ، قال الحسن :
هي أبواب تَكَلَّمُ ، فَتُكَلِّمُ : انتفحي ، اتفاني .

قوله تعالى : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) قد مضى بيانه في (الصافات : ٤٨) .
قال الزجاج : والاثراب : اللواتي أسنانهنَّ واحدةٌ وهُنَّ في غاية الشباب والحُسْنِ .
قوله تعالى : (هذا ما تُوعَدُونَ)^(١) قرأ أبو عمرو ، وابن كثير بالياء .
والباقون بالياء .

قوله تعالى : (لِيَوْمِ الْحِسَابِ) اللام بمعنى « في » . والنفاذ : الانقطاع .
قال السدي : كلَّيْهَا أَخِذْ مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ شَيْءٌ ، عاد مثله .

(١) قال ابن كثير : أي : هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة ، هي التي وعدها لعباده
المتقين الذين يصيرون إليها بعد ثبوتهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . اهـ .

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ . جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . هَذَا فَرْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَأَمَرَحِبًا بِهِمْ لَئِنْهُمْ صَالُوا النَّارَ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمَرَحِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ . وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالًا كُنَّا نُمَدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ . أُنْخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ . إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقَّارُ ﴾

قوله تعالى : (هَذَا) المعنى : هذا الذي ذكرناه (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ) يعني الكافرين (لَشَرَّ مَأْبٍ)^(١) ، ثم يبين ذلك بقوله : (جَهَنَّمَ) والمهاد : الفراش . (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ) قال الفراء : في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : هذا حميمٌ وَغَسَّاقٌ فَلْيَذُوقُوهُ ؛ وإن شئت جعلت الحميم مستأنفاً ، كَأَنَّكَ قُلْتَ : هذا فَلْيَذُوقُوهُ ، ثم قلت : منه حميمٌ ، ومنه غَسَّاقٌ ، كقول الشاعر :

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الصَّبِيحُ فِي غَاسٍ وَغُودِرَ الْبَقْلُ مَكْنُورِيٍّ وَمَخْضُودُ^(٢)
فَأَمَّا الْحَمِيمُ ، فهو الماء الحار . وَأَمَّا الْغَسَّاقُ ، ففيه لفتان ، قرأ حمزة ، والكسائي ،

(١) قال ابن جرير الطبري : يعني تعالى ذكره بقوله : (هَذَا) الذي وصف لهؤلاء المتقين ، قال : ثم استأنف جل وعز الخبر عن الكافرين به الذين طغوا عليه وبغوا فقال : (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ) وهم الذين تمردوا على ربهم فقصوا أمرهم لإحسانه إليهم (لَشَرَّ مَأْبٍ) ، يقول : لشرٌ مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا . اهـ .

(٢) البيت من شواهد الفراء ، وهو في « معاني القرآن » : ١٩٣ ، و « الطبري » :

١٧٦/٢٣ . والنفس : ظلام آخر الليل . والمكوي : اليابس الذابل .

وخلف ، وحفص : بالتشديد ، وكذلك في (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ : ٢٥) ، تابهم
للفضل في (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) ، وقرأ الباقر بالتخفيف وفي الفساق أربعة أقوال .
أحدها : الزمهرير ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد :
الفساق لا يستطيعون أن ينوقوه من برده .

والثاني : أنه ما يجري من صديد أهل النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ،
وبه قال عطية ، وقادة ، وابن زيد .

والثالث : أن الفساق : عَيْنٌ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ إِلَيْهَا مَحْمَةٌ كُلِّ ذَاتِ مَحْمَةٍ مِنْ
حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ أَوْ غَيْرِهَا ، فيستنقع ، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة ، فيخرج وقد
سقط جلدُهُ ولحمه عن العظام ، ويَجْرُ لَحْمُهُ جَرَّ الرَّجُلِ نَوْبَهُ ، قاله كعب .

والرابع : أنه ما يسيل من دموعهم ، قاله السدي . قال أبو عبيدة : الفساق :
ماسال ، يقال : غَسَقَتِ العين والجرح . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي
عن ابن قتيبة قال : لم يكن أبو عبيدة [يذهب] إلى أن في القرآن شيئاً من
غير لغة العرب ، وكان يقول : هو اتفاق يقع بين اللغتين ، وكان [غيره] يزعم
أن الفساق : البارد المُنْتِنِ بلسان الترك . وقيل : فَعَالٌ ، مَنْ غَسَقَ
يَفْسِقُ ؛ فعلى هذا يكون عربياً . وقيل في معناه : إنه الشديد البرد ، يحرق
من برده . وقيل : هو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد ^(١) .

قوله تعالى : (وَآخِرُ) قرأ أبو عمرو ، والمفضل : « وَآخِرُ » بضم الهمزة
من غير مدٍّ ، فجما لأجل نغته بالأزواج ، وهي جمع . وقرأ الباقر بفتح الألف
ومدّه على التوحيد ، واحتجوا بأن العرب تنعت الاسم إذا كان فعلاً بالقليل

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : هو
ما يسيل من صديدهم ، قال : لأن ذلك هو الأغلب من معنى الفسوق ، وإن كان الآخر
وجهه صحيح . اهـ .

والكثير ؛ قال الفراء : تقول : عذابُ فلانٍ ضروبٌ شتى ، وضربان مختلفان ؛ وإن شئتَ جعلتَ الأزواجَ نمطاً للحميم والنساق والآخر ، فهُنَّ ثلاثةٌ ، والأشبه أن تجعله صفةً لواحد . وقال الزجاج : من قرأ « وآخر » بالمدِّ ، فالمعنى : وعذاب آخر (من شكله) أي : مثل الأول . ومن قرأ : « وآخر » ، فالمعنى : وأنواعٌ آخر ، لأن قوله : (أزواجٌ) بمعنى أنواع . وقال ابن قتيبة : « من شكله » أي : من نحوه ، « أزواجٌ » أي : أصنافٌ . وقال ابن جرير : « من شكله » أي : من نحوه الحميم . قال ابن مسعود في قوله : « وآخر من شكله » : هو الزمهرير . وقال الحسن : لما ذكر الله تعالى المذاب الذي يكون في الدنيا ، قال : « وآخر من شكله » أي : وآخر لم يُرَ في الدنيا ^(١) .

قوله تعالى : (هذا فوجٌ) هذا قول الزبانية للقادة المتقدمين في الكفر إذا جاؤوهم بالاتباع . وقيل : بل هو قول الملائكة لأهل النار كلَّما جاؤوهم بأمة بعد أمة ^(٢) . والفوج : الجماعة من الناس ، وجمعه : أفواج . والمقتحم : الدَّاخل في الشيء رمياً بنفسه . قال ابن السائب : إنهم يُضْربون بالمقامع ، فيلْقَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي النَّارِ وَيَثْبُوتُ فِيهَا خَوْفاً مِنْ تِلْكَ الْمَقَامِعِ . فَلَمَّا قَالَتْ

(١) قال ابن كثير : وقال الحسن البصري في قوله تعالى : (وآخر من شكله أزواج) ألوان من المذاب ، قال : وقال غيره : كالزمهرير والسموم وشراب الحميم وأكل الزقوم والسمود والهوى ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة ، قال : والجميع مما يمدَّبون به ويهانون بسببه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (هذا فوج مقتحم ممك لا مرجأ بهم إنهم صالوا النار) هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : (كلما دخلت أمة لغت أختها) يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض .

الملائكة ذلك لأهل النار ، قالوا : لا مَرَحِبًا بهم ، فاتصل الكلام وكأنه قول واحد ، وإنما الأول من قول الملائكة ، والثاني من قول أهل النار ؛ وقد يَبْنِئنا مِثْلَ هذا في قوله : (لِيَعْلَمَ أَتَيْ لَمْ أَخُذْنَهُ بِالْغَيْبِ) [يوسف : ٥٢] .
والمَرَحِبُ والمرحِبُ : السَّعَةُ . والمعنى : لا اتَّسَعَتْ بهم مساكنُهم . قال أبو عبيدة : تقول العرب للرجل : لا مَرَحِبًا [بك] أي : لا رَحِبَتْ عليك الأرض . وقال ابن قتيبة : معنى قولهم : « مَرَحِبًا وأهلاً » أي : آتيتُ رَحِبًا ، أي : سَعَةً ، وأهلاً ، أي : آتيتُ أهلاً لا غُرْباه ، فأنس ولا استوحش ، وسهلاً ، أي : آتيتُ سهلاً لا حَزَنًا ، وهو في مذهب الدعاء ، كما تقول : لَقِيتَ خَيْرًا . قال الزجاج : و « مَرَحِبًا » منصوب بقوله : رَحِبَتْ بلادك مَرَحِبًا ، وصادفت مَرَحِبًا ، فأدخات « لا » على ذلك المعنى .

قوله تعالى : (إِنَّهُمْ سَالُوا النَّارَ) أي : داخلوها كما دخلناها ، ومُقاسون حرَّها . فأجابهم القوم ، ف (قالوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَحِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا) .
إن قلنا : إن هذا قول الاتباع للرؤساء ، فالمعنى : أَنْتُمْ زَيْنْتُمْ لَنَا الكفر ؛ [وإن قلنا : إنه قول الأئمة المتأخرة للأئمة المتقدمين ، فالمعنى : أَنْتُمْ شَرَعْتُمْ لَنَا الكفر] وبدأتم به قبلنا ، فدخلتم النار قبلنا (فَبَسَّ الْقَرَارُ) أي : بَسَّ الْمُسْتَقَرَّ والمَنْزِل .
(قالوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا) أي : مَنْ سَنَّهُ وشرعه (فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) وقد شرحناه في (الأعراف : ٣٨) . وفي القائلين لهذا قولان . أحدهما : أنه قول جميع أهل النار ، قاله ابن السائب . والثاني : قول الاتباع . قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وقالوا) يعني أهل النار (مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ) قال المفسرون : إذا دخلوا النار ، نظروا فلم يَرَوْا مَنْ كَانَ

يخالفهم من المؤمنين ، فيقولون ذلك . قال مجاهد : يقول أبو جهل في النار : أين صُهَيْب ، أين عمار ، أين خَبَّاب ، أين بلال ١٢

قوله تعالى : (اَنْتَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا) قرأ أبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « مِنْ الْأَشْرَارِ اَنْتَخَذْنَاهُمْ » بالوصل على الخبر ؛ أي : [إِنَّا] اَنْتَخَذْنَاهُمْ ، وهؤلاء يبتدون بكسر الهززة . وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها على معنى الاستفهام ، وهؤلاء يبتدون بفتح الهززة . وقال الفراء : وهذا استفهام بمعنى التمجُّب والتوبيخ ، والمعنى أنهم يوبِّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين . و « سِخْرِيًا » يُقرأ بضم السين وكسرهما . وقد شرحناها في آخر سورة (المؤمنين : ١١٠) (أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ) أي : وهم مَعَنَّا في النار ولا نراهم ؟! وقال أبو عبيدة : « أَمْ » هاهنا بمعنى « بَلْ » .

قوله تعالى : (إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ) قال الزجاج : [أي] : إن الذي وصفناه عنهم لَحَقُّ . ثم يبيِّن ما هو ، فقال : هو (تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ) ^(١) وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو الشعثاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : « تَخَاصُّمٌ » برفع الصاد وفتح الميم ، وكسر اللام من « أَهْلٍ » وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وأبو المتوكل ، وابن السميع : « تَخَاصُّمَ أَهْلٍ » بفتح الصاد والميم ورفع اللام .

﴿ قُلْ هُوَ تَبَوُّا عَظِيمٌ . اَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ) أي : إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لَحَقٌّ لا مرية فيه ولا شك . اهـ .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَتَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ
 الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .
 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ
 أَمْ كُنْتَ مِنْ الْعَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ
 لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ .
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْدُومِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
 لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ
 وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَا مَلَأْتُ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
 قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ
 إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ *

قوله تعالى : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) النَّبَأُ : الخبر . وفي المشار إليه
 قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور . والثاني :
 أنه البعث بعد الموت ، قاله قتادة ^(١) ، (أنتم عنه مُعْرِضُونَ) أي : لاتفكروا
 فيه فتعلمون صدقي في نبؤي ، وأن ما جئت به من الأخبار عن قصص الماضين
 لم أعلمه إلا بوحي من الله . وبدل على هذا المعنى قوله : (ما كان لي من
 علم بالملأ الأعلى) يعني الملائكة (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) في شأن آدم حين قال
 الله تعالى : (وإني جاعل في الأرض خليفة) [البقرة : ٣٠] ؛ والمعنى : وإني

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : (قل) يا محمد لقومك
 المكذبيك فيما جئتهم به من عند الله من هذا القرآن القائلين لك فيه : إن هذا إلا اختلاق :
 (هو نبأ عظيم) يقول : هذا القرآن خبر عظيم . اهـ .

ما عَلِمْتُ هذا إِلَّا بوحى ، (إِنْ يُوحَى إِلَيَّ) أي : ما يوحى إليَّ (إِلَّا أَنَا أَنَا نَذِيرٌ) [أي :] إِلَّا أَنِّي نَبِيٌّ أَنذَرَكُمْ وَأَيْتِنَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَهُ وَتَجْتَنِبُونَهُ ^(١) .

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ) هذا متصل بقوله : « يَخْتَصِمُونَ » ، وَإِنَّا اعْتَرَضْتَ تِلْكَ الْآيَةَ بَيْنَهُمَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اخْتَصَمُوا حِينَ شُورُوا فِي خَلْقِ آدَمَ ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، وَهَذِهِ الْخُصُومَةُ مِنْهُمْ إِذْ كَانَتْ مُنَاطَرَةً بَيْنَهُمْ . وَفِي مُنَاطَرَتِهِمْ قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهُ قَوْلُهُمْ : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) [البقرة : ٣٠] ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُقَاتِلٌ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ قَالُوا : لَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ مِنْهُ وَأَعْلَمَ ، قَالَه الْحَسَنُ ؛ هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ . وَقَدْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ لِي : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ : أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ » ، قَالَ : فِي الْكَفَّارَاتِ وَالْدَّرَجَاتِ ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتِ ، فَاِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ ^(٢) ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ ، وَاتِّظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ . وَأَمَّا الدَّرَجَاتِ ، فَافْشَاءُ السَّلَامِ ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٌ ^(٣) .

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ : وَقَوْلُهُ : (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى) يَقُولُ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَشْرِكِي قَوْمِكَ : (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ) فِي شَأْنِ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي فَيُعَلِّمَنِي ذَلِكَ ، يَقُولُ : فِي إِبْخَارِي لَكُمْ عَنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ، وَتَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدِهِ ، لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي قَبْلَ زُورِ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَلَا هُوَ عَمَّا شَاهَدْتُهُ فَمَآبَتُهُ ، وَلَكِنِّي عَلِمْتُ ذَلِكَ بِإِخْبَارِ اللَّهِ إِلَيَّ بِهِ . هـ .

(٢) السَّبَرَاتِ : جَمْعُ سَبْرَةٍ بِسُكُونِ الْبَاءِ ، وَهِيَ الْفِدَاةُ الْبَارِدَةُ .

(٣) لِهَذَا الْحَدِيثِ طَرُقٌ مُتَعَدَّةٌ ، وَرَوَايَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ ذَكَرَهَا السُّيُوطِيُّ فِي « الدَّرَجَاتِ » : ٣١٩/٥ .

— ٢٢٠ — ، وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » : ٢٤٣/٥ مَطْوَلًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَاشٍ الْحَضْرَمِيِّ —

— عن مالك بن بخاير أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نقرأى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سرياً ، فتوَّب بالصلاة وصلى وتجوَّز في صلاته ، فلما سلَّم قال : « كما أنتم على مصافكم » ، ثم أقبل إلينا فقال : « إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قت من الليل فصليت ما قدَّرتُ ، فنمتُ في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم الملائكة الأُعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب ، قال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأُعلى ؟ قلت : لا أدري رب ، فرأيتُه وضع كفه بين كفتي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجسَّي لي كل شيء ، وعرفت ، فقال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأُعلى ؟ قلت : في الكفَّارات ، قال : وما الكفَّارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجمعات ، وجُلوس في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء عند الكرميات ، قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمي ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبُّك وحب عمل يقرِّبني إلى حبك ، وقال رسول الله ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتملَّموها » .

قال ابن كثير : فهو حديث النام المشهور ، قال : ومن جملة بقطة ، فقد غلط ، قال : وهو في « السنن » من طرق ، قال : وهذا الحديث بيته قد رواه الترمذي من حديث جهم بن ابن عبد الله اليامي به وقال : حسن صحيح ، قال : وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن ، فإن هذا قد فُسِّر ، وأما الاختصاص الذي في القرآن ، فقد فُسِّر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ...) الآيات . اهـ . وقد شرح هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة سماها « اختيار الأول في شرح حديث اختصاص الملائكة الأُعلى ، وقال عنه بعد ما ذكره من رواية أحمد في « المسند » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : وخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، قال : (يعني الترمذي) وسألت محمد بن اسماعيل البخاري عن هذا ؟ فقال : هذا حديث حسن صحيح . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي : قلت : —

قوله تعالى : (أَسْتَكَبَّرْتَ) أي : أَسْتَكَبَّرْتَ بِنَفْسِكَ حِينَ أُبَيِّنَ السُّجُودَ (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) أي : من قوم يتكبرون فَتَكَبَّرْتَ عَنْ السُّجُودِ لِكُنُوكَ مِنْ قَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ ١٤

قوله تعالى : (فَأَنْتَ رَجِيمٌ) أي : مَرْجُومٌ بِالذَّمِّ وَاللَّعْنِ .
قوله تعالى : (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) وهو وقت النَّفْخَةِ الْأُولَى ، وهو حين موت الخلائق .

وقوله : (فَبِعِزَّتِكَ) عَيْنٌ بِمَعْنَى : فَوَعِزَّتِكَ . وما أخطأنا به في هذه القصة فهو مذكور في (الأعراف : ١٢) و (الحجر : ٣٤) وغيرها مما تقدم .
قوله تعالى : (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ) قرأ عاصم إلا حَسَنُونَ عَنْ هبيرة ، وحمة ، وخلف ، وزيد عَنْ يعقوب : « فَالْحَقُّ » بالرفع في الأول ونصب الثاني ، وهذا مروى عن ابن عباس ، ومجاهد ؛ قال ابن عباس في معناه :

— وفي إسناده اختلاف ، وله طرق متعددة ، وفي بعضها زيادة ، وفي بعضها نقصان ، ثم قال : ففي الحديث دلالة على أن النبي ﷺ لم يكن من عادته تأخير صلاة الصبح إلى قريب طلوع الشمس ، وإذ كانت عادته التلبس بها ، وكان أحياناً يسفر بها عند انتشار الضوء على وجه الأرض ، قال : وأما تأخيرها إلى قريب طلوع الشمس ، فلم يكن من عادته ، قال : ولهذا اعتذر لهم عنه في هذا الحديث ، قال : وفي الحديث دلالة على أن من آخر الصلاة إلى آخر الوقت لعذر أو غيره ، وخاف خروج الوقت في الصلاة إن طوَّها ، أن يخفَّها حتى يدركها كلها في الوقت ، قال : وفي حديث معاذ دليل على أن من رأى رؤيا نُسِرَها فانه يقصُّها على أصحابه وإخوانه المحبين له ، ولا سيما إن تضمنت رؤياه إشارة لهم وتعليةً لما يفهم ، قال : وقد كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر يقول لأصحابه : « من رأى منكم الليلة رؤيا ... » ، قال : وفيه أيضاً أن من استقبل نومه في تهجدته بالليل حتى رأى رؤيا نُسِرَها ، فإن في ذلك بشرى له ، قال : وفيه دلالة على أن الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجمون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى الله عز وجل وتكفر بها عنهم خطاياهم ... إلى غير ما هنالك من الفوائد ، ومن أراد الزيادة ، فليرجع إلى رسالته « اختصار الأولي في شرح حديث اختصام الملائكة الأعلى » فانها قيِّمة في هذا الباب .

فَأَنَا الْحَقُّ وَأَقُولُ الْحَقَّ ؛ وقال غيره : خبر الحق محذوف ، تقديره : الحق مِنِّي .
 وقرأ محبوب عن أبي عمرو بالرفع فيها ؛ قال الزجاج : من رفعها جميعاً ، كان
 المعنى : فَأَنَا الْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
 وابن عامر ، والكسائي : بالنصب فيها . قال الفراء : وهو على معنى قولك :
 حَقّاً لَا يَبْتَئُكَ ، ووجود الألف واللام وطرحها سواء ، وهو بمنزلة قولك :
 حمداً لله . وقال مكِّي بن أبي طالب : انتصب الحق الأول على الإغراء ، أي :
 اتَّسَبِعُوا الْحَقَّ ، واسموا والزَمُوا الْحَقَّ . وقيل : هو نصب على القسم ، كما
 تقول : الله لَا فَعَلْنَا ، فَنَنْصِبُ حين حذفَت الجارَّ ، لأن تقديره : فَبِالْحَقِّ ؛
 فَأَمَّا الْحَقُّ الثَّانِي ، فيجوز أن يكون الأول ، وكرره تأكيداً ، ويجوز أن
 يكون منصوباً بـ « أَقُولُ » ، كأنه قال : وَأَقُولُ الْحَقَّ . وقرأ ابن عباس ،
 ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو رجاء ، ومعاذ القاري ، [والاعمش] : « فَالْحَقِّ » بكسر
 القاف « وَالْحَقَّ » بنصبها . وقرأ أبو عمران [الجوني] بكسر القافين جميعاً .
 وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو نعيم : « فَالْحَقِّ » بالنصب « وَالْحَقُّ » بالرفع .
 قوله تعالى : (لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ) أي : مِنْ نَفْسِكَ وَذُرِّيَّتِكَ .
 (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي : على تبليغ الوحي (وما أنا مِنَ
 الْمُتَكَلِّفِينَ) أي : لم أنكِّفْ لإتيانكم من قِبَلِ نَفْسِي ، إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 آتِيَكُمْ ، وَلَمْ أَقُلِ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ ^(١) .

(١) قال ابن كثير : (وما أنا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) أي : وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به
 ولا أبتني زيادة عليه ، بل ما أُمِرْتُ به أدبته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإِنَّمَا أُبْتَنِي
 بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْهَادِيَ الْآخِرَةَ ، قال : قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور
 عن أبي الضحى عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 مِنْ عِلْمٍ شَيْئاً فُلِقِلَ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَلَمْ فَلْيَقِلْ : اللَّهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ —

(إِنْ هُوَ) أي : ماهو ، يعني القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ) أي : موعظة (لِلْعَالَمِينَ) .
 (وَلَتَعْلَمُنَّ) يا معاشر الكُفَّار (نَبَأُهُ) أي : خبر صدق القرآن
 (بعد حين) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : بعد الموت . والثاني : يوم القيامة^(١) ،
 روي عن ابن عباس ، وبالأول يقول قتادة ، وبالثاني يقول عكرمة . والثالث :
 يوم بدر ، قاله السدي ، ومقاتل . وقال ابن السائب : من بقي إلى أن ظهر أمرُ
 رسول الله ﷺ عَلِمَ ذلك ، ومن مات عِلِمَهُ بعد الموت . وذهب بعض
 المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .



— لا لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا
 من المتكلمين) قال : أخرجه من حديث الأعمش به . اهـ .
 (١) قال ابن كثير : ولا منافاة بين القولين ، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة ،
 قال : وقال قتادة في قوله تعالى : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَدْدٌ حِينَ) قال الحسن : يا ابن آدم عند الموت
 يأتيك الخبر اليقين . اهـ .

سورة الزمر

وتسمى سورة الغُرَف

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكتبة، وبه قال الحسن ،
ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وجابر بن زيد . وروي عن ابن عباس أنه قال :
فيها آيتان نزلتا بالمدينة : قوله : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) [الزمر : ٢٣]
وقوله : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) [الزمر : ٥٣] . وقال مقاتل : فيها من المدني
(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ...) الآية [الزمر : ٥٣] ، وقوله : (الَّذِينَ أَحْسَنُوا
في هذه الدنيا حسنة) [الزمر : ١٠] . وفي رواية أخرى عنه قال : فيها آيتان
مدنيتان (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) [الزمر : ٥٣] وقوله : (يَا عِبَادِيَ ^(١)
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ) [الزمر : ١٠] . وقال بعض السلف : فيها ثلاث
آيات مدنيت (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) إلى قوله : (وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)
[الزمر : ٥٣ - ٥٥] .

(١) قال في « إتحاف فضلاء البشر » : واتفقوا على حذف الياء من (يا عباد الذين آمنوا)
إلا ما انفرد به أبو الملاء عن رويس من إثباتها وقتاً ، فخالف سائر الناس كما مر في المرسوم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ . لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

قوله تعالى : (تنزيل الكتاب) قال الزجاج : الكتاب هاهنا القرآن ، ورفع « تنزيل » من وجهين . أحدهما : الابتداء ، ويكون الخبر (من الله) ، فالمنى : نزل من عند الله . والثاني : على إضمار : هذا تنزيل الكتاب ؛ و (مُخْلِصًا) منصوب على الحال ؛ فالمنى : فاعبد الله موحداً لا تشرك به شيئاً .

قوله تعالى : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) يعني : الخالص من الشرك ، وما سواه ليس بدين الله الذي أصر به ؛ [وقيل] : المنى : لا يستحق الدين الخالص إلا الله .

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) يعني آلهة ، ويدخل في هؤلاء اليهود حين قالوا : (عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) والنصارى لقولهم : (المسيح ابن الله) [انبؤة : ٣٠] وجميع عبادة الأصنام ، ويدل عليه قوله بعد ذلك : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) (الزمر : ٤) .

قوله تعالى : (مَا نَعْبُدُهُمْ) أي : يقولون ما نعبدهم (إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) أي : إِلَّا لِيَدْشَفَعُوا لَنَا إِلَى اللَّهِ . والزُلْفَى : القُرْبَى ، وهو اسم أقيم مقام المصدر ، فكأنه قال : إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقْرِيْبًا .

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أي : بين أهل الأديان فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين . وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي) أي : لَا يُرْشِدُ (مَنْ هُوَ كَاذِبٌ) في قوله : إِنَّ الْآلِهَةَ تَشْفَعُ (كَفَّارٌ) أي : كافر باتخاذها آلهة ، وهذا إخبار ممن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية ^(١) .

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) [أي] : على ما يزعم من ينسب ذلك إلى الله (لَاصْطَفَى) أي : لا اختار مما يخلُق . قال مقاتل : أي : من الملائكة ^(٢) .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَقَّارُ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) [أي] : لم يخلقهما غير شيء .

- (١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) أي : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه . اهـ .
- (٢) قال ابن كثير : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى) أي : لما يخلُق ما يشاء (أي : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، قال : وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، قال : وإنما قصد تعجيلهم فيها ادعواؤه وزعموه ، كما قال عز وجل : (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) (قل إن كان الرحمن ولد فانا أول العابدين) قال : كل هذا من باب الشرط ، قال : ويجوز تطبيق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم . اهـ .

(يُكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) قَالَ أَبُو عبيدة : يُدْخِلُ هَذَا عَلَى هَذَا .
 قَالَ ابْنُ قتيبة : وَأَصْلُ التَّكْوِيرِ : اللَّفُّ ، وَمِنْهُ كَوْرُ الْعِمَامَةِ . وَقَالَ غَيْرُهُ .
 التَّكْوِيرُ : طَرَحُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أَي : ذَلَّلَهَا لِلسَّيْرِ عَلَى مَا أَرَادَ (كُلُّهُ يَجْرِي
 لَا جَلَ مَسْئِي) أَي : إِلَى الْإِجْلِ الَّذِي وَقَّتَ اللَّهُ لِلدُّنْيَا . وَقَدْ شَرَحْنَا مَعْنَى الْعَزِيزِ
 فِي (الْبَقَرَةِ : ١٢٩) وَمَعْنَى الْفَقَّارِ فِي (طه : ٨٢) .

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ
 لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَتَى مُتَصَرِّفُونَ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يَعْنِي آدَمَ (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)
 زَوْجَهَا) أَي : قَبْلَ خَلْقِكُمْ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، لِأَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الدَّرَجِيَّةِ ،
 وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ أَنْ تَقُولَ : قَدْ أُعْطِيْتُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا ، ثُمَّ الَّذِي أُعْطَيْتُكَ أَمْسَ أَكْثَرُ ؛
 هَذَا اخْتِيَارُ الْفَرَاهِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : ثُمَّ أَخْبَرَكُمْ أَنَّهُ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (وَأَنْزَلَ لَكُمْ
 مِنَ الْأَنْعَامِ) أَي : خَلَقَ (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) ، وَقَدْ يَنْتَهِا فِي سُورَةِ
 (الْأَنْعَامِ : ١٤٣) .

(خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ) أَي : مُنْطَفَأً ثُمَّ عَلِقًا ثُمَّ مُضْغًا ثُمَّ عَظْمًا
 ثُمَّ لَحْمًا ثُمَّ أَنْبَتَ الشَّعْرَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ إِلَى إِخْرَاجِ الْأَطْفَالِ ،
 هَذَا قَوْلُ الْجَهْوَ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : خَلْقًا فِي الْبُطُونِ مِنْ بَعْدِ خَلْقِكُمْ فِي
 ظَهْرِ آدَمَ .

قوله تعالى : (فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) ظُلْمَةُ الْبَطْنِ ، وَظُلْمَةُ الرَّحِمِ ، وَظُلْمَةُ

المشيئة^(١)، قاله الجمهور ، وابن زيد معهم . وقال أبو عبيدة : إنها ظلمة صلب الأب، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم .

قوله تعالى : (فَأَتَىٰ تُصْرُقُونَ) أي : من أين تُصْرُقُونَ عن طريق

الحق . بعد هذا البيان ١٩

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(إن تكفروا فإن الله غني عنكم) أي : عن إيمانكم وعبادتكم (ولا يرضى لعباده الكفر) فيه قولان . أحدهما : لا يرضاه المؤمنين ، قاله ابن عباس . والثاني : لا يرضاه لأحد وإن وقع بإرادته ، وفرق بين الإرادة والرضى ، وقد أشرنا إلى هذا في (البقرة : ٢٠٥) عند قوله : (والله لا يحب الفساد) .

(وإن تشكروا يرضه لكم) أي : يرضى ذلك الشكر لكم^(٢) ، (إنه علیم بذات الصدور) أي : بما في القلوب .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَمًا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْتَادًا لِّبُضْلٍ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

(١) المشيئة وزن كرمعة : غشاء ولد الانسان ، وقال ابن الأعرابي : يقال لا يكون فيه الوليد : المشيئة والكيس والذلاف .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وإن تشكروا يرضه لكم) يقول : وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرض شكركم له ، وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه ، فكفي عن الشكر ولم يثذكروا ، وإنما ذكر الفعل الدال عليه ، وذلك نظير قوله : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) بمعنى : فزادهم قول الناس لهم ذلك إيماناً . اهـ .

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ) اختلفوا فيمن نزلت على قولين . أحدهما : في عتبة بن ربيعة ، قاله عطاء . والثاني : في أبي حذيفة بن المغيرة ، قاله مقاتل ^(١) . والضَّرُّ : البلاء والشدة .

(مُنِيْبًا إِلَيْهِ) أي : راجعًا إليه من شركه .

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ) أي : أعطاه وملكه (نِعْمَةً مِنْهُ) بعد البلاء الذي أصابه ، كالصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر (نَسِيَ) أي : ترك ما كان يدعو إليه ، وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : نسي اللهاء الذي كان يتضرع به إلى الله تعالى . والثاني : : نسي الضر الذي [كان] يدعو [الله] إلى كشفه . والثالث : نسي الله الذي [كان] يتضرع إليه . قال الزجاج : وقد تدلُّ « ما » على الله عز وجل ، كقوله : (وَلَا أَنْتُمْ حَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) [الكافرون : ٣] . وقال الفراء : ترك ما كان يدعو إليه . وقد سبق معنى الانداد [البقرة : ٢٢] ومعنى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) [الحج : ٩] .

قوله تعالى : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ) لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد ، ومثله : (قَتَمْتُمْهُوا فَمَا يَكْفُرُونَ) [النحل : ٥٥] .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ . قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قوله تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وأبو جعفر ،

(١) ذكر سبب النزول هذا البغوي والخازن بدون سند .

والفضل عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : « أَمَّنٌ » بالتخفيف ؛ وقرأ الباقر :
 بالتشديد . فأما المشددة ، فمنها : أهذا الذي ذكرنا خيرٌ ، أَمَّنٌ هو قانتٌ ؟
 والأصل في « أَمَّنٌ » : أَمٌّ مَنٌ ، فأدغمت الميم في الميم . وأما المخففة ، ففي
 تقديرها ثلاثة أوجه .

أحدها : أنها بمعنى النداء . قال الفراء : فسرها الذين قرؤوا بها فقالوا :
 يامَنَّ هو قانتٌ ، وهو وجه حسن ، والعرب تدعو بالالف كما تدعو ياه ،
 فيقولون : يازيدُ أقبل ، و : أزيدُ أقبل ، فيكون المعنى : أنه ذكر الناسي الكافر ،
 ثم قصَّ قصة الصالح بالنداء ، كما تقول : فلانٌ لا يصوم ولا يصلّي ، أيا مَنٌ
 يصوم أبشِرْ .

والثاني : أن تقديرها : أَمَّنٌ هو قانت كمن ليس بقانت ؟ !

والثالث : أَمَّنٌ هو قانت كمن جعل لله أنداداً ؟ !

وقد ذكرنا معنى القنوت في (البقرة : ١١٦) ومعنى (آناه اللّيل) في
 (آل عمران : ١١٣) .

قوله تعالى : (ساجداً وقائماً) يعني في الصلاة ^(١) . وفيمن نزلت فيه هذه
 الآية خمسة أقوال . أحدها : أنه أبو بكر الصديق ، رواه عطاء عن ابن عباس ^(٢) .

(١) قال ابن كثير : بقول عز وجل : أَمَّنٌ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ !
 لا يستون عند الله ، كما قال تعالى : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله
 آناه الليل وهم يسجدون) وقال تبارك وتعالى هاهنا : (أَمَّنٌ هو قانت آناه الليل ساجداً
 وقائماً) أي : في حال سجوده وفي حال قيامه ، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن
 القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو اقيام وحده كما ذهب إليه آخرون . اهـ .
 (٢) الواحد في « أسباب النزول » ، والبغوي في « التفسير » بدون سند .

والثاني : عثمان بن عفان ، قاله ابن عمر ^(١) . والثالث : عمار بن ياسر ، قاله مقاتل ^(٢) .
 والرابع : ابن مسعود ، وعمار ، وصهيب ، وأبو ذر ، قاله ابن السائب ^(٣) . والخامس :
 أنه رسول الله ﷺ ، حكاه يحيى بن سلام ^(٤) .
 قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْآخِرَةَ) أي : عذاب الآخرة . وقد قرأ ابن مسعود ،
 وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء ، وأبو عمران :
 « يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ » بزيادة « عذاب » .
 (وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) فيها قولان . أحدهما : أنها المغفرة ، قاله ابن السائب .
 والثاني : الجنة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) أن ما وعد الله من الثواب

(١) قال السيوطي في « الدر » ، ٣٢٣/٥ : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،
 وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنها أنه تلا هذه الآية :
 (أَمَّنْ هُوَ قُتِلَ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ . . .) الآية ، قال :
 ذلك عثمان بن عفان ، وفي لفظ : زلت في عثمان بن عفان . وذكر سبب النزول هذا الواحدي
 والبغوي والخازن عن ابن عمر بدون سند .

(٢) الواحدي في « أسباب النزول » عن مقاتل بدون سند ، وقال السيوطي في « الدر » ،
 ٣٢٣/٥ : أخرج ابن سعد في « طبقاته » ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها في
 قوله : (أَمَّنْ هُوَ قُتِلَ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا) قال : زلت في عمار بن ياسر .

(٣) قال السيوطي في « الدر » ، ٣٢٣/٥ : أخرج جوير عن ابن عباس رضي الله عنها قال :
 زلت هذه الآية في ابن مسعود ، وعمار ، وسالم مولى حذيفة رضي الله عنهم . وذكر البغوي
 عن الكلبي بدون سند أنها زلت في ابن مسعود وعمار وسلمان . وذكر الآلوسي عن مقاتل
 بدون سند أن المراد بمن هو قات : عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر .

(٤) ذكره الآلوسي عن يحيى بن سلام بدون سند . والآية عامة في كل من اتصف بما تقدم .

وَالْعَقَابَ حَقًّا (وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وَبَاقِي الْآيَةِ قَدْ تَقَدَّمَ فِي (الرعد : ١٩) ^(١) ،
 وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) قَدْ تَقَدَّمَ فِي (النحل : ٣٠) .
 وَفِي قَوْلِهِ : (وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ) قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ حَثُّهُمْ عَلَى
 الْهَجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى حَيْثُ يَأْمَنُونَ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا أَرْضُ الْجَنَّةِ رَغْبُهُمْ فِيهَا .
 (إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ) الَّذِينَ صَبَرُوا لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا نَالَهُمْ
 (بِغَيْرِ حِسَابٍ) أَيِ : يُعْطَوْنَ عَطَاءً كَثِيراً أَوْسَعَ مِنْ أَنْ يُحْسَبَ وَأَعْظَمَ مِنْ
 أَنْ يُحَاطَ بِهِ ، لَا عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ
 لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
 عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي . فَاَعْبُدُوا مَا مِثْنُكُمْ
 مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ
 النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ .
 وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ) قَالَ مَقَاتِلُ : وَذَلِكَ أَنْ كُفِّرَ فَرِيضُ
 قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي أَنْتَنَا بِهِ ؟ أَلَا تَنْظُرُ إِلَى مِلَّةِ آبَائِكَ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيِ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِنْ جَمَلِ قَدَرِ أَنْدَادِ لِيُضِلَّ عَنْ
 سَبِيلِهِ (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) أَيِ : إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مِنْ لَهْلِ وَهُوَ الْعَقْلُ ،
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ . اهـ .

فتأخذ بها ! فزلت هذه الآية ^(١) ؛ والمعنى : (قل إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) أي : أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ السَّالِمِ مِنَ الشِّرْكِ ، (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) من هذه الأُمَّة .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) بالرجوع إلى دين آبائي (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية كما يثبتها في نظيرتها في (الأنعام : ١٥) .

(قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) بالتوحيد ، (فاعبدوا ما شئتم) ، وهذا تهديد ، وبعضهم يقول : هو منسوخ بآية السيف ، وهذا باطل ، لأنه لو كان أمراً ، كان منسوخاً ، فأمّا أن يكون بمعنى الوعيد ، فلا وجه لِنَسْخِهِ .

(قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بأن صاروا إلى النار (و) خسروا (أهليهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم خَسِرُوا الحُورَ الْعَيْنَ اللَّسَوَاتِي أَعْدَدْنَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ أَطَاعُوا ، قاله الحسن ، وقناة .

والثاني : خَسِرُوا الْأَهْلَ فِي النَّارِ ، إذ لا أهل لهم فيها ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثالث : خَسِرُوا أَهْلَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، إذ صاروا إلى النار بكُفْرِهِمْ ، وصار أهلهم إلى الجَنَّةِ بإيمانهم ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنْ النَّارِ) وهي الأطباق من النار . وإنما قال : (وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ) لأنها ظِلٌّ لِمَنْ تَحْتَهُمْ (ذَلِكَ) الذي وصف الله من العذاب (يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) المؤمنين .

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن في « التفسير » بدون سند .

قوله تعالى : (والذين جَتَنَبُوا الطَّائِفَاتِ) روى ابن زيد عن أبيه أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثلاثة تَفَرَّقَ كانوا في الجاهلية يوحِّدون الله تعالى : زيد ابن عمرو بن نُفَيْل ، وأبي ذَرٍّ ، وسلمان الفارسي ، رضي الله عنهم ^(١) ؛ قال : (أولئك الذين هدام الله) بغير كتاب ولا نبي .

وفي المراد بالطَّائِفَاتِ هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : الشياطين ، قاله مجاهد . والثاني : الكهنة ، قاله ابن السائب . والثالث : الأوثان ، قاله مقاتل ، فعلى قول مقاتل هذا ^(٢) : إنما قال : « يعبُدوها » لأنها مؤنثة . وقال الأخفش : إنما قال : « يعبُدوها » لأن الطَّائِفَاتِ في معنى جماعة ، وإن شئت جعلته واحداً مؤنثاً .

قوله تعالى : (وأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ) أي : رَجَعُوا إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ (لهم البُشْرَى) بالجنة (فَبَشِّرْ عِبَادِي) بيباء ، وحرك الياء أبو عمرو .

ثم نمتهم فقال : (الذين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنه] القرآن ، قاله الجمهور . فعلى هذا ، في معنى (فَيَتَّبِعُونَ) أحسنه (أقوال قد شرحناها في (الأعراف : ١٤٥) عند قوله : (وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) .

والثاني : أنه جميع الكلام . ثم في المعنى قولان . أحدهما : [أنه الرَّجُلُ]

(١) « الطبري » : ٢٣/٢٧٠ عن زيد بن أسلم . وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٣٢٤ من رواية ابن جرير ، وزاد نصيبه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٠ عن عبد الرحمن بن زيد بدون سند ، وكذلك ذكر ابن كثير سبب النزول هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بدون سند ، ثم قال : والصحيح أنها شاملة لهم ولنيرهم من اجتناب عبادة الأوثان وأُتَابَ إلى عبادة الرحمن ، فهؤلاء هم الذين لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . اهـ .

(٢) عبارة الأصل : فعلى هذا قول مقاتل .

يَجْلِسُ مع القوم فَيَسْمَعُ كلامهم ، فيَعْمَلُ بالمحاسن ويَحْدِثُ بها ، وَيَكْفُ عَنْ
الْمَسَاوِي وَلَا يُظْهِرُهَا ، قَالَ ابن السائب . والثاني : [أَنَّهُ] لَمَّا ادَّعَى مسيئة
أَنَّهُ قد أتى بقرآن ، وَأَتَتْ الكهنة بالكلام المزخرف في الأباطيل ، فَرَّقَ الْمُؤْمِنُونَ
بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ ، فَاتَّبَعُوا كَلَامَ اللَّهِ ، وَرَفَضُوا أَبَاطِيلَ أَوْلِيائِكَ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ
الدمشقي (١) .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ .
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾
فوله تعالى : (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) قال ابن عباس : سبق
في عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ فِي النَّارِ .

فان قيل : كيف اجتمع في هذه الآية استفهامان بلا جواب ؟

قيل : أمّا الفراء ، فانه يقول : هذا ممّا يُراد به استفهام واحد ، فسبق
الاستفهامُ إلى غير موضعه فَرُدَّ إلى موضعه الذي هو له ، فيكون المعنى : أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ
مَنْ فِي النَّارِ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ؟ ومثله : (أَبَعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ) [المؤمنون : ٣٥] فَرَدَّ « أَنْتُمْ »
مرتين ، والمعنى : أَبَعِدُكُمْ أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ إِذَا مِتُّمْ ؟ ومثله : (لَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) ثم قال : (فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ) [آل عمران : ١٨٨]
فَرَدَّ « تَحْسَبَنَّاهُمْ » مرتين ، والمعنى : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَفَازَةٍ مِنَ
الْعَذَابِ . وقال الزجاج : يجوز أن يكون في الكلام محذوف ، تقديره : أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَيُتَخَلَّصُ مِنْهُ أَوْ يَنْجُو ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُهُ ؟ قال المفسرون : أَفَأَنْتَ

(١) لم يذكر المصنف سوى قولين ، ولعله اكتفى بهما عن القول الثالث .

تَخْلَصُهُ مِمَّا قَدَّرَ لَهُ فَتَجْمَلُهُ مُؤْمِنًا ؛ والمعنى : ما تقدر على ذلك قال عطاء : يريد بهذه الآية أبالهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان .

قوله تعالى : (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو جعفر : « لَكِنَّ » بتشديد النون [وفتحها] . قال الزجاج : والعرف : هي المنازل الرفيعة في الجنة ، (مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ) أي : منازل أرفع منها .

(وَعِنْدَ اللَّهِ) منصوب على المصدر ؛ فالمعنى : وعدم الله عُرفًا وعُدًّا . ومن قرأ : « وَعِنْدُ اللَّهِ » بالرفع ؛ فالمعنى : ذلك وَعِنْدُ اللَّهِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنُفْرُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) قال الشعبي : كُتِلَ ما في الأرض فن السماء ينزل (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ) قال ابن قتيبة : أي : أدخله فجعله ينابيع ، أي : عُيُونًا تَنْبُغُ ، (ثُمَّ يَهِيَجُ) أي : يَيْبَسُ . قال الأصمعي : يقال لاشبث إذا تَمَّ جفافه : قد هاجَ يَهِيْجُ هَيْجًا .

فَأَمَّا الْحُطَامُ ، فقال أبو عبيدة : هو ما يَيْدِسُ فَتَحَاتَّ مِنَ النَّبَاتِ ، ومثله الرِّفَاتُ . قال مقاتل : هذا مثل ضرب الدنيا ، بينما ترى النبات أخضر ، إذا تَغَيَّرَ فَيَيْدِسُ ثُمَّ هَلَكَ ، وكذلك الدنيا وزينتها . وقال غيره : هذا البيان للدلالة ^(١) على قدرة الله عز وجل ^(٢) .

(١) في الأصل : الدلالة .

(٢) قال ابن كثير في تمة الآية : (إن في ذلك لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ) أي : الذين يذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسنة ، ثم تعود عجوزاً —

﴿ أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ انْثَبَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾
 قوله تعالى : (أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ) قال الزجاج : جوابه متروك ، لأنَّ الكلام دالٌّ عليه ، تقديره : أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ فَاهْتَدَى كَمَنْ طَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَمْ يَهْتَدِ ؛ وَيُدَلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ : (فَوَيْلٌ لِلنَّفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) ؛ وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هَذَا الشَّرْحُ ؟ فَذَكَرَ حَدِيثًا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي قَوْلِهِ : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) [الأنعام : ١٢٥] ^(١) .

قوله تعالى : (فَهُوَ عَلَى نُورٍ) فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ . أَحَدُهَا : الْبَقِيَّةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : كِتَابُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِهِ وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ : الْبَيَانُ ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ . وَالرَّابِعُ : الْهُدَى ، قَالَه مِقَاتِلُ .

— بشواه ، قال : والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً ، وبعد ذلك كله الموت ، فالسيد من كان حاله بعده إلى خير ، قال : وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثلاً الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماءٍ وينبت به زروعاً وغاراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً .

(١) انظر الجزء ٣ صفحة ١٢٠ ، والحديث بتمامه : روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قرأ : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هَذَا الشَّرْحُ ؟ قَالَ : « نُوْرٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ فَيَنْفَتَحُ الْقَلْبُ » قَالُوا : فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قِيلَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : « الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ » وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ زَوَالِهِ . رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَكُلَاهُمَا ضَعِيفٌ ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي « التَّفْسِيرِ » مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَقَالَ : فَهَذِهِ طَرِيقُ لِهَذَا الْحَدِيثِ مَرْمُلةٌ وَمُتَّصِلَةٌ يَشُدُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي « تَخْرِيجِ الْكُتُبِ » : رَوَاهُ الثَّعْلَبِيُّ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي « الشُّعَبِ » مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَفِيهِ أَبُو قُرَّةُ الزَّهَّادِيُّ ، فِيهِ كَلَامٌ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ رَوَاهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » وَفِي سَنَدِهِ رَجُلٌ ضَعِيفٌ . اهـ .

وفيمَن نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أحدها : أَنَهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأَبِي بَنٍ خَلْفٍ ، رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

والثاني : فِي عَلِيٍّ وَحِزَّةٍ وَأَبِي لَهَبٍ وَوَلَدِهِ ، قَالَهُ عَطَاءٌ .

والثالث : فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبِي جَهْلٍ ، قَالَهُ مِقَاتِلٌ ^(١) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) قَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْقَسَاوَةِ فِي (الْبَقَرَةِ : ٧٤) .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَقْسُو الْقَلْبُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟

فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ كُلَّمَا تَلَّى عَلَيْهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ الَّذِي يَكْذِبُونَ بِهِ ، قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ . وَذَهَبَ مِقَاتِلٌ فِي آخِرِينَ إِلَى أَنَّ « مِنْ » هَاهُنَا بِمَعْنَى « عَنْ » ، قَالَ الْفَرَاءُ : كَمَا تَقُولُ : أَتَخَيَّرْتُ عَنْ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ ، وَمِنْ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ كَذِبًا فَأَقْسَى قُلُوبُهُمْ ؛ وَمَنْ قَالَ : قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ ، أَرَادَ : أَعْرَضَتْ عَنْهُ . وَ [قَدْ] قَرَأَ أَبِي ابْنِ كَعْبٍ ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ ، وَأَبُو عَمْرَانَ : « قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » مَكَانَ قَوْلِهِ : « مِنْ » .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

(١) ذَكَرَ سَبَبَ النَّزُولِ هَذَا الْخَازِنُ بِدُونِ سَنَدٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) يعني القرآن ؛ وقد ذكرنا سبب نزولها في أول (يوسف) (١) .

قوله تعالى : (كتاباً متشابهاً) فيه قولان .
أحدهما : أن بعضه يُشَبِّهُ بَعْضاً فِي الْآيِ وَالْحُرُوفِ ، فَالْآيَةُ تُشَبِّهُ الْآيَةَ ، وَالْكَلِمَةُ تُشَبِّهُ الْكَلِمَةَ ، وَالْحَرْفُ يُشَبِّهُ الْحَرْفَ .
والثاني : أن بعضه يصدق بَعْضاً ، فَلَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ .
وإنما قيل له : (مَثَانِي) لَأَنَّهُ كُثِّرَتْ فِيهِ الْقَصَصُ وَالْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ .

فان قيل : ما الحكمة في تكرار القصص ، والواحدة قد كانت تكفي ؛
فالجواب : أن وفود العرب كانت تَرِدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيُفْقِرُهُمُ الْمَسْلُومُونَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَافِياً لَهُمْ ، وَكَانَ يَبْتَغِثُ إِلَى الْقِبَائِلِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِالسُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَلَوْلَمْ تَكُنِ الْأَنْبَاءُ وَالْقَصَصُ مُنْتَشِأَةً مَكْرُورَةً ، لَوَقَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ ، وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى قَوْمٍ ، وَقِصَّةُ نُوحٍ إِلَى قَوْمٍ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشَهِّرَ هَذِهِ الْقَصَصَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَيُلْقِيَهَا إِلَى كُلِّ سَمْعٍ . فَأَمَّا فَائِدَةُ تَكَرُّارِ الْكَلَامِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِهِ : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن] ، وَقَوْلِهِ : (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ [الكافرون]) ، وَقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤُلَى) [القيامة : ٣٤ ، ٣٥] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) [الانقطار : ١٧ ، ١٨] .
فَسَنَدُ كَرَاهَا فِي سُورَةِ (الرَّحْمَنِ) عَزَّ وَجَلَّ .

قوله تعالى : (تَقَشَّعِرُهُ مِنْهُ مُجُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) أي : تَأْخِذُهُمْ

قشيرية ، وهو تغير يحدث في جلد الإنسان من الوجَل . وروى العباس ابن عبد المطلب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا اقشع جلدُ العبد من خشية الله ، تحانت ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » (١) .

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال . أحدها : تقشع من وعيده ، وتلين عند وعده ، قاله السدي . والثاني : تقشع من الخوف ، وتلين من الرجاء . والثالث : تقشع الجلود لإعظامه ، وتلين عند تلاوته ، ذكرهما الماوردي . وقال بعض أهل المعاني : مفعول التقشع في قوله : (إلى ذكر الله) مخوف ، لأنه معلوم ؛ والمعنى : تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله الجنة والثواب . قال قتادة : هذا نعت أولياء الله ، تقشع جلودهم [وتلين قلوبهم] ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والفشيان عليهم ، إثباتاً لهذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان . وقد روى أبو حازم ، قال : سمع ابن عمر برجل ساقط من أهل العراق ، فقال : ما شأنه ؟ فقالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن يُصيه هذا ، قال : إنا لنخشى الله عز وجل ، وما نستقط . وقال عامر بن عبد الله بن الزبير : جئت أبي ، فقال لي : أين كنت ؟ فقلت : وجدت قوماً ، ما رأيت خيراً منهم قط ، يذكرون الله عز وجل فيرعد واحد منهم حتى يغشى عليه من خشية الله عز وجل ، فقامت معهم ، فقال : لا تقعد معهم بعدها [أبداً] ، قال : فראني

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٢٦/٥ من رواية الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وقد ذكره في « الجامع الصغير » ، أيضاً من رواية سمويه في « فوائده » ، والطبراني في « الكبير » ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » : وكذا رواه البزار والبيهقي في « الشعب » عن العباس بن عبد المطلب ، قال : قال النذري والراقي : سنده ضيف ، قال : وبينه الهيثمي فقال : فيه أم كلثوم بنت العباس رضي الله عنها ، لم أعرفها ، وبقي رجاله ثقات .

كأنني لم يأخذ ذلك في ، فقال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ يتلو القرآن ، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيّبُهُم هذا من خشية الله تعالى ، أفترى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر ؟ قال : فرأيت ذلك كذلك . وقال عكرمة : سئلت أسماء بنت أبي بكر : هل كان أحد من السلف يُغشى عليه من الخوف ؟ قالت : لا ، ولكنهم كانوا يبيكون . وقال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لجدة بني أسماء بنت أبي بكر ، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما نمتهم الله تعالى ، تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَعِرُ جُلُودُهُمْ . فقلت لها : إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن ، خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ، فقالت : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وكان جَوَابُ يُرْعَدُ عِنْدَ الذِّكْرِ ، فقال له إبراهيم النخعي : إن كنتَ تملكه ، فما أبالي أن لا أَعُدَّ بِكَ ، وإن كنتَ لا تملكه ، فقد خالفتَ مَنْ كان قبلك ^(١) .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أي : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، الهمين الزين الفجار ، لا يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لا يرجون وبؤملون من رحمته ولطفه ، فهم غافلون انبرهم من الفجار من وجوه . أحدها : أن سماع هؤلاء هر تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نجات الآيات من أصوات القينات . والثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجُوداً وبُكْيَةً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، كما قال تبارك وتعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وقال تعالى : (والذين إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعِمْيَانًا) أي : لم يكونوا عند سماعها مشاغلين لاهين عنها ، بل مصغيين إليها قاعمين بصيرين بجمانيها ، — زاد السير ٧ م (١٢)

قوله تعالى : (ذلك هدى الله) في المشار إليه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله مقاتل . والثاني : أنه ما ينزلُ بالمؤمنين عند تلاوة القرآن من اقشعرار الجلود عند الوعيد ، ولينها عند الوعد ، قاله ابن الأنباري .

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ) أي : شدته . قال الزجاج : جوابه محذوف ، تقديره : كَمَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؛ وجاء في التفسير أن الكافر يُلقى في النار مغلولاً ، ولا تنبيهاً له أن يتَّقِيها إلا بوجهه .

ثم أخبر عما يقول الخزفة للكفار بقوله : (وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ) يعني الكافرين (ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) أي : جزاء كسبكم .

قوله تعالى : (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي : من قبل كفار مكة (فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أي : وهم آمنون غافلون عن العذاب ،

— فلماذا إنما يسألون بها ويسجدون عندها عن بصيرة ، لا عن جهل ومتابعة لغيرهم . وإنما : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى ، من تلاوة رسول الله ﷺ يقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكفون ما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والمكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . اهـ .

(فَأَذَاهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ) يعني الهوان والمذاب ، (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ)
 مما أصابهم في الدنيا (لو كانوا يَعْلَمُونَ) ، ولكنهم لا يعلمون ذلك .
 (ولقد ضَرَبْنَا للناس في هذا القرآن) أي : وَصَفْنَا لهم (مِنْ كُلِّ
 مَثَلٍ) أي : من كل شبه يشبه أحوالهم .

قوله تعالى : (مُرَّانَا عَرِيَّتًا) قال الزجاج : « عَرِيَّتًا » منصوب على الحال ،
 المعنى : ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عريته ويانه ، فذكر « قرآنًا » توكيداً ،
 كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً ، فذكر رجلاً
 وإنساناً توكيداً .

قوله تعالى : (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال :
 غير مخلوق . وقال غيره : مستقيم غير مختلف ^(١) .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا
 سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .
 إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 تَخْتَصِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) ثم يئنه فقال : (رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
 مُتَشَاكِسُونَ) قال ابن قتيبة : أي : مختلفون ، يَتَنَازَعُونَ وَيَتَشَاكِسُونَ
 فيه ، يقال : رَجُلٌ شَكِسٌ . وقال الزبيدي : الشَّكْسُ من الرجال :
 الضَّيِّقُ الخُلُقُ .

قال المفسرون : وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فإن الكافر يعبدُ

(١) قال ابن كثير : أي : هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ،

بل هو بيان ووضوح وبرهان ، قال : وإعاجله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك (لهم يتقون)
 أي : يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويمثلون بما فيه من الوعد . اهـ .

آلهة شتى ، فثله بغير يملكه جماعة يتنافسون في خدمته ، ولا يقدر أن يبلغ رضام أجمعين ؛ والمؤمن يعبد الله وحده ، فثله بغير لرجل واحد ، قد علم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو في راحة من تشاكس الخلقاء فيه ، فذلك قوله : (سألما لرجل) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو إلا عبد الوارث في غير رواية القرآز ، وأبان عن حاصم : « ورجلاً سألما » بألف وكسر اللام وبالنصب والتنوين فيها ؛ والمعنى : ورجلاً خالصاً لرجل قد سلم له من غير منازع . ورواه عبد الوارث إلا القرآز كذلك ، إلا أنه رفع الاسمين ، فقال : « ورجل سألما لرجل » وقرأ ابن أبي عبة : « سلم لرجل » بكسر السين ورفع الميم . وقرأ الباقر : « ورجلاً سلماً » بفتح السين واللام [وبالنصب] فيهما والتنوين . والسلم ، بفتح السين واللام ، مناه الصلح ، والسلم ، بكسر السين مثله . قال الزجاج : من قرأ : « سلماً » و « سلماً » فيها مصدران وصِفَ بهما ، فالمعنى : ورجلاً ذا سلم لرجل ؛ فالمعنى : ذا سلم ؛ والسلم : الصلح ، والسلم ، بكسر السين مثله . وقال ابن قتيبة : [من قرأ] : « سلماً لرجل » أراد : سلم إليه فهو سلم له . وقال أبو عبيدة : السلم والسلم الصلح ^(١) .

قوله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) هذا استفهام معناه الإنكار ، أي : لا يستويان ، لأن الخالص لملك واحد يستحق من معونته وإحسانه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين . وقيل : لا يستويان في باب الراحة ، لأن هذا قد عرف الطريق إلى رضى ماله ، وذاك متجبر بين الشركاء . قال ثعلب : وإعما قال : « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » ولم يقل : مَثَلَيْنِ ، لأنهما جميعاً ضربا

(١) في « فتح الباري » ٤٢٢/٨ : وعن أبي عبيدة : « ورجلاً سلماً » ، الرجل سلم وسلم واحد ، وهو من الصلح . فلي هذا التفسير ، السلم : مصدر أريد به اسم الفاعل .

مَثَلًا وَاحِدًا ، وَمِثْلُهُ : (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) [المؤمنون : ٥٠] ،
وَلَمْ يَقُلْ : آيَتَيْنِ ، لِأَن شَأْنَهَا وَاحِدٌ . وَنَمِ الْكَلَامُ هَاهُنَا ، ثُمَّ قَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ)
أَي : لَهُ الْحَمْدُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودِينَ (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) وَالْمُرَادُ
بِالْأَكْثَرِ الْكُلُّ .

ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِمَا بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يَمُوتُ ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَهُ يَمُوتُونَ ،
وَأَنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ لِلْخُصُومَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الْمُحِقُّ وَالْمُبْطَلُ ، وَالْمُظْلَمُ
وَالظَالِمُ . وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا نَدَرِي مَا تَقْسِيرُهَا ، وَمَا نَرَى أَنَّهَا
نَزَلَتْ إِلَّا فِينَا وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِينَ ، حَتَّى قُتِلَ عُثْمَانُ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا فِينَا نَزَلَتْ .
وَفِي لَفْظِ آخِرٍ : حَتَّى وَقَعَتِ الْقِتَّةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ ^(١) .

﴿ قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ . وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاؤُ
الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ
الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتُهُ مَعَ
قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ
عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) قَالَ : وَمَعْنَى
هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّكُمْ سَتَمُوتُونَ مِنْ هَذِهِ الْمَرَّةِ لَا مَحَالَةَ وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
وَتَحْتَصِمُونَ فِيهَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ
وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ ، فَيَجْزِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمَوْحِدِينَ ، وَيُمِيزُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ
الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَ سِيَاقُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَذَكَرَ
الْخُصُومَةَ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَهِيَ شَامِلَةٌ لِكُلِّ مُتَنَازِعَةٍ فِي الدُّنْيَا ، فَانْهَ تَمَادٍ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ
فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . اهـ .

قوله تعالى : (قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ) بأن دعا له ولداً وشريكاً
(وكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ) وهو التوحيد والقرآن (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) أي : مقامٌ للجاحدين ؛ وهذا استفهام بمعنى التقرير ، يعني :
إنه كذلك .

قوله تعالى : (والذي جاء بالصِّدْقِ) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه رسول الله ﷺ ، قاله علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وقادة ،
وابن زيد . ثم في الصِّدْقِ الذي جاء به قولان . أحدهما : أنه « لا إله إلا الله » ،
رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال [سعيد] بن جبير . والثاني :
[أنه] القرآن ، قاله قتادة .

[وفي الذي صدَّق به ثلاثة أقوال . أحدها : أنه رسول الله ﷺ أيضاً ،
هو جاء بالصِّدْقِ ، وهو صدَّق به ، قاله ابن عباس ، والشَّعْبِيّ . والثاني : أنه
أبو بكر ، قاله علي بن أبي طالب . والثالث : أنهم المؤمنون ، قاله قتادة] ،
والضحاك ، وابن زيد .

والقول الثاني : [أن] الذي جاء بالصِّدْقِ : أهل القرآن ، وهو الصِّدْقِ
الذي يُجَيِّبُونَ به يوم القيامة ، وقد أدوا حَقَّه ، فهم الذين صدَّقوا به ،
قاله مجاهد .

والثالث : أن الذي جاء بالصِّدْقِ الأنبياء ، قاله الرِّبِّيع ، فلي هذا ، يكون
الذي صدَّق به : المؤمنون .

والرابع : أن الذي جاء بالصِّدْقِ : جبريل ، وصدَّق به : محمد ، قاله
السدي ^(١) .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره
عنى بقوله : (والذي جاء بالصدق وصدَّق به) كلٌّ من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله ، —

قوله تعالى : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) أي : الذين اتَّقَوْا الشَّرَكَ ^(١) ؛
وإنما قيل : « هُم » ، لأن معنى « الذي » معنى الجمع ، كذلك قال اللغويون ،
وأنشد أبو عبيدة ، والزجاج :

فَأَنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَنَاجٍ دِمَاؤُهُمْ
هُمُ الْقَوْمُ ، كُلُّ الْقَوْمِ ، يَا أُمَّ خَالِدٍ ^(٢)

قوله تعالى : (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ) المعنى : أعطاهم ما شاؤوا ليكفر عنهم
(أسوأ الذي عملوا) ، أي : ليستر ذلك بالمغفرة (وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم) بحسن
أعمالهم ، لا بمساوئها .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ .
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ
هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

— والعمل بما أبت به رسوله ﷺ من بين رسول الله وأتباعه والمؤمنين به ، وأن يقال :
الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله ، والصدق به : المؤمنون بالقرآن من جميع
خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه . اهـ .

(١) قال ابن جرير : وقوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) يقول جل ثناؤه : هؤلاء الذين هذه
صفتهم ، هم الذين اتَّقَوْا الله بتوحيده والبراءة من الأوثان والأنداد ، وأداء فرائضه واجتناب
مما صبه فحافوا عقابه . اهـ .

(٢) البيت الأشهب بن رُمَيْلة ، وهو في الكتاب : ٩٦/١ ، ود مجاز القرآن :
١٩٠/٢ ، ود مشكل القرآن : ٢٨١ ، ود الصحاح ، ود اللسان ، ود التاج : فليج ؛
وقد تقدم البيت في الجزء ١ ص ٤٠ .

قوله تعالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) ذكر المفسرون أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، ما تزال تذكر آلهتنا ونعميها ، فأتق أن تصيبك بسوء ، فنزلت هذه الآية ^(١) . والمراد بعبد هاهنا : محمد ﷺ .

وقرأ حمزة ، والكسائي : « عِبَادَهُ » على الجمع ، وهم الأنبياء ، لأن الأئم قصدتهم بالسوء ؛ فالمنعى أنه كما كفى الأنبياء قبلك ، يكفيك . وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وأبو عمران الجوني : « بِكَافِي » مشتة اليا « عِبَادِهِ » بكسر الدال والهاء من غير ألف . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو المألية ، وأبو الجوزاء ، والشعبي مثله ، إلا أنهم أثبتوا الألف في « عِبَادِهِ » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش : « بِكَافٍ » بالتثنية ، « عِبَادَهُ » على الجمع . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء الطاردي : « يُكَافِي » ياء مرفوعة قبل الكاف ويا ساكنة بعد الفاء « عِبَادَهُ » على الجمع .

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) أي : بالذين يعبدون من دونه ، وهم الأصنام .

ثم أعلم بما بعد هذا أن الإضلال والهداية إليه تعالى ، وأنه منتقم ممن عصاه . ثم أخبر أنهم مع عبادتهم ، يُقرُّون أنه الخالق . ثم أمر أن يُخْتَج عليهم بأن ما يعبدون لا يملك كشف ضرر ولا جلب خير .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « كَاشَفَاتُ ضُرِّهِ » و « مَمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ » منوناً . والباقون : « كَاشَفَاتُ ضُرِّهِ » و « مَمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ » على الإضافة .

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » ، ٣٢٨/٥ : أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر عن قتادة قال : قال لي رجل : قالوا للنبي ﷺ : لكفن عن شتم آلهتنا أو لأمرئها فلتخلبك ، فنزلت : (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . إِنَّا أُنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ قَرَنَ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (قل يا قوم اعملوا) ذكر بعض المفسرين أنها والآية التي تليها 'نسخت بآية السيف' .

قوله تعالى : (إِنَّا أُنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) يعني القرآن (للناس) أي : لجميع الخلق (بالحق) ليس فيه باطل . وتعام الآية مفسر في آخر (يونس : ١٠٨) ، وذكروا أنه منسوخ بآية السيف .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) أي : يقبض الأرواح حين موت أجسادها (والَّتِي لَمْ تَمُتْ) أي : ويتوفى التي لم تمت (في منامها) .

(فِيمُمْسِكُ) أي : عن الجسد [والنفس] (التي قضى عليها الموت) وقرأ حمزة ، والكسائي : « قُضِيَ » بضم القاف وفتح الياء ، « الموت » بالرفع . (وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى) إلى الجسد (إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى) وهو انقضاء العمر (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) في أمر البعث ^(١) . وروى

(١) قال ابن كثير : قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى —

[سعيد] بن جبیر عن ابن عباس قال : تَلْقَى أرواحُ الأحياءِ وأرواحُ الأمواتِ في المنام ، فيتعارفون ويتساءلون ، ثم يَرُدُّ أرواحُ الأحياءِ إلى أجسادها ، فلا يُحْطَأُ بشيءٍ منها ، فذلك قوله : « إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ » . وقال ابن عباس في رواية أخرى : في ابنِ آدمِ نَفْسٌ وروحٌ ، فبالنَّفْسِ العقلُ والتمييزُ ، وبالروحِ النَّفْسُ والتحريكُ ، فإذا نامَ العبدُ ، قَبِضَ اللهُ نَفْسَهُ ولم يَقْبِضِ روحه وقال ابن جريج : في الإنسان روح ونَفْسٌ ، بينهما حاجز ، فهو تعالى يَقْبِضُ النَّفْسَ عند النَّوْمِ ثم يَرُدُّها إلى الجسد عند الانتباه ، فإذا أراد إِمَانَةَ العبد في نومه ، لم يَرُدِّ النَّفْسَ وَقَبِضَ الرُّوحَ .

وقد اختلف العلماء ، هل بين النَّفْسِ والروحِ فَرْقٌ ؟ على قولين قد ذكرتهما في « الوجوه والنظائر » ، وزدتُ هذه الآية شرحاً في باب التوفّي في كتاب « النظائر » . وذهب بعض العلماء إلى أن التوفّي المذكور في حق النَّائم هو نَوْمُهُ ، وهذا اختيار الفراء وابنِ الأنباري ؛ فلي هذا ، يكون معنى توفّي النَّائم : قبضُ نَفْسِهِ عن التصرف ، وإرسالُها : إطلاقُها باليقظة للتصرف . ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَایْمَنُ بِكَ كُفْرًا شَدِيدًا وَلَا یَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .
قوله تعالى : (أَمْ اتَّخَذُوا) يعني كُفْرًا مَكَّةَ .

— عند المنام ، كما قال تبارك وتعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يجمعكم فيه) . يقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينشئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظةً حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يفرطون) فذكر الواقفين الصغرى ثم الكبرى ، قال : وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ، ولهذا قال تبارك وتعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . اهـ .

وفي المراد بالشفعاء قولان . أحدهما : أنها الأصنام ، زعموا أنها تشفع لهم في حاجاتهم ، قاله الآكثرون . والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل .

('قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا) من الشفاعة (وَلَا يَعْقِلُونَ) أنكم تبعدونهم ؟ اوجواب هذا الاستفهام محذوف ، تقديره : أُولَئِكَ كَانُوا بِهِذِهِ الصِّفَةِ تَحْذُونَهُمْ ؟ !

('قُلْ لِّلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) أي : لَا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمِلْكِهِ ، وَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿

قوله تعالى : (وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : انقبضت عن التوحيد ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . والثاني : استكبرت ، قاله قتادة . والثالث : نفرت ، قاله أبو عبيدة ، والزجاج .

قوله تعالى : (وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) يعني الأصنام (إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) يفرحون . وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الأنعام : ١٤ ، ٧٣ ، البقرة : ١١٣ ، الرعد : ١٨] إلى قوله : (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) .

قال السدي : ظنوا أن أعمالهم حسنة ، فبدت لهم سيئات . وقال غيره : عملوا أعمالاً ظنوا أنها تنفعهم ، فلم تنفع مع شركهم . قال مقاتل : ظهر لهم حين بعثوا مالم يَحْتَسِبُوا أَنَّهُ نازلٌ بهم ؛ فهذا القول يحتمل وجهين .
أحدهما : أَنَّهُمْ كانوا يرجون القُرْبَ من الله بعبادة الأصنام ، فلما عوقبوا عليها ، بدا لهم مالم يكونوا يَحْتَسِبُونَ .

والثاني : أَنَّ البعثَ والجزاء لم يكن في حسابهم . وروي عن محمد بن المنكدر أَنَّهُ جَزِعَ عند الموت وقال : أخشى هذه الآية أن يبدو لي مالا أحتسب .
قوله تعالى : (وحق بهم) أي : نزل بهم (ما كانوا به يستزنون) أي : ما كانوا يُنْكِرُونَهُ ويكذبون به .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَدْ أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
قوله تعالى : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا) قال مقاتل : هو أبو حذيفة ابن المغيرة ، وقد سبق في هذه السورة نظيرها [الزمر: ٨] . وإنما كتبت عن النعمة بقوله : (أُوتِيتُهُ) ، لأن المراد بالنعمة : الإِنْعَامُ .

(على عِلْمٍ) عندي ، أي : على خير عِلْمَةٍ الله عندي . وقيل : على عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِأَتِي لَهُ أَهْلٌ ، قال الله تعالى : (بل هي) يعني النعمة التي أنعم [الله] عليه بها (فِتْنَةٌ) أي : بلوى يُبْتَلَى بها العبد لِيَشْكُرَ أَوْ يَكْفُرَ ،

(وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أن ذلك استدراج لهم وامتحان . وقيل : « بل هي » أي : المقالة التي قلها « فتنة » .

(قد قلها) يعني تلك الكلمة ، وهي قوله : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » (الذين مِنْ قَبْلِهِمْ) وفيهم قولان . أحدهما : أَنَّهُمْ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ ، قاله السدي . والثاني : قارون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فَاغْنَىٰ عَنْهُمْ) أي : ما دفع عنهم العذاب (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : من الكفر . والثاني : من عبادة الأصنام . والثالث : من الأموال .

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) أي : جزاءُ سيئاتهم ، وهو العذاب . ثم أَوَعَدَ كُفَّارَ مَكَّةَ ، فقال : (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) أي : إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ وَلَا يَفُوتُونَهُ . قال مقاتل : ثم وعظهم لِيَعْلَمُوا وَحْدَانِيَّتَهُ حِينَ مُطِرُوا بِسَبْعِ سَنِينَ ، فقال : (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ) أي : فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْتِيرِهِ (آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أَنْ نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأْكَثَرُوا ، وَزَنُوا فَأْكَثَرُوا ، ثُمَّ أَنْتَوَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : إِنَّ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ لِحَسَنٌ ، لَوْ تَحْبِرُنَا أَنْ لَمَّا عَمَلْنَا كَفَّارَةً ، فَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (١) .

والثاني : أنها نزلت في عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رِيعة والوليد بن الوليد وَتَفَرَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا ، ثُمَّ عَذَّبُوا فَاقْتَدِنُوا ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ يَقُولُونَ : لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ، قَوْمٌ تَرَكُوا دِينَهُمْ بِعَذَابٍ عَدِيبِهِ ! فَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَكُتِبَ عَمْرٌ إِلَى عِيَّاشِ وَالْوَلِيدِ وَأَوْتِنَاكَ النَّفَرُ ، فَأَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا ؛ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ مَرٍ (٢) .

والثالث : أنها نزلت في وَحْشِي ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ ذَكَرْنَاهُ مُشْرُوحًا فِي آخِرِ (الفرقان : ٦٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٣) .

والرابع : أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا : يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ مَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ

(١) رواه البخاري : ٤٢٢/٨ من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، و « الطبري » : ٤١/١٩ ، وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها ، وكذلك رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٩١ ، ورواه البخاري أيضاً : ٣٨٠/٨ في سورة الفرقان مختصراً . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٧٧/٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن جرير الطبري : ١٥/٢٤ ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٩١ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها بدون سند .

(٣) قال السيوطي في « الدر » ٣٣٠/٥ : أخرجه الطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » بسند فيه لين عن ابن عباس رضي الله عنها . . . الخ

وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَكَيْفَ مُهَاجِرٌ وَنُسْلِمٌ وَقَدْ
فَعَدْنَا ذَلِكَ ؟ ! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ؛ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً ^(١) .

وَمَعْنَى « أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » ارْتَكَبُوا الْكَبَائِرَ ، وَالْقَنُوطُ بِمَعْنَى الْيَأْسِ ^(٢) .
(وَأَنْبِئُوا) بِمَعْنَى ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالذَّنُوبِ ، (وَأَسْلِمُوا لَهُ) أَيِ :
أَخْلِصُوا لَهُ التَّوْحِيدَ . وَ « تُنْصَرُونَ » بِمَعْنَى تُؤْمِنُونَ .
(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) قَدْ يَنْتَاهُ فِي قَوْلِهِ : (يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا)
[الْأَعْرَافُ : ١٤٥] .

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

(١) « الطبري » : ١٤/٢٤ ، وَذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي « أَسْبَابِ النُّزُولِ » : ٢١١ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
بِدُونِ سَنَدٍ ، وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرَجَاتِ » : ٣٣١/٥ ، وَزَادَ نُسْبَتَهُ لِابْنِ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْمَصَاةِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ
وَالْإِنْفَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ
مِنْهَا كَانَتْ ، وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ ، قَالَ : وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ ،
لِأَنَّ الشِّرْكَ لَا يَغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ ، وَسَرَدَ بَعْضُ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى سَمَةِ
رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَغْفِرُ جَمِيعَ الذَّنُوبِ
مَعَ التَّوْبَةِ ، قَالَ : وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ ، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ
وَاسِعٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَلَمْ يَطْلُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : —

قوله تعالى : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ) قال المبرّد : المعنى : بادِرُوا قَبْلَ أَنْ
تَقُولَ نَفْسٌ ، وَحَذَرًا مِنْ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ . وقال الزجاج : خوف أن تصيروا
إلى حال تقولون فيها هذا القول . ومعنى (يا حسرتا) ياندامتا ويا حزنا . والتحسر :
الاعتماد على ما فات . والألف في « يا حسرتا » هي [ياء] المتكلم ، والمعنى :
يا حسرتي ^(١) ، على الإضافة . قال الفراء : والعرب تحول الياء إلى الألف في كل
كلام معناه الاستنائة ويخرج على لفظ الدعاء ، وربما أدخلت العرب الياء بعد
هذه الألف ، فيخفّضونها مَرَّةً ، ويرفعونها أخرى . وقرأ الحسن ، وأبو العالية ،
وأبو عمران ، وأبو الجوزاء : « يا حسرتي » بكسر التاء ، على الإضافة إلى النفس .
وقرأ معاذ القاري ، وأبو جعفر : « يا حسرتاي » ، بألف بعد التاء وياء مفتوحة .
قال الزجاج : وزعم الفراء أنه يجوز « يا حسرتاه على كذا » بفتح الهاء ، و« يا حسرتاه »
بالضم والكسر ، والنحويون أجمعون لا يُجيزون أن تُثَبَّتَ هذه الهاء مع الوصل .
قوله تعالى : (فِي جَنبِ اللَّهِ) فيه خمسة أقوال . أحدها : في طاعة الله تعالى ،
قاله الحسن . والثاني : في حق الله ، قاله سعيد بن جبیر . والثالث : في أمر الله ،
قاله مجاهد ، والزجاج . والرابع : في ذكر الله ، قاله عكرمة ، والضحاك . والخامس :
في قُرْبِ اللَّهِ ؛ روي عن الفراء أنه قال : الجَنِبُ : القُرْبُ ، أي : في قُرْبِ اللَّهِ
وجواره ؛ يقال : فلان يعيش في جَنِبِ فلان ، أي : في قُرْبِهِ وجواره ؛ فعلى
هذا يكون المعنى : [على] ما فرطتُ في طلب قُرْبِ اللَّهِ تعالى ، وهو الجنة .

— (ومن يميل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يمجده الله غفوراً رحيمًا) . ثم ذكر عدة أحاديث
في نفي القنوط ، واعتقاد أن الله تعالى غفور رحيم لمن تاب إليه وأتاب .
(١) في الأصل : « يا حسرتا » .

قوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ لَمِنَ السَّخِرِينَ) أي : وما كنتُ إلا من

المستهزئين بالقرآن والمؤمنين في الدنيا .

(أَوْ قَوْلَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) أي : أرشدني إلى دينه (لَكُنْتُ مِنَ

الْمُتَّقِينَ) الشُّرَكَ ؛ فيقال لهذا القائل : (بلى قد جاءتك آياتي) قال الزجاج :

و « بلى » جواب النبي ، وليس في الكلام لفظ النبي ، غير أن معنى « لو أن الله

هداني » : ما هُديتُ ، ف قيل : « بلى قد جاءتك آياتي » . وروى ابن أبي سريج

[عن الكسائي] : « جاءتك » ، « فكذبته » ، « واستكبرت » ،

« وكنت » ، بكسر التاء فيهن ، مخاطبة للنفس . ومعنى « استكبرت » :

تكبرت عن الإيمان بها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ

أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ . وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا

بِمَقَازِنِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ) فزعوا أن له

ولداً وشريكاً (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) . وقال الحسن : هم الذين يقولون : إن

شئنا ففعلنا ، وإن شئنا لم نفعل . وباقي الآية قد ذكرناه آخفاً [الزمر : ٣٢] .

قوله تعالى : (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ) وقرأ حمزة ، والكسائي ،

وأبو بكر عن عاصم : « بمفازاتهم » . قال الفراء : وهو كما قد تقول : قد تبين

أمرُ القوم وأمورهم ، وارتفع الصوت والأصوات ، والمعنى واحد . وفيها للمفسرين

ثلاثة أقوال . أحدها : بفضائلهم ، قاله السدي . والثاني : بأعمالهم ، قاله ابن السائب ،

ومقاتل . والثالث : بفوزهم من النار .

قال المبرد : المفازة : مفعلة من الفوز ، وإن جُمع فحسن ، كقولك : السعادة والسعادات ، والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم ، أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالسَّيِّدِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قوله تعالى : (له مقاليد السموات والأرض) قال ابن قتيبة : أي : مفاتيحها وخزائنها ، لأن مالِك المفاتيح مالِك الخزان ، واحدها : إقيد ، وجُمع على غير واحد ، كما قالوا : ماذا كبر جمع ذكر ، ويقال : هو فارسي معرب . [وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي : الإقيد : المفتاح ، فارسي معرب] ، قال الراجز :

لَمْ يُؤْذِهَا إِلَيْكَ بِصَوْتِ تَفْرِيدٍ * وَلَمْ تُعَالِجْ غَلَقًا بِإِقْلِيدٍ (١)
والمقْلِيدُ : لغةٌ في الإقْلِيدِ ، والجمع : مقاليد .

والمفسرين في المقاليد قولان . أحدهما : المفاتيح ، قاله ابن عباس . والثاني : الخزان ، قاله الضحاك . وقال الزجاج : تفسيره أن كل شيء في السموات والأرض ، فهو خالقه وفاتح بابه . قال المفسرون : مفاتيح السموات : المطر ، ومفاتيح الأرض : النبات .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَ عِبْدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

(١) الرجز في « المرّب » للجواليقي : ٢٠ .

قوله تعالى : (أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ) قرأ نافع ، وابن عامر : « تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ » مخففة ، غير أن نافعاً فتح الياء ، ولم يفتحها ابن عامر .
 وقرأ ابن كثير : « تَأْمُرُونِي » بتشديد النون وفتح الياء ، وقرأ الباقون بسكون الياء . وذلك حين دَعَوَهُ إِلَى دِينِ آبَائِهِ (أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) أي : فيما تَأْمُرُونَ .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) فيه تقديم وتأخير ، تقديره : وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ لَنَنْ أَسْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ، وكذلك أَوْحِيَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ . قال أبو عبيدة : ومجازها مجاز الأمرين اللَّذَيْنِ يُخْبِرُ عَنْ أَحَدِهِمَا وَيُكْفِ عَنْ الْآخَرِ ، قال ابن عباس : هذا أدبٌ من الله تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ وتهديدٌ لغيره ، لأن الله عز وجل قد عصمه من الشرك . وقال غيره : إنما خاطبه بذلك ، لِيَعْرِفَ مَنْ دُونَهُ أَنَّ الشِّرْكَ يُحْبِطُ الْأَعْمَالُ الْمُتَقَدِّمَةَ كُلَّهَا وَلَوْ وَقَعَ مِنْ نَبِيٍّ . وقرأ أبو عمران ، وابن السميع ، ويعقوب : « لَتُحْبِطَنَّ » بالنون ، « عَمَلُكَ » بالنصب . (بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ) أي : وَحْدَهُ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) سبب نزولها أن رجلاً من أهل الكتاب أتى رسول الله ﷺ فقال : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، بلغك أن الله تعالى يَحْمِلُ الْخَلَائِقَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضَيْنِ عَلَى إصْبَعٍ وَالشَّجَرِ عَلَى إصْبَعٍ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، قَالَه

ابن مسعود^(١) . [وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » نحوه عن ابن مسعود]^(٢) . وقد فسرنا أول هذه الآية في (الأنعام : ٩١) . قال ابن عباس : هذه الآية في الكفار ، فأما من آمن بأنه على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره .

ثم ذكر عظمته بقوله : (والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوَّياتٌ يمينه) وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « يقبضُ اللهُ الأرض يوم القيامة ويَطْوِي السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوكُ الأرض ؟ »^(٣) ؛ وأخرجنا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَطْوِي اللهُ عز وجل السموات يوم القيامة ، ثم يأخذُهنَّ بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »^(٤) . قال ابن عباس : الأرضُ والسموات كلها يمينه .

(١) روى سبب النزول هذا بهذا اللفظ الواحد في « أسباب النزول » : ٢١٢ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الصحيحين » دون سبب النزول .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » : ٤٢٣/٨ ، ومسلم : ٢١٤٨/٤ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه الطبري : ٢٧/٢٤ ، والحديث أورده السيوطي في « الدر » ، وزاد نسبه لسميد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والمدارقي في « الأسماء والصفات » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » في قوله : « حتى بدت نواجذه » : وليس ذلك منافياً للحديث الآخر أن ضحكته كان تبساً كما سيأتي في تفسير سورة (الأحقاف) . اهـ .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » : ٤٢٣/٨ ، ومسلم : ٢١٤٨/٤ ، ورواه الطبري : ٢٧/٢٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٣٥/٥ ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣٣٤/١٣ مختصراً ، ورواه مسلم : ٢١٤٨/٤ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها ، واللفظ له ، وتام الحديث عنده : « ثم يطوي الأرضين بشأله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون » .

وقال سعيد بن جبير : السموات قَبْضَةٌ والأَرْضُونَ قَبْضَةٌ^(١) .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقَّ) وقرأ ابن السيف ، وابن عمر ، والجريري : « فَصُقِّقَ » بضم الصاد (مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) أي : مانوا من الفزع وشِدَّةِ الصَّوْتِ . وقد بيَّنا هذه الآية والخلاف في الذين استثنوا في سورة (النمل : ٨٧) .

(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى) وهي نفخة البعث (فَإِذَا هُمْ) يعني الخلائق (قِيَامٍ يَنْظُرُونَ)^(٢) .

(١) قال ابن كثير : وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، قال : والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف . اهـ .
(٢) قال ابن كثير : يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) قال : هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً مفسراً في حديث الصور المشهور ، قال : ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء ، ويقول : (إن الملك اليوم) ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : (لله الواحد القهار) أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكت بالفناء على كل شيء ، قال : ثم يجي أول من يجي إسرافيل وبأمره أن ينفخ في الصور —

قوله تعالى : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أي : أضاءت . والمراد بالأرض : عَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ .

قوله تعالى : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) فيه قولان . أحدهما : كتاب الأعمال ، قاله قتادة ، ومقاتل . والثاني : الحساب ، قاله السدي . وفي الشهداء قولان .

أحدهما : أنهم الذين يَشْهَدُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ ، قاله الجمهور . ثم فيهم أربعة أقوال . أحدها : أنهم الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . والثاني : أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ يَشْهَدُونَ لِلرَّسْلِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَتَكْذِيبِ الْأُمَمِ لِإِتِّاعِهِمْ ، روى عن ابن عباس رضي الله عنه . والثالث : الْحَفَظَةُ ، قاله عطاء . والرابع : النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْجَوَارِحُ ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنهم الشهداء الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قاله قتادة ؛ والأول أصح . (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) أي : جزاء عملها (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) أي : لا يحتاجُ إِلَى كَاتِبٍ وَلَا شَاهِدٍ .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ۖ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ۚ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۖ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا

— أخرى ، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال عز وجل : (ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ ۚ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) أي : أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاناً صاروا أحياءً يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كما قال تعالى : (فَأَمَّا فِي زَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَاذَاهُمْ بِالسَّاهِرَةِ) ١٠٨ .

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ
حَافَتِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ يَنَّهُمْ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

قوله تعالى : (وَسَيَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا) قال أبو عبيدة :
الزُمَر : جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض ، واحدها : زُمرة ^(١) .

قوله تعالى : (رُسُلٌ مِّنْكُمْ) أي : من أنفسكم . و (كلمة المذاب)
هي قوله : (لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ) [الأعراف : ١٨] .

قوله تعالى : (فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
وابن عامر : « فُتِحَتْ » « وَفُتِحَتْ » مشددين ؛ وقرأ عاصم ، وحزمة ،
والكسائي : بالتخفيف .

وفي هذه الواو ثلاثة أقوال ^(٢) .

أحدها : أنها زائدة ، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء .
والثاني : أنها واو الحال ؛ فالعنى : جاؤوها وقد فُتحت أبوابها ، فدخلت

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ، قال :
وإنما يساقون سوقاً عنيماً بجزر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ فَارِجِهِمْ
دَعَاً) أي : يدفون إليها دفءاً ، هذا وهم عيطاش ظيما ، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى :
(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا) وهم في تلك الحال
صمٌ وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً
مأواهم جهنم كلما خبت زدقهم سعيراً) .

(٢) وفي الواو في قوله تعالى : (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم ، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم ، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه .

أحدها : أن أهل الجنة جاؤوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا الشور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة ، وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرجها ، ذكره أبو إسحاق ابن شاذان من أصحابنا (١) .

والثاني : أن الوقوف على الباب الملق نوعٌ ذلٌّ ، فصين أهل الجنة عنه ، وجعل في حق أهل النار ، ذكره لي بمض مشايخنا .

والثالث : أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقة لانتثر انتظار فتحه في كمال الكرم ، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجي أهلها ، لأن الكريم يعجل المثوبة ، ويؤخر العقوبة ، وقد قال عز وجل : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) [النساء : ١٤٧] ؛ قال المصنف : هذا وجهٌ خطر لي .

والقول الثالث : أن الواو زيدت ، لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، والعرب تمطِفُ في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله : (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُنُيُهُمْ) [الكهف : ٢٢] ، حتى هذا القول والذي قبله النعالي .

واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الجواب محذوف ، قاله أبو عبيدة ، والمبرد ، والزجاج في آخرين . وفي تقدير هذا المحذوف قولان . أحدهما : أن تقديره : (حتى إذا جاؤوها ...) إلى آخر الآية .. سُمِدُوا ، قاله المبرد . والثاني : (حتى إذا جاؤوها ...) إلى قوله :

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاذان البزار الحنبلي ، جليل القدر ، كثير الرواية ، حسن الكلام في الأصول والفروع ، توفي رحمه الله سنة (٣٦٩ هـ) .

(فادخلوها خالدين) .. دخلوها ، وإنما حذف ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، وهذا اختيار الزجاج .

والقول الثاني : أن الجواب : قال لهم خزنتها ، والواو زائدة ، ذكره الأخفش ، قال : ومثله في الشعر :

فاذا وذلك يا كُبَيْشَةَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلِمَةً حَالِمٍ بِخَيَالٍ^(١)
أي : فاذا ذلك .

والثالث : الجواب : حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها ، والواو زائدة ، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة .

وفي قوله : (طِبْتُمْ) خمسة أقوال . أحدها : أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عيان ، فيشربون من إحداها ، فلا يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج ، ويمتسلون من الأخرى ، فلا تغبر جلودهم ولا تشعث أشعارهم أبداً ، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها : « سلامٌ عليكم طِبْتُمْ » ، رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه^(٢) ، وقد ذكرنا في (الأعراف : ٤٤) نحوه عن ابن عباس . والثاني : طاب لكم

(١) البيت لتيم بن مقبل ، ديوانه : ٢٥٩ من قصيدة مطلعها :

سَائِلٌ يَكْبِشَةُ دَارَسَ الْأَطْلَالِ قَدْ هَيَّجَتْكَ رُسُومُهَا لِسُؤَالِ

وهو في « الطبري » : ٣٦/٢٤ ، و « الصحاح » و « اللسان » ، و « التاج » : لم . ورواية البيت في الديوان : « لَا كَبِشَةَ . . . » والخلمة : المرأة من حَلَمَ : إذا رأى شيئاً في المنام . وقال ابن بري : قوله : « فاذا وذلك » مبتدأ ، والواو زائدة ، كذا ذكره الأخفش ، و « لم يكن » خبره .

(٢) « الطبري » : ٣٥/٢٤ . وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٢/٥ ، وزاد نسبتَه لابن المبارك في « الزهد » ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن راهويه ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » ، والبيهقي في « البعث » ، والضياء في « المختارة » عن علي رضي الله عنه .

المقام ، قاله ابن عباس : والثالث : طِبِّتُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، قاله مجاهد . والرابع : أَنَّهُمْ طُيِّبُوا قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِالْمَغْفِرَةِ ، واقتُصِبَ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، فَلَئِمَّا هَذَا بَوَّاءُ قَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ : طِبِّتُمْ ، قاله قتادة . والخامس : كُنْتُمْ طُيِّبِينَ فِي الدُّنْيَا ، قاله الزجاج .

فَلَمَّا دَخَلُوهَا قَالُوا : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) (بِالْجَنَّةِ) (وَأَوْفَرَنَا الْأَرْضَ) (أَيِ أَرْضِ الْجَنَّةِ) (تَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ) (أَيِ : نَتَّخِذُ فِيهَا مِنَ الْمَنَازِلِ مَا نَشَاءُ . وَحَكَى أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأُمَمِ ، فَيَنْزِلُونَ مِنْهَا حَيْثُ شَاءُوا ، ثُمَّ تَنْزِلُ الْأُمَمُ بَعْدَهُمْ فِيهَا ، فَلِذَلِكَ قَالُوا : « تَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » ؛ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (أَيِ : نِعْمَ نَوَافِلُ الْمُطِيعِينَ فِي الدُّنْيَا الْجَنَّةُ .

قوله تعالى : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافَتِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ) : أَيِ مُحَمَّدِينَ بِهِ ، يُقَالُ : حَفَّ الْقَوْمُ بِفُلَانٍ : إِذَا أَحْدَقُوا بِهِ ؛ وَدَخَلَتْ « مِنْ » لِلتَّوَكُّيدِ ، كَقَوْلِكَ : مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ .

(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) قَالَ السَّيِّدِي ، وَمُقَاتِلٌ : بِأَمْرِ رَبِّهِمْ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُسَبِّحُونَ بِالْحَمْدِ لَهُ حَيْثُ دَخَلَ الْمُوَحِّدُونَ الْجَنَّةَ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : التَّسْبِيحُ هَاهُنَا بِمَعْنَى الصَّلَاةِ .

قوله تعالى : (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) (أَيِ : بَيْنَ الْخَلَائِقِ) (بِالْحَقِّ) (أَيِ : بِالْمَدَلِّ) (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مُشْكِرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى إِعْزَامِهِ .

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : ابْتَدَأَ اللَّهُ ذِكْرَ الْخَلْقِ بِالْحَمْدِ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

خلق السموات والأرض « [الأنعام : ١] وختم ^(١) غاية الأمر - وهو استقرار
 الفريقين في منازلهم - بالحمد لله بهذه الآية ، فبَّه على تحميده في بداية كُلِّ
 أمرٍ وخاتمته .

★ ★ ★

(١) في الأصل : وختم .

سورة المؤمن

قال أبو سليمان الدمشقي : ويقال لها : سورة الطَّوَل^(١) . وهي مَكِّيَّة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة . وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة : قوله : (الذين يجادلون في آياتِ الله) والتي بعدها [المؤمن : ٣٥ ، ٣٦] . قال الزجاج : وذُكِرَ أَنَّ الحواميم كلها نزلت بمكة . قال ابن قتيبة : يقال : إن « حم » اسم من أسماء الله أُضيفت هذه السورة إليه ، كأنه قيل : سُورَةُ اللهِ ، لِشَرَفِهَا وَقَضَلِهَا ، فَقِيلَ : آلِ حَامِيم ، وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ سُورَةَ اللهِ ، وَإِنْ هَذَا كَمَا يَقَالُ : يَنْتُ اللهُ ، وَحَرَّمَ اللهُ ، وَنَاقَةُ اللهِ ، قَالَ الْكَمِيت :

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمِ آيَةً تَأْوِلُهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعَرِّبٌ^(٢)
وقد نُجْمِلُ « حم » اسماً للسورة ، ويدخُلُ الإعراب ولا يُصَرَّفُ ، ومن قال هذا في الجميع : الحواميم ، كما يقال : « طس » والطواسين . وقال محمد بن القاسم الأنباري : العرب تقول : وقع في الحواميم ، وفي آل حم ، أنشد أبو عبيدة :
حَلَفْتُ بِالسَّبْعِ اللَّوَاتِي طَوَّاتُ^١ وَبِمِثْنٍ بَعْدَهَا قَدْ أُمْتُتُ^٢
وَبِمِثْنٍ مُنْتِيتُ فَكُرِّرْتُ^٣ وَبِالطَّوَّاسِينَ اللَّوَاتِي مُلْتِيتُ^٤

(١) ويقال لها أيضاً : سورة غافر .

(٢) البيت في الكتاب : ٣٠/٢ ، ود مجاز القرآن : ١٩٣/٢ ، ود غرب القرآن :

٣٦ ، ود الطبري : ٤٠/٢٤ ، ود الصحاح ، ود اللسان ، ود التاج : عرب .

وبالحواميم اللّٰوَاتِي سُبِّحَتْ [وبالمفصل اللّٰوَاتِي فُصِّلَتْ] ^(١)
 فمن قال : وقع في آل حاميم ، جعل حاميم اسماً لِكُلِّهِنَّ ؛ ومن قال : وقع في
 الحواميم ، جعل « حم » كأنه حرف واحد بمنزلة قاييل وهاييل . وقرأتُ على
 شيخنا أبي منصور اللّٰوِي قال : من الخطأ أن تقول : قرأتُ الحواميم ، وليس
 من كلام العرب ، والصّوابُ أن تقول : قرأتُ آلَ حاميم . وفي حديث ابن مسعود
 « إذا وقعتُ في آل حم ^(٢) وقعتُ في روضات دمشق » ^(٣) ، وقال الكميت :
 وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آل حَامِيمَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ
 وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾
 وفي (حم) أربعة أقوال .

أحدها : قَسَمَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ وَهُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَجَل ، رواه ابن أبي طلحة
 عن ابن عباس . قال أبو سليمان : وقد قيل : إن جواب القسم قوله : (إن
 الذين كفروا يُنادون) [المؤمن : ١٠] .

(١) « مجاز القرآن » : ٧/١ والزيادة بين الملقين منه .

(٢) كذا في الأصول وكتب التفسير ، وفي « النهاية » و « اللسان » و « التاج » :

« قرأتُ آل حاميم » بدل « وقعتُ في آل حاميم »

(٣) قال السيوطي في « الدر » ، ٣٤٤/٥ : أخرج أبو عبيد ، ومحمد بن نصر ، وابن المنذر

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إذا وقعت في الحواميم وقعت في روضات أُنَاشِقُ فين .

والثاني : أنها حروف من أسماء الله عز وجل ، ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن « آل » و « حم » و « نون » حروف الرحمن ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه « حميد » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، قاله أبو العالية . والثالث : أن الحاء مفتاح كل اسم لله ابتداءً ، مثل « حكيم » ، و « حلیم » ، و « حي » ، والميم مفتاح كل اسم له ، ابتداءً ، مثل « ملك » ، و « متكبر » ، و « مجيد » ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وروى نحوه عن عطاء الخراساني .

والثالث : أن معنى « حم » : قُضِيَ ما هو كائن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وروى عن الضحاك والكسائي مثل هذا كأنها أرادت^(١) الإشارة إلى « حم » ، بضم الحاء وتشديد الميم . قال الزجاج : وقد قيل في « حم » : « حم الأمر » . والرابع : أن « حم » اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة . وقرأ ابن كثير : « حم » بفتح الحاء ؛ وقرأ ابن مامر ، وحمة ، والكسائي : بكسرها ؛ واختلف عن الباقيين . قال الزجاج : أمّا الميم ، فساكنة في قراءة القراء كلهم إلا عيسى ابن عمر ، فانه فتحها ؛ وفتحها على ضربين . أحدهما : أن يحمل « حم » اسماً للسورة ، فينصبه ولا بنوته ، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو هايل وقايل . والثاني : على معنى : اتل حم ؛ والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جمعه اسماً للسورة ، ويكون حكاية حروف الهجاء^(٢) .

قوله تعالى : (تنزيل الكتاب) أي : هذا تنزيل الكتاب . والتَّوْبُ :

(١) في الأصل : أراد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والقول في ذلك عندي نظير القول في أخواتها ، قال : وقد بينا ذلك في قوله : (اسم) في ذلك كفاية عن إعادته في هذا الموضع ، إذ كان القول في (حم) وجميع ما جاء في القرآن على هذا الوجه ، أعني حروف التهجى قولاً واحداً . اهـ .

جمع تَوْبَةٍ ، وجاز أن يكون مصدراً من تاب يَتُوبُ تَوْباً . والطَّوْل : الفضل . قال أبو عبيدة : يقال : فلان ذو طَوَّلٍ على قومه ، أي : ذو فضل . وقال ابن قتيبة : يقال : « طُلٌّ عليَّ يرحمك الله » ، أي : تَفَضُّلٌ . قال الخطابي : ذو : حرف النسبة ، والنسبة في كلامهم على ثلاثة أوجه : بالياء ، كقولهم : أسدي ، وبكري ، والثاني على الجمع ، كقولهم : المسالبة ، والمسامعة ، والأزارقة ، والثالث بـ « ذي » و « ذات » ، كقولهم : رجل مال ، أي : ذو مال ، وكبش صاف ، أي : ذو صوف ، ونافعة ضامر ، أي : ذات ضمير ؛ فقوله : ذو الطَّوِّل ، معناه : أهل الطَّوِّل والفضل .

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْأِبْلَادِ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ . وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

قوله تعالى : (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ) أي : ما يُخَاصِم فيها بالكذب لها ودفعها بالباطل (إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) وباقي الآية في (آل عمران : ١٩٦) ؛ والمعنى : إنَّ عاقبة أمرهم إلى المذاب كماقبة مَنْ قَبْلَهُمْ .

قوله تعالى : (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) فيه قولان . أحدهما : ليقْتُلُوهُ ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : ليجبِسُوهُ ويمدُّبُوهُ ، ويقال للأسير : أُخِذَ ، حكاه ابن قتيبة . قال الأخفش : وإِنَّمَا قال : « لِيَأْخُذُوهُ » فجمع على الكلِّ ، لأنَّ الكلَّ مذكَّر ومعناه معنى الجماعة . وما بعد هذا مفسَّر في (الكهف : ٥٦) إلى قوله : (فَأَخَذْتُهُمْ) أي : حَاقَبْتُهُمْ وأَهْلَكْتُهُمْ

(فكيف كان عقاب) استفهام تقرير لمقوتهم الواقعة بهم . (وكذلك) أي : مثل الذي حَقَّ على الأمم المكذبة (حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) بالعذاب ، وهي قوله : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) [الأعراف : ١٨] على الذين كفروا من قومك . وقرأ نافع ، وابن عامر : « حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ » ، (أنهم) قال الاخفش : لأنهم أو بأنهم (أصحاب النار) .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

ثم أخبر بفضل المؤمنين فقال : (الذين يحملون العرش) وهم أربعة أملاك ، فإذا كان يوم القيامة جعلوا ثمانية (وَمَنْ حَوْلَهُ) قال وهب بن منبه : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به ، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ليس فيهم أحد إلا وهو يستبح بما لا يسبحه الآخر . وقال غيره : الذين حول العرش هم الكرويتون وهم سادة الملائكة . وقد ذكرنا في السورة المتقدمة معنى قوله : (يسبحون بحمد ربهم) [الزمر : ٧٥] .

قوله تعالى : (رَبَّنَا) أي يقولون : رَبَّنَا (وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا) قال الزجاج : هو منصوب على التمييز . وقال غيره : المعنى : وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا) من الشرك (وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ)

وهو دين الإسلام . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ) قال قتادة : يعني المذاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا إِثْنَيْنِ وَأُحْبِيتُنَا اِثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ) قال المفسرون : لما رأوا أعمالهم وأدخلوا النارَ مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ لِسُوءِ فِعَالِهِمْ ، فناداهم مُنَادٍ : لَمَقْتُ اللَّهُ إِبَتَاكُمْ فِي الدُّنْيَا (إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ) أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ .

ثم أخبر عما يقولون في النار بقوله : (رَبَّنَا آمَنَّا إِثْنَتَيْنِ وَأُحْبِيتُنَا اِثْنَتَيْنِ) وهذا مثل قوله : (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُنْحِيكُمْ) [البقرة : ٢٨] وقد فسرناه هنالك .

قوله تعالى : (فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ) أي : من النار إلى الدنيا لنعمل بالطاعة (مِنْ سَبِيلٍ) ؟ وفي الكلام اختصار ، تقديره : فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ ؛ وقيل لهم : (ذَلِكُمْ) يعني المذاب الذي نزل بهم (بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ) أي : إِذَا قِيلَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » أَنْكَرْتُمْ ، وَإِنْ جُعِلَ لَهُ شَرِيكٌ آمَنْتُمْ ، (فَالْحُكْمُ لِلَّهِ) فهو الذي حكم على المشركين بالنار . وقد يَبَيَّنَّا في سورة (البقرة : ٢٥٥) معنى العليّ ، وفي (الرعد : ٩) معنى الكبير .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ . فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ تُبَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ) أي : مصنوعاته التي تدل على وحدانيته وقدرته .
والرِّزْق هاهنا : المطر ، سمي رزقاً ، لأنه سبب الأرزاق . و « يتذكر » بمعنى يتعظ ، و « يُنِيب » بمعنى يرجع إلى الطاعة .
ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال : (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أي : موحدين .

قوله تعالى : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) قال ابن عباس : يعني رافع السموات .
وحكى الماوردي عن بعض المفسرين قال : معناه : عظيم الصفات .
قوله تعالى : (ذُو الْعَرْشِ) أي : خالقُه ومالكُه .
قوله تعالى : (يُلْقِي الرُّوحَ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه القرآن . والثاني : النبوة . والقولان مرويان عن ابن عباس .
وبالأول قال ابن زيد ، وبالثاني قال السدي . والثالث : الوحي ، قاله قتادة وإنما سمي القرآن والوحي روحاً ، لأن قوام الدين به ، كما أن قوام البدن بالروح .
والرابع : جبريل ، قاله الصَّحَّاح . والخامس : الرحمة ، حكاه إبراهيم الحربي .

قوله تعالى : (مِنْ أَمْرِهِ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : مِنْ قَضَائِهِ ، قاله ابن عباس . والثاني : بأمره ، قاله مقاتل . والثالث : من قوله ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يعني الأنبياء .
(لِيُنْذِرَ) في المشار إليه قولان . أحدهما : أنه الله عز وجل . والثاني : النبي الذي يوحى إليه .

والمراد بـ (يَوْمَ التَّلَاقِ) : يوم القيامة . وأثبت ياء (التلاقي) في الحالين ابن كثير ويقوب ، وأبو جعفر وافقها في الوصل ؛ والباقون بنى ياء في الحالين . وفي سبب تسميته بذلك خمسة أقوال .

أحدها : أنه يلتقي فيه أهل السماء والأرض ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثاني : يلتقي فيه الأولون والآخرون ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : [يلتقي] فيه الخلق والخالق ، قاله قتادة ومقاتل .

والرابع : يلتقي المظلوم والظالم ، قاله ميمون بن مهران .

والخامس : يلتقي المرء بملئه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (يَوْمَ مُمْمَ بَارِزُونَ) أي : ظاهرون من قبورهم (لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) .

فان قيل : فهل يَخْفَى عليه منهم اليوم شيء ؟

فالجواب : أن لا ، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء ؛ والمفسرين فيه

ثلاثة أقوال .

أحدها : لَا يَخْفَى عليه مِمَّا عَمِلُوا شَيْئاً ، قاله ابن عباس . والثاني :

لَا يَسْتَرُونَ مِنْهُ بِحِيلٍ وَلَا مَدَرٍ ، قَالَ قَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْمَعْنَى : أُنْزِرْهُمْ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، حَكَاهُ الْمَوْرِدِيُّ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ هَذَا يَقُولُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ . وَاجْتَلَفُوا فِي وَقْتِ قَوْلِهِ لَهُ عَلَى قَوْلَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : [أَنَّهُ] يَقُولُهُ عِنْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ إِذَا لَمْ يَبْقَ جَبِيبٌ ، فَيَرُدُّهُ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ : (اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، قَالَ الْأَكْثَرُونَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَقُولُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَفِيمَنْ يُجِيبُهُ حِينَئِذٍ قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يُجِيبُ نَفْسَهُ وَقَدْ سَكَتَ الْخَلَائِقُ لِقَوْلِهِ ، قَالَ عَطَاءٌ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ يُجِيبُونَهُ فَيَقُولُونَ : « اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظَمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطْأَعُ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، قَالَ الْجَهْورُ . قَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ : وَسَمِيَتْ الْقِيَامَةُ بِذَلِكَ لِقُرْبِهَا ، يُقَالُ : أَزِفَ شَخْصٌ فَلَانٌ ، أَيُّ : قَرُبَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَوْمُ حُضُورِ الْمَنِيَّةِ ، قَالَ قَطْرِبُ (١) .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَوْمَ الْآزِفَةِ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَسَمِيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) وَقَالَ : (أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ : (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...)
الآيَةُ . اهـ .

قوله تعالى : (إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ) وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود ، هذا على القول الأول وعلى الثاني : القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنيّة ؛ قال الزجاج : و (كاظمين) منصوب على الحال ، والحال محمولة على المعنى ؛ لأن القلوب لا يقال لها : كاظمين ، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب ؛ فالمعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كَظَمِهِمْ . قال المفسرون : « كاظمين » أي : منمومين ممتلئين خوفاً وحزناً ، والكاظم : المُسْكِكُ للشيء على ما فيه ؛ وقد أشرنا إلى هذا عند قوله : (والكاظمين الغيظ) [آل عمران : ١٣٤] .

(مَالِظَاتٍ لِّمَنِ) يعني الكافرين (مِنْ حَمِيمٍ) أي : قريب بنفعهم (ولا شفيع يُطَاعُ) فيهم فتقبل شفاعته .

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ) قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد . والمفسرين

فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرجل يكون في القوم قتمراً به المرأة فيُريهم أنه يغضُّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلةً لحظَّ إليها ، فان خاف أن يَفْطَنُوا له غَضَّ بصره ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه نظر العين إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : الغمز بالعين ، قاله الضحاك والسدي . قال قتادة : هو الغمز بالعين

فيما لا يُحِبُّه الله ولا يرضاه .

والرابع : النظرة بعد النظرة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وما تُخَفِّي الصُّدُورُ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : ما تُضْمِرُهُ

من الفعل أن لو قَدَرْتَ على ما تَظَنَّرْتَ إليه ، قاله ابن عباس والثاني : الوسوسة ،

قاله السدي . والثالث : ما يسره القلب من أمانة أو خيانة ، حكاه الماوردي ^(١) .
 ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَنْقُضُونَ
 بَشْيَءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۚ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ
 قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۚ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ
 فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا
 أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۚ ﴾

قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) أي : يحكم به فيجزي بالحسنة والسيئة
 (والذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) من الآلهة . وقرأ نافع ، وابن عامر : « تَدْعُونَ »
 بالتاء ، على معنى : قل لهم : (لَا يَنْقُضُونَ بَشْيَءَ) أي : لا يَحْكُمُونَ بَشْيَءَ
 ولا يُجَازُونَ به ؛ وقد نبه الله عز وجل بهذا على أنه حيٌّ ، لأنه إنما يأمر
 ويقضي من كان حيًّا ، وأيد ذلك بذكر السمع والبصر ، لأنها إنما يثبتان لحيٍّ ،

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) يخبر عز وجل
 عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليها وحقيها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ،
 ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه
 مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه عز وجل يعلم المين الخائنة وإن أبدت أمانة ، وبعلم ما تنطوي عليه
 خبايا الصدور من الضهار والسرائر . اهـ .

قاله أبو سليمان الدمشقي . وما بعد هذا قد تقدم بعضه [يوسف : ١٠٩] وبعضه ظاهر إلى قوله : (كانوا هم أشد منهم قوة) وقرأ ابن عامر : « أَشَدَّ مِنْكُمْ » بالكاف ، وكذلك هو في مصاحفهم ، وهو على الانصراف من الغيبة إلى الخطاب ، (وما كان لهم من الله) أي : من عذاب الله (من واق) بقي العذاب عنهم . (ذلك) أي : ذلك العذاب الذي نزل بهم (بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . . .) إلى آخر الآية .

ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليُعتبروا . وأراد بقوله : (اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه) أعيّدوا القتل عليهم كما كان أولاً ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : كان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان ، فلما بعث الله موسى ، أعاد عليهم القتل ليصُدّهم بذلك عن متابعة موسى .

قوله تعالى : (وما كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أي : إنه بذهاب باطلاً ويحيق بهم ما يريد الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَنَصُّ النَّارِ الَّتِي يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَأْتِيكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ

إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثُودَ وَالَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُولُوثُونَ مُدْيرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ
لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿

(وقال فرعونُ ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى) وإنما قال هذا ، لأنه كان في خاصَّة
فرعونَ مَنْ يَمْنَعُهُ مِنْ قَتْلِهِ خوفاً من الهلاك (وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) الذي يزعمُ
أنه أرسله فليمنعه من القتل (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ) أي : عبادتكم لإتاي
(وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :
« وَأَنْ » بغير ألف . وقرأ عاصم ، وحمة ، والكسائي : « أَوْ أَنْ » بألف قبل
الواو ، على معنى : إن لم يبدل دينكم أوقع الفساد ، إلا أن نافعاً وأبا عمرو قرآ :
« يُظْهِرَ » بضم الياء « الفساد » بالنصب . وقرأ الباقون : « يَظْهِرَ » بفتح
الياء « الفساد » بالرفع ، والمعنى : يظهر الفساد بتغيير أحكامنا ، فجعل ذلك فساداً
بزعمه ؛ وقيل : يقتل أبناءكم كما تفعلون بهم .

فلما قال فرعونُ هذا ، استأذ موسى بربه فقال : (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ)
قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : « عُذْتُ » مبيِّنة الذال ، وأدغمها أبو عمرو ،
وحمة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف (مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ) أي : متعظم
عن الإيمان . فقصد فرعونُ قتل موسى ، فقال حينئذ (رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ...)

وفي الآل هاهنا قولان .

أحدهما : [أنه] بمعنى الأهل والنسب ؛ قال السدي ومقاتل : كان ابن عم فرعون ، وهو المراد بقوله : (وجاء رجلٌ مِنْ أفعى المدينة يسمى) [القصص : ٢٠] .

والثاني : أنه بمعنى القبيلة والمشيرة ؛ قال قتادة ومقاتل : كان قبطياً . وقال قوم : كان إسرائيلياً ، وإنما المعنى : قال رجل مؤمن بكنتم إيمانه من آل فرعون ؛ وفي اسمه خمسة أقوال .

أحدها : حزيل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : حبيب ، قاله كعب . والثالث : سمعون ، بالسين المهملة ، قاله شعيب الجبائي . والرابع : جبريل ^(١) . والخامس : شمعان ، بالشين المعجمة ، روى عن ابن إسحاق ، وكذلك حكى الزجاج « شمان » بالشين ، وذكره ابن مأكولا بالشين المعجمة أيضاً . والأكثرون على أنه آمن بموسى لما جاء . وقال الحسن : كان مؤمناً قبل مجي موسى ^(٢) ، وكذلك امرأة فرعون . قال مقاتل : كنتم إيمانه من فرعون مائة سنة .

قوله تعالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ (أَي : لَأَنْ يَقُولَ (رَبِّيَ اللَّهُ) وهذا استفهام إنكار (وقد جاءكم بالبينات) أي : بما يدل على صِدقه ، (وَإِنْ يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُهُ) أي : لا يضركم ذلك (وَإِنْ يَكُ صادقاً يُصِيبْكُمْ بِمَعْصُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) من العذاب . وفي « بعض » ثلاثة أقوال .

(١) في الأصل : جبرك ، والتصحيح من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، قال : قال السدي : كان ابن عم فرعون ، قال : ويقال : إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ، لأن فرعون انقلب لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، قال : ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يماجل بالعقوبة لأنه منهم .

أحدها : أنها بمعنى « كَلَّ » ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للبيد :
 تَرَاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَمْتَلِكْ بَعْضَ النَّفُوسِ حَامِلَهَا ^(١)
 أراد : كَلَّ النَّفُوسَ .

والثاني : أنها صِلَةٌ ؛ والمعنى : يُصِيبُكُمُ الَّذِي يَمِدُّكُمْ ، حُكِيَ عَنِ الْبَيْتِ .
 والثالث : أنها على أصلها ، ثم في ذلك قولان . أحدهما : أنه وعدهم النجاة
 إن آمنوا ، والهلاك إن كفروا ، فدخل ذكر البعض لأنهم على أحد الحالين .
 والثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكهم
 في الدنيا بعض الوعد ، ذكرها الماوردي .

قال الزجاج : هذا باب من النظر يذهب فيه المناظر إلى إلزام الحُجَّةِ
 بأيسر ما في الأمر ، وليس في هذا نفي إصابة الكل ، ومثله قول الشاعر :
 قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ
 وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَعْجِلِ الرَّئِلُ ^(٢)

ولمَّا ذكر البعض لِيُوجِبَ الكلَّ ، لأن البعض من الكل ، ولمكن القائل
 إذا قال : أَقَلُّ مَا يَكُونُ الْمُتَأَنِّي إِدْرَاكَ بَعْضِ الْحَاجَةِ ، وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ الْمُسْتَعْجِلِ الرَّئِلُ ،
 فَقَدْ أَبَانَ فَضْلَ الْمُتَأَنِّي عَلَى الْمُسْتَعْجِلِ بِمَا لَا يَقْدِرُ الْخَطْمُ أَنْ يَدْفَعَهُ ، فَكَانَ
 الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُمْ : أَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي صِدْقِهِ أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَمِدُّكُمْ ،
 وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ هَلَاكُكُمْ ؛ قَالَ : وَأَمَّا بَيْتُ لَبِيدٍ ، فَانْهَ أَرَادَ بِبَعْضِ النَّفُوسِ :
 نَفْسَهُ وَحْدَهَا .

(١) البيت للبيد بن ربيعة المازني من مملته ، وهو في ديوانه : ٣١٣ ، و « مجاز القرآن » :

٢٠٥/٢ ، و « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » : ٥٧٣ ، و « مختار الشر الجاهلي » :
 ٣٩٤/٢ ، و « اللسان » : بعض .

(٢) البيت للقطامي ، وهو في « البحر المحيط » : ٤٦١/٧ .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي) أي : لا يوفق للصواب (من هو مُسْرِفٌ) وفيه قولان . أحدهما : أنه المشرك ، قاله قتادة . والثاني : أنه السفّاك للدم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ) أي : عَالِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ (فَنَنْصُرُنَا) أي : مَنْ يَنْصُرُنَا (مَنْ بَأْسَ اللَّهِ) أي : مَنْ عَذَابِهِ ؛ والمعنى : لا تترعّضوا للعذاب بالكذب وقتل النبي ؛ فقال فرعونُ عند ذلك : (مَا أُرِيكُمْ) من الرأي والتصيحة (إِلَّا مَا أَرَى) لنفسي (وما أهدِيكم) أي : أدعوكم إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى فِي تَكْذِيبِ مُوسَى وَالْإِيمَانِ بِي ، وهذا يدلُّ على أنه انقطع عن جواب المؤمنين . (وقال الذي آمَنَ يَأْقُومُ لِيَأْتِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) قال الزجاج : أي : مِثْلَ يَوْمِ حَزْبِ حَزْبٍ ؛ والمعنى : أخاف أن يُقيموا على كفركم فينزلَ بكم من العذاب مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ رُسُلَهُمْ ^(١) .

قوله تعالى : (يَوْمَ التَّنَادِ) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « التَّنَادِ » بغير ياء . وأثبت الياء في الوصل والوقف ابن كثير ، ويعقوب ، وافقه أبو جعفر في الوصل . وقرأ أبو بكر الصديق ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، وأبو العالية ، والضحاك : « التَّنَادِ » بتشديد الدال . قال الزجاج : أمّا إثبات الياء فهو الأصل ، وحذفها حسن جميل ،

(١) قال ابن كثير : هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأمر الله تعالى في الدنيا والآخرة (فقال يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) أي : الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حلَّ بهم بأمر الله وما ردّه عنهم رادٌّ ، ولا سده عنهم صادٌّ (وما الله يريد ظلماً للعباد) أي : إنا أهلُكم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ، ثم قال : (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) يعني يوم القيامة . اهـ .

لأن الكسرة تدلُّ على الياء ، وهو رأس آية ، وأواخر هذه الآيات على الدال ، ومن قرأ بالتشديد ، فهو من قولهم : ندَّ فلان ، وندَّ البعير : إذا هرب على وجهه ، ويدل على هذا قوله : « يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ » وقوله : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ) [عبس : ٣٤] ؛ قال أبو علي : معنى الكلام : إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد . قال الضحاك : إذا سمع الناس زفير جهنم وشهيقها ندوا وافراراً منها في الأرض ، فلا يتوجهون قطراً من أقطار الأرض إلا رأوا ملائكة ، فيرجعون من حيث جاؤوا . وقال غيره : يؤمر بهم إلى النار فيفرون ولا عاصم لهم . فأمّا قراءة التخفيف ، فهي من التداء ، وفيها المفسرين أربعة أقوال .

أحدها : أنه عند نفخة الفزع ينادي الناس بعضهم بعضاً ، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يأمرُ الله عز وجل إسرأفيلَ بالنَّفخة الأولى فيقول : انفُخْ نَفْخَةَ الفزع ، فيفزعُ أهلُ السموات والأرض إلا من شاء الله ، فتُسِيرُ الجبالُ ، وتُرجُّ الأرض ، وتذْهَلُ المراضعُ ، وتضع الحواملُ ، ويولِّي الناسُ مُدْبِرِينَ ينادي بعضهم بعضاً [وهو قوله : « يَوْمَ التَّناد »] » (١) .

(١) هذا جزء من حديث الصور الطويل ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في « تفسيره » - عند قوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور) من سورة (الأنعام : ٧٣) - بطوله من رواية الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه « المطولات » ، ثم نقل عن الطبراني قوله عقب الحديث : هذا حديث مشهور ، وهو غريب جداً ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبي حاتم الرازي ، وعمرو بن علي الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك ، وقال ابن عدي : أحاديثه كلها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء ، قال ابن كثير : قلت : وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة ، وأما سياقه فغريب جداً ، ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجمله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك ، —

والثاني : أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضاً كما ذكر في (الأعراف : ٤٤ ، ٥٠) ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنه قولهم : يا حسرتنا يا ويلتنا ، قاله ابن جريج .
والرابع : أنه ينادى فيه كل أناس بامامهم بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء .
قوله تعالى : (يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ) فيه قولان . أحدهما : هرباً من النار . والثاني : أنه انصرفهم إلى النار .
قوله تعالى : (مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِيقَاتٍ) أي : من مانع .
قوله تعالى : (ولقد جاءكم يوسف) وهو يوسف بن يعقوب ، ويقال : إنه ليس به ، وليس بشيء .

قوله تعالى : (مِّنْ قَبْلُ) أي : مِّنْ قَبْلُ موسى (باليَتَاتِ) وهي الدلالات على التوحيد ، كقوله : (أَرَأَيْتُمْ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ . . .) الآية [يوسف : ٣٩] ، وقال ابن السائب : اليَتَاتِ : تعبير الرؤيا وشق القميص ، وقيل : بل بعثه الله تعالى بعد موت ملك مصر إلى القبط .

قوله تعالى : (فَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ) أي : من عبادة الله وحده (حَتَّى إِذَا هَلَكَ) أي : مات (مُقَلِّتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِثْلَهُ) بعده رسولاً) أي : لأنكم أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد لإيجاب الحجبة عليكم (كذلك)

— ثم قال ابن كثير : سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج الزمعي يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالأشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فأنه أعلم . اهـ . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٣٣٩/٥ - ٣٤٢ بطوله ، وزاد نسبه لمبد بن حميد ، وعلي بن سعيد في كتاب « الطاعة والمعصيان » ، وأبي يعلى ، وأبي الحسن القطان في « المطولات » ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي موسى المديني في « المطولات » ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، والبيهقي في « البعث والنشور » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أي : مثل هذا الضلال (يضل الله من هو مسرف) أي : مشرك (مرتاب) أي : شاك في التوحيد وصدق الرسل (١) .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾

قوله تعالى : (الذين يجادلون) قال الزجاج : هذا تفسير المسرف المرتاب ، والمعنى : هم الذين يجادلون في آيات الله . قال المفسرون : يجادلون في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان ، أي : بغير حجة أتتهم من الله .

(كِبَرٌ مَقْتًا) أي : كبر جدالهم مقْتًا عند الله وعند الذين آمنوا ، والمعنى : يَمَقْتُهُمُ اللَّهُ وَيَمَقْتُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بذلك الجدال .

(كذلك) أي : كما طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا وجادلوا بالباطل ، يَطْبَعُ (على كل قلب متكبر) عن عبادة الله وتوحيده . وقد سبق بيان معنى الجبار

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، ولهذا قال تعالى : (فما زلت في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً) أي : يسم فقلتم طامعين : (لن يبعث الله من بعده رسولاً) وذلك لكفرهم وتكذيبهم (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أي : كحالكم هذا يكون حال من يضل الله لاسرافه في أماله وارتباب قلبه .

في (هود : ٥٩) . وقرأ أبو عمرو : « على كلِّ قلبٍ » بالتنوين ، وغيره من القراء السبعة يُخفِّفه . وقال أبو علي : المعنى : يطبع على جملة القلب من المتكبر . واختار قراءة الإضافة الزجاج ، قال : لأنَّ المتكبر هو الإنسان ، لا القلب .
فإن قيل : لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدّم القلبُ على الكلِّ ؛

فالجواب : أن هذا جائز عند العرب ، قال الفراء : تقدّم هذا وتأخره واحد ، سمعتُ بعض العرب يقول : هو يرَجِّل شعره يومَ كلِّ جمعة ، يريد : كلَّ يوم جمعة ، والمعنى واحد . وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « على قلبِ كلِّ متكبرٍ » بتقديم القلب .

قال المفسرون : فلما وعظ المؤمنُ فرعونَ وزجره عن قتل موسى ، قال فرعونُ لوزيره : (ياهامانُ ابنِ لي صرّحاً) وقد ذكرناه في (القصص : ٣٨) .
قوله تعالى : (لعلِّي أبلغَ الأسبابَ ، أسبابَ السموات) قال ابن عباس وقتادة : يعني أبوابها . وقال أبو صالح : طرقها . وقال غيره : المعنى : لعلِّي أبلغُ الطُّرُق من سماءٍ إلى سماءٍ . وقال الزجاج : لعلِّي أبلغُ ما يؤدِّني إلى السموات . وما بعد هذا مفسَّر في (القصص : ٣٨) ^(١) إلى قوله : (وكذلك) أي : ومثلاً ما وصفنا (زَيْنَ لفرعونَ سُوءَ عمله وَصُدَّ) عن سبيل الهدى . قرأ عاصم ، وحزمة والكسائي : « وَصُدَّ » بضم الصاد ، والباقون بفتحها ، (وما كَيْدُ فرعونَ) في إبطال آيات موسى (إلّا في ثَبَابٍ) أي : في بطلان وخسران .

(١) قال ابن كثير : بقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وقرّده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبيّن له صرّحاً - وهو القصر العالي المنيف الشاهق - وكان انخاضه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى : (فأوفد لي ياهامان على الطين فأجعل لي صرّحاً) .

﴿ وَقَالَ السَّيِّدُ آمَنَ يَأْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ .
يَأْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ .
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ
أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
بَغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ثم عاد الكلامُ إلى نصيحة المؤمن لقومه ، وهو قوله : (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ
سَبِيلَ الرَّشَادِ) أي : طريق الهدى ، (يَأْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) يعني
الحياة في هذه الدار متاع يُتَمَتَّعُ بها أياماً ثم تنقطع (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)
التي لا زوال لها (١) .

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً) فيها قولان . أحدهما : أنها الشَّرْك ، ومثلها جهنم ،
قاله الآكثرون . والثاني : المعاصي ، ومثلها : العقوبة بمقدارها ، قاله أبو سليمان الدمشقي .
فلى الأول ، العمل الصالح : التوحيد ، وعلى الثاني ، هو [على] الإطلاق .
قوله تعالى : (فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يَدْخُلُونَ »
بضم الياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : بالفتح ، وعن عاصم كالقراءتين .
وفي قوله : (بغير حساب) قولان . أحدهما : أنهم لا نَبِيْعَةٌ عليهم فيما يُعْطَوْنَ
في الجنة ، قاله مقاتل . والثاني : أنه يُصَبُّ عليهم الرِّزْقُ صَبًّا بغير تقدير ، قاله
أبو سليمان الدمشقي .

(١) قال ابن كثير : يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطنى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأهل
فقال لهم : (يَأْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) لا كما كذب فرعون في قوله : (وما أهديكُم
إلا سبيل الرشاد) ثم زهَّدَهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدَّتهم عن التصديق
برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام (فقال يَأْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) أي : قليلة
زائلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) أي : الدار التي
لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظن عنها إلى غيرها ، بل ، إما نعيم ، وإما جحيم . اهـ .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْمَعْرِزِ الْفَقَارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . قَوْلُهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَامَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ) أي : مالكم ، كما تقول : مالي أراك حزينا ، معناه : مالك ، ومعنى الآية : أخبروني كيف هذه الحال ، أدعوكم (إلى النجاة) من النار بالإيمان ، (وتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) أي : إلى الشِّرْك الذي يوجب النار ؛ ثم فسّر الدَّعْوَتَيْن بما بعد هذا .

ومعنى (ليس لي به عِلْم) أي : لا أعلم هذا الذي ادَّعَوْهُ شريكا له . وقد سبق بيان ما بعد هذا [البقرة : ١٢٩ ، طه : ٨٢] إلى قوله : (ليس له دعوة) وفيه قولان . أحدهما : ليس له استجابة دعوة ، قاله السدي . والثاني : ليس له شفاعة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ) أي : مَرَجِعْنَا ؛ والمعنى أنه يجازينا بأعمالنا . وفي المُسْرِفِينَ قولان قد ذكرناهما عند قوله : (مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) [غافر : ٢٨] .

قوله تعالى : (فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ) وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ،

زاد السير ٧ م (١٥)

وأبو عمران الجوني ، وأبو رجاء : « فَسْتَذَكِّرُونَ » بفتح الذال وتخفيفها وتشديد الكاف وفتحها ؛ وقرأ أبي بن كعب ، وأيوب السخيتاني : بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً . أي : إذا نزل المذاب بكم ، ما أقول لكم في الدنيا من النصيحة ١ : (وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) أي : أَرُدْهُ ^(١) ، وذلك أنهم تواعدوه لمخالفتِهِ دينَهُمْ (إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) أي : بأوليائه وأعدائه .

ثم خرج المؤمن عنهم ، فطلبوه فلم يَفْقَدُوا عليه ، ونجا مع موسى لما عبر البحر ، فذلك قوله : (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُورًا) أي : ما أرادوا به من الشرِّ (وَهَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ) لما لجوا في البحر (سَوْءُ الْمَذَابِ) قال المفسرون : هو الفرق ^(٢) .

قوله تعالى : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) ^(٣) قال ابن مسعود

(١) قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه : فستذكرون أيها القوم - إذا عايتم عقاب الله قد حلَّ بكم ، ولقيتم ما لقيتموه - صديقاً ما أقول ، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار ، ثم قال : وقوله : (وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) يقول : وأسلمت أمري إلى الله وأجعله إليه وأتوكل عليه فإنه الكافي من توكل عليه . اه .
(٢) قال ابن كثير : (وَهَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سَوْءُ الْمَذَابِ) وهو الفرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ، ولهذا قال : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) أي : أشدَّ ألماً ، وأعظمه نكالاً .

(٣) قال ابن كثير : وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ، وهي قوله تعالى : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) قال : ولكن هنا سؤال ، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية ، وقد استدلو بها على عذاب القبر في البرزخ ، وقد قال الإمام أحمد : ثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - ثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - ثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وقال الله -

— عذاب القبر ، قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : لا ، من زعم ذلك ؟ قالت : هذه اليهودية لا أسمع منها شيئاً من المعروف إلا قالت : وقال الله عذاب القبر ، قال ﷺ : كذبت يهودية ، وم على الله أكذب ، لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محرّجاً عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكم كثير وضحكم قليلاً ، أيها الناس استميدوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » قال : وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ، ولم يخرجاه ، قال : وروى أحمد ومسلم : ثنا يزيد ، ثنا صفيان ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألتها امرأة يهودية فأعطتها ، فقالت لها : وقال الله من عذاب القبر ، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك ، فلما رأته النبي ﷺ قالت له ، فقال ﷺ : « لا » ، قالت عائشة رضي الله عنها : ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك : « وإنه أوحى إليّ أنكم تختفون في قبوركم » ، قال : وهذا أيضاً على شرطها .

قال : فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ قال : والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشيّاً في البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال نالمتها بأجسادها في القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألّمه بسببه ، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . قال : وقد يقال : إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يمدّب المؤمن في قبره بذنب ، قال : وما يدل على ذلك ما رواه الامام أحمد : ثنا عثمان بن عمر ، ثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول : أشمرت أنكم تختفون في قبوركم ؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال : « إنما يفتن يهود » ، قالت عائشة رضي الله عنها : فلبنا لبالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشمرت أنه أوحى إليّ أنكم تختفون في القبور ؟ » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : فكانت رسول الله ﷺ بعدُ يستميد من عذاب القبر ، قال : وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد ، وحرمة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به . —

وابن عباس : إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يُمرصون على النار كل يوم مرتين فيقال : يا آل فرعون هذه داركم . وروى ابن جرير قال : حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير ، قال : حدثنا حماد بن محمد البلخي قال : سمعت الأوزاعي ، وسأله رجل ، فقال : رأينا طيوراً ^(١) تخرج من البحر فتأخذ ناحية الغرب بيضاً ، قَوْجاً قَوْجاً ، لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً ، قال : وفطنتهم إلى ذلك ، قال : نعم ، قال : إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يُمرصون على النار غدواً وعشيّاً ، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سوداء ، فينبئت عليها من الليل ريش بيض ، وتتناثر السود ، ثم تغدو ويمرصون ^(٢) على النار غدواً وعشيّاً ، [ثم ترجع إلى وكورها] ^(٣) ، فذلك دأبها ^(٤) في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : (ادخلوا

— قال : وقد يقال : إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ، قال : ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها ، فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه ، استأذ منه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . قال : وقد روى البخاري من حديث شعبة عن أنس عن ابن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت : نمود بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ، فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضي الله عنها : فإرأيت رسول الله ﷺ بعد صلي صلاة إلا تموء من عذاب القبر .

قال ابن كثير : فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر ، وقرر عليه ، قال : وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي ، قال : فلملها قضيتان ، والله سبحانه أعلم ، قال : وأحدث عذاب القبر كثيرة جداً .

- (١) في الأصل : « طير » والتصويب من الطبري .
- (٢) في الأصل : « يمرصون » بنير واو ، والتصويب من الطبري .
- (٣) زيادة من الطبري .
- (٤) في الأصل : « دأبهم » والتصويب من الطبري .

آلَ فرعونَ أَشدَّ العذابِ) . وقد روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَنِ [أَهْل] ^(١) الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَنِ [أَهْل] ^(٢) النَّارِ ، بِقَالَ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَمُوتَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٣) .

وهذه الآية تدل على عذاب القبر ، لأنه يَنْ مالهَم في الآخرة فقال : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، [وأبو عمرو] ، وأبو بكر وأبان عن عاصم : « السَّاعَةُ أَدْخِلُوا » بالضم وضم الخاء على معنى الأمر لهم بالدخول ، والابتداء على قراءة هؤلاء بضم الالف . وقرأ الباقون : بالقطع مع كسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بادخالهم ، وهؤلاء يبتدون بفتح الالف .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَبِيًّا فَبَلَ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . إِنَّا أَنْتَضَرُّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ) المعنى : واذكر لقومك يا محمد

(١) زيادة من البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري : ١٩٣/٣ ، ومسلم : ٢١٩٩/٤ .

إذ يختصمون ، يعني أهل النار ، والآية مفسرة في [سورة] (إبراهيم : ٢١) ،
والذين استكبروا هم القادة . ومعنى (إنا كلُّ فيها) أي : نحن وأنتم ، (إن الله
قد حَكَمَ بين المباد) أي : قضى هذا علينا وعليكم ^(١) . ومعنى قول المخزنة لهم :
(فادْعُوا) أي : نحن لاندعو لكم (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أي :
إن ذلك يَبْطُل ولا يَنْتَفَع ^(٢) .

(إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : أن ذلك باثبات حُججهم . والثاني : باهلاك عدوهم : والثالث : بأن العاقبة
تكون لهم . وفصلُ الخطاب : أن نصرهم حاصل لأبد منه ، فتارة يكون باعلاء أمرهم
كما أعطى داود وسليمان من الملوك ما فورا به كل كافر ، وأظهر محمداً ﷺ على مكذبيه ،
وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بأنحاء الرسل وإهلاك أعدائهم ، كما فعل بنوح
وقومه وموسى وقومه ، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بعد وفاة الرسل ،
كتنسليطه بختنصر على قَتَلَةِ يحيى بن زكريا . وأما نصرهم يوم يقوم الأشهاد ،
فإن الله منجيهم من العذاب ، وواحد الأشهاد شاهد ، كما أن واحد الأصحاب صاحب .
وفي الأشهاد ثلاثة أقوال .

أحدها : الملائكة ، شهدوا للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب ، قاله
بجاهد ، والسدي . قال مقاتل : وهم الحَفَظَةُ من الملائكة .

(١) قال ابن جرير الطبري (إن الله قد حكم بين المباد) بفصل قضائه ، فأسكن أهل
الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون ، ولا هم مما فيه من
النعم منتقلون . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : وقوله : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) يقول : قد دَعَوْا ،
وما دعاؤهم إلا في ضلال ، لأنه دعاء لا يفهم ولا يستجاب لهم ، بل يقال لهم : اخشوا فيها
ولا تكلّمون . اهـ . وقال ابن كثير : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) إلا في ذهب
لا يقبل ولا يستجاب . اهـ .

والثاني : الملائكة والأنبياء ، قاله قتادة .

والثالث : أنهم أربعة : الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح ، قاله ابن زيد^(١) .

قوله تعالى : (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تَنْفَعُ » بالتاء ، والباقون بالياء ؛ لأن الممذرة والاعتذار بمعنى (الظالمين ممذرتهم) أي : لا يقبل منهم إن اعتذروا (ولهم اللعنة) أي : البعد من الرحمة . وقد يثنأ في (الرعد : ٢٥) أن « لهم » بمعنى « عليهم » ، و (سوء الدار) : النار .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَنْبِيَاءِ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ . إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِفَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ فَايَلَا مَا تَذَكَّرُونَ . إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) قال ابن كثير : (ويوم يقوم الأشهاد) أي : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .
 اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ
 فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
 فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي
 وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَرَابٍ
 ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا
 أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَبَلَّغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ
 وَمُيِّتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *

(ولقد آتينا موسى الهدى) من الضلالة ، يعني التوراة (وأوردنا
 بني إسرائيل الكتاب) بعد موسى ، وهو التوراة أيضاً في قول الأكثرين ؛ وقال
 ابن السائب : التوراة والإنجيل والزبور . والتذكير بمعنى التذكير .
 (فاصبر) على أذام (إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) في نصرته ، وهذه الآية في
 هذه السورة في موضعين [غافر : ٥٥ ، ٧٧] ، وقد ذكروا أنها منسوخة بآية السيف ^(١) .
 ومعنى « سَبَّح » : صَلَّى .

وفي المراد بصلوة العشي والإبكار ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس .

(١) قال ابن كثير : (فاصبر) أي : يا محمد (إن وعد الله حق) أي : وعدناك أنا سنملي
 كلمتك ونحمل العاقبة لك ولن أنبئك ، والله لا يخلف الميعاد ، قال : وهذا الذي أخبرناك به حق
 لا مرية فيه ولا شك . اهـ .

والثاني : صلاة الغداة وصلاة العصر ، قاله قتادة .

والثالث : أنها صلاة كانت قبل أن تُفرض الصلوات ، ركعتان عُدوة ،
وركعتان عشيّة ، قاله الحسن .

وما بعد هذا قد تقدم آنفاً [المؤمن : ٤] إلى قوله : (إن في صدورهم
إلا كِبَرٌ . . .) الآية نزلت في قريش^(١) ؛ والمعنى : ما يحملهم على تكذيبك
إلا ما في صدورهم من التكبر عليك ، وما هم بياثني مقتضى ذلك الكِبَر ، لأن
الله تعالى مُدْلِسهم ، (فاستعذ بالله) من شرهم ؛ ثم نبّه على قدرته بقوله :
(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) أي : من إعادتهم ،

(١) قال البغوي : قال أهل التفسير : نزلت في اليهود ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ :
إن صاحبنا المسيح بن داود - بنون الدجال - يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر
ويرد الملك إلينا ، قال الله تعالى : (فاستعذ بالله) من فتنة الدجال (إنه هو السميع البصير) . اهـ .
قال السيوطي في « الدر » ٣٥٣/٥ : أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن
أبي العالية رضي الله عنه قال : إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن الدجال يكون منا في
آخر الزمان ، ويكون من أمره ، فظنوا أمره وقالوا : يصنع كذا ، فأزل الله : (إن الذين
يجادلون في آيات الله بغير سلطان أفهام إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالنيه) قال : لا يبلغ الذي
يقول ، (فاستعذ بالله) فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) الدجال . اهـ . قال ابن كثير : وقال كعب وأبو العالية : رأت هذه
الآية في اليهود (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أفهام إن في صدورهم إلا كبر
ما هم ببالنيه) قال أبو العالية : وذلك أنهم ادّعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض ،
فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً أن يستعيذ من فتنة الدجال ، ولهذا قال عز وجل : (فاستعذ بالله
إنه هو السميع البصير) قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وفيه تشيّف بريد وإن كان قد
رواه ابن أبي حاتم في كتابه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ . ولذلك قال المصنف : نزلت في
قريش ، وسيذكر بعد قليل عن مقاتل أنها نزلت في اليهود ، قال : وإلى نحو هذا ذهب
أبو العالية ، ثم قال : والأول أصح ، يعني أنها نزلت في قريش ، والله أعلم .

وذلك لكثرة أجزائها وعظم جرمها ^(١) ، فنبههم على قدرته على إعادة الخلق (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني الكفار حين لا يستدلون بذلك على التوحيد . وقال مقاتل : عظممت اليهود الدجال وقالوا : إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان وله سلطان ، فقال الله : (إن الذين يجادلون في آيات الله) لأن الدجال من آياته ، (بغير سلطان) أي : [بغير] حجة ، فاستعذ بالله من فتنة الدجال . قال : والمراد بـ « خلق » الناس : الدجال ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية ، والاول أصح ^(٢) .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (ادعوني أستجب لكم) فيه قولان . أحدهما : وحّدوني واعبدوني أثبتكم ، قاله ابن عباس . والثاني : سلوني أعطكم ، قاله السدي ^(٣) .

(إن الذين يستكبرون عن عبادتي) فيه قولان . أحدهما : عن توحيدي ، والثاني : عن دعائي ومسألتي (سيدخلون جهنم) ^(٤) قرأ ابن كثير ، وأبو بكر

(١) الجرم ، بالكسر : الجسد ، والجمع أجرام ، مثل حمل وأحمال .

(٢) وهو أنها زلت في قریش .

(٣) قال ابن كثير : هذا من فضله - تبارك وتعالى - وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يا رب ، رواه ابن أبي حاتم ، قال : وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يفضب إن تركبت سؤاله وبني آدم حين يسأل يفضب

(٤) وروى الامام أحمد في « المسند » : ٢٧١/٤ عن الثيمان بن بشير رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : (ادعوني أستجب لكم) الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال . والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٥٥/٥ ، وزاد نسبه لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حيد ، —

عن عاصم ، وعباس بن الفضل ^(١) عن أبي عمرو : « سَيُدْخَلُونَ » [بضم الياء] ،
والباقون يفتحها . والله آخر : الصغار .

وما بعد هذا قد سبق في مواضع متفرقة [بونس : ٦٧ ، القصص : ٧٣ ، الأنعام :
٩٥ ، النمل : ٦١ ، الأعراف : ٥٤ ، ٢٩ ، الحج : ٥] إلى قوله : (وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى)
وهو أجل الحياة إلى الموت (وَلَكُمْ تَعْقِلُونَ) توحيد الله وقدرته .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَى يُصْرَفُونَ .
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .
إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي النَّحِيمِ ثُمَّ فِي
النَّارِ يُسْجَرُونَ . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ . ذَلِكَمُ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . أَدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ .
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ

— والبخاري في « الأدب المفرد » ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ،
وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » ، ، والبيهقي في
« شعب الإيمان » عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(١) قال ابن الجزري في « طبقات القراء » : العباس بن الفضل بن عمرو بن عبيد بن الفضل
ابن حنظلة أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري ، قاضي الموصل ، أستاذ حاذق ثقة ، قال
الحافظ أبو العلاء : وكان من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة .

مَنْ لَمْ تَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ .
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَكْسَبُونَ .
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى الثَّفَلِكِ تَحْمِلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ .
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .
فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ) يعني القرآن ، يقولون : ليس
من عند الله ، (أُنْتَى يُضَرِّفُونَ) أي : كيف صُرفوا عن الحق إلى الباطل ١٢
وفيه قولان . أحدهما : أنهم المشركون ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم القدرية ،
ذكره جماعة من المفسرين . وكان ابن سيرين يقول : إن لم تكن نزلت في القدرية
فلا أدري فيمن نزلت (١) .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، والضحاك ،
وابن عمر ، وابن أبي عتبة : « والسلاسل يسحبون » بفتح اللام والياء . وقال
ابن عباس : إذا سحبوها كان أشد عليهم .

(١) « الطبري » : ٨٣/٢٤ من رواية سفيان عن داود بن أبي هند عن محمد بن سيرين .

قوله تعالى : (يُسْجَرُونَ) قال مجاهد : توقد بهم النار فصاروا وقودها .
قوله تعالى : (أين ما كنتم نشرِكونَ) مفسر في (الأعراف : ١٩٠) .
وفي قوله : (لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا) فولان .
أحدهما : أنهم أرادوا أن الأصنام لم تكن شيئاً ، لأنها لم تكن تضر ولا تنفع ،
وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنهم قالوه على وجه الجحود ، قاله أبو سليمان الدمشقي ،
(كذلك) أي : كما أضلَّ الله هؤلاء يُضِلُّ الكافرين .
(ذلكم) العذاب الذي نزل بكم (بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق)
أي : بالباطل (وبما كنتم تَمْرَحُونَ) وقد شرحنا المَرَحَ في (بي إسرائيل : ٣٧) .
وما بعد هذا قد تقدّم بتمامه [النحل : ٢٩ ، يونس : ١٠٩ ، النساء : ١٦٤] إلى قوله :
(وما كان لرسول أن يأتيَ بآية إلا بأذن الله) وذلك لأنهم كانوا يقرحون عليه
الآيات (فاذا جاء أمرُ الله) وهو قضاؤه بين الأنبياء وأممهم ، و (المبطلون) :
أصحاب الباطل .

قوله تعالى : (وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) أي : حوائجكم في البلاد ^(١) .
قوله تعالى : (فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ) استفهام توبيخ ^(٢) .
قوله تعالى : (فَاغْنِ عَنْهُمْ) في « ما » فولان . أحدهما : أنها للذي .

(١) قال ابن جرير : وقوله : (وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) يقول : ولتبلغوا بالحُمولة
على بعضها - وذلك الأبل - حاجة في صدوركم لم تكونوا بالتيها لولا هي إلا بشق الأنفس ،
كما قال جل ثناؤه : (وَتَحْمِلُ أَمْثَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْتِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) . اهـ .
(٢) قال ابن جرير : يقول : فأني حجاج الله التي بربكم أيها الناس في السماء والأرض
تنكرون صحتها فتكذبون من أجل فسادها توحيد الله وتدعون من دونه إلهاً . اهـ .

والثاني : [أنها] للاستفهام ، ذكرهما ابن جرير ^(١) .

قوله تعالى : (فرحوا بما عندهم من العلم) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : [أنهم] الأئمة المكذبة ، قاله الجمهور ؛ ثم في معنى الكلام قولان .
أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن تُبْعَثَ ولن نُحَاسَبَ ، قاله مجاهد .
والثاني : فرحوا بما كان عندهم أنه علم ^(٢) ، قاله السدي .

والقول الثاني : أنهم الرسل ؛ والمعنى : فرح الرسل لما هلك المكذبون
ونَجَّوْا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقُه ، حكاه أبو سليمان وغيره .
قوله تعالى : (وحق بهم) يعني بالمكذبين المذاب الذي كانوا به يستهزؤون ^(٣) .
وبالأس : المذاب . ومعنى (سُنَّةَ الله) : أنه سَنَ هذه السُنَّة في الأئمة ،
أي : أن إيمانهم لا ينفعهم إذا رأوا المذاب ، (وخسر هنالك الكافرون) .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الأئمة المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حلَّ بهم
من المذاب الشديد مع شدة قوام وما آثروه في الأرض وجموه من الأموال ، قال :
فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا ردة عنهم ذرة من بأس الله ، قال : وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل
بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستنصتوا
بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

(٢) الذي في الطبري وابن كثير عن السدي : (فرحوا بما عندهم من العلم) بجهالتهم .

(٣) قال ابن كثير : (وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون) أي يكذبون ويستبدون وقوعه .
ثم قال في تمة الآية : (فلما رأوا بأسنا) أي : عاينوا وقوع المذاب بهم (قالوا آمنا بالله وحده
وكفرنا بما كنا به مشركين) أي : وحدثوا الله عز وجل ، وكفروا بالطاغوت ، وكن
حيث لا تثقال الثرات ولا تنفع المذرة ، قال : وهذا كما قال فرعون حين أدركه الفرق :
(آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) قال تبارك وتعالى :
(آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أي : فلم يقبل الله منه ، لأنه قد استجاب
لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال : (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا —

فان قيل : كأنهم لم يكونوا خاسرين قبل ذلك ؟
 فعنه جوابان . أحدهما : أن « خسر » بمعنى « هلك » ، قاله ابن عباس .
 والثاني : أنه إنما يسن لهم خُسْرانهم عند نزول العذاب ، قاله الزجاج .



— العذاب الأليم) قال : وهكذا قال تعالى ها هنا : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي
 قد خلت في عباده) أي : هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاناة العذاب أنه لا يقبل ،
 قال : ولهذا جاء في الحديث : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ » أي : فإذا فرغ وبلغت
 الروح الحنجرة وعين الملك ، فلا توبة حينئذ ، قال : ولهذا قال تعالى : (وخسر هنالك الكافرون) اهـ .

سورة السجدة

مَكِّيَّةٌ [كُلُّهَا] بِاجْمَاعِهِمْ ، وَيُقَالُ لَهَا : سَجْدَةُ الْمُؤْمِنِ ، وَيُقَالُ لَهَا : الْمَصَائِحُ ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ . تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ مُفْرَافًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ فِي أُكُنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا
وَقُرْءٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ
وَاسْتَغْفِرُواهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

قوله تعالى : (تَنْزِيلٌ) قال الفراء : يجوز أن يرتفع « تَنْزِيلٌ » بـ (حَمْدٌ) ،
ويجوز أن يرتفع باضمار « هذا » . وقال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » مبتدأ ، وخبره

(١) ويقال لها : فُصِّلَتْ .

« كِتَابٌ مُفَصَّلَاتٌ آيَاتُهُ » ، هذا مذهب البصريين . و (قرآنًا) منصوب على الحال ، المعنى : بُيِّنَتْ آيَاتُهُ في حال جَمْعِهِ ، (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أي : لِمَنْ يَعْلَمُ . قوله تعالى : (فَأَعْرِضْ أَكْثَرُكُمْ) يعني أهل مكة (فَمَنْ لَا يَسْمَعُونَ) تكبراً عنه ، (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ) أي : في أغطية فلا نفقه قولك . وقد سبق بيان « الأَكْثَةِ » و « الْوَكْرِ » في (الانعام : ٢٥) . ومعنى الكلام : إِنَّا فِي تَرْكِ الْقَبُولِ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ ، (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) أي : حاجزٌ في النَّحْلَةِ وَالذِّينِ . قَالَ الْأَخْفَشُ : و « مِنْ » هَاهُنَا لِلتَّوَكِيدِ .

قوله تعالى : (فاعْمَلْ) فيه قولان . أحدهما : اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون على إبطال أمرك . والثاني : اعملْ على دينك إنا عاملون على ديننا .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) أي : لولا الوحي لَمَّا دَعَوْتُكُمْ .

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ) أي : تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ ، وَاسْتَغْفِرُوا مِنَ الشَّرِكِ ^(١) .

قوله تعالى : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، والمعنى : لَا يَطْهَرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّرِكِ بِالتَّوْحِيدِ .

والثاني : لَا يُؤْمِنُونَ بِالزَّكَاةِ وَلَا يُقَرِّوْنَ بِهَا ، قَالَ الْحَسَنُ ، وَتَادَةَ .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين : (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ، لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ) أي : اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل (وَاسْتَغْفِرُوا) أي : لسالف الذنوب ، ثم قال : (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) أي : دمار لهم وهلاك عليهم .

والثالث : لا يزكّون أعمالهم ، قاله مجاهد ، والرابع .

والرابع : لا يتصدقون ، ولا يُنفقون في الطاعات ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والخامس : لا يُعطون زكاة أموالهم ، قال ابن السائب : كانوا يحجّون ويمترونها ولا يزكّون^(١) .

قوله تعالى : (غيرُ ممنون) أي : غير مقطوع ولا منقوص .

﴿ قُلْ أَنبِئْكُمْ لَتَكْفُرُنَّ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا : معناه : لا يؤدون زكاة أموالهم ، قال : وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وأن في قوله (وم بالآخرة هم كفرون) دليلاً على أن ذلك كذلك ، لأن الكفار الذين عتوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، فلو كان قوله : (الذين لا يؤتون الزكاة) مراد به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، لم يكن لقولهم : (وهم بالآخرة هم كفرون) معنى ، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة ، قال : وفي إتباع الله قوله : (وم بالآخرة هم كفرون) قوله : (الذين لا يؤتون الزكاة) ما ينسب عن الزكاة في هذا الموضع معنى بها زكاة الأموال . وقال ابن كثير : (وويل للشركين الذين لا يؤتون الزكاة) قال قتادة : الذين يمنون زكاة أموالهم ، قال : وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، قال : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد ، قال : وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تبارك وتعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : فأما الزكاة ذات النصب والمقادير ، فأما بيّتن أمرها بالمدينة ، قال : ويكون هذا جمعاً بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس ، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، والله أعلم . اهـ .

لِلنَّاسِ لَيْنٌ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿

قوله تعالى : (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) قال ابن عباس : في يوم الأحد والاثنين ، وبه قال عبد الله بن سلام ، والسدي ، والأكثرون . وقال مقاتل : في يوم الثلاثاء والأربعاء . وقد أخرج مسلم في أفرادهِ من حديث أبي هريرة قال : أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي ، فقال : « خَلَقَ اللهُ عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس » ، وهذا الحديث يخالف ما تقدّم ، وهو أصح (١) .

(١) ولفظ الحديث بتمامه عند مسلم ٤/٢١٤٩ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » . وهذا الحديث من أفراد مسلم كما ذكر المؤلف رحمه الله ، وقد رواه الإمام أحمد في « المسند » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذلك رواه النسائي في « التفسير » وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . وقال الحافظ ابن كثير عن هذا الحديث في « التفسير » ، بعد ما أورده : وهذا الحديث من غرائب « صحيح مسلم » وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ ، وجملوه من كلام كعب الأخبار ، وأن أبا هريرة سمعه من كعب الأخبار ، وإنا اشتبه على بعض الرواة فجملوه مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي . اهـ . والحديث سنده صحيح ، وعن صحيحه الشوكاني في « فتح القدير » ، وإنا تكلم عليه بعض العلماء من جهة مثله ، ورأوا أنه معارض للقرآن ، والذي صحح الحديث سنداً ومثلاً رأى أنه لا تعارض بينه وبين نص القرآن ، فإن القرآن ذكر أن الله تعالى خلق —

قوله تعالى : (وَتَجْمَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً) قد شرحناه في (البقرة : ٢٢) و (ذلك) الذي فعل ما ذكر (ربُّ العالمين) .

(وجعل فيها رواسي) أي : جبلاً نوابت من فوق الأرض ، (وبارك فيها) بالأشجار والثمار والحبوب والأنهار ، وقيل : البركة فيها : أن ينمي فيها الزرع ، فتخرج الحبة حبات ، والنواة نخلة (وقدَّر فيها أقواتها) قال أبو عبيدة : هي جمع قوت ، وهي الأرزاق وما يحتاج إليه .
والمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال .

أحدها : أنه شقَّق الأنهار وغرس الأشجار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه قسم أرزاق العباد والبهائم ، قاله الحسن .

والثالث : أقواتها من المطر ، قاله مجاهد .

والرابع : قدَّر لكل بلدة ما لم يحمله في الأخرى كما أن نياح اليمن لانصلح للإبل « اليمن » والهروية « هرة » ، يعيش بعضهم من بعض بالتجارة ، قاله عكرمة ، والضحاك .
والخامس : قدَّر البئر لأهل قنطرة ، والتَّمَر لأهل قنطرة ، والذرة لأهل قنطرة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (في أربعة أيَّام) أي : في تمة أربعة أيَّام . قال الأنخس : ومثله [أن] تقول : تزوجت أمس امرأة ، واليومَ تنتين ، وإحداها التي تزوجتها أمس . قال المفسرون : يعني : الثلاثاء والأربعاء ، وهما مع الأحد والإثنين أربعة أيَّام .

— السموات والأرض جميعاً في ستة أيام ، وخلق الأرض وحدها في يومين ، والحديث يثبت أن الله خلق ما في الأرض في سبعة أيام ، ويحتمل أن تكون هذه الأيام السبعة ، غير الأيام الستة التي ذكرها الله في خلق السموات والأرض ، وحينئذ لا تعارض ، وإنما الحديث فصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : (سواء) قرأ أبو جعفر : « سواء » بالرفع . وقرأ يعقوب ،
وعبد الوارث : « سواء » بالجر . وقرأ الباقر من المشرقة : بالنصب . قال الزجاج :
من قرأ بالخفض ، جعل « سواء » من صفة الأيَّام ؛ فالمعنى : في أربعة أيَّامٍ
مستويات تامَّاتٍ ؛ ومن نصب ، فعلى المصدر ؛ فالمعنى : استوت سواءً واستواءً ؛
ومن رفع ، فعلى معنى : هي سواء .

وفي قوله : (للسَّائِلِينَ) وجهان . أحدهما : للسَّائِلِينَ القوت ، لأنَّ كُلاًّ
يطلبُ القوت ويسأله . والثاني : لمن يسأل : في كم خُلِّقت الأرضُ ؛ فيقال :
خُلِّقت في أربعة أيَّامٍ سواء ، لازيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء) قد شرحناه في (البقرة : ٢٩) (وهي
دخان) وفيه قولان .

أحدهما : أنه لما خلق [الماء] أرسل عليه الريح فتار منه دخان فارتفع وسما ،
فسمَّاه سماء .

والثاني : أنه لما خلق الأرض أرسل عليها ناراً ، فارتفع منها دخان فسمَّاه .
قوله تعالى : (فقال لها وللأرض) قال ابن عباس : قال للسماء : أظْهيري
شمسكِ وقركِ ونجومك ، وقال للأرض : شقِّقي أنهاركِ ، وأخْرِجي ثماركِ ،
(طوعاً أو كَرْهاً) قالتا أتينا طائمين (قال الزجاج : هو منصوب على الحال ،
ولمَّا لم يقل : طائعات ، لأنَّهنَّ جَرَيْنِ بجرى مابِعَمَلٍ ويعيِّرُ ، كما قال في النجوم :
(وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس : ٤٠] ، قال : وقد قيل : أتينا نحن
وَمِنْ فِينَا طَائِمِينَ .

(فقضاهنَّ) أي : خلقهنَّ وصنعهنَّ ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ مُتَّبِعٌ (١)
معناه : عملها وصنعها .

قوله تعالى : (في يومين) قال ابن عباس وعبد الله بن سلام : وهما يوم الخميس
ويوم الجمعة . وقال مقاتل : الأحد والاثنين ، لأن مذهبه أنها خلقت قبل الأرض .
وقد بينا مقدار هذه الأيام في (الأعراف : ٥٤) .

(وأوحى في كل سماء أمرها) فيه قولان . أحدهما : أوحى ما أراد ، وأمر
بما شاء ، قاله مجاهد ، ومقاتل . والثاني : خلق في كل سماء خلقها ، قاله السدي .
قوله تعالى : (وزينا السماء الدنيا) أي : القربى إلى الأرض (بمصابيح)
وهي النجوم ، والمصابيح : الشرج ، فسمي الكوكب مصباحاً ، لإضاءته
(وحفظاً) قال الزجاج : معناه : وحفظناها (٢) من استماع الشياطين بالكواكب حفظاً .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ
وَتَمُودَ . إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ . فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَقَالُوا مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ أُولَئِكَ يَرَوْنَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً
فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

(١) البيت في شرح أشعار المذليين ، : ٣٩/١ ، و مجاز القرآن ، : ٢٧٥/١ ،
و غريب القرآن ، : ٣٨٨ ، و مشكل القرآن ، : ٣٤٢ ، و الطبري ، : ٩٧/٢٢ ،
و الصاحح ، و اللسان ، و انتاج ، : قضي .
(٢) في الأصل : وحفظناه .

الْآخِرَةَ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ . وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بَتَثْقُونًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (فان أعرضوا) عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة)
الصاعقة : المهلك من كل شيء ؛ والمعنى : أنذرتكم عذاباً مثل عذابهم ^(١) . وإنما
خص القيلتين ، لأن قريشاً يمرّون على قري القوم في أسفارهم .

(إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم) أي : أنت آباءهم ومن كان قبلهم
(ومن خلفهم) أي : من خلف الآباء ، وهم الذين أرسلوا إلى هؤلاء المهلكين
(ألا تعبدوا) أي : بأن لا تعبدوا (إلا الله قالوا لو شاء ربنا) أي : لو أراد
دعوة الخلق (لأنزل ملائكة) .

قوله تعالى : (فاستكبروا) أي : تكبروا عن الإيمان وعملوا بغير الحق .
وكان هود قد تهدّد بهم بالعذاب فقالوا : نحن نقدر على دفعه بفضل قوتنا .
والآيات هاهنا : الحجج .

وفي الرّيح الصّرصر أربعة أقوال .

أحدها : أنها الباردة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . وقال الفراء :
هي الرّيح الباردة تحرق كالنار ، وكذلك قال الزجاج : هي الشديدة البرد جداً ؛
فالصرصر متكرر فيها البرد ، كما تقول : أقلت الشيء وقلقلته ، فأقللته بمعنى رفعته ،
وقلقلته : كررت رفعه .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذّبين بما جثتم به من الحق :
إن أعرضتم عما جثتم به من عند الله تعالى ، فاني أنذركم حلول نعمة الله بكم كما حلّت بالأمم
الماضين من المكذّبين بالرسالين . اهـ .

والثاني : أنها الشديدة السموم ^(١) ، قاله مجاهد .

والثالث : الشديدة الصوت ، قاله السدي ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والرابع : الباردة الشديدة ، قاله مقاتل ^(٢) .

قوله تعالى : (في أيام نحسات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « نَحْسَاتٍ » باسكان الحاء ؛ وقرأ الباقون : بكسرهما . قال الزجاج : من كسر الحاء ، فواحدُهن « نَحْسٌ » ، ومن أسكنها ، فواحدُهن « نَحْسٌ » ؛ والمعنى : مشؤمات ^(٣) .

وفي أوّل هذه الأيام ثلاثة أقوال . أحدها : غداة يوم الأحد ، قاله السدي .
والثاني : يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس . والثالث : يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام .
والخزني : الهوان .

قوله تعالى : (وأما نمودُ فهديناُم) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : يبتئّاهم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . وقال قتادة : يبتئّاهم سبيل الخير والشر .
والثاني : دَعَوْنَاهُم ، قاله مجاهد . والثالث : دَلَلْنَاهُم على مذهب الخير ، قاله الفراء .

(١) السموم : الربح الحارّة .

(٢) قال ابن كثير : والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوام ، وكانت باردة شديدة البرد جداً ، كقوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) أي : باردة شديدة ، وكانت ذات صوت مزعج ، قال : ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق : « صرصر » لقوة صوت جريه . اهـ .

(٣) وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله : (في أيام نحسات) قال : أيام متابعات أنزل الله فيهن المذاب ، قال ابن جرير : وقال آخرون : عني بذلك المشائم ، قال : وقال آخرون : معنى ذلك : أيام ذات شر ، وقال آخرون : النحسات : الشداد . ثم قال : ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بها : أيام مشائم ذات نحوس ، لأن ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب . اهـ .

قوله تعالى : (فَاسْتَجِبُوا أَمْرِي : اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ،) فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ (أَيْ : ذِي الْهَوَانِ ، وَهُوَ الَّذِي يُهِنُهُمْ ^(١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنْخَشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِمَ لُجُودُنَا لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالَُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ نَارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا قَالُوا مِنْ الْمُعْتَبِينَ . وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْخَشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ) وَفَرَأ نَافِع : « نَخْشَرُ » بِالنُّونِ « أَعْدَاءُ » بِالنَّصْبِ .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : دَعَوَاهُمْ (فَاسْتَجِبُوا أَمْرِي عَلَى الْمَدَى) أَيْ : بِعُثْرَاهُمْ ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ ، وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى حَقِّ نَبِيِّهِمْ (فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ) أَيْ : بِمَثِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ صِيحَةً وَرَجْفَةً وَذَلَالًا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنِكَالًا (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أَيْ : مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ (وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا) أَيْ : مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ ، بَلْ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . اهـ .

قوله تعالى : (فَمَنْ يُوزَعُونَ) أي : يُجَبَسُ أَوْ لُحِمَ عَلَى آخِرِهِمْ لِيَتَلَحَقُوا .
 (حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا) يعني النار التي حُشِرُوا إِلَيْهَا (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
 وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) ، وفي المراد بالجلود ثلاثة أقوال . أحدها : الأيدي والأرجل .
 والثاني : الفروج ، روي عن ابن عباس . والثالث : أنه الجلود نفسها ، حكاه
 الماوردي . وقد أخرج مسلم في أفرادهِ من حديث أنس بن مالك قال : كنا عند
 رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قال : قلنا :
 اللهُ ورسوله أعلم . قال : « من مضطربة العبد ربِّه ، يقول : ياربِّ أَلَمْ تُجِرْنِي
 مِنَ الظُّلُمِ ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فاني لَا أُجِزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي ،
 قال : فيقول : كفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وبالكِرامِ الْكَاتِبِينَ شُهودًا ،
 قال : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، فيقال لأَرْكَانِهِ ^(١) : انْطِقِي ، قال : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ،
 قال : ثُمَّ يُخَلَّسَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَمَنْ كُنَّ
 كُنْتُ أَنَا ضِلَّ » ^(٢) .

قوله تعالى : (فَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) أي : ممَّا نطق .
 وهاهنا تم الكلام . وما بعده ليس من جواب الجلود .

قوله تعالى : (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ)
 روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث ابن مسعود قال : كُنْتُ
 مُسْتَرًا بِأَسْتَارِ الْكُفَّةِ ، فجاء ثلاثة نفر ، قرشيٌّ وَخَثَنَاءُ تَقْفِيَّانِ ، أَوْ تَقْفِيٌّ وَخَثَنَاءُ
 قُرَشِيَّانِ ، كثيرٌ شَحْمٌ يُطَوْنَهُمْ ، قليلٌ فِقْهٌ قُلُوبُهُمْ ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ،

(١) أي : جوارحه .

(٢) أي : أدافع وأجادل . والحديث في « صحيح مسلم » : ٤ / ٢٢٨٠ عن أنس بن مالك
 رضي الله عنه ، ورواه النسائي وغيره .

فقال أحدهم : أُنْزِلُوا اللَّهَ بِسَمْعٍ كَلَامَنَا هَذَا ؛ فقال الآخرون : إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ ، وَإِنْ لَمْ نَرْفَعْ لَمْ يَسْمَعْ ، وقال الآخر : إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئاً سَمِعَهُ كُلُّهُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ . . . » إِلَى قَوْلِهِ : « مِنَ الْخَاسِرِينَ » ^(١) . ومعنى « تَسْتَتِرُونَ » : تَسْتَخْفُونَ « أَنْ يَشْهَدَ » أَي : مِنْ أَنْ يَشْهَدَ « عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ » لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْإِسْتِخْفَاءِ مِنْ جَوَارِحِكُمْ ، وَلَا تَظُنُّونَ أَنَّهَا تَشْهَدُ (وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ : إِنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِنَا ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَظْهَرُ ، (وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ) أَي : أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ، (أَرَادَكُمْ) أَهْلَكُمْ ^(٢) .

(فَانْصَبِرُوا) أَي : عَلَى النَّارِ ، فِيهِ مَسْكَنُهُمْ ، (وَإِنْ يَسْتَمْتَبِعُوا) أَي : يَسْأَلُوا أَنْ يُرْجَعَ لَهُمْ إِلَى مَا يُحِبُّونَ ، لَمْ يُرْجَعْ لَهُمْ ^(٣) ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : ٤٣١/٨ ، ٤٣٢ ، وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » رَقْمَ (٣٦٩٤) وَ (٣٨٧٥) وَ (٤٠٤٧) وَاللَّفْظُ لَهُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ : ١٥٢/٢ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَ « الطَّبْرِيُّ » : ١٠٩/٢٤ ، وَالْوَاهِدِيُّ فِي « أَسْبَابِ التَّزْوِيلِ » : ٢٩٣ ، وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرِّ » : ٣٦٢/٥ ، وَزَادَ لِسَبْتِهِ لِسَبْسَدِ بْنِ مَنْصُورٍ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَابْنُ أَبِي عَرَبٍ فِي « الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ » عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) رَوَى مُسْلِمٌ فِي « صَحِيحِهِ » : ٢٢٠٦/٤ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ : « لَا يَمُوتُ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ بِحَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » عَنْ جَابِرٍ بِلَفْظٍ : « لَا يَمُوتُ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ بِحَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » فَانْ قَوْمًا قَدْ أَرَادَ سَوْءَ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَادَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرِّ » : ٣٦٢/٥ ، وَزَادَ لِسَبْتِهِ لِلطَّبْرَانِيِّ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَأَبِي دَاوُدَ ، وَابْنُ مَاجَةَ ، وَابْنُ جَبَانَ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) عِبَارَةُ الطَّبْرِيِّ : (وَإِنْ يَسْتَبِقُوا) وَإِنْ يَسْأَلُوا الْعَتَبَى ، وَهِيَ الرِّجْعَةُ لَهُمْ إِلَى الَّذِي يُحِبُّونَ (فَاغْمِ مِنْهُنَّ) فَلْيَسْأَلُوا الْقَوْمَ الَّذِينَ يُرْجَعُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ . اهـ .

ذلك . يقال : أعنني فلان ، أي : أرضاني بعد إسقاطه إيتاي . واستقْبْنُهُ ، أي : طلبتُ منه أن يُعْتَبَبَ ، أي : يَرْضَى .

قوله تعالى : (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أي : سَبَّغْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ مِنَ الشَّيَاطِينِ (فزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما بين أيديهم : من أمر الآخرة أنه لاجئة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خَلْفَهُمْ : من أمر الدنيا ، فزَيَّنُوا لَهُمُ اللَّذَاتِ وَجَمَعَ الْأُمُوالَ وَتَرَكَ الْإِنْفَاقَ فِي الْخَيْرِ .
والثاني : ما بين أيديهم : من أمر الدنيا ، وما خَلْفَهُمْ : من أمر الآخرة ، على عكس الأول .

والثالث : ما بين أيديهم : ما فعلوه ، وما خَلْفَهُمْ : ما عزموا على فعله . وباقي الآية [قد] تقدم تفسيره [الاسراء : ٩٦ ، الاعراف : ٣٨] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْءَ فِيهِ لَمَلَكٌ مَغْلَبٌ . فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ) أي : لَا تَسْمَعُوهُ (وَالنَّوْءَ فِيهِ) أي : عَارِضُوهُ بِاللَّغْوِ ، وهو الكلام الخالي عن فائدة . وكان الْكَفَّارُ يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا : إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ فَارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ حَتَّى تُبْلِغُوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ . وقال مجاهد : وَالنَّوْءَ فِيهِ بِالْمَلَأِ وَالصَّغِيرِ وَالنَّخْلِيطِ مِنْ الْقَوْلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ (لَمَلَكٌ مَغْلَبٌ) فَيَسْكُتُونَ .

قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ) يعني المذاب المذكور . وقوله : (النَّارُ) بدل من الجزاء (لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) أي : دار الإقامة . قال الزجاج : النار

هي الدّار ، ولكنه كما تقول : لك في هذه الدّار دار الشّرور ، وأنت تمني الدّار
بسينها ، قال الشاعر :

أخور رغائبَ بَعْطِهَا ويسألها يَأبَى الظُّلَامَةَ مِنْهُ التَّوْفَلُ الرَّفَرُ^(١)
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَيْنَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ
قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَعَزَّوْا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي
أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) لما دخلوا النار (ربنا أرينا الذين أضلنا)
وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « أَرْنَا » بسكون الراء . قال المفسرون :
يعنون إبليس وقاييل ، لأنها سنا المعصية ، (نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من
الأسفلين) أي : في الدّرك الأسفل ، وهو أشدّ عذاباً من غيره .
ثم ذكر المؤمنين فقال : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ) [أي : وحده]
(ثم استقاموا) فيه ثلاثة أقوال .

(١) البيت لأعشى باهلة من مراثيه المفضلة المشهورة برني بها أخاه لأمته المنتشر بن وهب ، ومطلعا :
قد جاء من علك . أبناء أنبؤها إليّ لأعجب منها ولا سخر
وهي في « الأصميات » : ٨٩ ، و « جهرة أشعار الرب » ، و « مختارات ابن الشجري » ،
و « أمالي الشريف المرتضى » ، و « خزنة الأدب » : ٨٩/١ ، والرغائب : المطايا الواسمة ،
والتوفل : الكثير النوافل ، أي المطايا ، والرفر : السيّد ، لأنه يزدفر بالأموال في الحملات
مطيقاً لها . وفي « اللسان » : زفر ، وقوله : « منه » مؤكدة للكلام ، والمعنى : يَأبَى الظلّامة ،
لأنه التوفل الرفر ، كما في قوله تعالى : (يفر لكم من ذنوبكم) . والسخر ، بفتحين وبضمين : السخرية .

أحدها : استقاموا على التوحيد ، قاله أبو بكر الصديق ، ومجاهد .
 والثاني : على طاعة الله وأداء فرائضه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .
 والثالث : على الإخلاص والعمل إلى الموت ، قاله أبو العالية ، والسدي ^(١) .
 وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ، وذلك
 أن المشركين قالوا : ربنا الله ، والملائكة بناتنه ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فلم يستقيموا ،
 وقالت اليهود : ربنا الله ، وعزيرُ ابنه ، ومحمد ليس نبي ، فلم يستقيموا ، وقالت
 النصارى : ربنا الله ، والمسيح ابنه ، ومحمد ليس نبي ، فلم يستقيموا ، وقال أبو بكر :
 ربنا الله وحده ، ومحمد عبده ورسوله ، فاستقام ^(٢) .
 قوله تعالى : (تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا) أي : بأن لا تخافوا . وفي
 وقت نزولها عليهم قولان .

أحدهما : عند الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ؛ فعلى هذا في معنى « لا تخافوا »
 قولان . أحدهما : لا تخافوا الموت ، ولا تحزنوا على أولادكم ، قاله مجاهد . والثاني :
 لا تخافوا ما أمامكم ، ولا تحزنوا على ما خلفكم ، قاله عكرمة ، والسدي .
 والقول الثاني : تنزل عليهم إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة ؛ فيكون معنى
 « لا تخافوا » : أنهم يبدسونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة ^(٣) .

(١) روى مسلم في « صحيحه » : ٦٥/١ عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت :
 يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »
 والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٦٣/٥ ، وزاد نسبه لأحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ،
 والبخاري في « تاريخه » ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان .
 (٢) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٩٣ من رواية عطاء عن
 ابن عباس بدون سند .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تنزل عليهم الملائكة) قال مجاهد والسدي —

قوله تعالى : (نحن أولياؤكم) قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم ، والمعنى : نحن [الذين] كنا تتولّاكم في الدنيا ، لأن الملائكة تتولّى المؤمنين وتحبهم لما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء ، (وفي الآخرة) أي : ونحن معكم في الآخرة لا تفارقكم حتى تدخلوا الجنة . وقال السدي : هم الحفظة على ابن آدم ، فلذلك قالوا : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ؛ وقيل : هم الملائكة الذين يأتون لقبض الأرواح ^(١) .

قوله تعالى : (ولكم فيها) أي : في الجنة .
 (مُزُلاً) قال الزجاج : معناه : أبشروا بالجنة تنزلونها [مُزُلاً] . وقال
 الاخفش : لكم فيها ما تشتهي أنفسكم أنزلناه مُزُلاً .
 ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

— وزيد بن أسلم وابنه : يعني عند الموت قائلين (أن لا تخافوا) قال مجاهد وعصكرمة
 وزيد بن أسلم : أي : بما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تخزنوا) على ما خلّفتموه من
 أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ، فإنا نخلفكم فيه (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)
 فيدشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، قال : وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال :
 « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه ،
 اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)
 أي : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم ، أي : قرناءكم في الحياة الدنيا
 نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، تؤنس منكم الوحشة
 في القبور ، وعند النفخة في الصور ، وتؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ،
 ونوصلكم إلى جنات النعيم (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) أي : في الجنة من جميع ما تختارون
 مما تشبه النفوس وتقرّ به العيون (ولكم فيها ما تدعون) أي : مما طلبتم وجدتم وحضر
 بين أيديكم كما اخترتم .

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ
وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَمِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ) فيمن أريد بهذا
ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم المؤذنين . روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه
قال : « نزلت في المؤذنين » ^(١) ، وهذا قول عائشة ، ومجاهد ، وعكرمة .

(١) الذي في كتب التفسير وأسباب النزول عن عائشة ومجاهد وعكرمة موقوفاً عليهم أن
هذه الآية نزلت في المؤذنين ، وقد قال السيوطي في « الدر » ، ٣٦٤/٥ : أخرج ابن أبي شيبة ،
وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في
المؤذنين (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) . ١ . ولم نر رواية جابر بن عبد الله التي
ذكرها المؤلف في المرفوع ، والله أعلم .

وقد قال ابن كثير في « التفسير » : والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، قال :
فأما حال نزول هذه الآية ، فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ، لأنها مكية ، والأذان إنما شرع
بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في مقامه
فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فإنه أندى صوتاً كما هو
مقرر في موضعه . ثم قال ابن كثير : فالصحيح إذن أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق عن
يضمير عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً
وقال إني من المسلمين) فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا ضفوة الله ، هذا خيرة الله ،
هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من
دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إني من المسلمين ، هذا خليفة الله . اهـ .

وقال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : ويجاب عن هذا بأن الآية مكية ، والأذان
إنما شرع بالمدينة ، والأولى بحمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، وبدخل فيها من كان —

والثاني : أنه رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أنه المؤمن أجاب الله إلى مادعاه ، ودعا الناس إلى ذلك (وعمل صالحاً) في إجابته ، قاله الحسن .

وفي قوله : (وعمل صالحاً) ثلاثة أقوال .

أحدها : صلتى ركعتين بعد الأذان ، وهو قول عائشة ، ومجاهد . وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله » قال : الأذان « وعمل صالحاً » قال : الصلاة بين الأذان والإقامة .

والثاني : أدّى الفرائض وقام لله بالحقوق ، قاله عطاء .

والثالث : صام وصلى ، قاله عكرمة ^(١) .

قوله تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) قال الزجاج : « لا » زائدة مؤكدة ؛ والمعنى : ولا تستوي [الحسنة] والسيئة . وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال . أحدها : أن الحسنة : الإيمان ، والسيئة : الشرك ، قاله ابن عباس .

— سبب انزولها دخولاً أولاً ، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله . اهـ .

وقال الخازن في « تفسيره » : وقيل : إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية ، قال : والدعوة إلى الله مراتب ، الأولى : دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والثانية : دعوة العلماء ، والثالثة : دعوة المجاهدين في سبيل الله ، والرابعة : دعوة المؤذنين إلى الصلاة ، قال : فهم أيضاً دعاء إلى الله تعالى وإلى طاعته .

(١) والمصحيح أنها عامة في كل ذلك .

والثاني : الحِذْمُ والفُحْشُ ، قاله الضحّاك . والثالث : النفور والصبر ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وذلك كدفع الغضب بالصبر ، والإساءة بالمغو ، فإذا فعلت ذلك صار الذي بينك وبينه عداوة كالصديق القريب . وقال عطاء : هو السلام على من تعاديه إذا لقيته . قال المفسرون : وهذه الآية منسوخة بآية السيف (١) .

قوله تعالى : (وما يُلقّاها) أي : ما يُمُطّأها . قال الزجاج : ما يُلقَى هذه الفعل : وهي دفع السيئة بالحسنة (إلا الذين صبروا) على كظم الغيظ (وما يُلقّاها إلا ذو حظٍ عظيم) من الخير . وقال السدي : إلا ذو جَدٍّ . وقال قتادة : الحظُّ العظيم : الجنة ؛ فالمعنى : ما يُلقّاها إلا مَنْ وجبت له الجنة (٢) . قوله تعالى : (وإِما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) قد فسّرناه في (الأعراف : ٢٠٠) (٣) .

(١) قال ابن جرير : وقوله : (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) يقول تعالى ذكره : أفعل هذا الذي أمرتك به يا محمد ، من دفع سيئة المسيء إليك بأحسنائك الذي أمرتك به إليه ، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه من ملاطفته إياك ويرّك لك ، وليّ لك من بني أعمامك ، قريب النسب بك ، قال : والحيم : هو القريب . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : (وما يلقّاها إلا الذين صبروا) أي : وما يقبل هذه الوصية ويمثل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يَشُقُّ على النفوس ، (وما يلقّاها إلا ذو حظٍ عظيم) أي : ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، قال : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والمغو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وإِما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَمِذْ بِهِ) أي : إن —

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (فإن استكبروا) [أي : تكبروا عن التوحيد والعبادة]
(فالذين عند ربك) يعني الملائكة (يسبحون) أي : يصلون . و « يسأمون » بمعنى يملكون .

وفي موضع السجدة قولان .
أحدهما : أنه عند قوله : « يسأمون » ، قاله ابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، واختاره القاضي أبو يعلى ، لأنه تمام الكلام .
والثاني : [أنه] عند قوله : (إن كنتم إياه تعبدون) ^(١) ، روي عن أصحاب عبد الله ، والحسن ، وأبي عبد الرحمن .

— شيطان الانس ربما يتخذه بالاحسان إليه ، فأما شيطان الجن ، فانه لاجيلة فيه إذا وسوس إلا الاستمادة بخالقه الذي سألطه عليك ، فاذا استعذت بالله والنجات إليه ، كفته عنك ورد كيده ، قال : وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » ، قال : وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة (الأعراف) عند قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإما بزغتك من الشيطان نزع فاستمد بالله إنه سميع عليم) وفي سورة (المؤمنین) عند قوله : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون) . اه .

(١) يريد بذلك الآية التي قبل قوله : (فإن استكبروا . . .) الآية ، وهي قوله تعالى : —

قوله تعالى : (ومن آياته أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً) قال قتادة : غبراء متهشمة . قال الأزهري : إذا دبست الأرض ولم تُنظر ، قيل : خَشَعَتْ . قوله تعالى : (اهْتَزَّتْ) أي : تحركت بالنبات (وَرَبَّتْ) أي : عَدَّتْ ، لأن النبات إذا أراد أن يظهر ارتفعت له الأرض ؛ وقد سبق بيان هذا [الحج : ٥] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقِ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿

— (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقد حذفها المؤلف ولم يفسرها لوضوح معناها . قال القرطبي في « تفسيره » : هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ، واختلفوا في موضع السجود منها ، فقال مالك : موضعه « إن كنتم إياه تعبدون » لأنه متصل بالأمر ، وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله : « تعبدون » ، وقال ابن وهب والشافعي : موضعه « وم لا يسأمون » ، لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامثال ، وبه قال أبو حنيفة ، وكان ابن عباس يسجد عند قوله : « يسأمون » ، وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة منها ، وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب ، وطلحة وزيد اليامين (نسبة إلى يامة بطن من همدان) والحسن وابن سيرين ، وكان أبو وائل وقاتدة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يسأمون » قال ابن العربي : والأمر قريب . اهـ .

وقال الحازن في « تفسيره » : فصل : وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، وفي موضع السجود فيها قولان للماء ، وهما وجهان لأصحاب الشافعي ، أحدهما : أنه عند قوله تعالى : (إن كنتم إياه تعبدون) وهو قول ابن مسعود والحسن ، وحكاة الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد ، لأن ذكر السجدة قبله ، والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي : أنه عند قوله تعالى : (وم لا يسأمون) وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقاتدة ، وحكاة الرخثري عن أبي حنيفة ، لأن عنده يتم الكلام . اهـ .

- قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ^(١) .
وقد شرحنا معنى الإلحاد في (النحل : ١٠٣) ؛ وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال .
أحدها : أنه وَضَعَ الكلام على غير موضعه ، رواه الموفي عن ابن عباس .
والثاني : أنه الملاء والصغير عند تلاوة القرآن ، قاله مجاهد .
والثالث : أنه التكذيب بالآيات ، قاله قتادة .
والرابع : أنه المماندة ، قاله السدي .
والخامس : أنه الميل عن الإيمان بالآيات ، قاله مقاتل .
قوله تعالى : (لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا) هذا وعيد بالجزاء (أفن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وهذا عام ، غير أن المفسرين ذكروا فيمن أُريدَ به سبعة أقوال .
أحدها : أنه أبو جهل وأبو بكر الصديق ، رواه الضحاك عن ابن عباس ^(٢) .
والثاني : أبو جهل وعمار بن ياسر ، قاله عكرمة ^(٣) . والثالث : أبو جهل ورسول الله ﷺ ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والرابع : أبو جهل وعثمان بن عفان ، حكاه الثعلبي . والخامس : أبو جهل وحزمة ، حكاه الواحدي . والسادس : أبو جهل وعمر بن الخطاب . والسابع : الكافر والمؤمن ، حكاه الماوردي .

(١) ذكر ذلك البغوي عن مقاتل بدون سند .

(٢) قال السيوطي في د الدر ، ٣٦٦/٥ : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله : (أفن يلقى في النار خير) قال : أبو جهل بن هشام ، (أمئن يأتي آمناً يوم القيامة) قال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) قال السيوطي في د الدر ، ٣٦٦/٥ : أخرج ابن عساكر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : (أفن يلقى في النار خير أمئن يأتي يوم القيامة) نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل .

قوله تعالى : (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومنها الوعيد والتهديد .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ) يعني القرآن ؛ ثم أخذني وصف الذِّكْر ؛ وترك جواب « إِنَّ » ، وفي جوابها هاهنا قولان .

[أحدهما] : أنه « أولئك ينادون من مكان بعيد » ، ذكره الفراء .

والثاني : أنه متروك ، وفي تقديره قولان . أحدهما : إن الذين كفروا بالذِّكْر لما جاءهم كفروا به . والثاني : إن الذين كفروا يجازون بكفرهم .

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) فيه أربعة أقوال . أحدها : مَنعُ من الشيطان لا يجد إليه سبيلاً ، قاله السدي . والثاني : كريمٌ على الله ، قاله ابن السائب . والثالث : مَنعٌ من الباطل ، قاله مقاتل . والرابع : يمتنع على الناس أن يقولوا مثله ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (لآيَاتِهِ الْبَاطِل) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : التكذيب ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : الشيطان . والثالث : التبديل ، روي عن مجاهد . قال قتادة : لا يستطيع إبليس أن ينقص منه حقاً ، ولا يزيد فيه باطلاً . وقال مجاهد : لا يدخل فيه ما ليس منه . وفي قوله : (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) ثلاثة أقوال . أحدها : بين يدي تنزيله ، وبعد نزوله . والثاني : أنه ليس قبله كتاب يُبْطِلُه ، ولا يأتي بعده كتاب يُبْطِلُه . والثالث : لآيَاتِهِ الْبَاطِل في إخباره عما تقدم ، ولا في إخباره عما تأخر .

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى

وَشَفَاءَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ الرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ) فيه قولان .
أحدهما : أنه قد قيل فيمن أُرْسِلَ قَبْلَكَ : ساحر وكاهن وجنون ، وكُذِّبُوا
كما كُذِّبْتَ ، هذا قول الحسن ، وقتادة ، والجمهور .
والثاني : مَا تُخْبَرُ إِلَّا بما أَخْبَرَ الْأَنْبيَاءَ قَبْلَكَ من أن الله غفور ، وأنه
ذو عقاب ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ) يعني الكتاب الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ (قِرَاءًا أُعْجِبًا)
أي : بنير لغة العرب (لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلَتْ آيَاتُهُ) أي : هَلَّا يَنْتِ آيَاتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ
حَتَّى نَفْهَمَهُ ؟ ! (أَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ،
وحفص عن عاصم : « أَعْجَبِي » [بهزة] ممدودة . وقرأ حمزة ، والكسائي ،
وأبو بكر عن عاصم : « أَعْجَبِي » بهزتين ، والمعنى : أَكْتُبُ أَعْجَبِيُّ وَنَبِيٌّ عَرَبِيٌّ ؟ !
وهذا استفهام إنكار ؛ أي : لو كان كذلك لكان أشدَّ لتكذيبهم .

(قُلْ هُوَ) يعني القرآن (لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى) من الضلالة (وَشَفَاءٌ)
لِلشُّكُوكِ وَالْأَوْجَاعِ . و « الْوَقْرُ » : الصَّمَمُ ؛ فَهُمْ فِي تَرْكِ الْقَبُولِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ
فِي أَذْنِهِ صَمٌّ .

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) أي : ذو عَمًى . قال قتادة : صَمُّوا عَنِ الْقُرْآنِ
وَعَمُّوا عَنْهُ (أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أي : لِنَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ
كَالَّذِي يُنَادِي مِنْ بَعِيدٍ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾
 قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) هذه تسلية لرسول الله ﷺ ؛
 والمعنى : كما آمن بكتابك قومٌ وكذب به قومٌ ، فكَذَلِكَ كتاب موسى ،
 (ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) في تأخير العذاب إلى أجل مسمى وهو
 القيامة (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) بالعذاب الواقع بالمكذِّبين (وإنهم لفي شكٍّ) مِنْ
 صدقك وكتابك ، (صريبٍ) أي : مُوقِع لهم الرِّية .

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا
 وَمَا تَخْضَلُ مِنْ أَثْنَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَنْفَرُونَ
 مَثَرَكَايَ قَالُوا آتَاكَ مَا مِثْلًا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَافِضٍ﴾

قوله تعالى : (إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ) سبب نزولها أن اليهود قالوا
 للأنبياء ﷺ : أَخْبِرْنَا عَنْ السَّاعَةِ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ ، قاله مقاتل (١) . ومعنى
 الآية : لَا يَعْلَمُ قِيَامُهَا إِلَّا هُوَ ، فَإِذَا سُئِلَ عَنْهَا فَعَلِمَهَا مُرَدُّهُ إِلَيْهِ .
 (وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزرة ، والكسائي ،

(١) قال الشوكاني في « فتح القدير » : وقد روي أن المشركين قالوا : يا محمد إن كنت نبياً
 فخبِّرنا متى تقوم الساعة ؟ فنزلت . وقد تقدم في سورة « الأعراف » : ١٨٧ عند قوله تعالى :
 (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما عِلْمُهَا عِنْدِ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ) قولان في
 سبب نزولها . أحدهما : أن قولاً من اليهود قالوا : يا محمد أَخْبِرْنَا متى الساعة ؟ فنزلت ، والثاني :
 أن قريشاً قالت : يا محمد بيننا وبينك قرابة فيبين لنا متى الساعة ؟ فنزلت ، وقد قال
 ابن جرير الطبري هناك : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن قولاً سألوا رسول الله ﷺ
 عن الساعة ، فأُزِلَ الله هذه الآية ، وجائز أن يكون كانوا من قريش ، وجائز أن يكون كانوا
 من اليهود ، ولا خير بذلك عندهما يجوز قطع القول على أي ذلك كان . اهـ .

وأبو بكر عن حاصم : « من ثمرة » . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن حاصم : « من ثمرات » على الجمع (مِنْ أَكَامِهَا) أي : أوعيتها . قال ابن قتيبة : أي : من المواضع التي كانت فيها مسترة ، وغلاف كل شيء : كُثمه ، وإنما قيل : كُثم القميص ، من هذا . قال الزجاج : الأكمام : ما غطى ^(١) ، وكل شجرة تُخرج ما هو مَكْمَمٌ فهي ذات أكمام ، وأكمام النخلة : ما غطى مُجَارَهَا من السَّمْفِ والليف والجذع ، وكل ما أخرجته النخلة فهو ذو أكمام ، فالطلعة كُثمها قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة : كُثمه ، لأنها تُغطّي الرأس ، ومن هذا كُثم القميص ، لأنها ينطيان اليدين ^(٢) .

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) أي : ينادي الله تعالى المشركين (أَيْنَ شُرَكَائِي) الذين كنتم تزعمون (قَالُوا آذَنَّاكَ) قال الفراء ، وابن قتيبة : أعلمناك ، وقال مقاتل : أسمعناك (مَامِنًا مِنْ شَيْدٍ) فيه قولان .

أحدهما : أنه من قول المشركين ؛ والمعنى : مَامِنًا مِنْ شَيْدٍ بَأَنَّكَ شريكاً ، فيتبرؤون يومئذ مما كانوا يقولون ، هذا قول مقاتل .

والثاني : [أنه] من قول الآلهة التي كانت تُعبد ؛ والمعنى : مَامِنًا مِنْ شَيْدٍ لَهُمْ بِمَا قَالُوا ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ) أي : بطل عنهم في الآخرة (مَا كَانُوا يَدْعُونَ) أي : يعبدون في الدنيا ، (وَظَنُّوا) أي : أيقنوا (مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ) وقد شرحنا المحيص في سورة (النساء : ١٢١) .

(١) عبارة « اللسان » : وقال الزجاج في قوله : « ذات الأكمام » ، قال : غنى بالأكمام ما غطى ...

(٢) في الأصل : اليد ، والتصويب من « اللسان » .

﴿ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُمٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ) قال المفسرون : المراد به الكافر ؛ فالمعنى : لا يعمل الكافر (من دعاء الخير) أي : من دعائه بالخير ، وهو المال والعافية . (وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ) وهو الفقر والشدة ؛ والمعنى : إذا اختبر بذلك يئس من روح الله ، وقنط من رحمته . وقال أبو عبيدة : اليؤوس ، فَمُولٌ مِنْ بَأْسٍ ^(١) ، والقنوط ، فَمُولٌ مِنْ قَنَاطٍ .

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا) أي : خيراً وعافية وغنى ، (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) أي : هذا واجب لي بعملِي وأنا معقوق به ، ثم يشك في البعث فيقول : (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) أي : لست على يقين من البعث (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ) يعني الجنة ، أي : كما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة (فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي : لنُخَبِّرَنَّهُمْ بمساوئ أعمالهم . وما بعده قد سبق [إبراهيم : ١٧ ، الاسراء : ٨٣] إلى قوله تعالى : (وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وَنَأَى » مثل « نعى » . وقرأ ابن حاصر : « وَنَاءَ » مفتوحة النون ممدودة والمهزة بعد الألف . وقرأ

(١) في « مجاز القرآن » : « يؤوس ، فمول من يئس ؛ وفي « اللسان » : قال سيديويه : يئسَ يئاس ويئسَ يئيس لثان ثم يركب منها لفة .

حمزة : « ثنى » مكسورة النون والهمزة ^(١) .

(فذو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) قال الفراء ، وابن قتيبة : معنى العريض : الكثير ، وإن وصفته بالطول أو بالعرض جاز في الكلام .

(« قُلْ ») يا محمد لأهل مكة (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ) القرآن (مِنْ) عند الله « ثُمَّ » كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ) أي : خلاف للحق (بَمِيدٍ) عنه ١١ وهو اسم ؛ والمعنى : فلا أحدٌ أضَلُّ منكم . وقال ابن جرير : معنى الآية : [« ثُمَّ »] كفرتم به ، أَلَسْتُمْ فِي شِقَاقٍ لِلْحَقِّ وَبُعْدٍ عَنِ الصَّوَابِ ١٢ فجعل مكان هذا باقي الآية .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾

قوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) فيه خمسة أقوال .
أحدها : في الآفاق : فتح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم : فتح مكة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنها في الآفاق : وقائع الله في الأمم الخالية ، وفي أنفسهم : يوم بدر ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثالث : أنها في الآفاق : إمساك القطر عن الأرض كلها ، وفي أنفسهم : البلايا التي تكون في أجسادهم ، قاله ابن جريج .

والرابع : أنها في الآفاق : آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ، وفي أنفسهم :

(١) سبق ذكر القراءات في قوله تعالى : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)

في سورة (الإسراء : ٨٣) .

حوادث الأرض ، قاله ابن زيد . وحكي عن ابن زيد أن التي في أنفسهم : سيل
النائط والبول ، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويخرج
من مكانين .

والخامس : أنها في الآفاق : آثار من مضى قبلهم من المكذبين ، وفي
أنفسهم : كونهم خلِقوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً إلى أن قيلوا إلى
العقل والتمييز ، قاله الزجاج (١) .

قوله تعالى : (حتى يتبين لهم أنه الحق) في هاء الكناية قولان . أحدهما
أنها ترجع إلى القرآن . والثاني : إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول . وقال ابن جرير :
معنى الآية : حتى يظفروا حقيقة ما أنزلنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له بأننا
مُظهرو دينه على الأديان كلها .

(أَوَلَمْ يَكْفِ رَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي : أَوَلَمْ
يكف به أنه شاهدٌ على كل شيء ؟ ! قال الزجاج : المعنى : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ
شهادة ربك ؟ !

(١) قال ابن كثير : (سنبرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أي : سنظهر لهم دلالاتنا
وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية
في الآفاق من الفتحوات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن
والسدي : ودلائل في أنفسهم ، قالوا : وقمة بدر وتخيخ مكة ونحو ذلك من الوقائع
التي حلت بهم ، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصعبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه ، ويحتمل
أن يكون المراد من ذلك ما للإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات
العجيبة كما هو مبسوط في علم التشریح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى ، وكذلك ما هو
مجهول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار
التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها . اهـ .

ومنى الكفاية هاهنا : أنه قد يئن لهم ما فيه كفاية في الدلالة على توحيده
وتنبت رسله ^(١) .



(١) قال ابن كثير في تلمة الآية : وقوله تعالى : (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) أي :
في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يملكون له ولا يحذرون منه ، بل هو
عندهم هدر لا يعبئون به ، وهو كائن لا محالة ، وواقع لا ريب فيه ، قال : ثم قال تعالى مقررًا
أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى :
(ألا إنه بكل شيء محيط) أي : المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طيئ مله ،
وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، لما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا إله إلا هو . اهـ .

سورة حم عسق

واسمها سورة الشورى

وهي مكِّيَّة، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة،
ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة قالا : **إِلَّا أَرْبَع آيَات**
نَزَلْنَ بِالْمَدِينَةِ ، أَوَّلُهَا : (**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**) [الشورى : ٢٣] وقال مقاتل :
فيها من المدني قوله : (**ذَلِكَ الَّذِي يَدْعُوا اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا**) [الشورى : ٢٣]
إلى قوله : (**بِذَاتِ الصُّدُورِ**) [الشورى : ٢٤] وقوله : (**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ**)
[الشورى : ٣٩] إلى قوله : (**مِنْ سَبِيلٍ**) [الشورى : ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ **حَمْدٌ عَسَقَ . كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ**
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ . وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ *

قوله تعالى : (اُحْم) قد سبق تفسيره [المؤمن] .

قوله تعالى : (عَسَى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قَسَمُ أقسم الله به ، وهو من أسماءه ، رواه ابن أبي طلحة
عن ابن عباس .

والثاني : أنه حروف من أسماء ؛ ثم فيه خمسة أقوال . أحدها : أن العين
عِلْمُ الله ، والسين سناؤه ، والقاف قُدرته ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه
قال الحسن . والثاني : أن العين فيها عذاب ، والسين فيها مسخ ، والقاف فيها قذف ،
رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس . والثالث : أن الحاء من حرب ، والميم من تحويل
مُلك ، والعين من عدو مقهور ، والسين استئصال بسنيين كسني يوسف ، والقاف
من قُدره الله في ملوك الأرض ، قاله عطاء . والرابع : أن العين من عالم ، والسين
من قُذُوس ، والقاف من قاهر ، قاله [سميد] بن جبير . والخامس : أن العين
من العزيز ، والسين من السلام ، والقاف من القادر ، قاله السدي .

والثالث : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة ^(١) .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ) فيه أربعة أقوال .

(١) قال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : واختلفوا في « حم عسق » فقيل :
معناها : حُمٌّ ، أي : قضي ، وقيل : إن « ح » حله ، و « د » مجده ، و « ع » علمه ،
و « س » سناه ، و « ق » قدرته ، أقسم الله بها ، وقيل غير ذلك مما هو متكلف متسلف
لم يدل عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ولا شبهة حجة ، قال : وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك
مما لا أصل له . اهـ . وقد تقدم الكلام على أوائل الحروف في (المنكبات) وغيرها بما فيه كفاية .

أحدها : أنه كما أوحيت « حَمَّ عَسَقَ » إلى كل نبي ، كذلك نوحها إليك ،
قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : كذلك نوحى إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى من قبلك ،
رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أن « حَمَّ عَسَقَ » نزلت في أمر المذاب ، قليل : كذلك نوحى
إليك أن المذاب نازل بمن كذبك كما أوحينا ذلك إلى من كان قبلك ،
قاله مقاتل .

والرابع : أن المعنى : هكذا نوحى إليك ، قاله ابن جرير .
وقرأ ابن كثير : « يُوحَى » بضم الياء وفتح الحاء . كأنه إذا قيل :
من يوحى ؟ قيل : الله . وروى أبان عن عاصم : « نوحى » بالنون وكسر الحاء .
(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة :
« تَكَادُ » بالتاء « يَتَفَطَّرْنَ » ياء وتاء مفتوحة وفتح الطاء وتشديدها . وقرأ
نافع ، والكسائي : « يَكَادُ » بالياء « يَتَفَطَّرْنَ » مثل قراءة ابن كثير . وقرأ
أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تَكَادُ » بالتاء « يَتَفَطَّرْنَ » بالنون وكسر
الطاء وتخفيفها ، أي : يَتَشَقَّقْنَ (مِنْ فَوْقِهِنَّ) أي : من فوق الأرضين
من عظمة الرحمن ؛ وقيل : من قول المشركين : « اتخذ الله ولداً » . ونظيرها
[التي] في (مريم : ٩٠) .

(والملائكةُ يسبحون بحمد ربهم) قال بعضهم : يصلون بأمر ربهم ؛
وقال بعضهم : ينزهونه عما لا يجوز في صفته (ويستغفرون لمن في الأرض)
فيه قولان .

أحدها : أنه أراد المؤمنين ، قاله قتادة ، والسدي .

والثاني : أنهم كانوا يستغفرون للمؤمنين ، فلمّا ابتلي هاروت وماروت استغفروا لمن في الأرض .

ومعنى استغفارهم : سؤالهم الرزق لهم ، قاله ابن السائب . وقد زعم قوم منهم مقاتل أن هذه الآية منسوخة بقوله : (ويستغفرون للذين آمنوا) [غافر : ٧] ، وليس بشيء ، لأنهم إنما يستغفرون للمؤمنين دون الكفار ، فلفظ هذه الآية عام ، ومعناها خاص ، ويدل على التخصيص قوله : (ويستغفرون للذين آمنوا) [غافر : ٧] ، لأن الكافر لا يستحق أن يستغفر له .

قوله تعالى : (والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) يعني كفار مكة اتَّخَذُوا آلهة فمبدوها من دونه (الله حفيظٌ عليهم) أي : حافظٌ لأعمالهم ليجازيهم بها (وما أنت عليهم بوكيل) أي : لم نوكلك بهم فتوخذ بهم . وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف ، ولا يصح .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْيَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمِيرِ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك) أي : ومثل ما ذكرنا (أوحينا إليك قرآنًا عربيًا) ليفهموا مافيه (لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى) يعني مكة ، والمراد : أهلها ^(١) ،

(١) قال ابن كثير : بقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك (أوحينا إليك قرآنًا عربيًا) —

زاد المسير ٧ م (١٨)

(وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) أي : وتُنذِرهم يوم الجمع ، وهو يوم القيامة ، يجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين (لاريب فيه) أي : لا شك في هذا الجمع أنه كائن ، ثم بعد الجمع يتفرقون ، وهو قوله : (فريق في الجنة وفريق في السعير) .

ثم ذكر سبب افتراقهم فقال : (ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة) أي : على دين واحد ، كقوله : (لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) [الأنعام : ٣٥] (ولكن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أي : في دينه (والظالمون) وهم الكافرون (ماله من ولي) يدفع عنهم العذاب (ولا نصير) ينعمهم منه .

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ) أي : بل اتخذ الكافرون من دون الله (أولياء) يعني آلهة يتولونهم (فالله هو الولي) أي : ولي أوليائه ، فليستخذوه ولياً دون الآلهة ؛ وقال ابن عباس : وليك يا محمد وولي من اتبعك .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ

— أي : واضحاً جليلاً بيناً (لتتذروا أم القرى) وهي مكة (ومن حولها) أي : من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، قال : وميت مكة « أم القرى » لأنها أشرف من سائر البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، قال : ومن أوجز ذلك وأدله ما قاله الإمام أحمد : حدثنا أبو اليان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري ، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال : إن عبد الله بن عدي بن الحراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزرة في سوق مكة : « والله إنك لخَيْرُ أرض الله وأجَبُ أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » قال ابن كثير : هكذا رواية الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من حديث الزهري به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . شَرَعَ لَكُم
مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ
عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
بَنِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ
مِنْهُ مُرِيبٍ *

قوله تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء) أي : من أمر الدين ؛ وقيل :
بل هو عام (فحكمه إلى الله) فيه قولان . أحدها : علمه عند الله . والثاني :
هو يحكم فيه . قال مقاتل : وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن ، وآمن
بعضهم ، فقال الله : أنا الذي أحكم فيه (ذلكم الله) الذي يحكم بين المختلفين
هو (ربني عليه توكلت) في مهتاتي (وإليه أنيب) أي : أرجع في المعاد .

(فاطرُ السموات) قد سبق بيانه [الأنعام : ١٤] ، (جعل لكم من أنفسكم)
أي : من مثل خلقكم (أزواجاً) نساء (ومن الأنعام أزواجاً) أصنافاً ذكوراً
وإناثاً ؛ والمعنى أنه خلق لكم الذكر والأنثى من الحيوان كله (يذروكم) فيها
ثلاثة أقوال . أحدها : يخلقكم ، قاله السدي . والثاني : يُبَيِّسُكُمْ ، قاله مقاتل .
والثالث : يكثرركم ، قاله الفراء . و [في قوله] (فيه) قولان .

أحدها : أنها على أصلها ، قاله الآكثرون . فلي هذا في هاء الكناية
ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى بطون الإناث وقد تقدم ذكر الأزواج ، قاله زيد بن أسلم . فلي هذا يكون المعنى : يخلقكم في بطون النساء ، وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة ، فقال : يخلقكم في الرحم أو في الزوج^(١) ؛ وقال ابن جرير : يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم ، ويميتكم فيما جعل لكم من الأنعام .

والثاني : أنها ترجع إلى الأرض ، قاله ابن زيد ؛ فلي هذا يكون المعنى : يذروكم فيما خلق من السموات والأرض .

والثالث : أنها ترجع إلى الجعل المذكور ؛ ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : يميتكم فيما جعل من الأنعام ، قاله مقاتل . والثاني : يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعل الأزواج ، قاله الواحدي .

والقول الثاني : أن « فيه » بمعنى « به » ؛ والمعنى : يكثرركم بما جعل لكم ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : (ليس كمثل شيء) قال ابن قتيبة : أي : ليس كمثل شيء ، والعرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي : أنا لا يقال لي هذا . وقال الزجاج : الكاف مؤكدة ، والمعنى : ليس مثله شيء . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الزمر : ٦٣ ، الرعد : ٢٦] إلى قوله : (شرع لكم) أي : يسن وأوضح (من الدين ما وصى به نوحاً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تحليل الحلال وتحريم الحرام ، قاله قتادة . والثاني : تحريم الأخوات والأمهات ، قاله الحكم . والثالث : التوحيد وترك الشرك .

قوله تعالى : (والذي أوحينا إليك) أي : من القرآن وشرائع الإسلام . قال الزجاج : المعنى : وشرع الذي أوحينا إليك وشرع لكم ما وصى به إبراهيم

(١) قال القرطبي : أو في الزوج ، أي : يخلقكم في بطون الإناث . اهـ .

وموسى وعيسى ^(١) . وقوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) تفسير قوله : (ما وصَّينا ^(٢)) به إبراهيم وموسى وعيسى) ، وجائز أن يكون تفسيراً لـ « ما وصَّى به نوحاً » ولقوله : (والذي أوحينا إليك) ولقوله : (وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى) ، فيكون المعنى : شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة ، وشرع الاجتماع على اتباع الرسل وقال مقاتل : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) يعني التوحيد (ولا تنفرّوا فيه) أي : لا تختلفوا (كُتِبَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ) أي : عَظُمَ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ (ما تدعّونهم إليه) يا محمد من التوحيد .

قوله تعالى : (اللَّهُ يُجِيبُ إِلَيْهِ) أي : يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ لِدِينِهِ (مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي) إِلَى دِينِهِ ، (مَنْ يُنِيبُ) أي : يَرْجِعُ إِلَى طَاعَتِهِ .

ثم ذكر افتراقهم بعد أن أوصاهم بترك الفرقة ، فقال : (وما تفرّقوا) يعني أهل الكتاب (إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من بعد كثرة علمهم للبغي . والثاني : من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال . والثالث : من بعد ما جاءهم القرآن ، نبأ منهم على محمد ﷺ .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى لهذه الأمة : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك) فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح عليه السلام ، وآخرهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية (الأحزاب) عليهم في قوله تبارك وتعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ...) الآية ، قال : والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال عز وجل : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وفي الحديث : « نحن مشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » أي : القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلف شرائعهم ومنهجهم ، كقوله جل جلاله : (لكلٍ جُطُنًا مِنْكُمْ شَرْعًا وَمَنْهَاجًا) . اهـ .

(٢) في الأصل : « ما وصى » .

(ولولا كلمة سبقت من ربك) في تأخير المكذبين من هذه الأمة إلى يوم القيامة ، (لقضي بينهم) بانزال المذاب على المكذبين (وإن الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (من بعدهم) أي : من بعد أنبيائهم (لفي شك منه) أي : من محمد ﷺ .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنُنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

قوله تعالى : (فلذلك فادع) قال الفراء : المعنى : فإلى ذلك ، تقول : دعوت إلى فلان ، ودعوت لفلان ، و « ذلك » بمعنى « هذا » ؛ وللمفسرين فيه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن السائب . والثاني : أنه التوحيد ، قاله مقاتل (١) .

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : فإلى ذلك الدين الذي شرع لكم ، ووصى به نوحاً ، وأوحاه إليك يا محمد ، فادع عباد الله ، واستقم على العمل به ، ولا تنزع عنه ، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة . اهـ .

وقال ابن كثير : اشتكلت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها ، تحكم برأسها ، قال : قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فانها أيضاً عشرة فضول كهذه ، قال : وقوله : (فلذلك فادع) أي : فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي الزم وغيرهم فادع الناس إليه ، قال : وقوله عز وجل : (واستقم كما أمرت) أي : واستقم أنت ومن أتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل . اهـ .

قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ) يعني أهل الكتاب ، لأنهم دعَوْه إلى دينهم .
 قوله تعالى : (وَأَمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم) قال بعض النحويين : المعنى :
 أَمِرْتُ كِي أَعْدِلَ . وقال غيره : المعنى : أَمِرْتُ بِالْعَدْلِ . وتقع « أَمِرْتُ »
 على « أَنْ » ، وعلى « كِي » ، وعلى « اللام » ؛ يقال : أَمِرْتُ أَنْ أَعْدِلَ ، وكِي
 أَعْدِلَ ، وَلِأَعْدِلَ .

ثم في ما أَمَرَ أَنْ يَعْدِلَ فِيهِ قولان . أحدهما : في الأحكام إذا تراءفوا إليه .
 والثاني : في تبليغ الرسالة .

قوله تعالى : (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) أي : هو إلهنا وإن اختلفنا ، فهو يجازينا
 بأعمالنا ، فذلك قوله : (لَنَا أَعْمَالُنَا) أي : جزاؤها .
 (لَأُحْجَتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) قال مجاهد : لاختصومة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .

❦ فصل ❦

وفي هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها اقتضت الاختصار على الإنذار ، وذلك قبل القتال ، ثم نزلت
 آية السيف فنسختها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أن معناها : إن الكلام - بعد ظهور الحُجج والبراهين - قد
 سقط بَيْنَنَا ، فعلى هذا هي مُحْكَمَةٌ ، حكاها شيخنا علي بن عبيد الله عن طائفة
 من المفسرين .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) أي : يُخَاصِمُونَ فِي دِينِهِ . قال
 قتادة : هم اليهود ، قالوا : كُتِبْنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ ، وَنَبِئْنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، فَحَنَ
 خَيْرٌ مِنْكُمْ . وعلى قول مجاهد : هم المشركون ، طمعوا أن تعود الجاهلية .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ) أي : من بعد إجابة الناس إلى الإسلام (حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ) أي : خصومتهم باطلة .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ) يعني القرآن (بِالْحَقِّ) أي : لم ينزله لغير شيء (وَالْمِيزَانَ) فيه قولان . أحدهما : أنه العدل ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والجمهور . والثاني : أنه الذي يوزن به ، حكى عن مجاهد . ومعنى إنزاله : إلهام الخلق أن يعملوا به ، وأمر الله عز وجل إيتاهم بالإِنصاف . وسمي العدل ميزانا ، لأن الميزان آلة الإِنصاف والتسوية بين الخلق . وتعام الآية مشروح في (الأحزاب : ٦٣) .

قوله تعالى : (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) لأنهم لا يخافون ما فيها ، إذ لم يؤمنوا بكونها ، فهم يطلبون قيامها استبعاداً واستهزاء (وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ) أي : خائفون (مِنْهَا) لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزئون ، ولا يدرون ما يكون منهم (وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) أي : أنها كائنة لا محالة (إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ) أي : يخاسمون في كونها (لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) حين لم يتفكروا ، فعملوا قدرة الله على إقامتها .

(اللهٌ لطيفٌ بعباده) قد شرحنا معنى [اسمه] « اللطيف » في (الانعام : ١٠٣) .
وفي عباده هاهنا قولان . أحدهما : أنهم المؤمنون . والثاني : أنه عامٌ في الكلِّ .
ولطفه بالفاجر : أنه لا يهلكه .

(يرزُق من يشاء) أي : يوسِّع له الرِّزق .

فوله تعالى : (من كان يريد حَرْثَ الآخرةِ) قال ابن قتيبة : أي : عملَ
الآخرة ، يقال : فلانٌ يَحْرَثُ الدنيا ، أي : يعمل لها ويجمع المال ؛ فالمعنى : من
أراد بعمله الآخرة (نَزِدْ له في حَرْثِهِ) أي : مُنْضَاعِفٍ له الحسنات .
قال المفسرون : من أراد العمل لله بما يُرضيه ، أعانه الله على عبادته ، ومن
أراد الدنيا مُؤْتِئراً لها على الآخرة لانه غير مؤمن بالآخرة ، يؤته منها ، وهو الذي
قسم له ، (وما له في الآخرة مِن نصيبٍ) لانه كافر بها لم يعمل لها ^(١) .

❦ فصل ❦

اتفق العلماء على أن أول هذه الآية إلى « حرثه » مُحْكَمٌ ، واختلفوا في
باقيها على قولين .

(١) قال ابن كثير : أي : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى
الآخرة مِمَّ البتة بالكلية ، حَرَمَهُ الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ
لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ،
قال : والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيَّدة بالآية التي في (سبحان) وهي قوله تبارك وتعالى :
(من كان يريد العاجلة عجلنا له ما يشاء لمن يريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً .
ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاًّ غَدًّا هؤلاء
وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) .

أحدهما : [أنه] منسوخ بقوله : (عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) [الاسراء : ١٨] ، وهذا قول جماعة منهم مقاتل .

والثاني : أن الآيتين مُحْكَمَتَانِ مُتَّفَقَتَانِ فِي الْمَعْنَى ، لَأنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : نَوْنُهُ مُرَادُهُ ، فَعُلِمَ أَنَّهُ إِعْظَامُ بُؤْيَةِ اللَّهِ مَا أَرَادَ ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ : « لِمَنْ نُرِيدُ » ، وَيَحْتَقِقُ هَذَا أَنَّ لَفْظَ الْآيَتَيْنِ لَفْظُ الْخَبَرِ وَمَعْنَاهُمَا مَعْنَى الْخَبَرِ ، وَذَلِكَ لَا يَدْخُلُهُ النسخ ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) يعني كفار مكة ؛ والمعنى : أَلَهُمْ آلِهَةٌ (شَرَعُوا) أي : اِبْتَدَعُوا (لَهُمْ) دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ؟ (١) (وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ)

(١) قال ابن كثير : وقوله جل وعلا : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) أي : هم لا يسمعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والانس ، من تحريم ما حرّموا عليهم من البحيرة والسائبة والوسيلة والحام ، وتحليل آكل الميتة والدم والفهار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة . اهـ .

وهي : القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة (لِقُضِيَ بَيْنَهُمْ) في الدنيا بنزول العذاب على المكذِّبين . والظالمون في هذه الآية والتي تليها : يراد بهم المشركون . والاشفاق : الخوف . والذي كَسَبُوا : هو الكفر والتكذيب ، (وهو واقعٌ بهم) يعني جزاءه . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (ذلك) يعني : ما تقدم ذِكره من الجنات (الذي يُبَشِّرُ اللهُ عباده) قال أبو سليمان الدمشقي : « ذلك » بمعنى : هذا الذي أخبرتكم به بشرى يبشِّر الله بها عباده . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي : « يَبَشِّرُ » بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين . قوله تعالى : (مُقَلِّدًا لِّمَا سَأَلْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المشركين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ بمكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس ^(١) .
والثاني : أنه لما قَدِم المدينة كانت تُنُوبه نوائبٌ وليس في يده سعةٌ ، فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هدامكم الله به ، وليس في يده سعةٌ ، فاجتمعوا له من أموالكم ما لا يضرُّكم ، ففعلوا ثم أتوه به ، فنزلت هذه الآية ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ^(٢) .

والثالث : أن المشركين اجتمعوا في جمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أنُروا محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجرًا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة ^(٣) .

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/٦ : أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ ، فأرسل الله تعالى : (قل) لهم يا محمد : (لا أسألكم عليه) يعني على ما أدموكم إليه (أجرًا) عوضاً من الدنيا (إلا المودة في القربى) إلا الحفظ في قرابتي فيكم .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ عن ابن عباس بدون سند .

(٣) وكذلك ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ عن قتادة بدون سند .

والهاء في « عليه » كناية عما جاء به من الهدى .
وفي الاستثناء هاهنا قولان .

أحدهما : أنه من الجنس ، فلي هذا يكون سائلاً أجراً . وقد أشار ابن عباس
في رواية الضحاك إلى هذا المعنى ، ثم قال : نُسخت هذه بقوله : (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ
مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ...) [الآية : سبا : ٤٧] ، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل .
والثاني : أنه استثناء من غير الأول ، لأن الأنبياء لا يسألون على تبليغهم أجراً ؛
ولأننا المعنى : لكنني أذكركم المودة في القربى ، وقد روى هذا المعنى جماعة
عن ابن عباس ، منهم العوفي ، وهذا اختيار المحققين ، وهو الصحيح ، فلا يتوجه
النسخ أصلاً ^(١) .

وفي المراد بالقربى خمسة أقوال .

أحدها : أن معنى الكلام : إلاً أن تودوني قرابتي منكم ، قاله ابن عباس ،
وعكرمة ، ومجاهد في الأكثرين . قال ابن عباس : ولم يكن بطن من بطون
قريش إلاً ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة .

والثاني : إلاً [أن] تودوا قرابتي ، قاله علي بن الحسين ، وسعيد بن جبير ،
والسدي . ثم في المراد بقرابته قولان . أحدهما : علي وفاطمة وولدها ، وقد رويوه

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال :
معناه : قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش ، إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي
بيني وبينكم . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله عز وجل : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة
في القربى) أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ
والنصح لكم مالا تطوبونه ، وإنما أطلب منكم أن تكفشوا شرهم عني ، وتذروني أبلغ رسالات ربي ،
إن لم تصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . اهـ .

مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ^(١) . والثاني : أنهم الذين نَحَرُم عليهم الصدقة ويُقَسَّم فيهم الحُمُس ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب .

والثالث : أن المعنى : إَلا أن تَوَدُّوا إلى الله تعالى فيما يقربكم إليه من العمل الصالح ، قاله الحسن ، وقادة .

والرابع إَلا أن تَوَدُّوني ، كما تَوَدُّون قرابتكم ، قاله ابن زيد .
والخامس : إَلا أن تَوَدُّوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم ، حكاه الماوردي .
والأول : أصح .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْتَرِفْ) أي : مَنْ يَكْتَسِبْ (حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْنًا) أي : مُضاعفها بالواحدة عشرًا فصاعداً . وقرأ ابن السميع ، وابن يعمر ، والجدري : « يَزِدْ له » بالياء (إن الله غفورٌ) الذنوب (شُكُورٌ) للقليل حتى يضاعفه .

(أم يقولون) أي : بل يقول كفار مكة (افترى على الله كذباً) حين زعم أن القرآن من عند الله ! (فان يشأ الله يُخْتِمْ على قلبك) فيه قولان .

(١) قال السيوطي في « الدر » ٧/٦ : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) قالوا : يا رسول الله مَنْ قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم ؟ قال : « علي وفاطمة وولداها » وقد ذكره الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشف » وقال : في سنده « حسين الأشقر » ضعيف ساقط ، قال : وقد عارضه ما هو أولى منه ، ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية ، فقال سعيد بن جبير : قريبي آل محمد ﷺ ؟ فقال ابن عباس : عَجِلْتَ ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . . . الحديث . قال ابن كثير : ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالاحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فانهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبعين لاسنة النبوة الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه ، وعلي وأهل بيته وذريته ، رضي الله عنهم أجمعين . اهـ .

أحدهما : يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ فَيُنْسِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ قَتَادَةُ .
والثاني : يَرْبِطُ عَلَى قَلْبِكَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَامٍ فَلَا يَشُقُّ عَلَيْكَ قَوْلُهُمْ : إِنَّكَ
مُفْتَرٍ ، قَالَ مِقَاتِلُ ، وَالزَّجَّاجُ .

قوله تعالى : (وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ) قَالَ الْفَرَاءُ : لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عَلَى « يَخْتِمُ »
فَيَكُونُ جَزْماً ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَأْنَفٌ ، وَمِثْلُهُ مِمَّا حُذِفَتْ مِنْهُ الْوَاوُ (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ
بِالشَّرِّ) [الْأَسْرَاءُ : ١١] . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ : فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ . تَقْدِيرُهُ : وَاللَّهُ يَمْحُو
الْبَاطِلَ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْوَقْفُ عَلَيْهَا « وَيَمْحُوا » بِوَاوٍ وَأَلْفٍ ؛ وَالْمَعْنَى : وَاللَّهُ
يَمْحُو الْبَاطِلَ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ كُتِبَتْ فِي الْمَصَاحِفِ بِغَيْرِ وَاوٍ ، لِأَنَّ الْوَاوَ
تَسْقُطُ فِي الْفِظِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ ، فَكُتِبَتْ عَلَى الْوَصْلِ ، وَلَفْظُ الْوَاوِ ثَابِتٌ ؛
وَالْمَعْنَى : وَيَمْحُو اللَّهُ الشَّرَّكَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنْ كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ .
﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . وَلَوْ بَسَطَ
اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقُدْرٍ مَا يَشَاءُ
لِنَّاسِ لِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي
(بَرَاءة : ١٠٤) .

قوله تعالى : (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) أَي : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . قَرَأَ هَمْزَةً ، وَالْكَسَائِيُّ ،
وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ : بِالتَّاءِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ : بِالْيَاءِ ، عَلَى الْإِخْبَارِ عَنِ الْمَشْرُكِينَ وَالتَّهْدِيدِ لَهُمْ .
و « يَسْتَجِيبُ » بِمَعْنَى يُجِيبُ . وَفِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : أن الفعل فيه لله ، والمعنى : يُجيبهم إذا سألوه ؛ وقد روى قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي ^(١) (ويستجيب الذين آمنوا) قال : يُشَقِّمُونَ في إخوانهم ، (ويزيدهم من فضله) قال : يُشَقِّمُونَ في إخوان إخوانهم .
والثاني : أنه للمؤمنين ؛ فالمعنى : يحيونه . والأول أصح .
قوله تعالى : (ولو بسطَ الله الرزق لعباده) قال خبّاب بن الأرت :
فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أننا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير فتمنيناها ،
فنزات هذه الآية ^(٢) . ومعنى الآية : لو أوسع الله الرزق لعباده لبطروا وعصوا
وبنى بعضهم على بعض ، (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) أي : ينزل أمره بتقدير
ما يشاء مما يصلح أمورهم ولا يُطغيهم (إنه بعباده خير بصير) فهم من لا يصلحه
إلا الفنى ، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر ^(٣) .

(١) كذا الأصل ، والذي في « الطبري » : إبراهيم اللخمي .

(٢) ذكر سبب النزول هذا عن خبّاب بن الأرت بهذا اللفظ الواحد في « أسباب النزول » :
٢٩٣ بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي والخازن في « تفسيرهما » عن خبّاب رضي الله عنه
بدون سند . وروى الطبري في « تفسيره » من رواية عمرو بن حريث وغيره قال : يقولون :
إنما نزلت في أهل الصفّة . وقال السيوطي في « الدر » ٨/٦ : أخرج ابن المنذر ، وسعيد بن منصور ،
وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي
في « شعب الإيمان » بسند صحيح عن أبي هانئ الخولاني قال : سمعت عمرو بن حريث وغيره
يقولون : إنما أنزلت هذه الآية في أهل الصفّة : (ولو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض)
وذلك أنهم قالوا : (لو أن لنا) ، فتمنوا الدنيا .

وقال السيوطي أيضاً : وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال : إنما أنزلت
هذه الآية في أصحاب الصفّة : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) وذلك أنهم قالوا :
(لو أن لنا) ، فتمنوا الدنيا . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : أي : ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره بما فيه صلاحهم ، وهو أعلم
بذلك ، فينبى من يستحق الثنى ، ويفقر من يستحق الفقر . اهـ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَهَنَّمَ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

(وهو الذي ينزل الغيث) يعني المطر وقت الحاجة (مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا) أي : يشعوا ، وذلك أدعى لهم إلى شكر منزله (وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ) في الرحمة هاهنا قولان . أحدهما : المطر ، قاله مقاتل . والثاني : الشمس بعد المطر ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وقد ذكرنا « الولي » في سورة (النساء : ٤٥) و « الحميد » في (البقرة : ٢٦٧) . قوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة) وهو ما يلحق المؤمن من مكروه (فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) من المعاصي . وقرأ نافع ، وابن عامر : « بَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » بغير فاء ، وكذلك [هي] في مصاحف أهل المدينة والشام (ويعفو عن كثير) من السيئات فلا يُعَاقِبُ بها . وقيل لأبي سليمان الداراني : ما بال العقلاء أزالوا اللّهُمَّ عَنْ أَسْمَاءِ إِلَهُهِمْ ؟ قال : إنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : (وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) إن أراد الله عقوبتكم ، وهذا يدخل فيه الكفار والعصاة كلهم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِمْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ شَكُورٍ . أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ .
وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ عَیْصٍ . قَالُوا نَبِئْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ قَتَّاعِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ) والمراد بالجوار : السفن .
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « الجواري » بياء في الوصل ، إلا أن
ابن كثير بقف أيضاً بياء ، وأبو عمرو بنعير ياء ، وبعقوب يوافق ابن كثير ،
والباقون بنعير ياء في الوصل والوقف ؛ قال أبو علي : والقياس ما ذهب إليه ابن كثير ،
ومن حذف ، فقد كثر حذف مثل هذا في كلامهم .

(كلاً علام) قال ابن قتيبة : كالجبال ، واحداً : عَلَمٌ . وروي عن
الخليل بن أحمد أنه قال : كل شيء مرتفع - عند العرب - فهو عَلَمٌ .
قوله تعالى : (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ) التي تُجْرِىهَا (فَيُظِلِّلْنَنَ) يعني
الجواري (رواكد على ظهره) أي : سواكن على ظهر البحر [لا يُجْرِينَ] .
(أَوْ يُوبِقُهُنَّ) أي : يُهْلِكُهُنَّ وَيُغْرِقُهُنَّ ، والمراد أهل السفن ،
ولذلك قال : (بِمَا كَسَبُوا) أي : من الذنوب (وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) من
ذنوبهم ، فيُنْجِيهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ .

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ) قرأ نافع ، وابن عامر : « وَيَعْلَمُ » بالرفع
على الاستثناف وقطعه من الأول ؛ وقرأ الباقون بالنصب . قال الفراء : هو مردود
على الجزم ، إلا أنه صُرف ، والجزم إذا صُرف عنه معطوفه نُصِبَ .
وللمفسرين في معنى الآية قولان .

أحدهما : ويعلم الذين يخاصمون في آيات الله حين يؤخذون بالفرق أنه لاملجأ لهم .

والثاني : أنهم يعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم من المذاب .

قوله تعالى : (فَاُولَئِكَ مِنْ شَيْءٍ) أي : ما أعطيت من الدنيا فهو متاع تمتعون به ، ثم يزول سريعاً ، (وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا) لا للكافرين ، لأنه إنما أعد لهم في الآخرة المذاب .

﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَأَفْوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجِزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْئَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ) وقرأ حمزة ، والكسائي : « كبيرَ الإثم » على التوحيد من غير ألف ، والباقون بألف . وقد شرحنا الكبائر في سورة (النساء : ٣١) ^(١) . وفي المراد بالفواحش هاهنا قولان . أحدهما : الزنا . والثاني : موجبات الحدود .

قوله تعالى : (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) أي : يَغْفِرُونَ عَنْ ظُلْمِهِمْ

طلباً لثواب الله تعالى ^(١) .

(والذين استجابوا لربهم) أي : أجاوبه فيما دعاهم إليه .
(وأمرهم سُورَى بينهم) قال ابن قتيبة : أي : يتشاورون فيه [بينهم] .
وقال الزجاج : المعنى أنهم لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه ^(٢) .
قوله تعالى : (والذين إذا أصابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) اختلفوا في [هذا]
البَغْيُ على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بَغْيُ الكفار على المسلمين . قال عطاء : هم المؤمنون الذين
أخرجهم الكفار من مكة وبَغَوْا عليهم ، ثم مَكَّنهم الله منهم فانتصروا . وقال
زيد بن أسلم : كان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين بعكة ، فرقة كانت تُؤذَى
فَتَعْفُو عن المشركين ، وفرقة كانت تُؤذَى فَتَنْتَصِر ، فَأَتَى الله عز وجل عليهم
جميعاً ، فقال في الذين لم ينتصروا : (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) ، وقال في
المنتصرين : (والذين إذا أصابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) أي : من المشركين .
وقال ابن زيد : ذكر المهاجرين ، وكانوا صنفين ، صنفاً عفا ، وصنفاً انتصر ، فقال :
« وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » ، فبدأ بهم ، وقال في المنتصرين : « (والذين إذا أصابهم

(١) قال ابن كثير : أي : سَجَّيْتُهُمْ تَقْنِضِي الصَّفْعَ وَالْمَعْفُوَ عَنِ النَّاسِ ، أَيْسَ سَجَّيْتُهُمُ الْإِتْقَامَ

مِنَ النَّاسِ .

(٢) قال ابن كثير : أي : لا يبرهون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل
الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تبارك وتعالى : (وشاورهم في الأمر . . .) الآية ، قال :
ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم ، قال : وهكذا لما حضرت
عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جمل الأمر بعده شورى في ستة نفر ، وهم :
عثمان ، وعلي ، وطليحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم ، فاجتمع
رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم ، رضي الله عنهم . اهـ .

البَغْيُ هُم يَنْتَصِرُونَ « أي : من المشركين ؛ وقال : « والذين استجابوا لربهم » إلى قوله : « يُنْفِقُونَ » وهم الأنصار ؛ ثم ذكر الصِّنف الثالث فقال : « والذين إذا أصابهم البَغْيُ هُم يَنْتَصِرُونَ » من المشركين .
والثاني : أنه بَغْيُ المسلمين على المسلمين خاصة .
والثالث : أنه عامٌ في جميع البُغَاة ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين .

﴿ فصل ﴾

واختلف في هذه الآية علماء النسخ والمنسوخ ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف ، فكأنهم يشيرون إلى أنها أتت الانتصار بعد بَغْيِ المشركين ، فلمَّا جاز لنا أن نبدأهم بالقتال ، كَلَّ على أنها منسوخة . وللقائلين بأنها في المسلمين قولان .

أحدهما : أنها منسوخة بقوله : (وَآمَنَ صَبْرًا وَغَفَرَ) [الشورى : ٤٣] فكأنها نُبِّهَتْ على مدح المنتصر ، ثم أعلنا أن الصبر والغفران أمدح ، فبان وجه النسخ .

والثاني : أنها محكمة ، لأن الصبر والغفران فضيلة ، والانتصار مباح ، فلي هذا تكون محكمة ، [وهو الأصح] .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية - وظاهرها مدح المنتصر - وبين آيات الحثِّ على العفو ؟ فمعه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه انتصار المسلمين من الكافرين ، وتلك رتبة الجهاد كما ذكرنا عن عطاء .

والثاني : أن المتصير لم يخرج عن فعل أبيض له ، وإن كان العفو أفضل ، ومن لم يخرج من الشرع بفعله ، حسن مدحه . قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين ، صنف يعفو ، فبدأ بذكره ، وصنف ينتصر .

والثالث : أنه إذا بنى على المؤمن فاسق ، فلأن له اجتراء الفساق عليه ، وليس للمؤمن أن يذلل نفسه ، فيبغى له أن يكسر شوكة العصاة لتكون الميزة لأهل الدين . قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذللوا أنفسهم فيجترى عليهم الفساق ، فإذا قدروا عفووا . وقال القاضي أبو يعلى : هذه الآية محمولة على من تعدى وأصر على ذلك ، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً .

قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) قال مجاهد والسدي : هو جواب التبيح ، إذا قال له كلمة أجابه بمثلها من غير أن يعتدي . وقال مقاتل : هذا في القصاص في الجراحات والدماء .

(فن عفا) فلم يقتص (وأصلح) العمل (فأجره على الله) لأنه لا يُحب الظالمين (يعني من بدأ بالظلم . وإنما سمى المجازاة سيئة ، لما ينشأ عند قوله : (فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) [البقرة : ١٩٤] . قال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ : لِيَقُمَنَّ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، فلا يقوم إلا مَنْ عفا .

(وَلَكِنْ ائْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) أي : بعد ظلم الظالم لإيائه ؛ والمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول ، ونظيره : (من دعاء الخير) [فصل : ٤٩] و (بسؤال نعتك) ^(١) [ص : ٢٤] ، (فأولئك) يعني المتصيرين (ما عليهم من سبيل) أي : من طريق إلى كونه ولا حد ، (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) أي : يتعدون بالظلم (وَيَتَنَفَّسُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أي : يعملون فيها بالمعاصي .

(١) في الأصل : وسؤال نعتك .

قوله تعالى : (وَلَمْ يَصْبِرْ) فلم ينتصر (وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ) الصبر والتجاوز (لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ) وقد شرحناه في (آل عمران : ١٨٦) .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى صِرَاطٍ مِنْ سَبِيلِ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّالِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ . وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ) أي : من أحدي يلي هدايته بعد إضلال الله لإيَّاه .

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ) يعني المشركين (لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ) في الآخرة يسألون الرجعة إلى الدنيا (يَقُولُونَ هَلْ إِلَى صِرَاطٍ مِنْ سَبِيلٍ) ؟ (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا) أي : على النار (خَاشِعِينَ) أي : خاضعين متواضعين (مِنَ الدَّالِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : من طرفٍ ذليل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش : ينظرون من عين ضعيفة . وقال غيره : « مِنْ » بمعنى « الباء » .

والثاني : يسارقون النظر ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : ينظرون ببعض الميئ ، قاله أبو عبيدة .

والرابع : أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم ، لأنهم قد حُسروا عُمِيًا ، فلم يَرَوْهَا بِأَعْيُنِهِمْ ، حكاه الفراء ، والزجاج . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام : ١٢ ، هود : ٣٩] إلى قوله : (يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي : يمنعونهم من عذاب الله .

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ . اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَافًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَافًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيًّا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾
 قوله تعالى : (استجبوا لربكم) أي : أجبوه ، فقد دعاكم برسوله (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ) وهو يوم القيامة (لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ) أي : لا يقدر أحد على رده ودفعه (مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ) تلجؤون إليه ، (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) قال مجاهد : من ناصر ينصركم . وقال غيره : من قدرة على تغيير ما نزل بكم ^(١) .
 (فَإِنْ أَعْرَضُوا) عن الإجابة (فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا) لحفظ أعمالهم (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) أي : ما عليك إِلَّا أَنْ تَبْلِغَهُمْ . وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا) قال المفسرون :

(١) قال ابن كثير : لا ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور المظلمة الهائلة ، حذر منه ، وأمر بالاستعداد له فقال : (استجبوا لربكم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ) أي : إذا أمر بكونه ، فانه كلمح البصر يكون وليس له دافع ولا مانع ، قال : وقوله عز وجل : (مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) أي : ليس لكم حصن تحصنون فيه ، ولا مكان يستركم وتتكثرون فيه فتنبئون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بملئه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إِلَّا إليه (يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لاوذر . إلي ربك يومئذ المستقر) . اهـ .

المراد به : الكافر ؛ والرحمة : الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك ، والسَّيِّئَةُ : المرض والفقر والتعطُّ [ونحو ذلك] . والإنسان هاهنا : اسم جنس ، فذلك قال : (وإن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بما قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ) أي : بما سلف من مخالفتهم (فإنَّ الإنسان كفورٌ) بما سلف من التَّعَمُّ .

(اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي : له التصرف فيها بما يريد ، (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاقًا) يعني البنات ليس فيهنَّ ذَكَرٌ ، كما وهب للوط عليه السلام ، فلم يولد له إلا البنات (وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ) يعني البنين ليس معهم أنثى ، كما وهب لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، [فلم يولد له إلا الذَّكَور] .

(أَوْ يَزْوِجُهُمْ) يعني الإناث والذَّكَور . قال الزجاج : ومعنى « يَزْوِجُهُمْ » : يَقْرُنُهُمْ . وكل شئيين يقرن أحدهما بالآخر ، فهما زوجان ، ويقال لكل واحد منهما : زوج ، تقول : عندي زوجان من الخفاف ، يعني اثنين .

وفي معنى الكلام للمفسرين قولان . أحدهما : أنه وضعُ المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية ، قاله مجاهد ، والجمهور . والثاني : [أنه] وضعُ المرأة جاريةً وغلاماً توأمين ، قاله ابن الحنفية . قالوا : وذلك كما جُمع لمحمد عليه السلام ، فإنه وهب له بنين وبنات ، (وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَقِيماً) لا يولد له ، كيحيى بن زكريا عليها السلام . وهذه الأقسام موجودة في سائر الناس ، وإنما ذكروا الأنبياء تمثيلاً .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

وَأِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) قال المفسرون : سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلمه موسى ونظر إليه ؛ فقال لهم : « لم ينظر موسى إلى الله » ، ونزلت هذه الآية ^(١) . والمراد بالوحي هاهنا : الوحي في المنام .

(أو من وراء حجاب) كما كلم موسى ^(٢) .

(أو يُرْسِلَ) قرأ نافع ، وابن عامر : « يُرْسِلُ » بالرفع (فيوحي) بسكون ألياء . وقرأ الباقر : « يُرْسِلَ » بنصب اللام « فيوحي » بتحريك ألياء ، والمعنى : « أو يرسل رسولا » كجبرائيل « فيوحي » ذلك الرسول إلى المرسل إليه (بأذنه ما يشاء) . قال مكي بن أبي طالب : من قرأ « أو يرسل » بالنصب ، عطفه على معنى قوله : « إلا وحياً » لأنه بمعنى : إلا أن يوحى .

(١) ذكر سبب النزول هذا الواحد في « أسباب النزول » : ٢١٤ بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي والخازن وغيرها بدون سند . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : حديث أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه ، فإنا لنؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فنزلت : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) لم أجده . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى قاذف في رَوْع النبي ﷺ شيئاً لا يتأذى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في « صحيح ابن حبان » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فأتقوا الله وأجلوا في الطلب » قال : وقوله تعالى : (أو من وراء حجاب) كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام فإنه سأل الرؤية بمسد التكلم فحجب عنها . ثم قال : وقوله عز وجل : (أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن قرأ بالرفع ، فعلى الابتداء ، كأنه قال : أو هو يرسل . قال القاضي أبو يعلى : وهذه الآية محمولة على أنه لا يكتسب بشراً إلا من وراء حجاب في دار الدنيا .

قوله تعالى : (وكذلك) أي : وكما أوحينا إلى الرسل (أوحينا إليك) ، وقيل : الواو عطف على أول السورة ، فالمعنى : كذلك نوحى إليك وإلى الذين من قبلك .

« وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا » قال ابن عباس : هو القرآن . وقال مقاتل : وحيًا بأمرنا ^(١) .

قوله تعالى : (ما كنت تدري ما الكتاب) وذلك أنه لم يكن يعرف القرآن قبل الوحي (ولا الإيمان) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الدعوة إلى الإيمان ، قاله أبو العالية .
والثاني : أن المراد به : شرائع الإيمان ومعامله ، وهي كلها إيمان ؛ وقد سمى الصلاة إيماناً بقوله : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) [البقرة : ١٤٣] ، هذا اختيار ابن قتيبة ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة .

والثالث : أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وإذا كان طفلاً قبل البلوغ ، حكاه الواحدي . والقول ما اختاره ابن قتيبة ، وابن خزيمة ، وقد اشتهر في الحديث عنه عليه السلام أنه كان قبل النبوة يوحّد الله ، ويُبغِضُ اللّاتَ والعُزَّى ، ويَحُجُّجُ ويستمر ، ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه ، فهو قول سوء ، أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب ؟ وقال ابن قتيبة : قد جاء في الحديث

(١) في الأصل : هو وحيًا بأمرنا .

أنه كان على دين قومه أربعين سنة . ومعناه : أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل ، من ذلك حِجُّ البيت ، والختان ، وإيقاعُ الطلاق إذا كان ثلاثاً ، وأن الزوج الرجعة في الواحدة والاثنتين ، ودية النفس مائة من الإبل ، والفُسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر . وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والفُسل والحج ، وكان لا يقرب الاوثان ، وبعبئها . وكان لا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه ، فذلك قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب » [يعني القرآن] « ولا الإيمان » يعني شرائع الإيمان ؛ ولم يُردِ الإيمان الذي هو الإقرار بالله ، لأن آباء الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجّون له [البيت] مع شركهم .

قوله تعالى : (ولكنّ جعَلناه) في هاء الكناية قولان . أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن . والثاني : إلى الإيمان .

(« نوراً ») أي : ضياءً ودليلاً على التوحيد (نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ) [من عبادنا]

إلى دين الحق ^(١) .

(١) قال البغوي في « تفسيره » : (ما كنت تدري) قبل الوحي (ما الكتاب ولا الإيمان) يعني شرائع الإيمان ومعاليه ، قال : وقال محمد بن خزيمة : الإيمان في هذا الموضع : الصلاة ، ودليله قوله عز وجل : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) قال : وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي ، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يتبين له شرائع دينه . اهـ .

وقال ابن كثير : (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) أي : على التفصيل الذي شرع لك في القرآن . اهـ . وقال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه ، فقال : (ما كنت تدري ما الكتاب) أي : أي شيء هو ؟ لأنه ﷺ —

(وإنك لتَهْدِي) أي: لتَدْعُو (إلى صراطٍ مستقيمٍ) وهو الإسلام^(١).



— كان أميناً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الاعجاز وأدل على صحة نبوته ، قال : ومعنى (ولا الايمان) : أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها ، قال : وخص الايمان ، لأنه رأسها وأساسها ، قال : وقيل : أراد بالايمان هنا : الصلاة ، قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ، قال : واحتج بقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني الصلاة ، فسهاها إيماناً ، قال : وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به ، وقالوا : معنى الآية : ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الايمان . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وإنك) أي : يا محمد (لتَهْدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ) وهو الحق القويم ، ثم قال في تنمة الآية : ثم فسره بقوله تعالى : (صراطٍ الله) أي : شرعه الذي أمر به الله (الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي : ربها ومالكها والمتصرف فيها والحاكم الذي لا معقب لحكمه (ألا إلى الله تصير الأمور) أي : ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . اهـ .

سورة الزخرف

وهي مكيّة باجماعهم

وقال مقاتل : هي مكيّة، إلا آية^(١)، وهي قوله : (واسأل من أرسلنا)

[الزخرف : ٤٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ- وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا بَأْسَ بِهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَامْضَى الْمَثَلُ الْأَوَّلِينَ . وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(١) في الأصل : وهو .

قوله تعالى : (اِحْم) قد تقدم بيانه [الزمن] .
(والكتاب المبين) قسم بالقرآن .

(اِنَّا جَعَلْنَاهُ) قال سعيد بن جبير : اَنزَلْنَاهُ . وما بمد هذا قد تقدم بيانه
[النساء : ٨٢ ، يوسف : ٢] إلى قوله : (وَاِنَّهُ) يعني القرآن (في أم الكتاب)
قال الزجاج : أي : في أصل الكتاب ، وأصل كل شيء : أمه ، والقرآن مُثَبَّتٌ
عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (لَدَيْنَا) أي : عندنا (لَعَلِّي) أي : ربيع .
وفي معنى الحكيم قولان . أحدهما : مُحْكَم ، أي : ممنوعٌ من الباطل ،
قاله مقاتل . والثاني : حاكمٌ لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الكفر بالنار ، ذكره
أبو سليمان الدمشقي ، والمعنى : إن كذبتُم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريفٌ
عظيمٌ المحل .

قوله تعالى : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا) قال ابن قتيبة : أي :
نُنْسِكُ عَنْكُمْ فلا نذكركم صفحاً ، أي : إعراضاً ، يقال : صَفَحْتُ عَنْ فلان :
إذا أعرضت عنه ، والأصل في ذلك أن مُتَوَلِّيهِ صَفْحَةُ عُنُقِكَ ، قال كثير
يصف امرأة :

صَفُوحًا فَاتَلْفَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ فَنَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ^(١)
أي : مُعْرِضَةً بوجهها ، يقال : ضَرَبْتُ عَنْ فلان كذا : إذا أَسْبَكْتَهُ
وأَضْرَبْتُ عَنْهُ . (أن كنتم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر :
« أن كنتم » بالنصب^(٢) ، أي : لِأَن كنتم قوماً مسرفين . وقرأ نافع ، وحزرة ،

(١) « غريب القرآن » : ٣٩٥ ، و « اللسان » ، و « التاج » : صفح . وفي « غريب
القرآن » ، و « التاج » : « إِلَّا بِحِيلَةٍ » بدل « بِحِيلَةٍ » .
(٢) أي : بفتح الهمزة .

والكسائي : « إن كنتم » بكسر الهمزة . قال الزجاج : وهذا على معنى الاستقبال ،
أي : إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذِّكْر .
وفي المراد بالذِّكْر قولان .

أحدهما : أنه ذِكر العذاب ، فالمعنى : أفنُسِكُ عن عذابكم وتترككم
على كفركم ؟! وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي .
والثاني : أنه القرآن ، فالمعنى : أفنُسِكُ عن إنزال القرآن من أجل
أنكم لا تؤمنون به ؟! وهو معنى قول قتادة ، وابن زيد .

وقال قتادة : « مُسْرِفِينَ » بمعنى مشركين .
ثم أعلم نبيّه أني قد بعثتُ رُسُلًا فكذَّبوا فأهلكتُ المكذِّبين بالآيات
التي تلي هذه .

قوله تعالى : (أَشَدُّ مِنْهُمْ) أي : من قريش (بَطْشًا) أي : مُقوَّةً
(وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) أي : سبق وصف عقابهم فيما أنزل عليك . وقيل :
سبق تشبيه حال أولئك بهؤلاء في التكذيب ، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك .
ثم أخبر عن جهلهم حين أقروا بأنه خالق السموات والأرض ثم عبدوا غيره
بالآية التي تلي هذه ؛ ثم التي تليها مفسرة في (طه : ٥٣) إلى قوله : (لعلكم
تهتدون) أي : لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم .

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا
كَذَلِكَ نُفَخِّرُكُمْ . وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ
مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ لِيَتَسَوَّأَ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا
هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذي نزل من السماء ماءً بقدرٍ) قال ابن عباس : يريد أنه ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قدرٍ فأغرقهم ، بل هو بقدرٍ ليكون نافعاً . ومعنى « أنشرنا » : أحيينا .

قوله تعالى : (كذلك تُخْرِجُونَ) قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر : « تُخْرِجُونَ » بفتح التاء وضم الراء ؛ والباقون بضم التاء وفتح الراء . وما بعد هذا قد سبق [يس : ٣٦ ، ٤٢] إلى قوله تعالى : (لتستوا على ظهوره) قال أبو عبيدة : هاء التذكير لـ « ما » .

(ثم تذكروا نعمة ربكم) إذ سخر لكم ذلك المركب في البر والبحر ، (وما كنا له مقرنين) قال ابن عباس ومجاهد : أي : مطيقين ، قال ابن قتيبة : يقال : أنا مقرون لك ، أي : مطيق لك ، ويقال : هو من قولهم : أنا قرنٌ لفلان : إذا كنت مثله في الشدة ، فإن قلت : أنا قرنٌ لفلان - بفتح القاف - فمعناه : أن تكون مثله بالسن . وقال أبو عبيدة : « مقترنين » أي : ضابطين ، يقال : فلان مقرونٌ لفلان ، أي : ضابط له .

قوله تعالى : (وإنا إلى ربنا لمُنْقَلِبُونَ) أي : راجعون في الآخرة ^(١) .

(١) روى مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بصره خارجاً إلى سفر ، كبر ثلاثاً ، ثم قال : (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل ، وإذا رجع قلن ، وزاد فيهن « آيئون ثابتون ، عابدون ، ربنا حامدون » .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ .
 أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
 بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوْ مَنْ
 يَذَّشُّوا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا) أمّا الجمل هاهنا ، فمعناه :
 الحكم بالشيء ، وهم الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ؛ والمعنى : جعلوا له نصيباً
 من الولد ، قال الزجاج : وأنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى « جزء »
 معنى الإناث - ولا أدري البيت قديم أو مصنوع - :
 « إِنَّ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ ، يَوْمًا ، فَلَا عَجَبُ »

قد نُجْزِي الحُرَّةَ المذكورَ أحياناً ^(١)

أي : آثت ، ولدت أنثى ^(٢) .

قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ) يعني الكافر (لَكَفُورٌ) أي : جحودٌ لِنِعْمِ
 الله عز وجل (مُبِينٌ) أي : ظاهرُ الكفر .

ثم أنكر عليهم فقال : (أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ) وهذا استفهام
 توبيخ وإنكار (وَأَصْفَاكُمْ) أي : أخلصكم (بِالْبَنِينَ) .
 (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ الرَّحْمَنُ مَثَلًا) أي : بما جعل الله شبهها ،
 وذلك أن ولد كل شيء شبهه وجنسه . والآية مفسرة في (النحل : ٥٨) .

(١) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » : ٣٩٦ ، و « القرطبي » : ٦٩/١٦ ،
 و « البحر المحيط » : ٨/٨ ، و « اللسان » ، و « التاج » : جزأ .

(٢) قال في « غريب القرآن » نقلاً عن الزجاج : معنى « إن أجزأت » أي : آثت ،

أي : آثت بأنثى .

قوله تعالى : (أَوْ مَنْ يُنْشَأُ) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : « يُنْشَأُ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ؛ وقرأ الباقون : بفتح الياء وسكون النون . قال المبرد : تقديره : أَوْ يَجْعَلُونَ مَنْ يَنْشَأُ (فِي الْحَيَاةِ) . قال أبو عبيدة : الْحَيَاةُ : الْحَيَاةُ .

قال المفسرون : والمراد بذلك : البنات ، فانهن رُبَيْنَ فِي الْحَيَاةِ . والخصام بمعنى الْمُخَاصَمَةِ ، (غَيْرُ مُبِينٍ) حُجَّةٌ . قال قتادة : فَلَمَّا تَكَلَّمَ امْرَأَةٌ بِحُجَّتِهَا لِأَن تَكَلَّمَ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهَا .

وقال بعضهم : هي الأصنام .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا أَشْهَدُوا وَخَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ . وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أُولَئِكَ جَشَّكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَاثْقَلْنَا مِنْهُمْ فَاثْقَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ) قال الزجاج : الْجَعْلُ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْقَوْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى الشَّيْءِ ، تقول : قد جعلتُ زيداً أعلمَ الناسِ ، أي : قد وصفته بذلك وحكمت به . قال المفسرون : وَجَعَلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَانَا قَوْلُهُمْ : هُنَّ بَنَاتُ اللَّهِ .

قوله تعالى : (الذين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عاصم ،
 ويعقوب ، وأبان عن عاصم ، والشيزري عن الكسائي : « عِنْدَ الرَّحْمَنِ » بنون
 من غير ألف وقرأ الباقر : « عِبَادُ الرَّحْمَنِ » ، ومعنى هذه القراءة : جعلوا له من
 عباده بنات^(١) . والقراءة الأولى موافقة لقوله : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) [الأعراف: ٢٠٦] ،
 وإذا كانوا في السماء كان أَبْعَدَ لِلْمَلِئِمِ بِحَالِهِمْ . (أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؟) قرأ نافع ،
 والمفضل عن عاصم : « أَأَشْهَدُوا » بهزتين ، الأولى مفتوحة والثانية مضمومة .
 وروى المسيبي عن نافع : « أَوْشْهَدُوا » ممدودة من أَشْهَدْتُ ، والباقر لا يمدُّون .
 « أَشْهَدُوا » من شَهِدْتُ ، أي : أَحْضَرُوهُ فَعَرَفُوا أَنَّهُمْ إِنَاتُ ؟ وهذا
 توبيخ لهم إذ قالوا فيما يُعْلَمُ بالمشاهدة من غير مشاهدة . (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ)
 على الملائكة أنها بناتُ الله وقال مقاتل : لما قال الله عز وجل : « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؟ » ،
 سئلوا عن ذلك فقالوا : [لا] ، فقال النبي ﷺ : « فما يُدْرِيكُمْ أَنَّهُ إِنَاتُ ؟ »
 فقالوا : سمعنا من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله : (سَتُكْتَبُ
 شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) عنها في الآخرة^(٢) . وقرأ أبو رزين ، ومجاهد : « سَتُكْتَبُ »
 بنون مفتوحة « شَهَادَتُهُمْ » بنصب التاء ، ووافقهم ابن أبي عملة في « سَتُكْتَبُ »
 وقرأ : « شَهَادَاتِهِمْ » بألف .

قوله تعالى : (وقالوا لو شاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) في المكني عنهم قولان .
 أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله قتادة ، ومقاتل في آخرين . والثاني : الأوثان ، قاله مجاهد .
 وإنما عَنَوْا بهذا أنه لو لم يَرْضَ عِبَادَتُنَا لَهَا لِمَجَّلِ عَقُوبَتَنَا ، فردَّ عليهم قولهم
 بقوله : (ما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ) . وبعض المفسرين يقول : إنما أشار بقوله :

(١) في الأصل : عن عباده بنات .

(٢) ذكر هذا الحديث البغوي في « تفسيره » عن الكبي ومقاتل بدون سند ، وهو منقطع .

وذكره الخازن أيضاً من غير سند ، ولم يزمه لأحد .

« ما لهم بذلك من علم » إلى ادعائهم أن الملائكة إناث ؛ قال : ولم يتعرض لقولهم ^(١) : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ^(٢) لأنه قول صحيح ؛ والذي اعتمدنا عليه أصح ، لأن هذه الآية كقوله : (لو شاء الله ما أشركنا) [الأنعام : ١٤٨] ، وقوله : (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) [يس : ٤٧] وقد كشفنا عن هذا المعنى هنالك . و « يخرصون » بمعنى : يكذبون . وإنما كذبهم ، لأنهم اعتقدوا أنه رضي منهم الكفر ديناً .

(أم آتينام كتاباً من قبله) أي : من قبل هذا القرآن ، أي : بأن يعبدوا غير الله (فهم به مستسكون) يأخذون بما فيه ^(٣) .

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أي : على سنة وملة ودين (وإنا على آثارهم مهتدون) فجمعوا أنفسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حجة ^(٤) ؛ ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذا القول ، فقال : (وكذلك) أي : وكما قالوا قال متبرفو القرى من قبلهم ، (وإنا على آثارهم مقتدون) .

(قل أولو جئتكم) وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « قال أولو جئتكم » [بآلف] . قال أبو علي : فاعل « قال » النذير ، المعنى : فقال لهم النذير . وقرأ أبو جعفر : « أولو جئناكم » بآلف ونون (بأهدى) أي : بأصوب وأرشد .

(١) في الأصل : بقولهم . (٢) في الأصل : « لو شاء الله ما عبدناهم » ، ولفظ الآية كما أثبتناه .

(٣) قال ابن كثير : يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة : (أم آتينام كتاباً من قبله) أي : من قبل شركهم (فهم به مستسكون) أي فيما هم فيه ، أي : ليس الأمر كذلك ، كقوله عز وجل : (أم أنزلنا عليهم سلطاناً ما هم يشكونه بما كانوا به يشركون) أي : لم يكن ذلك . اهـ .

(٤) قال ابن كثير : أي : ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، قال والمراد بها الدين هاهنا وفي قوله تبارك وتعالى : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) ، قال : وقولهم : (وإنا على آثارهم) أي : وراءهم (مهتدون) قال : دعوى منهم بلا دليل . اهـ .

قال الزجاج : ومعنى الكلام : ' قل : أنتبعمون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جنسكم بأهدى منه ' ، وفي هذه الآية إبطال القول بالتقليد . قال مقاتل : فردوا على النبي ﷺ فقالوا : (إنا بما أرسلتم به كافرون) ؛ ثم رجع إلى الأئمة الخالية ، فقال : (فانتقمنا منهم . . .) الآية ^(١) .

❖ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي قَطرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَمَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقْبِهِ كَلِمَتُهُمْ يَرْجِعُونَ . بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ❖

قوله تعالى : (إِنِّي بَرَاءٌ) قال الزجاج : البراء بمعنى البري ، والعرب تقول للواحد : أنا البراء منك ، وكذلك للثنين والجماعة ، والمذكر والأنثى ، يقولون : نحن البراء منك والخلاء منك ، لا يقولون : نحن البراءان منك ، ولا البراءون منك ، وإنما المعنى : أنا ذو البراء منك ، ونحن ذو البراء منك ،

(١) قال ابن كثير : يبين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة المرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون) قال : وهكذا قال هاهنا : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) قال : ثم قال عز وجل : (قل) أي : يا محمد لهؤلاء الشركيين : (أولو جنسكم بأهدى عما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) أي : ولو علموا ونيفتوا صحة ما جنسهم به ، لا اتقادوا لذلك ، لسوء قصدكم ومكابرتهم للحق وأهله ، قال الله تعالى : (فانتقمنا منهم) أي : من الأمم المكذبة بأنواع من المذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم : (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) أي : كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين . اهـ .

كما يقال : رجل عدل ، وامرأة عدل . وقد يثنّا استثناء إبراهيم ربّه عز وجل
مما يعبدون عند قوله : (« لا ربّ العالمين ») [الشعراء : ٧٧] .

قوله تعالى : (وجعلناها) يعني كلمة التوحيد ، وهي « لا إله إلا الله »
(كلمة باقية في عقبه) أي : فيمن يأتي بعده من ولده ، فلا يزال فيهم موحد
(لهم يرجعون) إلى التوحيد كلّهم إذا سمعوا أن أبام تبرأ من الأصنام
ووحّد الله عز وجل ^(١) .

ثم ذكر نعمته على قريش فقال : (بل متعت هؤلاء وآبائهم) والمعنى :
لأنني أجزلت لهم النعم ولم أعاجلهم بالمعقوبة (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن
(ورسول مبين) وهو محمد ﷺ ، فكان ينبغي لهم أن يقابلوا النعم بالطاعة
لرسول ، فخالفوا .

(ولما جاءهم) يعني قريشاً في قول الأكثرين . وقال قتادة : هم اليهود .
(الحق) القرآن .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء ووالده من
بمث بعده من الأنبياء الذي تنسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في
عبادتهم الأوثان فقال : (إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلنا كلمة
باقية في عقبه) أي : هذه الكلمة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ماسواه من الأوثان ،
وهي « لا إله إلا الله » ، أي : جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من
ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام (لهم يرجعون) أي : إليها . اهـ .

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِيبُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِيبُوتِهِمْ أَبْوَابًا
وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ . وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وقالوا لولا) أي : هلا (نُزِلَ هذا القرآنُ على رجل من
القرتين عظيم) أمّا القريتان ، فكّة والطائف ، قاله ابن عباس ، والجماعة ؛
وأما عظيم مكّة ، ففيه قولان .

أحدهما : الوليد بن المغيرة القرشي ، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس ،
[وبه قال قتادة ، والسدي] .

والثاني : عتبة بن ربيعة ، قاله مجاهد .
وفي عظيم الطائف خمسة أقوال .

أحدها : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، رواه العوفي عن ابن عباس .
والثاني : مسعود بن عمرو بن عبيد الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .
والثالث : أنه أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، رواه ليث عن مجاهد ،
وبه قال قتادة .

والرابع : [أنه] ابن عبّيد ياليل ^(١) ، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد .
والخامس : كنانة بن عبد [بن] عمرو بن عمير الطائفي ، قاله السدي .

(١) هو كنانة بن عبد ياليل الثقفي ، شاعر جاهلي ، من أهل الطائف (في الحجاز) ،
كان رئيس ثقيف في زمانه ، مدح النعمان بن المنذر ، وأدرك الإسلام ، وقدم على النبي ﷺ
في وفد ثقيف بعد حصار الطائف ، فأسلم الوفد إلا كنانة ، فتوجه إلى بلاد الروم فمات فيها .
(٢) زيادة من الطبري والقرطبي .

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَإِنْكَارًا : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)
يعني النبوة ، فيضعونها حيث شاؤوا ، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا ^(١) .

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ) المني أنه إذا كانت الأرزاق بقدر الله ،
لابحول المحتال - وهو دون النبوة - فكيف تكون النبوة ؟ ! قال قتادة : إنك
كَلْتَلَفْتَنِي ضَعِيفَ الْحِيلَةِ عَيْيَ اللِّسَانِ قَدْ بُسِطَ لَهُ الرِّزْقُ ، وَتَلَقَّيْتُ شَدِيدَ
الْحِيلَةِ بَسِيطَ اللِّسَانِ ^(٢) وهو مقتور عليه .

قوله تعالى : (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) فيه قولان .
أحدهما : بالنفي والفقر . والثاني : بالحرية والرق (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)
وقرأ ابن السميع ، وابن محيصن : « سِخْرِيًّا » بكسر السين . ثم فيه قولان .
أحدهما : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم ، فَيَلْتَنِمُ قِوَامَ الْعَالَمِ ، وهذا على
القول الأول .

والثاني : ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيَتَّخِذُونَهُمْ عِبِيدًا ، وهذا على الثاني ^(٣) .

(١) قال ابن كثير : قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض : (أَمْ يَقْسِمُونَ
رَحْمَةَ رَبِّكَ) أي : ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل
رسالاته ، فانه لا يبرزها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أسلاً .

(٢) كذا الأصل « بَسِيطَ اللِّسَانِ » والذي في الطبري « سَلِيطَ اللِّسَانِ » .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقول تعالى ذكره :
بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا ، فنجعل من شئنا رسولاً ، ومن أردنا
صديقاً ، وتتخذ من أردنا خليلاً ، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يمشون بها في حياتهم الدنيا
من الأرزاق والأقوات ، فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة ، بل جعلنا هذا غنياً ،
وهذا فقيراً ، وهذا ملكاً ، وهذا مملوكاً (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) .

وقال ابن كثير : قال الله عز وجل مبيناً أنه قد افوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال
والأرزاق والمقول والفهوم وغير ذلك من القرى الظاهرة والباطنة فقال : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

قوله تعالى : (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ) فيها قولان . أحدهما : النبوة خير من أموالهم التي يجمعونها ، قاله ابن عباس . والثاني : الجنة خير مما يجمعون في الدنيا ، قاله السدي ^(١) .

قوله تعالى : (وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) فيه قولان . أحدهما : لولا أن يجمعوا على الكفر ، قاله ابن عباس . والثاني : على إثارة الدنيا على الدين ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (جَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ) لهوان الدنيا عندنا . قال الفراء : إن شئت جعلت اللام في « لِبُيُوتِهِمْ » مكررة ، كقوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) [البقرة : ٢١٧] ، وإن شئت جعلتها بمعنى « على » ، كأنه قال : جَعَلْنَا لَهُمْ عَلَى بُيُوتِهِمْ ، تقول الرجل : جعلتُ لك لقومك الأغطية ، أي : جعلتها من أجلك لهم .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « سَقُفًا » على التوحيد . وقرأ الباقون : « سُقُفًا » بضم السين والقاف جميعاً .

قال الزجاج : والسُقُف واحد بدلٌ على الجمع ؛ فالمعنى : جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فِضَّة (وممارج) وهي الدرَج ؛ والمعنى : وجعلنا ممارج

— مبيئتهم في الحياة الدنيا ...) الآية ، قال : وقوله جلَّتْ عظمتُه : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) قيل : معناه : ليسختر بعضهم بعضاً في الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدي وغيره ، وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ورحة ربك خير مما يجمعون) يقول تعالى ذكره : ورحة ربك يا محمد بادخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا . اه . وقال ابن كثير : أي : ورحة الله خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومنافع الحياة الدنيا . اه .

من فِضَّة ، وكذلك « وَلِيُبَيِّنَهُمْ أَرْبَابَهُمْ » أي : من فِضَّة « وَسُرُّرًا » أي : من فِضَّة .

قوله تعالى : (عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) قال ابن قتيبة : أي : يَعْلَمُونَ ، يقال : ظَهَرْتُ عَلَى الْبَيْتِ : إِذَا عَلَوْتَ سَطْحَهُ .

قوله تعالى : (وَزُخْرُفًا) وهو الذهب ؛ والمعنى : ويجعل لهم مع ذلك ذهباً وغنى (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) المعنى : لَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، و« ما » زائدة . وقرأ عاصم ، وحمة : « لَمَّا » بالتشديد ، فجعله بمعنى « إِلَّا » ؛ والمعنى : إِنْ ذَلِكَ يُشْتَمَعُ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَزُولُ (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) خاصة لهم (١) .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ . ﴾
حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ . وَإِنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقول تعالى ذكره : وما كلُّ هذه الأشياء التي ذكرت ، من السقف من الفضة والمارج والأبواب والشر من الفضة والزخرف ، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) يقول تعالى ذكره : وَزَيْنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَبَهَاؤُهَا عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ - الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ فَخَافُوا عِقَابَهُ ، فَجَدُّوا فِي طَاعَتِهِ وَحَذَرُوا مَعَاصِيَهُ - خاصة ، دون غيرهم من خلق الله . اه . وفي « الصحيحين » عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَشْرَبُوا فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا ، فَانَهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّكُمْ فِي الْآخِرَةِ » . وروى الترمذي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَسَقَى مِنْهَا كَافِرٌ شَرِبَ مَاءَهُ » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

مُشْتَرِكُونَ . أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يُعْرِضُ ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : يَعْمَ ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .
والثالث : أنه البَصَرُ الضعيف ، حكاه الماوردي . وقال أبو عبيدة : تُظْلِمُ عينه عنه . وقال الفراء : مَنْ قرأ : « يَعْشُ » ، فعناه : يُعْرِضُ ، ومن نصب الشين ، أراد : يَعْمَ عنه ؛ قال ابن قتيبة : لا أرى القول إلا قول أبي عبيدة ، ولم نر أحداً يحيزه « عَشَوْتُ عَنْ الشَيْءِ » : أَعْرَضْتُ عنه ، إذا يقال : « تَعَاشَيْتُ عَنْ كَذَا » ، أي : تَفَاوَلْتُ عنه ، كَأَنِّي لم أَرَهُ ، ومثله : تَعَامَيْتُ ، والعرب تقول : « عَشَوْتُ إِلَى النَّارِ » : إذا استدللت إليها ببصر ضعيف ، قال الخطيئة : مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ

تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ^(١)

ومنه حديث ابن المسيب : « أَنْ إِحْدَى عَيْنَيْهِ ذَهَبَتْ ، وَهُوَ يَعْشُو بِالْأُخْرَى » ، أي : يُبْصِرُ بِهَا بَصِراً ضَعِيفاً .

قال المفسرون : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ » فلم يَخَفْ عِقَابَهُ ولم يلتفت إلى كلامه « تَقِيضُ لَهُ » أي : نسب له « شيطانا » فنجعل ذلك جزاءه « فهو له قرين » لا يفارقه^(٢) .

(١) ديوانه : ١٦٦ ، و « مجاز القرآن » : ٢٠٤/٢ ، و « غريب القرآن » : ٣٩٨ ،

و « الكتاب » : ٤٤٥/١ ، و « الخزانة » : ٦٦٢/٣ ، و « روح المعاني » : ٧٤/٢٥ ،

و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : عشا .

(٢) قال ابن كثير : بقول تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ) أي : يتعامى ويتفافل ومرض (عن ذكر الرحمن) —

(ولأنهم) يعني الشياطين (لَبِصْدُوهُمْ) يعني الكافرين ، أي : ينعونهم عن سبيل الهدى ؛ ولأننا جمع ، لأن « مَنْ » في موضع جمع ، (وَيَحْسَبُونَ) يعني كفار بني آدم (أنهم) على هدى .

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا) وقرأ أبو عمرو ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « جَاءَنَا » واحد ، يعني الكافر . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « جَاءَنَا » بالفتن على التثنية ، يعنون الكافر وشيطانه . وجاء في التفسير أنها يُجملان يوم البعث في سلسلة ، فلا يفترقان حتى يُصَيَّرَها الله إلى النار ، (قَالَ) الكافر للشيطان : (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ) أي : يُعَدُّ ما بين الْمَشْرِقَيْنِ ؛ وفيها قولان .

أحدهما : أنها مَشْرِقُ الشمس في أقصر يوم في السنة ، ومَشْرِقُهَا في أطول يوم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والثاني : أنه أراد الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ، فقلَّب ذكر الْمَشْرِقِ ، كما قالوا : سُنَّةُ الْعُمَرَيْنِ ، يريدون : أبا بكر وعمر ، وأنشدوا من ذلك :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ
لَنَا قُرَاهَا وَالنَّجُومُ الطَّوَالِعُ^(١)

يريد : الشمس والقمر ؛ وأنشدوا :

فَبَصْرَةُ الْأَزْدِ مِنَّا وَالْمِرَاقُ لَنَا
وَالْمَوْصِلَانِ وَمِنَّا مِصْرُ وَالْحَرَمُ^(٢)

يريد : الجزيرة والموصل ، [وهذا اختيار الفراء ، والزجاج] .

— قل : والمشا في المين : ضمت بصرها ، والمراد هاهنا : عشا البصرة (نقيض له شيطانا فهو له قرين) كقوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) . اهـ .

(١) البيت للفردق ، ديوانه : ٥١٩ ، ودالكامل : ١٢٤ ، ود الطبري : ٧٤/٢٥ .

(٢) البيت غير منسوب في الطبري : ٧٤/٢٥ ، ود الصحناح ، ود القبان .

و « التاج » : وصل .

قوله تعالى : (فَبَشِّرْ الْقَارِئِينَ) أي : أنت أيها الشيطان . ويقول الله عز وجل يومئذ للكفار : (وإن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم) أي : أشركتم في الدنيا (أنكم في العذاب مشتركون) أي : لن ينفعكم الشراكة في العذاب ، لأن لكل واحد منه الحظّ الأوفر . قال المبرد : مُنِعُوا روح التأسّي ، لأن التأسّي يُسهّل المصيبة ، وأنشد للخنساء أخت صخر بن مالك في هذا المعنى :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعْزِي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي^(١)

وقرأ ابن عامر : « إنكم » بكسر الالف .

ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشقاوة بقوله : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ . . .) الآية .

﴿ فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَأَنَا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأَنَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ . فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَدِكُّكَ لَكَلِّ لِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ) قال أبو عبيدة : معناها : فان نذهبَنَّ ؛ وقال الزجاج : دخلت « ما » توكيداً للشرط ، ودخلت النون الثقيلة في « نَذَهَبَنَّ » توكيداً أيضاً ؛ والمعنى : إنا ننتقم منهم إن توفيت أَوْ نُرِيَنَّكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ ووعدناك فيهم من النصر . قال ابن عباس : ذلك يوم بدر . وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : (فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ) منسوخ بآية السيف ، ولا وجه [له] .

(١) ديوانها : ٨٤ ، و د الكامل : ١٥ ، و د البحر المحيط : ١٧/٨ ، و د روح

المعاني : ٧٧/٢٥ . والتأسي : التعبير .

قوله تعالى : (وإِنَّهُ) يعني القرآن (لَدِكُرُّ لَكَ) أي : شَرَفُ لَكَ بما أعطاك الله (وَلِقَوْمِكَ) في قومه ثلاثة أقوال . أحدها : العرب قاطبة . والثاني : قريش . والثالث : جميع من آمن به . وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سئل : لِمَنْ هذا الأمرُ من بعدك ؟ لم يُخْبِر بشيء ، حتى نزلت هذه الآية ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : « لقريش » ^(١) . وهذا يدل على أن النبي ﷺ فهم من هذا أنه يُلِي على المسلمين بحُكم الثبوة وشرف القرآن ، وأن قومه يَخْلُفونه من بعده في الولاية لشرف القرآن الذي أنزل على رجلٍ منهم . ومذهب مجاهد أن القوم هاهنا : العرب ، والقرآن شَرَفٌ لهم إذ أنزل بلغتهم . قال ابن قتيبة : إنما وُضع الذِّكْر موضع الشَّرَف ، لأن الشَّرِيف يُذَكَّر . وفي قوله : (وسوف تُسألون) قولان . أحدهما : عن شكر ما أعطيتكم من ذلك . والثاني : عما لزمكم فيه من الحقوق .

﴿ وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ

(١) ذكره البغوي من رواية الضحاك عن ابن عباس بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي عن ابن عباس بدون سند . قال السيوطي في « الدرر » ١٨/٩ : أخرج ابن عدي ، وابن مردويه عن علي وابن عباس قالا : كان رسول الله ﷺ يَعرِض نفسه على القبائل بمكة ، ويمدِّم الظهور ، فإذا قالوا : لمن الملك بعدك ؟ أمسك فلم يجيب بشيء ، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء ، حتى نزلت : (وإِنَّهُ لَدِكُرُّ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) فكان بعدُ إذا سئل ، قال : « لقريش » فلا يجيبوه ، حتى قبلته الأنصار على ذلك .

وروى البخاري في « صحيحه » عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر في قريش لا يصاديهم أحد إلا كبته الله على وجهه ما أقاموا الدين » . قال ابن كثير : ومعناه : أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه ، قال : وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلف من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم . اهـ .

وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ . وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْسُكُونَ . وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ *

قوله تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) إن قيل : كيف يسأل الرسل وقد ماتوا قبله ؛ فمعه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لما أُسري به مُجمع له الأنبياء فصلّى بهم ، ثم قال [له] جبريل : سل من أرسلنا قبلك ... الآية ^(١) . فقال : لا أسأل ، قد اكتفيت ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وهذا قول سعيد بن جبير ، والزهري ، وابن زيد ؛ قالوا : مُجمع له الرسل ليلة أُسري به ، فلقبهم ، وأمر أن يسألهم ، فما شك ولا سأل . والثاني : أن المراد : [اسأل] مؤمني أهل الكتاب [من] الذين أرسلت إليهم الأنبياء ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي في آخرين . قال ابن الأنباري : والمعنى : سل أتباع من أرسلنا قبلك ،

(١) وهذا تفسير للآية ، ولفظها : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) .

كما تقول : السخاء حاتم ، أي : سخاء حاتم ، والشعر زهير ، أي : شعر زهير .
وعند المفسرين أنه لم يسأل على القولين . وقال الزجاج : هذا سؤال تقرير ، فإذا سأل
جميع الأئمة ، لم يأتوا بأن في كتبهم : أن يعبدوا غيري .
والثالث : [أن] المراد بخطاب النبي ﷺ : خطاب أمته ، فيكون المعنى :
سلوا ، قاله الزجاج ^(١) . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (إذا هم منها يضحكون)
استهزاء بها وتكديها .

(وما نزيهم من آية إلا هي أكبر من أختها) يعني ما ترادف عليهم
من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ، فكانت كل آية
أكبر من التي قبلها ، وهي العذاب المذكور في قوله : (وأخذناهم بالعذاب) ،
فكانت عذاباً لهم ، وممجزات لموسى عليه السلام .

قوله تعالى : (وقالوا يا أيها السّاحر) في خطابهم له بهذا ثلاثة أقوال .
أحدها : أنهم أرادوا : يا أيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيماً ، رواه
أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم قالوه على جهة الاستهزاء ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالسّاحر ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (إننا كُهِتدون) أي : مؤمنون بك . فدعا موسى ، فكُشف

عنهم ، فلم يؤمنوا . وقد ذكرنا ما تركناه هاهنا في (الأعراف : ١٣٥) .

قوله تعالى : (تجزري من تحتي) أي : من تحت قصوري ^(٢)

(أفلا تبصرون) عظمتي وشدة ملكي !

(١) رجح القول الثاني ابن جرير الطبري في « تفسيره » .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى غبراً عن فرعون وقرنه وعنه وكفره وعنده أنه جمع
قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار
تجري من تحتي) .

(أَمْ أَنَا خَيْرٌ) قال أبو عبيدة : أراد : بل أنا خيرٌ . وحكى الزجاج عن سيبويه والتحليل أنها قالا : عطف « أنا » بـ « أَمْ » على « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » [فكأنه قال : أَفَلَا تُبْصِرُونَ] أم أنتم بُصْرَاءُ ! لأنهم إذا قالوا : أنت خيرٌ منه ، فقد صاروا عنده بُصْرَاءُ . قال الزجاج : والمهين : القليل ؛ يقال : شيءٌ مهينٌ ، أي : قليل . وقال مقاتل : « مهين » بمعنى ذليل ضعيف ^(١) .

قوله تعالى : (ولا يكاد يبين) أشار إلى عقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه ، فكأنه عيَّره بشيء قد كان وزال ، ويدل على زواله قوله تعالى : (قد أوتيتَ سؤلكَ يا موسى) [طه : ٣٦] ، وكان في سؤاله : (واحللْ عُقْدَةَ من لساني) [طه : ٢٧] . وقال بعض العلماء : ولا يكاد يبين الحُجَّةَ ولا يأتي ببيان يفهم ^(٢) .

(فلولاً) أي : فهلاً (أَلْقَيْ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ) وقرأ حفص عن

(١) قال ابن كثير : يعني فرعون - لعنه الله - بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : وقد كذب في قوله هذا كذباً بيئناً واضحاً ، فعليه لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ، قال : وبيني بقوله : « مهين » كما قال سفيان : حقير ، وقد قتادة والسدي : يعني ضعيف ، قال : وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (ولا يكاد يبين) افتراء أيضاً (يعني من فرعون لعنه الله) فانه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الحجرة ، فقد سأل الله عز وجل أن يحلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، قال : وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : (قد أوتيتَ سؤلكَ يا موسى) قال : ويتقدر أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل منه الإبلاغ والافهام ، قال : فالأشياء المختلفة التي ليست من فصل البعد لا يباب بها ولا يندم عليها ، قال : وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويح على رعيته ، فانهم كانوا جهلة أغبياء . اهـ .

زاد المسير ٧ م (٢١)

عاصم : « أَسْوَرَةٌ » بغير ألف . قال الفراء : واحد الأساور : إسوار ، وقد تكون الأساور جمع أسورة ، كما يقال في جمع الاستقية : الأساقى ، وفي جمع الأكرع : الأكارع . وقال الزجاج : يصلح أن تكون الأساور جمع الجمع ، تقول : أسورة وأسورة ، كما تقول : أقوال وأقويل ، ويجوز أن تكون جمع إسوار ، وإنما صرفت أسورة ، لأنك ضمت الهاء إلى أساور ، فصار اسماً واحداً ، وصار له مثال في الواحد ، نحو « علانية » .

قال المفسرون : إنما قال فرعون هذا ، لأنهم كانوا إذا سودوا الرجل منهم سوروه بسوار .

(أو جاء معه الملائكة مقترنين) فيه قولان . أحدهما : متابئين ، قاله قتادة . والثاني : يشون معه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فاستخف قومَه) قال الفراء : استغزهم ؛ وقال غيره : استخف أحلامهم وحملهم على خيفة الحليم بكيدة وغروره (فاطاعوه) في تكذيب موسى .

(فلما آسفونا) قال ابن عباس : أغضبونا . قال ابن قتيبة : الأسف : الفضب ، يقال : أسفتُ آسفُ أسفاً ، أي : غضبتُ ^(١) .

(فجعلناهم سلفاً) أي : قوماً تقدموا . وقرأها أبو هريرة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وحيد الأعرج : « سلفاً » بضم السين وفتح اللام ، كأن واحدته سلفة من الناس ، مثل القطعة ، يقال : تقدمت سلفة من الناس ، أي : قطعة منهم . وقرأ حمزة ، والكسائي : « سلفاً » بضم السين واللام ، وهو

(١) قال ابن جرير الطبري : قال ابن زيد في قوله : (فلما آسفونا) قال : أغضبونا (انتقمنا منهم) يقول : انتقمنا منهم بما جل العذاب الذي عجلناه لهم ، فأغرقناهم جميعاً في البحر . اهـ .

جمع « سَلَف » ، كما قالوا : خَشَبٌ وَخَشْبٌ ، وَتَمَرٌ وَتُمَرٌ ، ويقال : هو جمع « سَلِيف » ، وكلُّهُ من التَّقدم . وقال الزجاج : « السَّليْف » جمعٌ قد مضى ؛ والمعنى : جعلناهم سَلَفًا مُتَقَدِّمِينَ لِيَتَّبِعُوا بِهِمُ الْآخِرُونَ .
قوله تعالى : (وَمَثَلًا) أي : عِبْرَةً [وَعِظَةً] .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .
وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ .
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . وَإِنَّهُ لَمِنَ
السَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .
وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَمِّ . هَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) أكثر المفسرين على أن
هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبيري رسول الله ﷺ حين نزل قوله : (إنا أنعم
وما تعبدون من دون الله . . .) [الآية] [الأنبياء : ٩٨] . وقد شرحنا القصة في
سورة (الأنبياء : ١٠١) ^(١) . والمشركون هم الذين ضربوا عيسى مَثَلًا لآلهتهم

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٧٥ ، ٢١٤ ، وذكره البغوي بدون سند

قال : قال ابن عباس وأكثر المفسرين : إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبيري مع النبي ﷺ —

وشبههوه بها ، لأن تلك الآية إنما تضمنت ذكر الأصنام ، لأنها عبّدت من دون الله ، فألزموه عيسى ، وضربوه مثلاً لأصنامهم ، لأنه معبود النصارى . والمراد بقومه : المشركون .

فأما (يَصِدُّونَ) فقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بضم الصاد ، وكسرها الباقون ؛ قال الزجاج : ومعناها جميعاً : يَضِجُّونَ ، ويجوز أن يكون معنى المضمومة : يُعْزِرُونَ . وقال أبو عبيدة : من كسر الصاد ، فجازها : يَضِجُّونَ ، ومن ضمها ، فجازها : يَمْدِلُونَ .

قوله تعالى : (وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو) المعنى : ليست خيراً منه ، فإن كان في النار لأنه عبّد من دون الله ، فقد رضيّا أن تكون آلهتنا بمنزلة . (ماضربوه لك إلا جدلاً) أي : ماذكروا عيسى إلا ليجادلوك به ، لأنهم قد علموا أن المراد بـ « حصب جهنم » ما اتخذوه من الموات ^(١) (بل هم قوم خصمون) أي : أصحاب خصومات ^(٢) .

قوله تعالى : (وجعلناه مثلاً) أي : آية وعبرة (ابني إسرائيل) يعرفون به قدرة الله على ما يريد ، إذ خلقه من غير أب .

— في شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى : (إنكم وما تعبّدون من دون الله حصب جهنم) [الأنبياء : ١٠١] ، وكذلك ذكره الخازن بدون سند ، وقد ذكر المفسرون ذلك في سورة [الأنبياء : ١٠١] ، وانظر الجزء (٥) صفحة ٣٩٣ من كتابنا هذا ،

(١) عبارة البغوي والخازن : وقد علموا أن المراد من قوله : « إنكم وما تعبّدون من دون الله حصب جهنم » هؤلاء الأصنام .

(٢) روى الامام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير الطبري عن أبي أمامة رضي الله عنه بسند صحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) .

ثم خاطب كفار مكة ، فقال : (ولو نشاء لَجَمَعْنَا مِنْكُمْ) فيه قولان .
أحدهما : أن المعنى : لَجَمَعْنَا بدلاً مِنْكُمْ (ملائكة) ؛ ثم في معنى « يَخْلُقُونَ »
ثلاثة أقوال . أحدها : يَخْلُقُ بعضهم بعضاً ، قاله ابن عباس . والثاني : يَخْلُقُونَكُمْ
ليكونوا بدلاً مِنْكُمْ ، قاله مجاهد . والثالث : يَخْلُقُونَ الرُّسُلَ فيكونون رسلاً إِلَيْكُمْ
بدلاً مِنْهُمْ ، حكاه الماوردي .

والقول الثاني : أن المعنى : « ولو نشاء لَجَمَعْنَا مِنْكُمْ ملائكة » أي : قَلَبْنَا الْخَلِيقَةَ
فَجَمَعْنَا بَعْضَكُمْ مَلَائِكَةً يَخْلُقُونَ مَنْ ذَهَبَ مِنْكُمْ ، ذكره الماوردي .
قوله تعالى : (وَإِنَّكُمْ لَعَلَّمْتُمْ لِّلسَّاعَةِ) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : [أنها] تَرْجِعُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام . ثم في معنى الكلام قولان .
أحدهما : نزولُ عِيسَى مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ يُعَلِّمُ بِهِ قُرْبَهَا ، وهذا قول ابن عباس ،
ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي . والثاني : أن إحياء عِيسَى الموتى دليلٌ
على الساعة وبعث الموتى ، قاله ابن إسحاق .

والقول الثاني : أنها تَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبیر .
وقرأ الجمهور : « لَعَلَّمْتُ » بكسر العين وتسكين اللام ؛ وقرأ ابن عباس ،
وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، وقتادة ، وحيد ، وابن محيصن : بفتحها ^(١) .
قال ابن قتيبة : من قرأ بكسر العين ، فالعنى أنه يُعَلِّمُ بِهِ قُرْبُ السَّاعَةِ ،
ومن فتح العين واللام ، فإنه بمعنى العلامة والدليل ^(٢) .

(١) في الأصل : بفتحها ، والتصويب من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما ثبت به عيسى عليه
الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسماء ، قال : وفي —

قوله تعالى : (فَلَا تَمْتَرُنَّ بَهَا) أي : فلا تشككن فيها (واتبعون)
على التوحيد (هذا) الذي أنا عليه (صراط مستقيم) .

(ولما جاء عيسى بالبينات) قد شرحنا هذا في (البقرة : ٨٧) .

(قال قد جئتكم بالحكمة) وفيها قولان . أحدهما : النبوة ، قاله عطاء ،
والسدي . والثاني : الإنجيل ، قاله مقاتل .

(وَلَا يُتَيْنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ) [أي] : من أمر دينكم ؛ وقال
بجاهد : « بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ » من تبديل التوراة ؛ وقال ابن جرير : من
أحكام التوراة . وقد ذهب قوم إلى أن البعض هاهنا بمعنى الكل . وقد شرحنا
ذلك في (أحسن المؤمنين : ٢٨) ؛ قال الزجاج : والصحيح أن البعض لا يكون في
معنى الكل ، وإنما يتن لهم عيسى بعض الذي اختلفوا فيه مما احتاجوا إليه ؛
وقد قال ابن جرير : كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فبين لهم أمر
دينهم فقط . وما بعد هذا قد سبق يسانه [النساء : ١٧٥ ، مريم : ٣٧] إلى قوله :
(هَلْ يَنْظُرُونَ) يعني كفار مكة .

— هذا نظر ، قال : وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أن الضمير
في « وإنه » عائد على القرآن ، قال : بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام ،
فإن السياق في ذكره ، قال : ثم المراد بذلك زواله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى :
(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) أي : قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام
(ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قال : ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لمتك الساعة)
أي : أمانة ودليل على وقوع الساعة ، قال : قال بجاهد : (وإنه لمتك الساعة) أي : آية للساعة
خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، قال : وهكذا روي عن أبي هريرة ،
وابن عباس ، وأبي العالية ، وأبي مالك ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم ،
قال : وقد توارت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بقول عيسى بن مريم عليه السلام
قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً . اهـ .

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ .
يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ .
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَائِسْتَهِيهِ
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿

قوله تعالى : (الْاُخْلَاءُ) أي : في الدنيا (يَوْمَئِذٍ) أي : في القيامة
(بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) لأنَّ الحُلَّةَ إِذَا كَانَتْ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ صَارَتْ عَدَاوَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ وقال مقاتل : نزلت في أمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط
(إِلَّا الْمُتَّقِينَ) يعني الموحدين ^(١) . فاذا وقع الخوف يومَ القيامة نادى مناد
(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) ، فيرفع الخلائق رؤوسهم ،
فيقول : (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) ، فينكس الكفار رؤوسهم ^(٢) .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (الْاُخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) أي :
كل صداقة وصحابة لغير الله ، فلنقل يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله عز وجل ، فانه
دائم بدوامه ، قال : وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه : (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَبَلَّغَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا
وَمَا أَوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ فَاعِلِينَ) اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)
وفي هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكر عليه ، قال : ومعنى الكلام : الْاُخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، فانهم يقال لهم : يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ مِنْ عِقَابِي ،
فإني قد أمنتكم منه برضائي عنكم ، ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلَى فِرَاقِ الدُّنْيَا ، فإن الذي قدمتم عليه
خير لكم مما فارقتموه منها . اهـ .

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « يا عبادي » بإثبات الياء في الحالين وإسكانها ، وحذفها في الحالين ابن كثير ، وحمة ، وانكسائي ، وحفص ، والمفضل عن عاصم ، وخلف .

وفي أزواجهم قولان . أحدهما : زوجاتهم . والثاني : قرناؤهم .

وقد سبق معنى (مُتَخَبِّرُونَ) [الروم : ١٥] .

قوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ) قال الزجاج : واحدها صَحْفَةٌ ، وهي القصعة . والأَكْوَابُ ، واحدها : كُوبٌ ، وهو إناء مستدير لأَعْرُوَةٍ له ؛ قال الفراء : الكُوبُ : [الكوز] ^(١) المستدير الرأس الذي لا أَذُنَ له ، وقال عدي :

مُتَكِّئًا تَصَفِّقُ أَبْوَابُهُ يَسْمَعِي عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ ^(٢)

وقال ابن قتيبة : الأَكْوَابُ : الأَبَارِيقُ التي لا عُرَى لها . وقال شيخنا أبو منصور اللغوي : وإنما كانت بخير عُرَى لِيَشْرَبَ الشَّارِبُ مِنْ أَيْنَ شَاءَ ، لأنَّ العُرُوَّةَ تَرُدُّ الشَّارِبَ مِنْ بَعْضِ الْجِهَاتِ .

قوله تعالى : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ) وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « تشتهيه » بزيادة هاء . وحذفُ الهاء كإثباتها في المعنى .

قوله تعالى : (وَتِلْكَ الْأَعْمِينَ) يقال : كَلَذْتُ الشَّيْءَ ، واستلذذته ، والمعنى : ما من شيء اشتتهه نَفْسٌ أو استلذذته عين إلا وهو في الجنة ، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين ، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النَّفْسِ أو العين ، وتأمم النَّعِيمَ الخلود ، لأنه لو انقطع لم تَطِبْ .

(١) زيادة من « اللسان » .

(٢) البيت لعمري بن زيد ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/٢٠٦ ، و « القرطبي » :

١٦/١١٤ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : كُوبٌ .

(وتلك الجنة) يعني التي ذكرها في قوله : « ادخلوا الجنة » (التي أُورِثْتُمُوهَا) قد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) عند قوله : (أُورِثْتُمُوهَا) .
 ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ . وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُوتَ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ . أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ أَوْرُسْنَا لَهُمُ يَكْتُمُونَ . قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أُولُو الْعَابِدِينَ . سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) يعني الكافرين ، (لَا يُفْتَرُّ) أي : لَا يُخَفَّفُ (عنهم وَهُمْ فِيهِ) يعني في العذاب (مُبْلِسُونَ) قال ابن قتيبة : آيسون من رحمة الله . وقد شرحنا هذا في (الأنعام : ٤٤) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) أي : ماعدبناهم على غير ذنب (وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) لأنفسهم بما جَنَوْا عليها . قال الزجاج : والبصريون يقولون : « هُم » هاهنا فصل ، كذلك يسمونها ، ويسمونها الكوفيون : المباد .

قوله تعالى : (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ) وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وابن عمر : [« يمال »] بنير كاف مع كسر اللام . قال الزجاج : وهذا يسميه النحويون : [الترخيم] ، ولكني أكرها لمخالفة المصحف .

قال المفسرون : يَدْعُونَ مَا لَكَ خَازِنَ النَّارِ فيقولون : (لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)

[أي] : لِيُمِيتُنَا ^(١) ؛ والمعنى : أنهم توسَّلوا به لِيَسْأَلَ الله تعالى لهم الموت فيستريحوا من المذاب ؛ فبسكُت عن جوابهم مُدَّةٌ ، فيها أربعة أقوال . أحدها : أربعون عاماً ، قاله عبد الله بن عمرو ، ومقاتل . والثاني : ثلاثون سنة ، قاله أنس . والثالث : ألف سنة ، قاله ابن عباس . والرابع : مائة سنة ، قاله كعب .

وفي سكوته عن جوابهم هذه المدة قولان . أحدهما : أنه سكُت حتى أوحى الله إليه أن أجيبهم ، قاله مقاتل . والثاني : لأن بُدَّ ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذل .

قال الماوردي : فردَّ عليهم مالك فقال : (إنكم ما كنون) أي : مقبوضون في العذاب .

(لقد جئناكم بالحق) أي : أرسلنا رسالنا بالتوحيد (ولكن أكثركم) قال ابن عباس : يريد : كلُّكم (كارهون) لما جاء به محمد ﷺ ^(٢) .

قوله تعالى : (أم أبرموا أمراً) في « أم » قولان . أحدهما : أنها للاستفهام . والثاني : بمعنى « بل » . والإبرام : الإحكام . وفي هذا الأمر ثلاثة أقوال .

أحدها : المسكرُ برسول الله ﷺ ليقْتُلوه أو يُخْرِجوه حين اجتمعوا في دار الندوة ؛ وقد سبق بيان القصة [الأنفال : ٣٠] ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إحكام أمرهم في تكذيبهم ، قاله قتادة .

والثالث : أنه : لإبرام أمرهم يُنجيهم من المذاب ، قاله الفراء .

(١) في الأصل : يميتنا ، والتصويب من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : (ولكن أكثركم لالحق كارهون) أي : ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ،

ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتنطعمه وتصدُّ عن الحق وتأناه ، وتبغض أهله ، فمؤدوا على أنفسكم باللاماة واندماؤوا حيث لاتنفعكم الندامة . اهـ .

(فَأَنَا مُبْرِمُونَ) أي : مُخَكِّمُونَ أَمْرًا فِي مجازاتهم .
 (أَمْ يَخْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ) وهو مَا يُسِرُّونَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ
 (وَنَجْوَاهُمْ) مَا يَتَنَجَّوْنَ بِهِ بَيْنَهُمْ (بَلَى) والمعنى : إِنَّا نَسْمَعُ ذَلِكَ (وَرُسُلَنَا)
 يعني [مِنْ] الْحَفَظَةِ (لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .
 (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) فِي « إِنْ » قَوْلَانِ .
 أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا بِمَعْنَى الشَّرْطِ ؛ وَالْمَعْنَى : إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فِي قَوْلِكُمْ وَعَلَى زَعْمِكُمْ ^(١) ،
 فَعَلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .
 أَحَدُهَا : فَأَنَا أَوَّلُ الْجَاهِلِينَ ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي رِوَايَةٍ
 أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ أَعْرَابِيَيْنِ اخْتَصِمَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : إِنْ هَذَا كَانَتْ
 لِي فِي يَدِهِ أَرْضٌ ، فَعَبَدْنِيهَا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ
 الْجَاهِلِينَ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا .
 وَالثَّانِي : فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ خِلَافًا لِقَوْلِكُمْ ، هَذَا قَوْلٌ بِجَاهِدٍ وَقَالَ
 الزَّجَّاجُ : مَعْنَاهُ : إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا ، فَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤَحِّدِينَ .
 وَالثَّلَاثُ : فَأَنَا أَوَّلُ الْآتِفِينَ لِلَّهِ مِمَّا قُلْتُمْ ، قَالَ ابْنُ السَّائِبِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ .
 قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : يَقَالُ : عَبَدْتُ مَنْ كَذَا ، أَعْبَدْتُ عَبْدًا ، فَأَنَا عَبْدٌ وَعَابِدٌ ،
 قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى : (قُلْ) يَا مُحَمَّدُ (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)
 أَيِ : لَوْ فَرَضَ هَذَا لَعَبَدْتُهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنِّي عَبْدٌ مِنَ عِبِيدِهِ مُطِيعٌ لِجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ ، لَيْسَ عِنْدِي
 اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِهَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَوْ فَرَضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا ، وَلَكِنْ هَذَا مُتَمَنِّعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ،
 قَالَ : وَالشَّرْطُ لَا يَلْزِمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ
 يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَلَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) . اهـ .

[أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ هَجَوْنِي هَبَجَوْهُمْ]

وَأَعْبَدُ أَنْ تُنْجِي نَعِيمٌ بِدَارِمٍ^(١)

أي : آتَفُ . وأنشد أبو عبيدة :

وَأَعْبَدُ أَنْ أُسَبِّحَهُمْ بِقَوْمِي وَأُوْتِرُ دَارِمًا وَبَنِي رَزَاحٍ

والرابع : أن معنى الآية : كما أتيت لست أول عابد لله ، فكذلك ليس له ولد ؛ وهذا كما تقول : إن كنت كاتباً فأنا حاسبٌ ، أي : لست كاتباً ولا أنا حاسبٌ ؛ حكى هذا القول الواحدي عن سفيان بن عيينة .

والقول الثاني : أن « إن » بمعنى « ما » ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ،

وابن زيد ؛ فيكون المعنى : ما كان للرحمن [ولد] ، فأنا أول من عبد الله على يقين أنه لا ولد له . وقال أبو عبيدة : الفاء على [هذا القول] بمعنى الواو^(٢) .

قوله تعالى : (فَذَرْنِم) يعني كفار مكة (يَخْضَوْنَ) في باطلهم (وَيَلْعَبُوا) في دنياهم (حَتَّى يُلَاقُوا) وفرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن محيصن ، وأبو جعفر : « حَتَّى يَلْقُوا » بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف . والمراد : يلاقوا [يوم] القيامة وهذه الآية [عند الجمهور] منسوخة بآية السيف .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) البيت في د جاز القرآن : ٢/٢٠٠ ، ود غريب القرآن : ٤٠١ ، ود البحر

المحيط : ٢٨/٨ ، ود القرطبي : ١٦/١٢٠ ، ود الصحاح ، ود اللسان ، ود التاج : عبد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال :

معنى « إن » : الشرط الذي يقتضي الجزاء .

مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَتَى يَوْمَ فَكُورٍ . وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) قال مجاهد ، وقتادة : يُعْبَدُ في السماء ويُعْبَدُ في الأرض . وقال الزجاج : هو الموحد في السماء وفي الأرض . وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن السميع ، وابن عمر^(١) ، والجدري : « في السماء الله وفي الأرض الله » بألف ولام من غير تنوين ولا همز فيها . وما بعد هذا قد سبق يسأله [الأعراف : ٥٤ ، لقمان : ٣٤]^(٢) إلى قوله : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ) سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونقرأ معه قالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن نتولّى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فنزلت هذه الآية ، فآله مقاتل^(٣) .

(١) في النسخة الاستنبولية : : وأبو الجوزاء : بدل « وابن عمر » .
(٢) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) أي : هو إله من في السماء ، وإله من في الأرض ، يسبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ، وهو الحكيم العليم ، قال : وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى : (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم ويخبركم ويعلم ما تكسبون) أي : هو المدعو الله في السموات والأرض ، (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما) أي : هو خالقها ومالكها والمتصرف فيها بلامدافعة ولا عمانية ، فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك ، أي : استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب المهيّء العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمنة الأمور تقضاً وإبراماً ، (وعندك علم الساعة) أي : لا يجليها لوقتها إلا هو (وإليه ترجعون) أي : فيجازي كلّاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . اهـ .

(٣) ذكر سبب النزول هذا الخازن في تفسيره ، بدون سند ، ولم يره لأحد ، بل قال : قيل : سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونقرأ معه قالوا . . . الخ .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : أنه أراد بالذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ : آلهتهم ، ثم استثنى عيسى وعزيرَ والملائكةَ ، فقال : (إِنْ لَا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله (وهم يَعْلَمُونَ) بقلوبهم ماشهدوا به بالسنتهم ، وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .
والثاني : أن المراد بالذين يَدْعُونَ : عيسى وعزيرُ والملائكةُ الذين عبدتهم المشركون بالله لا يَمْلِكُ هؤلاء الشفاعةَ لأحد (إِنْ لَا مَنْ شَهِدَ) أي : [إِنْ لَا] لِمَنْ شَهِدَ (بِالْحَقِّ) وهي كلمة الإخلاص (وهم يَعْلَمُونَ) أن الله عز وجل خلق عيسى وعزيرَ والملائكةَ ، وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد . وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يشهد به .

قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا رَبِّ) قال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومَه إلى ربِّه . وقال ابن عباس : شكاً إلى الله تخلف قومَه عن الإيمان . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « وَقِيلَ » بنصب اللام ؛ وفيها ثلاثة أوجه .
أحدها : أنه أضمر معها قولاً ، كأنه قال : وقال قيلَه ، وشكاً شكواه إلى ربِّه .

والثاني : أنه عطف على قوله : « أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » وَقِيلَ ؛ فالمعنى : ونسمع قيلَه ، ذكر القولين الفراء ، والأخفش .
والثالث : أنه منصوب على معنى : وعنده عِلْمُ الساعةَ وَيَعْلَمُ قيلَه ، لأن معنى « وعنده عِلْمُ الساعةَ » : يَعْلَمُ الساعةَ وَيَعْلَمُ قيلَه ، هذا اختيار الزجاج . وقرأ حاصم ، وحمة : « وَقِيلَ » بكسر اللام والهاء حتى تبلغ إلى الآياء ؛ والمعنى : وعنده عِلْمُ الساعةَ وَعِلْمُ قيلَه . وقرأ أبو هريرة ، وأبو رزين ،

وسعيد بن جبير ، وأبورجاء ، والجحدري ، وقتادة ، وحמיד : برفع اللام ؛ والمعنى :
ونداؤه هذه الكلمة : يارب ؛ ذكر عِدَّة الخفض والرفع الفراء والزجاج .
قوله تعالى : (فاصْفَحْ عَنْهُمْ) أي : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ (وَقُلْ سَلَامٌ) فيه
ثلاثة أقوال .

أحدها : 'قُلْ خَيْرًا بدلًا من شرِّهم ، قاله السدي .

والثاني : ارْدُدْ [عليهم] معروفًا ، قاله مقاتل .

والثالث : 'قُلْ مَا نَسَلَمَ بِهِ مِنْ شرِّهم ، حكاه الماوردي .

(فسوف يَعْلَمُونَ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : يَعْلَمُونَ عاقبة كفرهم .

والثاني : أنك صادق . والثالث : حلول المذاب بهم ، وهذا تهديد لهم : « فسوف
يعلمون » ^(١) . وقرأ نافع ، وابن عامر : « تعلمون » بالثاء . ومن قرأ بالياء ،
فعلى الأمر للنبي ﷺ بأن يخاطبهم بهذا ، قاله مقاتل ؛ فندسخت آيةُ السيف
الإعراض والسلام .



(١) قال ابن كثير : (فسوف يعلمون) هذا تهديد من الله تعالى لهم ، قال : ولهذا
أحلَّ بهم بأسه الذي لا يردُّ ، وأعلى دينه وكلمته ، قال : وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى
دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وانتشر الإسلام في المشرق والمغرب ، والله أعلم .

سورة الدخان

وهي مكتبة كلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ احم ﴾ . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا
إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ﴿

قوله عز وجل : (احم) والكتاب المبين (قد تقدم بيانه [المؤمن ، والزخرف] ،
وجواب القسم (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) ، والماء كناية عن الكتاب ، وهو القرآن (في
ليلة مباركة) وفيها قولان .

أحدهما : أنها ليلة القدر ، وهو قول الأكثرين . وروى عكرمة عن
ابن عباس قال : أنزل القرآن من عند الرحمن ليلة القدر جملة واحدة ،

فوضع في السماء الدنيا ، ثم أنزل نجوماً . وقال مقاتل : نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

والثاني : أنها ليلة النصف من شعبان ، قاله عكرمة ^(١) .

قوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) أي : مخوفين عقابنا ^(٢) .

(فيها) أي : في تلك الليلة (يُفَرِّقُ كُلُّ) أي : يُفْصَلُ ^(٣) . وقرأ

أبو المتوكل ، وأبو نهيك ، ومعاذ القاري : « يَفْرِقُ » بفتح الياء وكسر الراء

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : غني بها ليلة القدر . وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال عز وجل : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال تبارك وتعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) ، ثم قال : ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أبعد الشجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان .

(٢) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) أي : معلنين الناس ما يفتهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

(٣) قال ابن كثير : وقوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) أي : في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون إلى آخرها ، قال : وهكذا روي عن ابن عمر ، وعجماد ، وأبي مالك ، والضحاك ، وغير واحد من السلف . اهـ . وكذلك ذكر غيره من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) يعود على الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ، وهي ليلة القدر ، وهو الحق الذي لا مدل عنه ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، فحجته في ذلك بعض الآثار الضعيفة التي لا تقوم بها حجة ، ومن ذلك تعلم خطأ الدعاء الذي يقرؤه بعض الناس في ليلة النصف من شعبان : ... إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم ... ، فإن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة القدر المقصودة في هذه السورة ، وليست ليلة النصف من شعبان .

زاد السير ٧ م (٢٢)

« كُلٌّ » بنصب اللام (أمرٍ حكيمٍ) أي : مُحْكَم . قال ابن عباس : يُكْتَب من أم الكتاب في ليلة القَدَر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال ، حتى الحاج ، وإنك تترى الرجل يعيش في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى . وعلى ماروي عن عكرمة أن ذلك في ليلة النصف من شعبان ، والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها ، فروي عن عكرمة أنه قال : في ليلة القَدَر ، وعلى هذا المفسرون ^(١) .

قوله تعالى : (أمرأ من عندنا) قال الأخفش : « أمرأ » و « رحمة » منصوبان على الحال ؛ المعنى : إنا أنزلناه أمرين أمرأ وراحمين رحمة . قال الزجاج : ويجوز أن يكون منصوباً بـ « يُفَرِّقُ » بمنزلة يُفَرِّقُ فَرَقًا ، لأن « أمرأ » بمعنى « فَرَقًا » . قال الفراء : ويجوز أن تُنصب الرحمة بوقوع « مرسلين » عليها ، فتكون الرحمة هي النبي ﷺ . وقال مقاتل : « مرسلين » بمعنى منزلين هذا القرآن ، أنزلناه رحمةً لمن آمن به . وقال غيره : « أمرأ من عندنا » أي : إنا نأمر بنسخ ما يُنسخ من اللوح ^(٢) (إنا كننا مُرْسِلِينَ) الأنبياء ، (رحمة) متا بخلقنا (رب السماوات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « رب » بالرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « رب » بكسر الباء . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (بَلِّغْهُمْ) يعني الكفار (في شك) مما جئناهم به (يَلْعَبُونَ) يهزؤون به .

(١) قال ابن كثير : والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الألبان عن عقيل عن الزهري : أخبرني عثمان بن محمد بن المنيرة بن الأخنس قال : إن رسول الله ﷺ قال : « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى » قال : فهو حديث مرسل ، ومثله لا يعارض به التصوُّص . اهـ .

(٢) عبارة الطبرسي في « مجمع البيان » والشوكاني في « فتح القدير » : إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنْتَ إِلَهُنَا اللَّهُ الَّذِي نَقُودُ بِحَبْلِهِ وَتَقْدِرُ عَلَيْنَا رُسُلُكَ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّمَنْ يُحِبُّ . إِنَّا كُنَّا نُفَوِّسُ الْغَبَابَ قَلِيلًا لِّئَلَّاسُكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

(فارتقب) أي : فانتظر (يوم تأتي السماء بدخان مبين) اخلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنه] دخان يحيي قبل قيام الساعة ، فروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الدخان يحيي ، فيأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ^(١) . وروى عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ذو الذئب ، فخشيت أن يطرق الدخان ^(٢) ، وهذا المعنى مروي عن علي ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، والحسن .

(١) ذكره الطبري بنحوه عن عبد الله بن مسعود موقوفاً عليه من رواية أبي الضحى عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جالوساً وهو مضطجع بيننا ، فأراه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قصاً عند أبواب كندة يقص ويزعج أن آية الدخان يحيي فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . . . الخ .

(٢) « الطبري » : ١١٣/٢٥ ، قال ابن كثير : وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما . . . فذكره ، قال : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وزجران القرآن ، قال : وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) —

والثاني : أن قريشاً أصابهم جوع ، فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع ؛ فروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مسروق ، قال : كنا عند عبد الله ، فدخل علينا رجل ، فقال : جئتُكَ من المسجد وتركتُ رجلاً يقول في هذه [الآية] « يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ » : ينشام يومَ القيامةُ دخانٌ يأخذُ بأفئاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام ؛ فقال عبد الله : من علمَ علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، إنما كان [هذا] لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعل الرجلُ ينظرُ إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فقالوا : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) ،

— أي : يبين واضح براه كل أحد ، قال : وعلى ما فسّر به ابن مسعود رضي الله عنه (أي في الحديث الذي بعد هذا من رواية البخاري ومسلم عن مسروق) إنما هو خيال رآوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . اهـ .

قال الشوكاني في « فتح القدير » : قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح (يريد بذلك سند رواية ابن أبي حاتم) ، وكذا صححه السيوطي ، ولكن ليس فيه أنه سبب زول الآية ، قال : وقد عرفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراتها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحصان وضعاف بذلك ، وليس فيها أنه سبب زول الآية ، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها ، والواجب التمسك بما ثبت في « الصحيحين » وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، قال : وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي هو من أشرط الساعة ، كان كثير في « تفسيره » وغيره ، قال : وهكذا يندفع قول من قول : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة ، متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) ، قال : فإن هذا لا يعارض ما في « الصحيحين » على تقدير صحة إسناده ، مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، قال : ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها . اهـ .

فقال الله تعالى : (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) ، فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى الكفر ، فأخذوا يومَ بدر ، فذلك قوله : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) ^(١) ، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد ، وأبو المالية ، والضحاك ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : أنه يوم فتح مكة لما حُجبت السماءُ بالنفرة ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (هذا عذابٌ) أي : يقولون : هذا عذاب .

(رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ) فيه قولان . أحدهما : الجوع . والثاني :

الدخان (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بحمد ﷺ والقرآن .

(أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى) أي : من أين لهم التذكُّر والانتِعاظ بعد نزول

هذا البلاء ، (و) حالهم أنه (قد جاءهم رسول مبين) أي : ظاهر الصِّدق ؛ !

(نَم تَوَلَّوْا عَنْهُ) أي : أعرضوا ولم يقبلوا قوله (وقالوا مُمَلِّسْمْ مَجْنُونٌ)

أي : هو مُمَلِّسٌ يَلْمِزُهُمْ بشر مجنون بادعائه الثبوت ؛ قال الله تعالى : (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ

قَلِيلًا) أي : زمانًا يسيرًا . وفي العذاب قولان .

أحدهما : الضرُّ الذي نزل بهم كُشِفَ بالخِصْب ، هذا على قول ابن مسعود .

قال مقاتل : كشفه إلى يوم بدر .

والثاني : أنه الدخان ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) فيه قولان أحدهما : إلى الشرك ، قاله ابن مسعود .

والثاني : إلى عذاب الله ، قاله قتادة .

(١) ذكره البخاري بالفاظ مختلفة : ٣٩٤/٨ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠ ، ورواه مسلم أيضاً ،

وذكره السيوطي في الدر : ٢٨/٦ ، وزاد نسبه لسميد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ،

وأبي نعيم والبيهقي معاً في « الدلائل » .

قوله تعالى : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) وقرأ الحسن ، وابن يعمر ،
وأبو عمران : « يَوْمَ مُبْطِشُ » بناء مرفوعة وفتح الطاء « الْبَطْشَةُ » بالرفع .
قال الزجاج : المعنى : واذكر يومَ نَبْطِشُ ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله :
« متقِمون » ، لأن ما بعد « إنا » لا يجوز أن يعمل فيما قبلها .
وفي هذا اليوم قولان .

أحدهما : يوم بدر ، قاله ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأبو هريرة ،
وأبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : يوم القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن . والبَطْشُ : الأخذ بقوة .
﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ .
أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْمَلُوا عَلَى
اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَلَئِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ
تَرْجُمُونِ ، وَإِنْ لَمْ أُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ . قَدْ عَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ
قَوْمٌ مُجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ . وَاتْرُكِ الْبَحْرَ
رَهْنًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُخْزَوْنَ . كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . قَالَا بَكَتْ عَلَيْنِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ فَتَنَّا) أي : ابتَلينا (قَبْلَهُمْ) أي : قَبْلَ قومك
(قَوْمَ فِرْعَوْنَ) بإرسال موسى إليهم (وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) وهو
موسى بن عمران .

وفي معنى « كريم » ثلاثة أقوال . أحدها : حسن الخُلُقِ ، قاله مقاتل .

والثاني : كريم على ربه ، قاله القراء . والثالث : شريف وسيط النسب ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (أن أدّوا) أي : بأن أدّوا (إليّ عباد الله) وفيه قولان . أحدهما : أدّوا إليّ ما أدعوكم إليه من الحق باتباعي ، روى هذا المعنى الموفى عن ابن عباس . فعلى هذا ينتصب « عباد الله » بالنداء . قال الزجاج : ويكون المعنى : أن أدّوا إليّ ما أمركم به بإعباد الله .

والثاني : أرسلوا معي بني إسرائيل ، قاله مجاهد ، وقناة ، والمعنى : أطلقوهم من تسخيركم ، وسلموهم إليّ .

(وأن لاتملّوا على الله) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : لاتفتروا عليه ، قاله ابن عباس . والثاني : لاتمتوا عليه ^(١) ، قاله قناة . والثالث : لاتعظموا عليه ، قاله ابن جريج (إني آتيتكم بسلطان مبين) أي : بحجة تدل على صدقي . فلما قال هذا تواعدوه بالقتل فقال : (وإني عذتُ بربي وربكم أن ترجّون) وفيه قولان .

أحدهما : أنه رجم القول ، قاله ابن عباس ؛ فيكون المعنى : أن يقولوا : شاعر أو مجنون .

والثاني : القتل ، قاله السدي .

(وإن لم تؤمنوا لي فاعزّلون) أي : فاتركوني لامعي ولا عليّ ، فكفروا ولم يؤمنوا ، (فدعا ربه أن هؤلاء) قال الزجاج : من فتح « أن » ، فالمعنى : بأن هؤلاء ؛ ومن كسر ، فالمعنى : قال : إن هؤلاء ، و « إن » بعد القول مكسورة . وقال المفسرون : المجرمون هاهنا : المشركون .

(١) كذا الأصل : « لاتمتوا » ، بتامين ، والذي في الطبري عن قناة : « لاتبتوا » .

فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ ، وَقَالَ : (فَاسْرِ بِبِئَادِي لَيْلًا) يَعْنِي بِالْمُؤْمِنِينَ (إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ) يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ؛ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ سَبِيًّا لِفِرْعَوْنِ .
(وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا) أَيِ : سَاكِنًا عَلَى حَالِهِ بَعْدَ أَنْ انْفَرَقَ لَكَ ،
وَلَا تَأْمُرْهُ أَنْ يَرْجِعَ كَمَا كَانَ حَتَّى يَدْخُلَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ . وَالرَّهْوُ : مَشْيٌ
فِي مُسْكُونٍ .

قال قتادة : لما قطع موسى عليه السلام البحر ، عطف يضرب البحر بعصاه
ليلتهم ، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده ، ف قيل [له] : « وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا » ،
أَيِ كَمَا هُوَ - طَرِيقًا يَأْسًا ^(١) .

قوله تعالى : (إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ) أَخْبَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِغَرَقِهِمْ لِيَطْمَئِنَّ
قُلُوبُهُ فِي تَرْكِ الْبَحْرِ عَلَى حَالِهِ .

(كَمْ تَرَكُوا) أَيِ : بَعْدَ غَرَقِهِمْ (مِنْ جَنَاتٍ) وَقَدْ فُسِّرْنَا الْآيَةَ فِي
(الشُّعْرَاءِ : ٥٧) . فَأَمَّا « النَّعْمَةُ » فَهُوَ الْعَيْشُ اللَّيِّينُ الرَّغْدُ . وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ
سَبَقَ بَيَانُهُ [يَس-٥٥] إِلَى قَوْلِهِ : (وَأَوْزَنَّاها قَوْمًا آخَرِينَ) يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .
(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّيَّاءُ) أَيِ : عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ فِي مَعْنَاهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .
أَحَدُهَا : أَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛ رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :
« مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّيَّاءِ بَابَانِ ، بَابٌ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ ، وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ) وَذَلِكَ
أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ
حَتَّى يَمُودَ كَمَا كَانَ لِيَصِيرَ خَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهَ
عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دُوكَاً وَلَا يَخْشَى . اهـ .

رزقه ، فإذا مات بكيا عليه « وتلا ﷺ هذه الآية ^(١) . وقال علي رضي الله عنه :
 إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصلّاه من الأرض ومُصنّده عمله من السماء ^(٢) ،
 وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مُصلّى ولا في السماء مُصنّده عمل ،
 فقال الله تعالى : « فَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » ، وإلى نحو هذا ذهب
 ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل . وقال ابن عباس : الحُجرة التي في السماء : بكائها .
 وقال مجاهد : مامات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، فقيل له :
 أو تبكي ؟ قال : وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ !
 وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دويّ كدويّ النحل ^(٣) ؟ ! .
 والثاني : أن المراد : أهل السماء وأهل الأرض ، قاله الحسن ، ونظير هذا
 قوله تعالى : (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) [محمد : ٤] ، أي : أهل الحرب .
 والثالث : أن العرب تقول إذا أرادت تعظيمَ مَهْلِكٍ عظيمٍ : أظلمت
 الشمسُ له ، وكَسَفَ القمرُ لفقده ، وبكته الريحُ والبرقُ والسماءُ والأرضُ ،
 يريدون المبالغة في وصف المصيبة ، وليس ذلك بكذب منهم ، لأنهم جميعاً

(١) رواه الترمذي في « سننه » : ١٥٨/٢ من حديث موسى بن عبيدة عن يزيد بن أبان الرقاشي
 عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لانفرقه مرفوعاً إلا من
 هذا الوجه ، وموسى بن عبيدة ، ويزيد بن أبان الرقاشي بصطاءان في الحديث . والحديث ذكره السيوطي
 في « الدر » : ٣٠/٦ ، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في « ذكر الوت » ، وأبي يعلى ،
 وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » ، والخطيب عن أنس بن مالك
 رضي الله عنه .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣١/٦ من رواية ابن المبارك ، وعبد بن حميد ،
 وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر من طريق السيب بن رافع عن علي رضي الله عنه .

(٣) أورده السيوطي في « الدر » : ٣٠/٦ من رواية عبد بن حميد ، وأبي الشيخ في
 « العظمة » عن مجاهد بن جوه .

متواطئون عليه ، والسَّامِعُ له يَعْرِفُ مذهبَ القاتلِ فيه ؛ وَنَبِّئْهُمْ في قولهم :
 أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ : كادتْ تُظْلِمُ ، وَكَسَفَ الْقَمَرُ : كادَ يَكْسِفُ ، ومعنى
 « كاد » : مَّ أَنْ يَفْعَلَ ولم يفعل ؛ قال ابن مُفَرِّغٍ يرثي رجلاً :
 الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهُ والْبَرْقُ يَلْمَعُ في غَمَامَةٍ (١)
 وقال الآخر :

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ -

تَبْكِي عَلَيْكَ - نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ (٢)

أراد : الشمسُ طَالِعَةٌ تبكي عليه ، وليست مع طلوعها كاسِفةً النجوم والقمر ،
 لأنها مُظْلِمَةٌ ، وإنما تَكْسِفُ بضوئها ، فنُجُومُ الليلِ باديةٌ بالنهار ، فيكون
 معنى الكلام : إن الله لما أهلك قوم فرعون لم يَبْكِ عليهم بكٍ ، ولم يَجْزَعْ
 جازعٌ ، ولم يوجد لهم فَقْدٌ ، هذا كله كلامُ ابنِ قتيبة .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ
 إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ . وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَى عِلْمٍ
 عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَدٌ مُبِينٌ . إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَيَقُولُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ .
 فَأَنذَرْنَا وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ

(١) البيت لبزيد بن مفرغ الحميري ، وهو في « مشكل القرآن » : ١٢٨ ، و « الأضداد » ،

للأنباري : ٤٢٤ ، و « الأغاني » : ١٨٧/١٨ .

(٢) البيت لجرير يرثي عمر بن عبد العزيز ، ديوانه : ٣٠٤ ، و « مشكل القرآن » : ١٢٨ ،

و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : بكى . ورواية البيت في الديوان :

فالشَّمْسُ كاسِفةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ

مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ .
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ
اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿

قوله تعالى : (من العذاب المهيئ) يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والتعب
في أعمال فرعون ، (إنه كان عالياً) أي : جباراً .

(ولقد اخترناهم) يعني بني إسرائيل (على علم) علمه الله فيهم على
عالمي زمانهم ، (وآتيناهم من الآيات) كافتراق البحر ، وتظليل الغمام ، وإزال
المن والسلوى ، إلى غير ذلك (ما فيه بلاء مبين) أي : نعمة ظاهرة .
ثم رجع إلى ذكر كفار مكة ، فقال : (إن هؤلاء ليقولون إن هي
إلا مونتتنا الأولى) يعنون التي تكون في الدنيا (وما نحن بمُنشَرين) أي :
بمبعوثين ، (فاثبوا بآبائنا) أي : ابشوم لنا (إن كنتم صادقين) في البعث .
وهذا جهل منهم من وجهين .

أحدهما : أنهم قد رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة ؛ فليس لهم أن ينظفوا .
والثاني : أن الإعادة للجزاء ؛ وذلك في الآخرة ، لا في الدنيا .

ثم خوفهم عذاب الأمم قبلهم ، فقال : (أ هم خير) أي : أشد
وأقوى (أم قوم تبع) أي : ليسوا خيراً منهم . روى أبو هريرة عن
رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أدري مُبْعاً ، نبي ، أو غير نبي »^(١) . وقالت

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٤٨ : رواه الثعلبي من طريق عبد الرزاق ، —

عائشة : لانسبوا مُبِمًا فانه كان رجلاً صالحاً ، ألا ترى أن الله تعالى ذمَّ قومه ولم يذُمَّه ^(١) . وقال وهب : أسلم مُتَّبِعٌ ولم يُسَلِّمْ قومه ، فلذلك ذُكر قومه ولم يُذكر . وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبُد النار ، فأسلم ودعا قومه - وهم حمير - إلى الإسلام ، فكذبوه .

فأمّا تسميته بـ « مُتَّبِع » فقال أبو عبيدة : كل ملك من ملوك اليمن كان يسمى : مُتَّبِعًا ، لأنه يتَّبِعُ صاحبه ، فوضع « مُتَّبِع » في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام وقال مقاتل : إنما سمي مُتَّبِعًا لكثرة أتباعه ، واسمه : مُتَّكِكِرِب ^(٢) . وإنما ذكر قوم مُتَّبِع ، لأنهم كانوا أقرب في الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم . وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء : ١٦ ، الحجر : ٨٥] إلى قوله تعالى : (إِنَّ يَوْمَ الْفُصْل) وهو يوم يَفْصِلُ اللهُ عز وجل بين المباد (ميقاتهم) أي : ميمادم (أجمعين) يأتيه الأولون والآخرون .

(يوم لا يُغْنِي مولى عن مولى شيئاً) فيه قولان .

أحدهما : لا يَنْفَعُ قريبٌ قريباً ، قاله مقاتل . وقال ابن قتبية : لا يُغْنِي وليٌّ عن وليّه بالقرابة أو غيرها .

— عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : والمخروف بهذا الاسناد « ما أدري ألبي هو ، أم لا ؟ وما أدري أعزيرني ، أم لا ؟ » أخرجه أبو داود ، والحاكم ، لكن قال : « ذو القرنين » بدل « عزير » قال : قال الدارقطني : تفرد به عبد الرزاق ، وغيره أرسله . اهـ .

(١) رواه الحاكم في « المستدرک » : ٥٥٠/٢ عن عائشة رضي الله عنها وصححه ، وواقعه الذهبي . قال ابن كثير : وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم وقابح دين الكليم على يدي من كان من أجبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بشة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجرهميين وكساه الملاء والوصلات من الحرير والخبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة ، وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن . اهـ .

(٢) الذي في القرطبي : وقال الكلبي : تبع : هو أبو كرب أسعد بن ملكيكرب .

والثاني : لَا يَنْتَفَعِ ابْنُ عَمٍّ ابْنِ عَمَةٍ ، قَالَ أَبُو عبيدة .

(وَلَا تُهْمُ يَنْصَرُونَ) أي ، لَا يُؤْمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، (إِلَّا مَنْ

رَحِمَ اللَّهُ) وَهَمَّ الْمُؤْمِنُونَ ، فَانْهَ يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ .

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأُنِيَمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْمَزِينُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . فَأَرْتَقِبْ لِسْمِهِمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾

(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ) قد ذكرناها في (الصافات : ٦٢) .

و « الْأُنِيَمِ » : الفاجر ؛ وقال مقاتل : هو أبو جهل . وقد ذكرنا معنى « الْمُهْلِ »

في (الكهف : ٢٩) .

قوله تعالى : (يَغْلِي فِي الْبُطُونِ) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « يَغْلِي » بالياء ؛ والباقون : بالثاء . فنقرأ [« تغلي »] بالثاء ، فلثأينث الشجرة ؛ ومن قرأ بالياء ، حملة على الطعام قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز أن يُحْمَلَ الْغَلْيُ عَلَى الْمُهْلِ . لأنَّ الْمُهْلَ ذِكْرٌ لِلتَّشْبِيهِ فِي الدَّوْبِ ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي مَا شَبَّهَ بِهِ (كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) وهو الماء الحارُّ إِذَا اشْتَدَّ غَلْيَانُهُ .

قوله تعالى : (خُذُوهُ) أي : يقال للزبانية : خذوه (فاعْتَلِسُوهُ) وقرأ ابن كثير ،
ونافع ، وابن عامر ، ويعقوب : بضم التاء ؛ وكسرهما الباقون ؛ قال ابن قتيبة :
ومعناه : قودوه بالمنف ، يقال : جيء فلان يُعْتَلُّ إلى السلطان ، و « سواء الجحيم » :
وسط النار . قال مقاتل : الآيات في أبي جهل يضربه الملك من خزان جهنم
على رأسه بعمقة من حديد فتنب عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ، ثم
يصبُّ الملك في النقب ماءً حياً قد انتهى حره ، فيقع في بطنه ، ثم يقول [له]
الملك : (دُقْ) المذاب (إِنَّكَ أَنْتَ العزيز الكريم) هذا توبيخ له بذلك ؛
وكان أبو جهل يقول : أنا أعزُّ قريش وأكرمها . وقرأ الكسائي : « دُقْ أَنْتَ »
بفتح الهمزة ؛ والباقون : بكسرها . قال أبو علي : من كسرهما ، فالمعنى : أنت
العزيز في زعمك ، ومن فتح ، فالمعنى : بأنَّكَ .

فان قيل : كيف مُسمِّي بالعزيز وليس به ؟ !

فالجواب من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه قيل ذلك استهزاء به ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والثاني : أنت العزيز [الكريم] عند نفسك ، قاله قتادة .

والثالث : أنت العزيز في قومك ، الكريم على أهلك ، حكاه الماوردي .

ويقول الخزان لأهل النار : (إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) أي :

تَشْكُونَ في كونه .

ثم ذكر مستقرَّ المُتَّقِينَ فقال : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) قرأ نافع ،

وابن عامر : « فِي مَقَامٍ » بضم الميم ؛ والباقون : بفتحها . قال الفراء : المَقَام ،

بفتح الميم : المكان ، وبضما : الإقامة .

قوله تعالى : (أَمِينٍ) أي : أَمِنُوا فِيهِ النَّيِّرَ وَالْحَوَادِثَ . وقد ذكرنا

« الجَنَّاتِ » في (البقرة : ٢٥) و [ذكرنا] معنى « الميُون » ومعنى « متقابلين »
 في (الحجر : ٤٥ ، ٤٧) وذكرنا « السُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ » في (الكهف : ٣١) .
 قوله تعالى : (كَذَلِكَ) أي : الأمر كما وَصَفْنَا (وزوجَّناهم بِحُورٍ عِينٍ)
 قال المفسرون : المعنى : قرَّناهم بِهِنَّ ، وليس من عقد التزويج . قال أبو عبيدة :
 المعنى : جَعَلْنَا ذُكُورَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَزْوَاجاً (بِحُورٍ عِينٍ) من النساء ، تقول للرجل :
 زَوَّجَ هذه التَّمَلَّ الفرد بالتَّمَلَّ الفرد ، أي : اجعلها زَوْجاً ، والمعنى : جَعَلْنَاهُمْ
 اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ . وقال يونس : العرب لا تقول : تزوَّج بها ، إنما يقولون : تزوَّجها .
 ومعنى « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » : قرَّناهم . وقال ابن قتيبة : يقال :
 زَوَّجْتُهُ امْرَأَةً ، وزَوَّجْتُهُ بامرأة . وقال أبو علي الفارسي : والتزويل على ما قال يونس ،
 وهو قوله تعالى : (زَوَّجْنَاكُمَا) [الأحزاب : ٣٧] ، وما قال : زَوَّجْنَاكَ بِهَا .
 فَأَمَّا الْحُورُ ، فقال مجاهد : الحُور : النساء النقيَّات البياض . وقال الفراء :
 الْحَوْرَاءُ : البيضاء من الإبل ؛ قال : وفي « الحُور المِين » لنتان : حُور عِين ،
 وحير عِين ، وأنشد :

أَزْمَانٌ عِناهُ سرور المسير وحَوْرَاءُ عِناهُ مِنَ المِينِ الحِيرِ

وقال أبو عبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض المِين ، الشديدة سواد سوادها .
 وقد يَنُتَا معنى « المِين » في (الصافات : ٤٨) .

قوله تعالى : (بَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةِ آمِنِينَ) فيه قولان . أحدهما :
 آمِنين من انقطاعها في بعض الأزمنة . والثاني : آمِنين من التَّخَمِّ والأسقام والآفات .
 قوله تعالى : (إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى « سوى » ، فتقدير الكلام : لا ينوقون في الجنة الموت

سوى الموة التي ذاقوها في الدنيا ؛ ومثله : (ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) [النساء : ٢٢] ، وقوله : (خالدين فيها ما دامت السمواتُ
والأرضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) [هود : ١٠٧] أي : سوى ما شاء لهم ربك من
الزيادة على مقدار الدنيا ، هذا قول الفراء ، والزجاج .

والثاني : أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الروح والريحان وأسباب
من الجنة يَرَوْنَ منازلهم منها ، وإذا ماتوا في الدنيا ، فكأنهم ماتوا في الجنة ،
لأنصالحهم بأسبابها ، ومشاهدتهم إياها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن « إِلَّا » بمعنى « بَعْدَ » ، كما ذكرنا في أحد الوجوه في
قوله : (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) [النساء : ٢٢] ، وهذا قول ابن جرير ^(١) .

فوله تعالى : (فَضَلًا مِنْ رَبِّكَ) أي : فعل الله ذلك بهم فَضْلًا منه ^(٢) .
(فأنبأ يسرناه) أي : سهّلناه ، والكناية عن القرآن (بلسانك) أي :
بلسنة العرب (لعلهم يتذكرون) أي : لكي يتعظوا فيؤمنوا ، (فارتقب)

(١) قال ابن كثير : وقوله : (لا يذوقون فيها الموت إِلَّا الموة الأولى) هذا استثناء
يؤكد النبي ، فانه استثناء منقطع ، وممتنع : أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً ، كما ثبت في
« الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالوت في صورة كبش أملح فيوقف بين
الجنة والنار ، ثم يذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، يا أهل النار خلود فلا موت » .
(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ووقاه عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك) يقول تعالى ذكره :
ووقى هؤلاء المتقين ربهم يومئذ عذاب النار ، تفضلاً يا محمد من ربك عليهم ، وإحسانه منه إليهم
بذلك ، ولم يماقهم بجرم سلف منهم في الدنيا ، قال : ولولا تفضله عليهم بصفحة لهم عن
العقوبة لهم على سلف منهم من ذلك ، لم يقيم عذاب الجحيم ، ولكن كان ينالهم وبصبيهم
أله ومكرهه . اهـ .

أي : انتظر بهم العذاب (إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ) هلاكك ^(١) ؛ وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف ، وليس بصحيح .



(١) قال ابن كثير : ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسَلِّبًا لَهُ وواعداً لَهُ بالضر ومنوعداً لمن كذبه بالمطب والهلاك (فارتقب) أي : انتظر (إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ) أي : فيسيطرون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فانها لك ولاخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبكم من المؤمنين . اهـ .

زاد المير ٧ م (٢٣)

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكيّة، وهو قول الحسن ،
[وعكرمة] ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . وقال مقاتل : هي مكيّة كلّها . وحكي
عن ابن عباس وقتادة أنها قالوا : هي مكيّة إلا آية ، وهي قوله : (قُلْ لِلَّذِينَ
آمَنُوا يَغْفِرُوا) [الجاثية : ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ احم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ
دَابَّةِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ
آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
فَبَيِّنِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . وَيَذُلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .
يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُثْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ
مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ . هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ
رِجْزِ أَلِيمٍ . اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿

قوله تعالى : (احمّ . تنزيل الكتاب) قد شرحناه في أول (المؤمن) .
قوله تعالى : (وفي خلقكم) أي : من تراب ثم من نطفة إلى أن يتكامل
خلق الإنسان (وما يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ) أي : وما يُفَرِّقُ في الأرض من جميع
ما خلق على اختلاف ذلك في المخلوق والصُّور (آياتٌ) ندلُّ على وحدانيته .
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « آياتٌ » رفعاً
« وتصريف الرياح آياتٌ » رفعاً أيضاً . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالكسر فيها .
والرِّزْق هاهنا بمعنى المطر .

قوله تعالى : (تلك آياتُ الله) أي : هذه حُججُ الله (تلوها عليك بالحق
فبأي حديثٍ بَعَدَ الله) أي : بعد حديثه (وآياته) يؤمن هؤلاء المشركون ١٢
قوله تعالى : (وَيَلْ لَّكُلِ أَفْثَاكٍ أَثِيمٍ) روى أبو صالح عن ابن عباس
أنها نزلت في النضر بن الحارث ^(١) . وقد يَنْتَا معناها في (الشعراء : ٢٢٢) ،
والآية التي تليها مفسّرة في (لقمان : ٧) .

(١) قال البغوي : (ويل لكل أفثاك أثيم) كذاب صاحب إثم ، يعني النضر بن الحارث . —

قوله تعالى : (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا) قَالَ مَقَاتِل : معناه : إذا سمع .
 وقرأ ابن مسعود : « وَإِذَا عَلِمَ » برفع العين وكسر اللام وتشديدها .
 قوله تعالى : (اتَّخَذَهَا هُزُوءًا) أي : سخِر منها ، وذلك كفعل أبي جهل
 حين نزلت : (إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ، طَعَامُ الْآثِمِينَ) [الدخان : ٤٣ ، ٤٤] فدعا بتمر
 وزبد ، وقال : تَزَقُّمُوا فَمَا يَمِدُّكُمْ مُحَمَّدٌ إِلَّا هَذَا . وإنما قال : (أُولَئِكَ)
 لأنه ردَّ الكلام إلى معنى « كُلُّ » .

(مِنْ وَرَأْسِهِمْ جَهَنَّمُ) قد فسرناه في (إبراهيم : ١٦) (وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ
 مَا كَسَبُوا شَيْئًا) من الأموال ، ولا ما عبدوا من الآلهة .
 قوله تعالى : (هَذَا هُدًى) يعني القرآن (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) به ، (لَهُمْ
 عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « أَلِيمٌ » بالرفع
 على نعت المذاب وقرأ الباقون : بالكسر على نعت الرِّجْز . والرِّجْز بمعنى المذاب ،
 وقد شرحناه في (الأعراف : ١٣٤) .

قوله تعالى : (جَمِيعًا مِنْهُ) أي : ذلك التسخير منه لا مِنْ غيره ، فهو مِنْ
 فضله . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميع ،
 وابن محيصن ، والجحدري : « جَمِيعًا مِنْهُ » بفتح النون وتشديدها وتاء منصوبة
 منوثة . وقرأ سعيد بن جبير : « مِنْهُ » بفتح الميم ورفع النون والماء مشددة النون .
 ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَنْفَعُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ
 لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . وَلَقَدْ آتَيْنَا

— وقال الآلوسي : والآية نزلت في أبي جهل ، وقيل في النضر بن الحارث ، وكان يشتري حديث
 الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن ، قال : لكنها عامة كما هو مقتضى « كُلُّ » ، ويدخل
 من نزل فيه دخولاً أولياً . اهـ .

بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَأَنبَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَكُنْ يُفْسِدُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً عَنِّيَاهُمْ وَبِمَنَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿

قوله تعالى : (قُلْ الَّذِينَ آمَنُوا بِغُفِرُوا ...) [الآية] في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بشر يقال لها : « المريسيع » ، فأرسل عبدُ الله بن أبي غلامه ليستقي الماء ، فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر ، ما ترك أحداً يستقي حتى ملا « قُرْبَ النَّبِيِّ ﷺ » وقُرْبَ أَبِي بَكْرٍ ، وملا لمولاه ، فقال عبد الله : ما مَلَكُنَا وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَا قِيلَ : سَتَمَنَ كَلْبُكَ يَا كَلْبُكَ ، فبلغ قوله عمر ، فاشتعل سيفه يريد التوجه إليه ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس ^(١) .

(١) ذكر سبب النزول هذا الآلوسي بدون سند ، قال : قيل : إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق . . . الخ .

والثاني : [أنها] لما نزلت : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

[البقرة : ٢٤٥] قال يهودي بالمدينة يقال له فتخاص : احتاج رب محمد ، فلما سمع بذلك عمر ، اشتمل [على] سيفه وخرج في طلبه ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ، فبعث النبي ﷺ في طلب عمر ، فلما جاء ، قال : « يا عمر ، ضع سيفك » وتلا عليه الآية ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس ^(١) .

والثالث : أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، قاله القرظي ، والسدي ^(٢) .

والرابع : أن رجلاً من كفار قريش شتم عمر بن الخطاب ، فهم عمر أن يبطش به ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل ^(٣) .

ومعنى الآية : « قل : الذين آمنوا : اغفروا ، ولكن شبه بالشرط والجزاء ، كقوله : (قل : لمبادي الذين آمنوا يُقيموا الصلاة) [إبراهيم : ٣١] ، وقد مضى بيان هذا .

وقوله : (للذين لا يَرْجُونَ) أي : لا يخافون وقائع الله في الأمم الخالية ، لأنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه . وقيل : لا يدرون أنعم الله عليهم ، أم لا . وقد سبق بيان معنى « أيام الله » في سورة (إبراهيم : ٥) .

(١) الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٥ .

(٢) ذكره البغوي في « تفسيره » عن القرظي والسدي بدون سند ، وقال : ثم نجتها آية القتال . وكذلك ذكره الخازن بدون سند ، ولم يمهز لأحد .

(٣) ذكره البغوي عن ابن عباس ومقاتل بدون سند ، وكذلك ذكره الخازن بدون سند .

﴿ فصل ﴾

وجهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة، لأنها تضمنت الأمر بالإعراض عن المشركين . واختلفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال .
أحدها : [أنه] قوله : (فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) ^(١) [التوبة : ٥] ، رواه معمر عن قتادة .

والثاني : أنه قوله في (الأنفال : ٥٧) : (فَاِمَّا تَشْتَقِفْهُمْ فِي الْحَرْبِ) ، وقوله في (براءة : ٣٦) : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ، رواه سميد عن قتادة .
والثالث : [أنه] قوله : (أَذِنَ الَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا) [الحج : ٣٩] ، قاله أبو صالح .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَ قَوْمًا) وقرأ ابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « لِنَجْزِي » بالنون « قوماً » يعني الكفار ، فكأنه قال : لانكافئهم أنتم لنكافئهم نحن .

وما بعد هذا قد سبق [الاسراء : ٧] إلى قوله : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) يعني التوراة (والحُكْمَ) وهو الفهم في الكتاب ، (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني المَنِّ والسَّلوَى (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أي : عالمي زمانهم .
(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ) فيه قولان .
أحدهما : بيان الحلال والحرام ، قاله السدي .

والثاني : العلم ببعث النبي ﷺ وشواهد نبوَّته ، ذكره الماوردي .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [آل عمران : ١٩] إلى قوله :

(١) في الأصل : (اقتلوا المشركين) بدون فاء .

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ) سبب نزولها أن رؤساء قريش دعوا رسول الله ﷺ إلى مِلَّةِ آبائهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ^(١) .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : (عَلَى شَرِيعَةٍ) فقال ابن قتيبة : [أي] على مِلَّةٍ ومذهب ، ومنه يقال : شَرَعَ فلان في كذا : إذا أَخَذَ فيه ، ومنه « مَشَارِعُ الْمَاءِ » وهي الْفُرُصُ التي شرع فيها الوارد ^(٢) .

قال المفسرون : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ بعد موسى على طريقة من الأمر ، أي : من الدِّينِ (فَاتَّبِعْهَا) ^(٣) . و (الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) كفار قريش .
(إِنَّهُمْ لَن يُمْنُوا عَنْكَ) أي : لن يَدْفَعُوا عَنْكَ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ ، (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ) يعني المشركين ^(٤) . (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) الشرك . والآية التي بعدها [مفسرة] في آخر (الأعراف : ٢٠٣) .

(١) قال البغوي : وذلك أنهم كانوا يقولون له : ارجع إلى دين آبائك فاتهم كانوا أفضل منك ، فقال الله جل ذكره : (إِنَّهُمْ لَن يَضُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) ، وكذلك قال الخازن . قال القرطبي : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) قال ابن عباس : نزلت لما دعت قريش إلى دين آبائهم . وقال الآلوسي : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أي : آراء الجاهل التابعة للشهوات ، قال : والمراد بهم ما يعم كل ضال ، وقيل : هم جاهل قريظة والنضير ، وقيل : رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك .

(٢) قال في « اللسان » : شَرَعَ الوارد شَرَعًا وشُرْعًا : تناول الماء بفيه .

(٣) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره أتبعه محمد ﷺ : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ) يا محمد من بعد الذي أتينا بني إسرائيل الذين وصفنا لك صفتهم (عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ) يقول : على طريقة وسنة ومنهج من أمرنا الذي أمرنا به مَنْ قَبْلَكَ من رسلنا (فَاتَّبِعْهَا) يقول : فاتَّبِعْ تلك الشريعة التي جعلناها لك (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) يقول : وَلَا تَتَّبِعْ مَادَعَاكَ إِلَيْهِ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَتَعْمَلُ بِهِ فَهَلْكَ إِنْ عَمِلْتَ بِهِ . اهـ .

(٤) قال ابن كثير : (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ) بعضهم أولياء بعض (أي : وما نفي عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً ، لأنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً) . اهـ .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ) سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للمؤمنين : إنا نعطى في الآخرة مثلما تمنطون من الأجر ، قاله مقاتل ^(١) . والاستفهام هاهنا استفهام إنكار . و « اجترحوا » بمعنى اكنسوا .

(سواءَ بحيام ومما نهم) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : « سواء » نصبا ؛ وقرأ الباقون : بالرفع . فن رفع ، فعلى الابتداء ؛ ومن نصب ، جمله مفعولاً ثانياً ، على تقدير : أن نجعل بحيام ومما نهم سواء ؛ والمعنى : إن هؤلاء يحيون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وهؤلاء يحيون كافرين ويموتون كافرين ؛ وشتان مام في الحال والمآل (ساء ما يحكمون) أي : بنس ما يقتضون ^(٢) .

ثم ذكر بالآية التي تلي هذه أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي : للحق والجزاء بالعدل ، لئلا يظن الكافر أنه لا يجزى بكفره .

(١) قال البغوي والحازن : نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين : ائتن كان ماتقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا . وقال الآلوسي : والآية وإن كانت في الكفار على ما نقل عن « البحر » ، وهو ظاهر ما روي عن الكلبي من أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لأمي كرم الله تعالى وجهه ، وحمزة رضي الله عنه ، والمؤمنين : والله ما أتم على شيء ، ولئن كان ماتقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا ، فنزلت الآية : (أم حسب الذين اجتروحوا السيئات . . .) الخ ، قال : وهي متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها ، كما يعرف بأدنى تدبر يستنبط منها تبين حالي المؤمنين المساصي والمؤمن الطائع . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (أم حسب الذين اجتروحوا السيئات) يقول تعالى ذكره : أم ظن الذين اجتروحوا السيئات من الأعمال في الدنيا وكذبوا رسل الله وخالفوا أمر ربهم وعبدوا غيره ، أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وعملوا الصالحات فأطعوا الله وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة ؛ كلا ما كان الله ليفعل ذلك ، لقد ميز بين الفريقين ، فجعل حزب الإيمان في الجنة ، وحزب الكفر في السعير . اهـ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مِمَّا كَانَتْ حُجَّتُهُمْ إِنْ لَا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَابَانِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلِ اللَّهُ يُخَبِّئُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ يُخَسِّرُ الْمُبْطِلُونَ . وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) قد شرحناه في

(الفرقان : ٤٣) . وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي (١) .

قوله تعالى : (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) أي : على علمه السابق فيه أنه

(١) ذكر سبب النزول هذا القرطبي بدون سند ، قال : قال مقاتل : نزلت في الحارث ابن قيس السهمي أحد المستهزئين ، لأنه كان يبيع مالهواه نفسه . اهـ . وقال الآلوسي : والآية نزلت على ماروي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي ، كان لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، قال : وحكمها عام ، قال : وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها . اهـ .

لَا يَهْتَدِي ^(١) (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ) أَي : طَبَعَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَسْمَعْ الْهَدْيَ (وَ) عَلَى (قَلْبِهِ) فَلَمْ يَعْثُقِلْ الْهَدْيَ . وقد ذكرنا النشأة والختم في (البقرة : ٧) .
 (فَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟) أَي : مِنْ بَعْدِ إِضْلَالِهِ إِيَّاهُ
 (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فَتَعَرَّفُوا قُدْرَتَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ^(٢) . ! وما بعد [هذا] مفسر في
 سورة (المؤمنون : ٣٧) ^(٣) إِلَى قَوْلِهِ : (وَمَا يُهْدِيكُنَا إِلَّا اللَّهُ هَرُ) أَي : اخْتِلَافِ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) أَي : مَا قَالُوهُ عَنْ عِلْمِهِ ، إِنْ شَاءَ قَالُوهُ
 شَاكِئِينَ فِيهِ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قَالَ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لَا تَسْتَبْشِرُوا الدَّهْرَ
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » ^(٤) ، أَي : هُوَ الَّذِي يُهْدِيكُمْ ، لَا مَا تَوَهَّمُونَهُ مِنْ
 مَرُورِ الزَّمَانِ . وما بعد هذا ظاهر ، وقد تقدم بيانه [البقرة : ٢٨ ، الثوري : ٧]
 إِلَى قَوْلِهِ : (يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) يَعْنِي الْمَكْذِبِينَ الْكَافِرِينَ أَصْحَابَ الْأَبْطِيلِ ؛

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وأضل الله على علم) يقول تعالى ذكره : وخذله
 عن حجة الطريق وسبيل الرشاد في سابق عِلْمِهِ عَلَى عِلْمِهِ مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا يَهْتَدِي وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ . اه .
 (٢) قال ابن جرير : وقوله : (فن يهديه من بعد الله ؟) يقول تعالى ذكره : فمن يوفقه
 لِاصَابَةِ الْحَقِّ وَابْصَارِ حُجَّةِ الرُّشْدِ بَعْدَ إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ ؟ : (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أَيُّهَا النَّاسُ
 فَتَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قُلَّ اللَّهُ بِهِ مَا وَصَفْتُمْ ، فَلَنْ يَهْتَدِيَ أَبَدًا ، وَإِنْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ وَلِيًّا مُرْشِدًا ؟ . اه .
 (٣) في الأصل : « المؤمن » .

(٤) رواه بهذا اللفظ مسلم في « صحيحه » : ١٧٦٣/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه .
 قال الامام النووي في « شرح مسلم » : أَي لَا تَسْبُوا فاعِلِ التَّوَزُّلِ ، فَانْكِم إِذَا سَبَيْتُمْ فاعِلُهَا
 وَقَعَ السَّبُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ هُوَ فاعِلُهَا وَمَنْزِلُهَا ، قَالَ : وَأَمَّا الدَّهْرُ الَّذِي هُوَ الزَّمَانُ ، فَلَا فَعْلَ لَهُ ،
 بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ جَمَلَةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : وَمَعْنَى « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » أَي : فاعِلِ
 التَّوَزُّلِ وَالْحَوَادِثِ وَخَالِقِ الْكَائِنَاتِ ، وَاقَّعْ . اه . وقال ابن كثير : قال الشافعي وأبو عبيدة
 وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » : كَانَتْ الْعَرَبُ
 فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ نَكْبَةٌ ، قَالُوا : يَا خِيَةَ الدَّهْرَ ، فَيَسْتَدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ
 إِلَى الدَّهْرِ ، وَيَسْبُونَهُ ، قَالَ : وَإِنَّمَا فاعِلُهَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبَّوْا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ —

والمنى : يظهر خسرائهم يومئذ . (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ) قال القراء : ترى أهل كل دين (جانية) قال الزجاج : أي : جالسة على الركب ، يقال : قد جئنا فلان جئوا : إذا جلس على ركبته ، ومثله : جذا يجذو . والجذو أشد استيفازاً من الجئو ، لأن الجذو : أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه . قال ابن قتيبة : والمنى أنها غير مطمئة .

قوله تعالى : (كُلُّ أُمَّةٍ مُّندَعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كتابها الذي فيه حسناتها وسيئاتها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه حسابها ^(١) ، قاله الشعبي ، والقراء ، وابن قتيبة .

والثالث : كتابها الذي أنزل على رسوله ، حكاه الماوردي .

ويقال لهم : (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(هذا كتابنا) وفيه ثلاثة أقوال أحدها : أنه كتاب الأعمال الذي

تكتبه الحفظة ، قاله ابن السائب . والثاني : اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل . والثالث : القرآن ، والمنى أنهم يقرؤونه فيدُلُّهم ويُدَكِّرُهم ، فكأنه ينطق عليهم ، قاله ابن قتيبة .

— لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يسونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، قال ابن كثير : هذا أحسن ما قيل في تفسيره ، وهو المراد ، والله أعلم . اهـ . وللحديث ألفاظ آخر ، منها ما رواه أحمد في « المسند » والبخاري ومسلم في « صحيحهما » وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقرب إليه ونهارة » .

(١) في الأصل : « حسناتها » والتصويب من « غريب القرآن » .

قوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي : تأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أي : بكتبتها وإنباتها . وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ ، من اللوح المحفوظ ، تَسْتَنْسِخُ الملائكة كلَّ عامٍ ما يكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه . قالوا : والاستنساخ لا يكون إلا من أصلٍ . قال الفراء : يرفع الملائكة العمل كله ، فيثبت الله منه ما فيه ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللغو . وقال الزجاج : نستنسخ ما كتبه الحفظة ، ويثبت عند الله عز وجل .

قوله تعالى : (فِي رَحْمَةٍ) قال مقاتل : في جنّته .

قوله تعالى : (أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي) فيه إضمار ، تقديره : فيقال لهم ألم تكن آياتي ، يعني آيات القرآن (مُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ) عن الإيمان بها (وكنتم قوماً مجرمين) قال ابن عباس : كافرين .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْرًا إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ . وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَلَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا يُمَسْتَعْتَبُونَ . قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ (حَقٌّ) أَي : كائن
(والساعةُ) قرأ حمزة : « والساعة » بالنصب « لَارَيْبَ فِيهَا » أَي : كائنة
بلا شك (فُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ) أَي : أنكرتموها (إِنْ نَظُنُّهُ إِلَّا ظَنًّا)
أَي : مانعلم ذلك إِلَّا ظَنًّا وَحْدَنَا ، ولا نستطيعون كونها .

وما بعد هذا قد تقدم [الزمر : ٤٨] إلى قوله : (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ)
أَي : تترككم في النار (كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أَي : كما تتركتم الإيمان
والعمل للقاء هذا اليوم ^(١) .

(ذَلِكُمْ) الذي فعلنا بكم (بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا) أَي :
مهزوءاً بها (وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) حتى قلم : إنه لا بعث ولا حساب (فالיום
لا يُخْرَجُونَ) وقرأ حمزة ، والكسائي : « لا يُخْرَجُونَ » بفتح الياء وضم الراء .
وقرأ الباقر : [« لا يُخْرَجُونَ »] بضم الياء وفتح الراء (منها) أَي : من النار
(ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ) أَي : لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله عز وجل ،
لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار .

قوله تعالى : (وله الكبرياء) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : الشيطان ،
قاله مجاهد . والثاني : الشرف ، قاله ابن زيد . والثالث : المعظمة ،

(١) ثبت في « صحيح مسلم » : ٢٢٧٩/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ
أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أكرمك وأسودك ؟ » (أي أجعلك سيداً على
غيرك) وأزوتك ، وأسخر لك الخيل والابل ، وأذكرك رأساً (أي تكون رئيس القوم)
وتربعاً ؟ (أي : تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنمة ، أي أخذت ربع أموالهم .
وممناء : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً) ؟ فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟
فيقول : لا ، فيقول : فاني أنساك كما نسيتي (أي : أمنك الرحمة كما امتنت من طاعتي) .

قاله يحيى بن سلام ، والزجاج ^(١) .



(١) قال ابن كثير : (وله الكبرياء في السموات والأرض) قال : قال مجاهد : يعني السلطان ، أي : هو العظيم المعجّد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه ، قال : وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : المظنة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منها أسكنته ناراً » . ثم قال في تمة الآية : (وهو العزيز) أي الذي لا يغالَب ولا يمانع (الحكيم) في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو . اهـ .

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَحْمَ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . مَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ لِيُثْبِنِي
بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ فصل في نزولها ﴾

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكِّيَّة ، وبه قال الحسن ،
وبجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور . وروي عن ابن عباس وقتادة أنها قالا :
فيها آية مدنيَّة ، وهي قوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ) [الأحقاف: ١٠] .
وقال مقاتل : نزلت بمكة غير آيتين : قوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ)
[الأحقاف: ١٠] وقوله : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)
[الأحقاف: ٣٥] نزلتا بالمدينة . وقد تقدم تفسير فاتها [المؤمن ، الحجر : ٨٥]

إلى قوله : (وأَجَلٍ مُّسَمًّى) وهو أَجَلٌ فَنَاءُ السموات والأرض ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : (قل أرأيتم) مفسّر في (فاطر : ٤٠) إلى قوله : (إيتوني بكتاب) ، وفي الآية اختصار ، تقديره : فإن ادَّعَوْا أَن شَيْئاً مِنَ المخلوقات صنعةُ آلهتهم ، قل لهم : إيتوني بكتاب (مِن قَبْلِ هَذَا) أي : مِن قَبْلِ القرآن فيه برهانٌ مائدّعون من أن الأصنام شركاء الله ، (أو أنارةٍ مِن عِلْمٍ) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الشيء يثيره مستخرجه ، قاله الحسن .

والثاني : بقيةٌ مِن عِلْمٍ تُؤثّر عن الأولين ، قاله ابن قتيبة ، وإلى نحوه ذهب الفراء ، وأبو عبيدة .

والثالث : علامةٌ مِن عِلْمٍ ، قاله الزجاج ^(١) .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأيوب السخيتاني ، وبمقوب : « أثرة » بفتح الراء ، مثل شجرة . ثم ذكروا في معناها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الخط ، قاله ابن عباس ؛ وقال : هو خَط كانت العرب تحطّه في الأرض ، قال أبو بكر بن عباس : الخط هو العيافة .

والثاني : أو عِلْمٌ تأثرونه عن غيركم ، قاله مجاهد .

والثالث : خاصّةٌ مِن عِلْمٍ ، قاله قتادة .

وقرأ أبي بن كعب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن يمر : « أثرة » بسكون الراء من غير ألف بوزن نظرة ^(٢) .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : الأثرة :

البقية من علم ، قال : لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : والقراءة التي لا تستجيز غيرها (أو أنارة مِن عِلْمٍ)

بالألف ، لاجتماع قرء الأضمار عليها . اهـ . زاد المسير ٧ م (٢٤)

وقال الفراء : قرئت « أثارَة » و « أثرَة » ، وهي لغات ، ومعنى الكل : بقیة من علم ، ويقال : أو شيء مأنور من كتب الأولین ، فن قرأ « أثارَة » فهو المصدر ، مثل قولك : الساحة والشجاعة ، ومن قرأ « أثرَة » فانه بناء على الأثر ، كما قيل : قترَة ، ومن قرأ « أثرَة » فكأنه أراد مثل قوله : « الحطفة » [الصافات : ١٠] و « الرجفة » [الأعراف : ٧٨] .

وقال اليزيدي : الأثارة : البقية ؛ والأثرة ، مصدر أثره بأثره ، أي : يذكره ويرويه ، ومنه : حديث مأنور .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ) يعني الأصنام ^(١) (وهم عن دعائهم غافلون) لأنها جاد لاتسمع ، فإذا قامت القيامة صارت الآلهة أعداء لعابديها في الدنيا ^(٢) . ثم ذكر [بما] بعد هذا أنهم يسمون القرآن سحراً وأن محمداً افتراه .

- (١) وأول الآية : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة) . قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وأي عبد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهة (لا يستجيب له إلى يوم القيامة) يقول : لا يحيب دعاءه أبداً ، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك . (٢) قال ابن جرير : وقوله : (وهم عن دعائهم غافلون) يقول تعالى ذكره : وآلهتهم التي —

قوله تعالى : (فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أي : لا تقدرُونَ على أن تردُّوا عني عذابه ، أي : فكيف أقترى من أجلكم وأنتم لا تقدرُونَ على دفع عذابه عني ؟ (هو أعلم بما تُفيضون فيه) أي : بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب والقول بأنه سحر (كفى به شهيداً بيني وبينكم) أن القرآن جاء من عند الله (وهو الغفور الرحيم) في تأخير المذاب عنكم . وقال الزجاج : إنما ذكر هاهنا القرآن والرحمة ليعلمهم أن من أتى ما أتيتُم ثم تاب فإن الله تعالى غفور له رحيم به .

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) أي : ما أنا بأول رسول .
والبدع والبدع من كل شيء : المبتدأ (وما أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)
وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عمرة : « مَا يُفْعَلُ » بفتح الياء ثم فيه قولان .

— بدعوتهم عن دعائهم إياهم في غفلة ، لأنها لا تسمع ولا تنطق ولا تفعل ، قال : وإنما عني بوصفها بالغفلة فتقبلها بالإنسان الساعي عما يقال له ، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً ، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه ، قال : وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم ، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته ، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الجوائح والمصائب . اهـ .

(١) قال ابن كثير : أي لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستكروني وتستبدون بمقتي إليكم ، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم . اهـ .

أحدهما : أنه أراد بذلك ما يكون في الدنيا . ثم فيه قولان .

أحدهما : [أنه] لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ ، رأى في المنام أنه هاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه ، فاستبشروا بذلك لما يلقون من أذى المشركين . ثم إنهم مكثوا برهة لا يروون ذلك ، فقالوا : يا رسول الله متى تهاجر إلى الأرض التي رأيت ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » ، يعني لا أدري ، أخرجُ إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا ؟ ثم قال : « إنما هو شيء رأيته في منامي ، وما (أتبع إلا ما يوحى إلي) » ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ^(١) وكذلك قال عطية : ما أدري هل يتركني بمكة أو يخرجني منها .

والثاني : ما أدري هل أخرج كما أخرج الأنبياء قبلي ، أو أقتل كما قتلوا ، ولا أدري ما يفعل بكم ، أم تدبون أم تؤخرون ؟ أنصدقون أم تكذبون ؟ قاله الحسن .

والقول الثاني : أنه أراد ما يكون في الآخرة ^(٢) . روى ابن أبي طلحة عن

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٥ هكذا بدون سند عن أبي صالح عن ابن عباس . وكذلك ذكره البغوي والغازي عن ابن عباس بدون سند ، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير : قال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى : (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) قال : أما في الآخرة ، فعاد الله ، وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتل الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أنخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ قال : وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير الطبري ، وإنه لا يجوز غيره ، قال : ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، يؤمنون ، أم يكفرون فيمذبون فيستأصلون بكفرهم ؟ هـ .

ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ، نزل بعدها (لِيَتَغَفَّرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) [الفتح : ٢] وقال : (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ . . .) الآية [الفتح : ٥] فأعلم ما يُفَعَّلُ به وبالمؤمنين ^(١) . وقيل : إن المشركين فرحوا عند نزول هذه الآية وقالوا : ما أمرنا وأمرُ محمدٍ إلا واحد ، ولولا أنه ابتدع ما يقوله لآخبره النبي بمما يفعل به ، فزل ^(٢) قوله : (لِيَتَغَفَّرَ لَكَ اللَّهُ . . .) الآية [الفتح : ٢] ، فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فإذا يُفَعَّلُ بنا ، فنزلت : (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ . . .) الآية [الفتح : ٥] ^(٣) ؛ ومن ذهب إلى هذا القول أنس ، وعكرمة ، وقتادة . وروي عن الحسن ذلك .

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) يعني القرآن (وكفرتُم به وشهد شاهدٌ مِنْ بني إسرائيل) وفيه قولان .
أحدهما : أنه عبد الله بن سلام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : أنه موسى بن عمران عليه السلام ، قاله الشعبي ، ومسروق .
فعل القول الأول يكون ذكر المثل صلة ، فيكون المعنى : وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه ، أي : على أنه من عند الله ، (فأمن) الشاهد ، وهو ابن سلام (واستكبرتم) يامعشر اليهود .

وعلى الثاني يكون المعنى : وشهد موسى على التوراة التي هي مثل القرآن

(١) رواه بنحوه مختصراً الطبري : ٧/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدرر » : ٣٨/٦ بنحوه ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) في الأصل : فزلت .

(٣) هكذا ذكره البغوي والخازن بدون سند ، وذكره بنحوه مختصراً أحمد في « المسند » والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

أنها من عند الله ، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله ، « فآمن » من آمن بموسى والتوراة « واستكبرتم » أنتم يامعشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن .
 فان قيل : أين جواب « إن » ؟ قيل : هو مضمّر ؛ وفي تقديره ستة أقوال .
 أحدها : أن جوابه : فنّ أضلّ منكم ، قاله الحسن . والثاني : أن تقدير الكلام :
 وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن ، أتؤمنون ؛ قاله الزجاج . والثالث :
 أن تقديره : أتؤمنون عقوبة الله ؛ قاله أبو علي الفارسي . والرابع : أن تقديره :
 أفا تهلكون ؛ ذكره الماوردي . والخامس : من الحقّ متأمنكم ومن المبطل ؛
 ذكره الثعلبي . والسادس : أن تقديره : أليس قد ظلمتم ؛ ويدلّ على هذا
 المحذوف قوله : (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) ، ذكره الواحدي .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ . وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عِزِّبِئَا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ . إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَآعِزٍ لَّوَا

وَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي
كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا . . .) الآية ، في سبب
نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن الكفار قالوا : لو كان دين محمد خيراً ماسبقنا إليه اليهود ،
فنزلت هذه الآية ، قاله مسروق .

والثاني : أن امرأة ضميمة البصر أسلمت ، وكان الأشراف من قريش
يهزؤون بها ويقولون : والله لو كان ماجاء به محمد خيراً ماسبقنا هذه إليه ،
فنزلت هذه الآية ، قاله أبو الزناد .

والثالث : أن أبا ذر الغفاري أسلم واستجاب به قومه إلى الإسلام ، فقالت
قريش : لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

والرابع : أنه لما اهدت مُزَيْنَةُ وَجْهَينَةَ وأسلمت ، قالت أسد وغطفان :
لو كان خيراً ماسبقنا إليه رعاءُ الشاء ، يذنون مُزَيْنَةَ وَجْهَينَةَ ، فنزلت
هذه الآية ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن اليهود قالوا : لو كاد دين محمد خيراً ماسبقتمونا إليه ، لانه
لاعلم لكم بذلك ، ولو كان حقاً لدخلنا فيه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي وقال :
[هو قول مَنْ يقول : إن الآية نزلت بالمدينة ؛ ومن قال : هي مكية ، قال :]
هو قول المشركين . فقد خرج في «الدين كفروا» قولان . أحدهما : أنهم المشركون .
والثاني : اليهود .

وقوله : (لو كان خيراً) أي : لو كان دين محمد خيراً (ماسبقونا إليه) .

فمن قال : هم المشركون ، قال : أرادوا : إنا أعزُّ وأفضل ؛ ومن قال : هم اليهود ، [قال] : أرادوا : لآئنا أعلم .

قوله تعالى : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ) أي : بالقرآن (فسيقولون هذا إفكٌ قديم) أي : كذب متقدم ، يعنون أساطير الأولين .

(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى) أي : من قبل القرآن التوراة . وفي الكلام محذوف ، تقديره : فلم يهتدوا ، لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة .

(إماماً) قال الزجاج : هو منصوب على الحال (ورحمةً) عطف عليه (وهذا كتابٌ مُصَدِّقٌ) المعنى : مصدقٌ للتوراة (لساناً عربياً) منصوب على الحال ؛ المعنى : مصدقٌ لما بين يديه عربياً ؛ وذكر « لساناً » تأكيداً ، كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، تريد : جاءني زيدٌ صالحاً .

قوله تعالى : (لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي : « لِيُنْذِرَ » بالياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : « لِيُنْذِرَ » بالثاء . وعن ابن كثير كالتقراءتين . و « الذين ظلموا » المشركون (وبُشْرَى) أي : وهو بُشْرَى (لِلْمُحْسِنِينَ) وهم الموحدون يبتغون بالجنة .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [فصل : ٣٠] إلى قوله : (بِالذِّبَةِ حُسْنًا) وقرأ عاصم ، وحزمة ، والكسائي : « إحساناً » بألف .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « كَرَهَا » بفتح الكاف ؛ وقرأ الباقون : بضمها . قال الفراء : والنحوثون يستحبون الضمَّ هاهنا ، ويكرهون الفتح ، للعلَّة التي يبتأها عند قوله : (وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) [البقرة : ٢١٦] . قال الزجاج : والمعنى : حملته على مشقة (ووضعتَه) على مشقة^(١) .

(١) قال ابن كثير : (حملته أمه كرها) أي : قامت بسببه في حال حمل مشقة وتعباً —

(وفِصَالُهُ) أي : فِطَامُهُ . وقرأ يعقوب : « وفِصْلُهُ » بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف (ثلاثون شهراً) ^(١) . قال ابن عباس : « ووضعت كُرْهاً » يريد به شِدَّةُ الطَّلُق . واعلم أن هذه المِدَّةُ قُدِّرَتْ لِأَقَلِّ الحَمَلِ وأكثر الرُّضَاع ؛ فَأَمَّا الْأَشُدُّ ، ففيه أقوال قد تقدَّمت ؛ واختار الزجاج أنه بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، لأنه وقت كمال الإنسان في بدنه وقوَّته واستحكام شأنه وتمييزه ^(٢) . وقال ابن قتيبة : أَشَدُّ الرَّجُلِ غير أَشَدِّ الْيَتِيم ، لأن أَشَدَّ الرَّجُلِ : الاكتهال والخشكة وأن يشتدَّ رأيه وعقله ، وذلك ثلاثون سنة ، ويقال : ثمان وثلاثون سنة ، وَأَشَدُّ الْعُلَام : أن يشتدَّ خَلْقُهُ وينتهي نَبَاتُهُ ^(٣) . وقد ذكرنا بيان الْأَشَدِّ في (الأنعام : ١٥٣) وفي (يوسف : ٢٢) وهذا تحقيقه . واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنها] نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وذلك أنه صحَّبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ولم يربدون الشام في تجارة ، فنزلوا منزلاً فيه سِدْرَةٌ ، فقمعد رسول الله ﷺ في ظِلِّهَا ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال [له] : مَنْ الرَّجُلُ الَّذِي فِي ظِلِّ السِّدْرَةِ ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ،

— من لحم وغشيان وتقل وكرب، إلى غير ذلك مما تال الحوامل من الحب والمثقة (ووضعت كرها) أي : بمثقة أيضاً من الطلق وشدته . اهـ .

(١) (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) قال ابن كثير : وقد استدلل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان (وفصاله في عامين) وقوله تبارك وتعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، قال : وهو استنباط قوي صحيح ، قال : ووافقه عليه عثمان رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم . اهـ .

(٢) (حتى إذا بلغ أشده) قال ابن كثير : أي : قوي وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) أي : تنامي عقله وكل فهمه وحله . اهـ .

(٣) في النسخة الاستنبولية : بنيانه ، والذي في اللسان ، و « التاج » : وبنتي شبابه .

فقال : هذا والله نبي ، وما استظلل تحتها أحدٌ بعد عيسى إلا محمدٌ نبي الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضره ، فلما بُشِيَ رسولُ الله ﷺ - وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة - صدق رسولُ الله ﷺ ، فلما بلغ أربعين سنة قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنمت علي ، رواه عطاء عن ابن عباس (١) ، وبه قال الأكثرون ؛ قالوا : فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة ، دعا الله عز وجل بما ذكره في هذه الآية ، فأجابه الله ، فأسلم والداه وأولاده ذكورهم وإناثهم ، ولم يجتمع ذلك لغيره من الصحابة . والقول الثاني : أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقد شرحنا قصته في سورة (النكبات : ٨) ، وهذا مذهب الضحاك ، والسدي (٢) .

والثالث : أنها نزلت على العموم ، قاله الحسن . وقد شرحنا في سورة (النمل : ١٩) معنى قوله : (أوزعني) .

قوله تعالى : (وأن أعمل صالحاً ترضاه) قال ابن عباس : أجابه الله - يعني أبا بكر - فأعق نعمة من المؤمنين كانوا يُعذَّبون في الله عز وجل ، ولم يُرَدِّ شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ، واستجاب له في دُرَيْتِهِ فَأَمَنُوا ، (إِنِّي مُبْتَئِئُ بِكَ) أي : رَجَعْتُ إِلَى كُلِّ مَاتِحِبٍّ (٣) .

(١) هكذا ذكره الواحدي بتمامه في « أسباب النزول » : ٢١٦ من رواية عطاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بدون سند . وقال البيهقي في « الدر » ٤٠/٦ : أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) إلى قوله : (وعدت الصدق الذي كانوا يوعدون) .

(٢) قال البغوي : قال السدي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقال الخازن : قيل : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص . وانظر الجزء السادس من كتابنا هذا صفحة (٢٥٧) .

(٣) قال ابن كثير : (إِنِّي مُبْتَئِئُ بِكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) قال : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجتهد التوبة والافتابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها . اهـ .

قوله تعالى : (أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم)
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « يَتَقَبَّلُ »
« وَيَتَجَاوَزُ » بالياء المضمومة فيها . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن
عاصم ، وخلف : « تَتَقَبَّلُ » « وَنَتَجَاوَزُ » بالنون فيها . وقرأ أبو التوكل ،
وأبو رجاء ، وأبو عمران الجوني : « يَتَقَبَّلُ » « وَيَتَجَاوَزُ » ياء مفتوحة فيها ،
يعني أهل هذا القول والأحسن بمعنى الحسن .

(في أصحاب الجنة) أي : في جملة من يتجاوز عنهم ، وم أصحاب الجنة .
وقيل : « في » بمعنى « مع » .

(وَعَدَ الصِّدِّيقِ) قال الزجاج : هو منصوب ، لأنه مصدر مؤكِّد
لما قبله ، لأن قوله : « أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم » بمعنى الوعد ، لأنه وعدم
القبول بقوله : « وَعَدَ الصِّدِّيقِ » ، يؤكِّد ذلك قوله : (الذي كانوا يوعدون)
أي : على السنة الرُّسَل في الدنيا ^(١) .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُيْ أَفَ لَكُمْ مَا أُتِمِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ
وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَمَا يَسْتَفِihanَ اللَّهُ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ
وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أولئك الذين
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

(١) قال ابن كثير : قال الله عز وجل : (أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا وتتجاوز
عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) أي : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، الثابتون إلى الله ، المنيون إليه ،
المستدركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا ، وتتجاوز عن سيئاتهم ،
فتنفر لهم الكبر من الزلل ، وتقبل منهم اليسير من المملد في أصحاب الجنة ، أي : هم في جملة
أصحاب الجنة ، قال : وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأتاب ،
ولهذا قال تعالى : (وَعَدَ الصِّدِّيقِ الذي كانوا يوعدون) . اهـ .

وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ . وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿

قوله تعالى : (والذي قال لوالديه أَفٍ لَّكَما) قرأ أبو عمرو ، وحمة ،
والكسائي . وأبو بكر عن عاصم : « أَفٍ لَّكَما » بالخفض من غير تنوين . وقرأ
ابن كثير ، وابن عامر : بفتح الفاء . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : « أَفٍ »
بالخفض والتنوين . وقرأ ابن عمر : « أَفٌ » بتشديد الفاء مرفوعة منوثة .
وقرأ حميد ، والجدري : « أَفًا » بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين . وقرأ
عمرو بن دينار : « أَفٌ » بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين . وقرأ أبو المتوكل ،
[وعكرمة] ، وأبو رجاء : « أَفٌ لَّكَما » باسكان الفاء خفيفة . وقرأ أبو العالية ،
وأبو عمران : « أَفِيَّ » بتشديد الفاء وياه ساكنة ممالأة . وروي عن ابن عباس
أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، كات أبواه يدعوانه إلى
الإسلام ، وهو يأبى ، وعلى هذا جمهور المفسرين . وقد روي عن عائشة أنها كانت
تُشْكِرُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَتَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ وَقُولُ :
لَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَقُولُ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ
فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بَاطِلٌ بِقَوْلِهِ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) ، فَأَعْلَمَ اللَّهُ
أَنْ هَؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُؤْمِنٌ ؛ وَالتفسير الصحيح أنها نزلت في
الكافر الملقب . وروي [عن] مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر ، ومن

الحسن [أنها] نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا ذلك لآبائهم ^(١) .

قوله تعالى : (وقد خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) ^(٢) فيه قولان . أحدهما : مضت القرون فلم يرجع منهم أحد ، قاله مقاتل . والثاني : مضت القرون مكذبة بهذا ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وهما يستنثيان الله) أي : يدعوان الله له بالهدى ، ويقولان له : (وويلك آمين) أي : صدق بالبحث ، (فيقول ما هذا) الذي تقولان (إلا أساطيرُ الأولين) وقد سبق شرحها [الأنعام : ٢٥] .

قوله تعالى : (أولئك) يعني الكفار (الذين حَقَّ عليهم القول) أي : وجب عليهم قضاء الله أنهم من أهل النار (في أمم) أي : مع أمم . فذكر الله تعالى في الآيتين قبل هذه مَنْ بَرَّ والدَّيْنِ وَعَمِلَ بوصية الله عز وجل ، ثم ذكر مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بالوصية ولم يُطِيعْ رَبَّهُ ولا والدَّيْنِ ، (إنهم كانوا خاسرين) وقرأ ابن السميع ، وأبو عمران : « أنَّهُمْ » ففتح الهمزة .

ثم قال : (ولكلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا) أي : منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان وكفر ، فيفاضل أهل الجنة في الكرامة ، وأهل النار في

(١) قال ابن كثير : (والذي قال لوالديه أف لكما) : هذا عام في كل من قال هذا ، قال : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنها ، فقوله ضيف ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه ، قال : وروى الدوفي عن ابن عباس رضي الله عنها أنها نزلت في ابن لاثي بكر الصديق رضي الله عنها ، قال : وفي صحة هذا نظر ، والله تعالى أعلم ، قال : وقال ابن جرير عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنها ، قاله ابن جريج ، وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها ، وهذا أيضاً قول السدي ، قال : وإنما هذا عام في كل من عتق والدَّيْنِ وكذب بالحق فقال لوالديه : أف لكما ، عفا . اهـ .

(٢) وأول الآية : (والذي قال لوالديه أف لكما أتمداتني أن أخرَج) أي : أن أبت (وقد خلت القرون من قبلي) .

المذاب (وَلِيُؤْفِتِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو :
« وَلِيُؤْفِتِيَهُمْ » بالياء ، وقرأ الباقون : بالنون ؛ أي : جزاء أعمالهم .

قوله تعالى : (وَبِومَ يُعْرَضُ) المعنى : واذكُرْ لهم يومَ يُعْرَضُ (الدين
كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ) أي : ويقال لهم : أذهبتم ، قرأ ابن كثير :
[« أَذْهَبْتُمْ » بهزة مطوَّلة ^(١) . وقرأ [ابن عامر : « أَأَذْهَبْتُمْ » بهزتين .
وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « أَذْهَبْتُمْ » على الخبر ،
وهو توينخ لهم . قال الفراء والزجاج : [العرب] تَوَيْخَ بِالْأَلْفِ وَبِئْرِ الْأَلْفِ ،
فتقول : أَذْهَبْتَ وَفَعَلْتَ كَذَا ؛ أو : ذهبتَ ففعلت ؛ قال المفسرون : والمراد
بطيبتهم : ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة مُعْرِضِينَ عَنْ شُكْرِهَا .
ولما وَبَّخَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ ، آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتنابَ
نعم العيش ولذته ليتكامل أجرهم واثلاً بِطَلَبِهِمْ عَنْ مَعَادِهِمْ . وقد روي عن
عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على خَصْفَةٍ وَبَضْءَةٍ
على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً ، فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ ،
وكسرى وقيصر على سُرُرِ الدَّهَبِ وَفُرُشِ الدِّيَابِجِ وَالْحَرِيرِ ؛ فقال ﷺ : « يَا عُمَرُ ،
إِنْ أَوْلَيْتُكَ قَوْمَ عُجَلٍ لَمْ طَيِّبَاتُهُمْ ، وَهِيَ وَشِيكَةُ الْإِنْقِطَاعِ ، وَإِنَّا أَخَّرْتُ لَنَا
طَيِّبَاتُنَا » ^(٢) . وروى جابر بن عبد الله قال : رأى عمر بن الخطاب لَحْماً مَطْلُوقاً
في يدي ، فقال : ما هذا يَا جَابِرُ ؟ فقلت : اشتهيت لَحْماً فَاشْتَرَيْتُهُ ، فقال : أَوَكُلَّيْهَا اشْتَهَيْتَ

(١) قال في « إتحاف فضلاء البشر » : وقرأ ابن كثير والداجوني عن هشام من طريق
النهرواني ورويس بهزتين عَقْفَةً مُسَهَّلَةً مع عدم الفصل .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » من حديث ابن عباس رضي الله عنها وقال : صحيح
على شرط مسلم ، وراه ابن ماجه في « سننه » بنحوه من حديث ابن عباس أيضاً بإسناد صحيح ،
وابن حبان في « صحيحه » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

اشتريت يا جابر ! أما تخاف هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » ^(١) .
 وروي عن عمر أنه قيل له : لو أمرت أن نضع لك طعاماً ألين من هذا ، فقال :
 إني سمعت الله عير أقواماً فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » .
 قوله تعالى : (تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ) أي : تكبرون عن عبادة الله
 والإيمان به .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ
 النُّذُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا
 فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
 وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . فَلَمَّا رَأَوْهُ
 عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ
 مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا
 فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِينَ لَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾
 قوله تعالى : (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) يعني هوداً (إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ)

قال الخليل : الاحقاف : الرمال العظام وقال ابن قتيبة : واحد الاحقاف :
 حقف ، وهو من الرمل : ما أشرف من كُثبانهِ واستطال وانحى . وقال ابن جرير :
 هو ما استطال من الرمل ولم يبلغ أن يكون جبلاً .

واختلفوا في المكان الذي سمي بهذا الاسم على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جبل بالشام ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

(١) ذكره بنحوه البنوي والحاازن من رواية جابر بن عبد الله عن عمر بدون سند .

والثاني : أنه وادٍ ، ذكره عطية . وقال مجاهد : هي أرض . وحكى ابن جرير أنه وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال ابن إسحاق : كانوا ينزلون ما بين عُمان وحَضْرَمَوْت ، واليمن كله .
والثالث : أن الأحقاف : رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها : الشحر ، قاله قتادة (١) .

قوله تعالى : (وَقد خَلَتِ النُّذُرُ) أي : قد مضت الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِ هودٍ وَمِنْ بَعْدِهِ بإنذار أُمَمِها (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ؛ والمعنى : لم يُبْعَثْ رسولٌ قَبْلَ هودٍ ولا بَعْدَهُ إِلَّا بالامر بعبادة الله وحده . وهذا كلام اعترض بين إنذار هودٍ وكلامه لقومه . ثم عاد إلى كلام هود فقال : (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ) .
قوله تعالى : (لَتَأْفِكُنَا) أي : لتَصْرِفُنَا عن عبادة آلِهَتِنَا بِالْإِفْكِ .
قوله تعالى : (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) أي : هو يَعْلَمُ متى يَأْتِيكم العذاب . (فَلَمَّا رَأَوْهُ) يعني ما يوعنون في قوله : « بَعَا تَعِدُّنَا » (عَارِضًا) أي : سحاب يعرِّض من ناحية السماء . قال ابن قتيبة : العارض : السحاب . قال المفسرون : كان المطر قد حُبِسَ عن عاد ، فساق الله إليهم سحابةً سوداء ، فلَمَّا رَأَوْهَا فرحوا و (قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرٌ لَنَا) ، فقال لهم هود : (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ) ، ثم يَنْ مَهِقًا : (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) ، فنشأت الريح من تلك السحابة ، (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ) أي : تُهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ صَرَّتْ بِهِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْبَاءِ .
والأموال . قال عمرو بن ميمون : لقد كانت الريح تحمل الطَّيْنَةَ فترفعها حتى تُرَى كأنها جراداة ، (فَأَصْبَحُوا) يعني عاداً (لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ)

(١) قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تبارك وتعالى أخبر أن عاداً أنذرم أخوم هودٍ بالأحقاف ، قال : والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة . اهـ .

قرأ عاصم ، وحمة : « لا يُرَى » برفع الياء « إلا مساكينهم » برفع النون .
 وقرأ علي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والجحدري : « لا تُرَى »
 بتاء مضمومة . وقرأ أبو عمران ، وابن السميع : « لا تُرَى » بتاء مفتوحة
 « إلا مسكنهم » على التوحيد . وهذا لأن السكّان هلكوا ، فقبل : أصبحوا
 وقد غطّتهم الرياح بالرمل فلا يرون .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ
 سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْنِيدَهُ قَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ
 وَلَا أَفْنِيدُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَ كُمْ مِنَ الْقُرَى
 وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مُرَبَّنَا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ لَفِئَتُهُمْ
 وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

ثم خوف كفار مكة ، فقال عز وجل : (ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم
 فيه) في « إن » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى « كم » ، فتقديره : فيما لم نمكّنكم فيه ، [قاله ^(١)
 ابن عباس ، وابن تيبة . وقال الفراء : هي بمنزلة « ما » في الجحد ، فتقدير
 الكلام : في الذي لم نمكّنكم فيه] .

والثاني : أنها زائدة ؛ والمعنى : فيما مكّناكم فيه ، وحكاه ابن تيبة أيضاً .

(١) في الأصل : قال ، والتعويّب من كتب التفسير .

ثم أخبر أنه جعل لهم آلات الفهم ، فلم يتدبروا بها ، ولم يتفكروا فيما يدلهم على التوحيد قال المفسرون : والمراد بالافتدة : القلوب ؛ وهذه الآلات لم ترد عنهم عذاب الله (١).

ثم زاد كفار مكة في التخويف ، فقال : (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) كديار عاد ونموذ وقوم لوط وغيرهم من الأمم المشهكة (وصرقنا الآيات) أي : بيناتها (لعلهم) يعني أهل القرى (يرجعون) عن كفرهم . وها هنا محذوف ، تقديره : فما رجعوا عن كفرهم .

(فلولاً) أي : فهلاً (نصرم) أي : منهم من عذاب الله (الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ١١) يعني الأصنام التي تقرر بعبادتها إلى الله على زعمهم ؛ وهذا استفهام إنكار ، معناه : لم ينصروهم (بل ضلوا عنهم) أي : لم ينقوم عند نزول العذاب (وذلك) يعني دعاءهم الآلهة (إفكهم) أي : كذبهم . وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن عمر ، وأبو عمران : « وذلك أفكهم » بفتح الهزة وقصرها وفتح الفاء وتشديدها ونصب الكاف . وقرأ أبي بن كعب ، وابن عباس ، وأبورزين ، والشبي ، وأبو العالية ، والجدري : « أفكهم » بفتح الهزة وقصرها ونصب الكاف والفاء [وتخفيفها] . قال ابن جرير : أي : أضلهم . وقال الزجاج : معناها : صرّفهم عن الحق فجعلهم ضلالاً . وقرأ ابن مسعود ،

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه ، وجعلنا لهم سمماً وأبصاراً وأفئدة (فما أغنى عنهم سمهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أي : وأحاط بهم المذاب والشكال الذي كانوا يكذبون به ويستبدون وقوعه ، أي : فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من المذاب في الدنيا والآخرة . اهـ .

وأبو التوكل : « آفِكْهُمْ » بفتح الهمزة ومدّها وكسر الفاء وتخفيفها ورفع الكاف ،
أي : مُضِلِّهِمْ .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .
قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا
أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ
مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ) وبخ الله عز وجل
بهذه الآية كفار قريش بما آمنت به الجن . وفي سبب صرفهم إلى النبي ﷺ
ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم صرّفوا إليه بسبب ما حدث من رجهم بالشَّهْب . روى البخاري
ومسلم في « الصحيحين » من حديث ابن عباس قال : انطلق رسول الله ﷺ
في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر
السماء ، وأرسلت عليهم الشَّهْب ، فرجعت الشياطين ، فقالوا : ما لكم ؛ قالوا : حيل
بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشَّهْب ، قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ،
فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر ، فرّ النّفَرُ الذين توجهوا نحو
نَهامة بالنبي ﷺ وهو بـ « نَخْلَة »^(١) وهو بصلتي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا

(١) موضع بين مكة والطائف ، وهي التي ينسب إليها « بطن نخلة » قال الحافظ ابن حجر

في « الفتح » : ووقع في رواية مسلم « بنخل » ، والصواب إثباتها . اهـ .

القرآن تَسْمَعُوا لَهُ ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجَعُوا إلى قومهم » فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » [الجن : ١ - ٢] فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ « قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » [الجن : ١] ^(١) . وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجن ، ولا رآهم ، وإنما أتَوْهُ وهو بـ « نخلة » فسمعوا القرآن .

والثاني : أنهم صُرفوا إليه لِيُنْذِرَهُمْ ، وأمر أن يقرأ عليهم القرآن ، هذا مذهب جماعة ، منهم قتادة . وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال : قلت لعبد الله : من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن ؟ فقال : ما كان منّا معه أحد ، فقد ناه ذات ليلة ونحن بمكة ، فقلنا : اغتيل رسولُ الله ﷺ أو استطير ، فانطلقنا نطلبه في الشّعاب ، فلقيناه مُقْبِلًا من نحو حِراء ، فقلنا : يا رسول الله ، أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بئنا الليلة بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قوم حين فقدناك ، فقال : « إنه أتاني داعي الجن ، فذهبت أقرئهم القرآن » ، فذهب بنا ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ^(٢) . وقال قتادة : ذُكِرَ لنا أن رسول الله ﷺ قال : « إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَفْرَأَ عَلَى الْجِنِّ ، فَأَيْكُمْ يَتَّبِعُنِي ؟ » فأطرقوا ، ثم استتبهم فأطرقوا ، ثم استتبهم الثالثة فأطرقوا ، فأتبعه عبد الله بن مسعود ، فدخل نبيُّ الله ﷺ شِعْبًا يقال له : « شِعْبُ الْحَجُونِ » ، وخطَّ على عبد الله خطًّا ليُثَبِّتَهُ به ، قال : فسمعت لفظاً شديداً حتى خِفْتُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، فلما رجَع قلت : يا نبي الله ، ما اللفظ

(١) رواه البخاري : ٢/٢١٠ ، و ٨/٥١٣ ، ومسلم : ١/٣٣١ ، والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٦/٢٧٠ ، وزاد نسبه لأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي في « الدلائل » ، عن ابن عباس رضي الله عنها

(٢) رواه مسلم : ١/٣٣٢ ورواية المصنف له عن مسلم بالمتى . والحديث رواه أيضاً أحمد في « المسند » رقم (٤١٤٩) . وأورده السيوطي في « الدر » ، وزاد نسبه لعبد بن حميد ، والترمذي

الذي سمعتُ ، قال : « اجتمعوا إليَّ في قنيل كان بينهم ، ففضيت بينهم بالحق » ^(١) .
 والثالث : أنهم صرّوا به وهو يقرأ ، فسمعوا القرآن . فذكر بعض
 المفسرين أنه لما يئس من أهل مكة أن يجيئوه ، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى
 الإسلام - وقيل : ليلتمس نصرهم - وذلك بعد موت أبي طالب ، فلما كان يظن
 نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فرأى به نفرٌ من أشرف جِنِّ نصيبين ، فاستمعوا
 القرآن . فعلى هذا القول والقول الأول ، لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى ؛
 وعلى القول الثاني ، علّمَ بهم حين جاءوا ^(٢) . وفي المكان الذي سمعوا فيه تلاوةَ
 النبي ﷺ قولان . أحدهما : الحَجُون ، وقد ذكرناه عن ابن مسعود ، وبه قال
 قتادة . والثاني : بطن نخلة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .
 وأما النَّفَر ، فقال ابن قتيبة : يقال : إن النَّفَرَ ثلاثة إلى العشرة .
 وللمفسرين في عدد هؤلاء النَّفَر ثلاثة أقوال .
 أحدها : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن مسعود ، وزرّ بن حبيش ، ومجاهد ،
 ورواه عكرمة عن ابن عباس .

- (١) هذه الرواية مرسلّة ، رواها ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة .
 (٢) هذا الخبر من رواية ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي .
 قال ابن كثير بعد أن سرد كثيراً من الروايات حول هذا الموضوع : فهذه الطرق كلها
 تدلّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ،
 وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، قال : وقد يحتمل أن
 أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس رضي الله عنها ، ثم بعد ذلك
 وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه . قال : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه
 لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، قال : وإنما كان بيدها منه ،
 ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال مخاطبة ، قال : هذه طريقة
 البيهقي ، قال : وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود
 رضي الله عنه ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ، والله أعلم .

والثاني : تسمّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : انني عشر ألفاً ، روي عن عكرمة ، ولا يصح ، لأن التّفَرَّ لا يُطْلَقُ على الكثير .

قوله تعالى : (فَلَمَّا حَضَرُوهُ) أي : حضروا استماعه ، و (مُقْضِي) يعني : مُفْرَغٌ مِنْ تِلَاوَتِهِ (وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) أي : محذرين عذاب الله عز وجل إن لم يؤمنوا .

وهل أنذروا قومهم مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ ، أم جعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم ؟ فيه قولان .

قال عطاء : كان دين أولئك الجِنِّ اليهودية ، فلذلك قالوا : (مِنْ بَعْدِ مُوسَى) .

قوله تعالى : (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) يعنون محمداً ﷺ . وهذا يدل على أنه أُرْسِلَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ (١) .

قوله تعالى : (يَنْفِرْ لَكُمْ مِنْ دُنُوبِكُمْ) « مِنْ » هاهنا صلة (٢) .

(١) قال ابن كثير : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة (الرحمن) ، قال : ولهذا قال : (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ) .

(٢) وتتم الآية : (وَيُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) أي : ويقيكم من عذابه الأليم ، قال ابن كثير : وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن ينجّروا من عذاب النار يوم القيامة ، ثم قال : والحق أن مؤمنهم كؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف ، قال : وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل : (لَمْ يَلْمِزْهُمْ أَيْسَرُ قَلْبِهِمْ وَلَا جُنَّ) قال : وفي هذا الاستدلال نظر ، قال : وأحسن منه —

قوله تعالى : (فليس بمُعْجَزٍ في الأرض) ^(١) أي : لا يُعْجِزُ الله تعالى (وليس له من دونه أولياء) أي : أنصار ينعونه من عذاب الله تعالى (أولئك) الذين لا يهيمون الرسل (في ضلالٍ مبينٍ) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَيَوْمَ يُعْزِزُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

ثم اخرج على إحياء الموتى بقوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا ...) إلى آخر الآية . والرؤية هاهنا بمعنى العلم ^(٢) .

(وَلَمْ يَعْزِ) أي : لم يُعْجِزْ عن ذلك ؛ يقال : عَيَّ فلانٌ بأمره ، إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه . قال الزجاج : يقال : عَيَّيتُ بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه ، وأَعَيَّيتُ ، إذا تعبت .

— قوله جل وعلا : (ولن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء عمنهم الجنة ، قال : وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أباع من الانس فقالوا : « ولا جيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليعتق عليهم بجزاء لا يحصل لهم . اهـ .

(١) وأول الآية : (ومن لا يهيم داعي الله) .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى : أول بر هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة ، المستعجلون لقيام الأجساد يوم المساء ، أن الله الذي خلق السموات والأرض (ولم يبي بخلقهن) أي : ولم يكثره خلقهن ، بل قال لما كوني فساكنات بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائفة بحجة خائفة وجلة ، أفليس ذلك بقادر على أن يهيم الموتى ؟

قوله تعالى : (بقادر) قال أبو عبيدة والآنخفش : الباء زائدة مؤكدة .
وقال الفراء : العرب تدخل الباء مع الجحد ، مثل قولك : ما أظنك بقائم ، وهذا
قول الكسائي ، والزجاج . وقرأ يعقوب : « يَقْدِرُ » ياء مفتوحة مكان الباء
وسكون القاف ورفع الراء من غير ألف . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (كما صَبَرَ
أولُو العَزَمِ) أي : ذُو العَزَمِ والصَّبَرِ ؛ وفيهم عشرة أقوال .
أحدها : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ،
رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ،
وابن السائب .

والثاني : نوح ، وهود ، وإبراهيم ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، قاله
أبو العالية الرياحي .

والثالث : أنهم الذين لم تُصِيبْهُمْ فتنةٌ من الأنبياء ، قاله الحسن .
والرابع : أنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد ، والشعي .
والخامس : أنهم إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم
وسلم ، قاله السدي .

والسادس : أن منهم إسماعيل ، ويعقوب ، وأيوب ، وليس منهم آدم ،
ولا يونس ، ولا سليمان ، قاله ابن جريج .
والسابع : أنهم الذين أمرُوا بالجهاد والقتال ، قاله ابن السائب ، وحكي
عن السدي .

والثامن : أنهم جميع الرُّسل ، فإن الله لم يَبْعَثْ رسولاَ إلا كان من أولي
العزم ، قاله ابن زيد ، واختاره ابن الأثيري ، وقال : « مِنْ » دخلت للتجنيس
لا للتمييز ، كما تقول : قد رأيتُ الثيابَ من الخَزِ والجِبابِ من القَزِ .

والتاسع : أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة (الأنعام : ٨٣ - ٨٦) ،
قاله الحسين بن الفضل .

والعاشر : أنهم جميع الأنبياء إلا يونس ، حكاه الثعلبي ^(١) .

قوله تعالى : (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) يعني العذاب . قال بعض المفسرين :
كان النبي ﷺ ضَجِرَ بِمَعْزِرِ الضَّجَرِ ، وأحب أن ينزل العذاب بمن أبي من قومه ،
فأمر بالصبر .

قوله تعالى : (كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ) أي : من العذاب (لَمْ
يَلْبَثُوا) في الدنيا (إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) لأن ماضى كانه لم يكن وإن
كان طويلاً . وقيل : لأن مقدار مكثهم في الدنيا قليل في جنب مكثهم في
عذاب الآخرة . وهاهنا تم الكلام . ثم قال : (بلاغٌ) أي : هذا القرآن وما فيه
من البيان بلاغٌ عن الله إليكم .

وفي معنى وَصَفِ الْقُرْآنِ بِالْبَلَاغِ قولان .

أحدهما : أن البلاغ بمعنى التبليغ .

والثاني : أن معناه : الكفاية ، فيكون المعنى : ما أخبرناهم به لهم فيه
كفايةٌ وغنى .

وذكر ابن جرير وجهاً آخر ، وهو أن المعنى : لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ
نَهَارٍ ، ذلك لبث بلاغ ، أي : ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم ، ثم حُذِفَتْ
« ذلك لبث » اكتفاءً بدلالة ما ذكر في الكلام عليها .

(١) قال ابن كثير : وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم نوح
وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، قال : قد نص الله تعالى على أسمائهم من
بين الأنبياء في آيتين من سورتي (الأحزاب) و (الشورى) .

وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : « بَلَّغْ » بكسر اللام وتشديدها وسكون
الغين من غير ألف .

قوله تعالى : (فَبَلِّغْهُمْ رُسُلَنَا) وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل ، وابن عيسى :
« يَهْلِكُ » بفتح الياء وكسر اللام ، أي : عند رؤية المذاب (إِلَّا الْقَوْمَ
الْفَاسِقُونَ) الخارجون عن أمر الله عز وجل ١٢ (١) .



١٣

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (فَبَلِّغْهُمْ رُسُلَنَا) يقول تعالى ذكره :
فَبَلِّغْهُمْ رُسُلَنَا إِذَا أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَهُ وَخَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ وَكَفَرُوا بِهِ ١٢
قال : ومعنى الكلام : وما يهلك الله إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . اهـ .

سورة محمد

صلى الله عليه وسلم

وفيها قولان .

أحدهما : [أنها] مدينة ، قاله الأَكثَرُونَ ، منهم مجاهد ، ومقاتل . وحكي
عن ابن عباس وقادة أنها مدينة ، إلا آية منها نزلت عليه بعد حجته حين خرج
من مكة وجعل ينظر إلى البيت ، وهي قوله : (وكأين من قرية هي أشد
قوة من قريرتك) [عمد : ١٣] .

والثاني : أنها مكتبة ، قاله الضحاك ، والسدي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ .
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ .
ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .
فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ

فَشُدُّوا أَلْوَتَاكَ فَأَمَّا مَنْ بَدَأَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ
وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ *

قوله تعالى : (الَّذِينَ كَفَرُوا) أي : بتوحيد الله (وَصَدُّوا) الناس عن
الإيمان به ، وهم مشركو قريش ، (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي : أبطلها ، ولم يجعل لها
نواباً ، فكأنها لم تكن ؛ وقد كانوا يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ، وَيَصْلُونَ الْأَرْحَامَ ،
ويتصدقون ، ويفعلون ما يمتدونه قُرْبَةً .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني أصحاب محمد رسول الله ﷺ .
(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) وقرأ ابن مسعود : « نَزَّلَ » بفتح النون
والزَّيَّ وتشيديها . وقرأ أبي بن كعب ، ومعاذ القاري : « أُنْزِلَ » بهزة
مضمومة مكسورة الزَّيَّ . وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران : « نَزَلَ »
بفتح النون والزَّيَّ وتخفيفها ، (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أي : غفرها لهم (وَأَصْلَحَ
بَالَهُمْ) أي : حالهم ، قاله قتادة ، والمبرد .

قوله تعالى : (ذَلِكَ) قال الزجاج : معناه : الأمرُ ذلك ، وجائز أن يكون : ذلك
الإضلال ، لانتباعهم الباطل ، وتلك الهداية والكفارات باتِّباع المؤمنين الحقَّ ،
(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) أي : كذلك يبين أمثال حسنات المؤمنين
وسَيِّئات الكافرين كهذا البيان .

قوله تعالى : (فَضْرَبَ الرَّقَابِ) إغراء ؛ والمعنى : فاقتلهم ، لأن الأغلب
في موضع القتل ضربُ العُنُقِ ^(١) (حَتَّى إِذَا أَنْخَسْتَهُمْ) أي : أكثرتهم فيهم

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يمتدونه في حروبهم مع المشركين :
(فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرَّقَابِ) أي : إذا واجهتهم فاحصوهم حصداً بالسيوف . اهـ .

القتل (فشدُّوا الوثاقَ) يعني في الأسر ؛ وإنما يكون الأسر بعد المبالغة في القتل . و « الوثاق » اسم من الإيثاق ؛ تقول : أوثقتُه إيثاقاً ووثاقاً ، إذا شدتْ أسره لثلاث يَفْلِت (فامّا مَنّا بَعْدُ) قال أبو عبيدة : إمّا أن تَمُتُوا ، وإمّا أن تغادوا ، ومثله : مَقِيّاً ، ورَعِيّاً ، وإنما هو سَقِيتَ ورُعِيتَ . وقال الزجاج : إمّا مَنَنْتُمْ عليهم بعد أن نأسيروهم مَنّا ، وإمّا أطلقْتُموم بِفِداء .

❦ فصل ❦

وهذه الآية محكمة عند عامة العلماء . وممن ذهب إلى أن حُكِمَ المَنِّ والفداء باقٍ لم يُنسخ : ابنُ عمر ، ومجاهدٌ ، والحسنُ ، وابنُ سيرين ، وأحمدُ ، والشافعي . وذهب قوم إلى نسخ المَنِّ والفداء بقوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ^(١)) ، وممن ذهب إلى هذا ابن جريج ، والسدي ، وأبو حنيفة . وقد أشرنا إلى القولين في (براءة : ٥) .

قوله تعالى : (حتّى تَضَعَ الحربُ أوزارَها) قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين . وقال مجاهد : حتى لا يكون دينٌ إلاّ دين الإسلام . وقال سعيد بن جبير : حتى يخرج المسيح . وقال الفراء : حتى لا يبقى إلاّ مُسلمٌ أو مُسلمٌ . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : حتى يضع أهلُ الحربِ سلاحَهم ؛ قال الأعشى :
وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا : رِمَاحاً طَوِيلًا وَخَيْلًا ذُكُورًا ^(٢)

(١) في الأصل : « اقتلوا » بدل « فاقتلوا » .

(٢) ديوانه : ٩٩ ، و « غرب القرآن » : ٤٠٩ ، و « القرطبي » : ٢٢٩/١٦ ،

و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : و زر .

وأصل « الوزر » ما حملته ، فسمي السلاح « أوزاراً » لأنه يُحمل ، هذا قول ابن قتيبة .

والثاني : حتى تضع حربكم وقاتلكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يُسلموا ولا يبُعدوا إلا الله ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك الذي ذكرنا (ولو يشاء الله لانتصر منهم) باهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء (ولكن) أمرهم بالحرب (ليبتلوا بمضكم ببعض) فيُثيب المؤمن ويُكرمه بالشهادة ، ويُخزي الكافر بالقتل والمذاب . قوله تعالى : (والذين قُتِلُوا) قرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « قُتِلُوا » بضم القاف وكسر التاء ؛ والباقون : « قَاتِلُوا » بألف .

قوله تعالى : (سيهديهم) فيه أربعة أقوال . أحدها : يهديهم إلى أرشد الأمور ، قاله ابن عباس . والثاني : يحقق لهم الهداية ، قاله الحسن . والثالث : إلى مُحاجة منكر ونكير . والرابع : إلى طريق الجنة ، حكاهما الماوردي . وفي قوله : (عرفها لهم) قولان .

أحدهما : عرفهم منازلهم فيها فلا يستدلّون عليها ولا يُحْطِثُونَهَا ، هذا قول الجمهور ، منهم مجاهد ، وقتادة ، واختاره الفراء ، وأبو عبيدة .

والثاني : طيَّبها لهم ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن قتيبة : وهو قول أصحاب اللغة ، يقال : طامَّ مرَّف ، أي : مطيَّب .

وقرأ أبو مجاز ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : « عرفها لهم » بتخفيف الراء ^(١) .

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : سيوفيتن الله تعالى ذكره للعمل بما يرضى ويجب هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله (وبصلح بالهم) وبصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة —

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَمَسَّ لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ . وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ) أي : تَنْصُرُوا دِينَهُ وَرَسُولَهُ (يَنْصُرْكُمْ) عَلَى عَدُوِّكُمْ (وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) عِنْدَ الْقِتَالِ . وَرَوَى الْفَضْلُ عَنْ عَاصِمٍ : « وَيُثَبِّتُ » بِالْتَّخْفِيفِ .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَمَسَّ لَهُمْ) قَالَ الْفَرَاءُ : الْمَضَى : فَاتَمَسَّ اللَّهُ ، وَاللَّهُ مَا قَدْ يَجْرِي بِجَرَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : هُوَ مِنْ قَوْلِكَ : تَمَسَّتُ ،

— (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ) يَقُولُ : وَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ جَنَّتَهُ عَرَفَهَا وَيُثَبِّتُهُمْ ، قَالَ : حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ لَبَّى مَنَزْلَهُ مِنْهَا إِذَا دَخَلَهَا كَمَا كَانَ بَاقِي مَنَزَلِهِ فِي الدُّنْيَا لَا يَشْكُلُ عَلَيْهِ ذَلِكَ . اهـ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، حَبَسُوا بِقَطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَتَقَاذِبُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هَضَبُوا وَتَقَتُوا أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحْدَمَ مَنَزَلَهُ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ مَنَزَلَهُ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا » .

أي : عَثَرْتُ وَسَقَطْتُ . وقال الزجاج : التَّعَسُّ في اللغة : الانحطاط والمُشَوْر . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف : ١٠٥ ، يوسف : ١٠٩] إلى قوله : (دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم) أي : أَهْلَكَهُم [اللَّهُ] ^(١) (وللكافرين أمثالها) أي : أمثال تلك العاقبة . (ذلك) الذي فعله بالمؤمنين من النصر ، وبالكافرين من الدمار (بَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا) أي : وَلِيَّهُمْ .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) ^(٢) أي : إن الأنعام تأكل وتشرب ، ولا تدري ما في غدٍ ، فكذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة . و « الْمَثْوَى » : المنزل .

(وَكَأَيِّنْ) مشروح في (آل عمران : ١٤٦) ^(٣) . والمراد بقريته : مكة ؛ وأضاف القوة والإخراج إليها ، والمراد أهلها ، ولذلك قال : (أَهْلَكْنَاهُمْ) . قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيَّةٍ مِنْ رَبِّهِ) فيه قولان . أحدهما : أنه رسول الله ﷺ ، قاله أبو العالمة . والثاني : أنه المؤمن ، قاله الحسن . وفي « الْيَتِيَّةِ » قولان . أحدهما : القرآن ، قاله ابن زيد . والثاني : الدين ، قاله ابن السائب .

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) يعني عبادة الأوثان ، وهو الكافر (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) بعبادتها ^(٤) .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) يعني المشركين بالله المكذِّبين لرسوله (في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أي : عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم .

(٢) وأول الآية : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) .

(٣) وأول الآية : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ) .

(٤) يقول تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيَّةٍ مِنْ رَبِّهِ) أي : على بصيرة وبقين في أمر الله وذنبه —

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ
غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ
كَالدِّهَنِ الشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَمَنْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً
فَقَطَّعُوا أَمْعَاءَهُمْ ﴾

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ) أي : صِفَتُهَا ، وقد شرحناه في (الرعد : ٣٥) .
و « الْمُتَّقُونَ » عند المفسرين : الذين يَتَّقُونَ الشَّرَّكَ . و « الْآسِنُ » المتغير
الرَّيِّحُ ، قاله أبو عبيدة ، والزجاج . وقال ابن قتيبة : هو المتغير الرِّيح والطَّعم ،
و « الْآجِنُ » نحوه . وقرأ ابن كثير : « غَيْرِ آسِنٍ » بغير مد . وقد شرحنا
قوله (كَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) في (الصافات : ٤٦) .

قوله تعالى : (مَنْ عَسَلَ مُصَفًّى) أي : من عسل ليس فيه عكر ولا كدر
كعسل أهل الدنيا .

قوله تعالى : (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) قال الفراء : أراد : مَنْ كَانَتْ فِي هَذَا
النَّعِيمِ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ١٤ (١) .

قوله تعالى : (مَاءٌ حَمِيماً) أي : حاراً شديداً الحرارة . و « الْأَمْعَاءُ » جميع ما في

— بما أُنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جيله الله عليه من الفطرة المنقبة (كن زين له
سوء عمله واتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ؟ أي : ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى : (أَفَمَنْ يَمْ أَمْعَاءُ)
أُنزل إليك من ربك الحق كن هو أعمى) ؟ ، وكقوله : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ
الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) . اهـ .

(١) قال ابن كثير : ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس مَنْ هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ . اهـ .

زاد المسير ٧ م (٢٦)

البطن من الحوايا (١).

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ . فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) يعني المنافقين . وفيما يستمعون قولان . أحدهما : أنه سماع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة . والثاني : سماع قوله على عموم الأوقات . فأما (الذين أوتوا العلم) ، فالمراد بهم : علماء الصحابة . قوله تعالى : (ماذا قال آنفاً) قال الزجاج : أي : ماذا قال الساعة ، وهو من قولك : استأنفت الشيء : إذا ابتدأته ، وروضة أنف : لم تُرْعَ ، أي : لها أول يُرْعَى ؛ فالعنى : ماذا قال في أول وقت يقربُ مِنَّا . وحدَّثنا عن أبي عمر غلامٍ ثعلب أنه قال : معنى « آنفاً » مُذْ ساعة . وقرأ ابن كثير ، في بعض الروايات عنه : « آنفاً » بالقصر ، وهذه قراءة عكرمة ، وحيد ، وابن محيصن . قال أبو علي : يجوز أن يكون ابن كثير نوههم ، مثل حاذِر وحَذِر ، وفاكِه وفَكِه . وفي استفهامهم قولان . أحدهما : لأنهم لم يَحْقِلُوا ما يقول ، ويدُلُّ عليه باقي الآية . والثاني : أنهم قالوه استهزاء .

قوله تعالى : (والذين اهْتَدَوْا) فيهم قولان . أحدهما : أنهم المسلمون ،

(١) قال ابن جرير : وقوله : (وسقوا ماءً حليماً قطعاً أمعاءً) يقول تعالى ذكره : وسقي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماءً قد انتهى حره ، قطع ذلك الماء من شدة حره أمعاء . اهـ .

قاله الجمهور . والثاني : قومٌ من أهل الكتاب كانوا على الإيمان بأنبيائهم وبمحمد ﷺ ، فلما بُعث محمدٌ ﷺ آمنوا به ، قاله عكرمة .

وفي الذي زادم ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الله عز وجل . والثاني : قول الرسول . والثالث : استهزاء المنافقين زاد المؤمنين هدىً ، ذكرهم الزجاج . وفي معنى الهدى قولان . أحدهما : أنه العلم . والثاني : البصيرة .

وفي قوله : (وآتاهم تقوam) ثلاثة أقوال . أحدها : ثواب تقوam في الآخرة ، قاله السدي . والثاني : اتقاء المنسوخ والعمل بالناسخ ، قاله عطية . والثالث : أعطاهم التقوى مع الهدى ، فاتتقوا ممصيته خوفاً من عقوبته ، قاله أبو سليمان الدمشقي ^(١) .

و (ينظرون) بمعنى ينتظرون ، (أن تأتيهم) وقرأ أبي بن كعب ، وأبو الأشهب ، وحيد : « إن تأتيهم » بكسر الهمزة من غير ياء بعد التاء . والأشراط : العلامات ؛ قال أبو عبيدة : الأشراط : الأعلام ، وإنما سمي الشرط - فيما ترى - لأنهم أعلموا أنفسهم . قال المفسرون : ظهور النبي ﷺ من أشراط الساعة ، وانشقاق القمر والدخان وغير ذلك ^(٢) .

(١) قال ابن كثير : (والذين اهتدوا زادهم هدىً) أي : والذين قصدوا الهداية ، وثقهم الله تعالى لها ، فهداهم إليها ، وثبتهم عليها ، وزادهم منها (وآتاهم تقوam) أي : ألهمهم رشدهم . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : فبعض رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذين أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين ، قال : وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بعلم يؤنه نبي قبله ، قال : ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والحاسر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي . اهـ .

وروى البخاري في « صحيحه » عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعه هكذا ، بالوسطى وإني تليها : « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

(فَأَتَى لَهُمْ) أي : فَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ (إِذَا جَاءَتْهُمْ) السَّاعَةُ (ذِكْرَاهُمْ) ١٢
 قَالَ تَتَادَةُ : أَتَى لَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا وَيَتُوبُوا إِذَا جَاءَتْ ١٢

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ . وَيَقُولُ الَّذِينَ
 آمَنُوا كَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرُ
 فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
 نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ
 فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) قال بعضهم : اثبت على علمك ،
 وقال قوم : المراد بهذا الخطاب غيره ؛ وقد شرحنا هذا في فاتحة (الأحزاب) .
 وقيل : إنه كان يضيق صدره بما يقولون ، فقبل له : اعلم أنه لا كاشف لما بك
 إِلَّا اللَّهُ .

فأما قوله : (وَاسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ) فإنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة ^(١) ،
 وأمر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراماً لهم لأنه شفيعٌ ^(٢) محبوبٌ .

(١) روى مسلم في « صحيحه » عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » ، والمراد بالدين : أن
 يفتر عن الذكر الذي من شأنه أن يداوم عليه ، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنباً فاستغفر
 منه . وروى البخاري في « صحيحه » عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :
 « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على
 عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ،
 فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، قال : « ومن قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه
 قبل أن يأتي من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو
 من أهل الجنة » .

(٢) روى أحمد في « مسنده » من حديث شعبة عن عاصم الأحول قال : سمعت —

(وَاللَّهُ يَمْلِكُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُنْثَوَاكُمْ) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : مُتَقَلِّبِكُمْ في الدنيا ومنثواكم في الآخرة ، وهو معنى قول ابن عباس .
والثاني : مُتَقَلِّبِكُمْ في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ، ومقامكم في القبور ،
قاله عكرمة .

والثالث : « مُتَقَلِّبِكُمْ » بالنهار و « منثواكم » أي : مأواكم بالليل ، قاله
مقاتل ^(١) .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) قال المفسرون :
سألوا رَبَّهُمْ أَنْ يُنْزِلَ سُورَةً فِيهَا ثَوَابُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، اشتياقاً منهم إلى
الوحي وحرصاً على الجهاد ، فقالوا : « لولا » أي : هلا ؛ وكان أبو مالك الأشجعي
يقول : « لا » هاهنا صلة ، فالمعنى : لو أنزلت سورة ، شوقاً منهم إلى الزيادة في
المِلِّم ، ورغبةً في الثواب والأجر بالاستكثار من الفرائض .
وفي معنى « مُحْكَمَةٌ » ثلاثة أقوال . أحدها : أنها التي يُذْكَرُ فيها القتال ،
قاله قتادة . والثاني : أنها التي يُذْكَرُ فيها الحلال والحرام . والثالث : التي لا منسوخ
فيها ، حكاهما أبو سليمان الدمشقي .

ومعنى قوله : (وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) أي : فُهِرَ فِيهَا الْجِهَادُ .
وفي المراد بالمرض قولان . أحدهما : النفاق ، قاله ابن عباس ، والحسن ،
ومجاهد ، والجمهور . والثاني : الشك ، قاله مقاتل .

— عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه ، فقلت : غفر الله
لك يا رسول الله ، فقال ﷺ : « ولك » فقلت (أي شعبة) : أستغفر لك ؟ قال : نعم
ولكم ، وقرأ : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . قال ابن كثير : ورواه مسلم
والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الاحول به .
(١) والقول الثالث أولى كما قال ابن كثير .

قوله تعالى : (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ) أي : يَشْخَصُونَ نحوكَ بأبصارهم ينظرون نظراً شديداً كما ينظرُ الشاخص يبصره عند الموت ، لأنهم يكرهون القتال ، ويخافون إن قعدوا أن يتيقن تفاقهم .

(فَأُولَى لَهُمْ) قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : « أُولَى لَكَ » أي : وَلِيكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ . وقال ابن قتبية : هذا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ ، تقولُ للرجُل - إذا أردتَ به سوءاً ، فَفَاتَكَ - أُولَى لَكَ ، ثم ابتداءً ، فقال : (طاعةٌ وقولٌ معروفٌ ...) . وقال سيويه والخليل : المعنى : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثل . وقال الفراء : الطاعةُ معروفةٌ ^(١) في كلام العرب ، إذا قيل لهم : افعلوا كذلك ، قالوا : سَمِعْ وطاعةٌ ، فوصف [الله] قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون : سَمِعْ وطاعةٌ ، فإذا نزل الأمر كرهوا . وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال الله تعالى : (فَأُولَى) ، ثم قال : (لهم) أي : للذين آمنوا منهم (طاعةٌ) ، فصارت « أُولَى » وعيداً لِمَنْ كَرِهَهَا ، واستأنف الطاعة بـ « لهم » ؛ والأول عندنا كلام العرب ، وهذا غير مردود ، يعني حديث أبي صالح . وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله ؛ والمعنى : فَأُولَى لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوا وَأَنْ يَقُولُوا معروفاً بالإجابة .

قوله تعالى : (فَأَذا عَزَمَ الْأَمْرُ) قال الحسن : جَدَّ الْأَمْرُ . وقال غيره : جَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي الْجِهَادِ ، وَلَزِمَ فَرَضُ الْقِتَالِ ، وَصَارَ الْأَمْرُ معروفاً عليه . وجواب « إذا » محذوف ، تقديره : فَأَذا عَزَمَ الْأَمْرُ نَكَلُوا ؛ يدلُّ على المحذوف (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ) أي : في إيمانهم وجهادهم (لكان خَيْراً لهم) من المصيبة والكرهية .

(١) في الأصلين : مرفوعة .

﴿ فَبَلِّغْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (فَبَلِّغْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ) في الخطاب بهذا أربعة أقوال .
أحدها : المنافقون ، وهو الظاهر . والثاني : منافقو اليهود ، قاله مقاتل . والثالث :
الخوارج ، قاله بكر بن عبد الله المزني . والرابع : قريش ، حكاه جماعة منهم الماوردي .
وفي قوله : (تَوَلَّيْتُمْ) قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإعراض . فالعنى : إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ (أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) بَأَنْ تَمُودُوا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَبُغْيَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أنه من الولاية لأُمُورِ النَّاسِ ، قاله القرطبي . فعلى هذا يكون معنى
﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ : بِالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ .

وقرأ يعقوب : « وَتَقَطَّعُوا » بفتح التاء والطاء وتحفيفها وسكون القاف ^(١) .

ثم ذم من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه .

(١) أي : وتقطعوا الأرحام . قال ابن كثير : وهذا نهي عن الفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى —

وما بعد هذا قد سبق [النساء : ٨٢] إلى قوله : (أُمٌّ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا)
 « أُمٌّ » بمعنى « بَلٌّ » ، وذكر الأفعال استعارة ، والمراد أن القلب يكون
 كالبيت المقلد لا يصل إليه الهدى . [قال مجاهد] : الرآن أيسر من الطبع ،
 والطبع أيسر من الإفعال ، والإفعال أشد ذلك كله . وقال خالد بن معدان :
 ما من آدمي إلا وله أربع أعين ، عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من
 معيشته ، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب ، فإذا أراد الله بعبده
 خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما ، فذلك
 قوله : « أُمٌّ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا » (١) .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ) أي : رجعوا كفاراً ؛ وفيهم
 قولان . أحدهما : أنهم المنافقون ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد . والثاني :
 أنهم اليهود ، قاله قتادة ، ومقاتل (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى) أي :
 مِنْ بَعْدِ مَا وَضَحَ لَهُمُ الْحَقُّ . ومن قال : هم اليهود ، قال : مِنْ بَعْدِ أَنْ

— الأقارب في الحال والأفعال وبذل الأموال ، قال : وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن
 رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة . اهـ . روى البخاري ومسلم في « صحيحهما » عن أنس
 رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْطَرَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يَنْسَأَ لَهُ
 فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال :
 « الرَّحِمُ مَعْلُوقَةٌ بِالرَّشْرِ فَقُولْ : مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ » . وروى البخاري
 ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ
 حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْمَائِدَةِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،
 أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلِكَ لَكَ » ثم قال
 رسول الله ﷺ : « افْرُؤُوا إِن شَأْنَكُمْ : (فَبَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا
 أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ » .

(١) رواه الطبري : ٥٧/٢٦ وفي سننه ضعف .

نبيّن لهم وصفُ رسولِ الله ﷺ ونمّته في كتابهم . و (سَوَّلَ) بمعنى زَيَّنَ .
 (وأَمَلَى لهم) قرأ أبو عمرو ، وزيد عن يعقوب : « وأَمَلَى لهم » بضم الهمزة
 وكسر اللام وبمدها ياء مفتوحة . وقرأ يعقوب إلّا زيدا ، وأبان عن عاصم
 كذلك ، إلّا أنها أسكننا الياء . وقرأ الباقر بفتح الهمزة واللام . وقد سبق
 معنى الإملاء [آل عمران: ١٧٨ ، الأعراف: ١٨٣] .

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأمرُ ذلك ، أي : ذلك
 الإضلال بقولهم (للذين كرهوا ما نزلَ الله) وفي الكارهيين قولان .
 أحدهما : أنهم المناقون ، فملى هذا في معنى قوله : (سَنُطِيعُكُمْ في بعض
 الأمر) ثلاثة أقوال . أحدها : في القعود عن نصرة محمد ﷺ ، قاله السدي .
 والثاني : في الميل إليكم والمظاهرة على محمد ﷺ . والثالث : في الارتداد بعد
 الإيمان ، حكاهما الماوردي .

والثاني : أنهم اليهود ، فملى هذا في الذي أطاعوم فيه قولان . أحدهما : في
 أن لا يصدّقوا شيئا من مقالة رسول الله ﷺ ، قاله الضحاك . والثاني : في كتم
 ما علّموه من ثبوته ، قاله ابن جريج ^(١) .

(واللهُ يَعْلَمُ إسرارهم) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص عن
 عاصم ، والوليد عن يعقوب : بكسر الألف على أنه مصدر أسرّرتُ ؛ وقرأ
 الباقر : بفتحها على أنه جمع سرّ ، والمعنى أنه يَعْلَمُ ما بين اليهود والمناقين
 من السرّ .

(١) قال ابن كثير : أي : مألوم وناصحوم في الباطن على الباطل ، قال : وهذا شأن
 المناقين يظهرن خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال الله عز وجل : (والله يعلم إسرارهم) أي :
 ما يسرّون وما يخفون ، والله مطلع عليه وعالم به ، كقوله تبارك وتعالى : (والله يكتب ما يبيتون) . اهـ .

قوله تعالى : (فكيف إذا توفيتهم الملائكة) أي : فكيف يكون حالهم حينئذ ، وقد يئسنا في (الأنفال : ٥٠) معنى قوله : (يضرّيون وجوههم وأدبارهم) .
قوله تعالى : (وكرهوا رضوانه) أي : كرهوا ما فيه الرضوان ، وهو الإيمان والطاعة .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . وَكَتَبَلُونَكُمْ حَتَّى نَنالَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحَنِّطُ أَعْمَالَهُمْ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي : نفاق (أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ) قال الفراء : أي لن يبدي الله عداوتهم وبُغضهم لحمد ﷺ . وقال الزجاج : أي : لن يبدي عداوتهم لرسوله ﷺ ويظهره على نفاقهم ^(١) .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ؟) أي : يستعد المتناقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ بل سيوضح أمرهم ويخلصهم حتى يفهم ذؤو البصائر ، قال : وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة (براءة) فيبين فيها فضائهم وما يستمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، قال : ولهذا كانت تسمى « الفاضحة » ، قال : والأضغان جمع ضغن ، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره . اهـ .

(ولو نشاء لَأَرَيْنَاكُمْ) أي : لعرّفناكم ، تقول : قد أَرَيْتُكَ هذا الأمر ، أي : قد عرّفْتُكَ إِيَّاه ، المعنى : لو نشاء لَجَعَلْنَا على المتأقنين علامة ، وهي السِّمَاء (فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) أي : بتلك العلامة (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) أي : في فحوى القول ، فدلّ بهذا على أن قول القائل وفعله يدلّ على نيّته . وقولُ الناس : قد لَحَنَ فلانٌ ، تأويله : قد أخذ في ناحية عن الصواب ، وعدّلَ عن الصواب إليها ، وقول الشاعر :

مَنْطِقُ صَائِبٍ وَلَتَحْنُ أَحْيَا نَأً، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا ^(١)

تأويله : خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد ، إنما يُعرفُ قولها في أنحاء قولها . قال المفسرون : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في فحوى الكلام ومعناه ومقصده ، فإنهم يتعرّفون بتهجين أمرك والامتهزاء بالمسلمين . قال ابن جرير : ثم عرّفه الله إِيَّاهُمْ .

قوله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) أي : وَلَنُعَامِلَنَّكُمْ معاملةً اُمْتِحَانٍ بأن نأمركم بالجهاد (حَتَّى نَعْلَمَ) العِلْم الذي هو عِلْم وجود ، وبه يقع الجزاء ؛ وقد شرحنا هذا في (المنكبات : ٣) .

قوله تعالى : (وَنَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ) أي : نُظْهِرُهَا وَنَكْشِفُهَا بِإِيَّاهِ مِنْ يَأْبَى الْقِتَالِ وَلَا يَعْصِرُ عَلَى الْجِهَادِ . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ » بإيَّاهِ « حَتَّى يَعْلَمَ » بإيَّاهِ « وَيَبْلُوْا » بإيَّاهِ فِيهِنَّ . وقرأ معاذ القاري ،

(١) البيت لالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ، وهو في « البيان والتبيين » : ١/١٤٧ ، و « الامالي » : ١/٥ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : لحن . قال في « اللسان » : تأويله : وخير الحديث من مثل هذه الجارية ما كان لا يعرفه كلُّ أحد ، إنما يُعرفُ أمرها في أنحاء قولها .

وأيوب السخّياني : « أخياركم » بالياء جمع « خير » ^(١) .

قوله تعالى : (إِنْ الدِّينَ كَفَرُوا . . .) [الآية] ^(٢) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها في الْمُطْعَمِينَ يومَ بدر ، قاله ابن عباس ^(٣) .

والثاني : أنها نزلت في الحارث بن سويد ، ووجوح الأنصاري ، أسلما ثم ارتدّا ، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله ﷺ ، وأبى صاحبه أن يرجع حتى مات ، قاله السدي .

والثالث : أنها في اليهود ، قاله مقاتل .

والرابع : أنها في قريظة [والنضير] ، ذكره الواحدي ^(٤) .

قوله تعالى : (وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) ^(٥) اختلفوا في مُبْطِلِهَا على أربعة

أقوال . أحدها : المعاصي والكبائر ، قاله الحسن . والثاني : الشكّ والنفاق ، قاله عطاء . والثالث : الرياء والسُّمعة ، قاله ابن السائب . والرابع : بالْمَنَ ^(٦) ، وذلك

(١) قال في « اللسان » : ورجُلٌ خَيْرٌ وخَيْرٌ ، مشدد ومخفف ، وإمراة خَيْرَةٌ وخَيْرَةٌ ، والجمع أخْيَارٌ وخَيْكَارٌ .

(٢) وقامها : « وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْجِطُ أَعْمَالَهُمْ » .

(٣) ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند .

(٤) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن كفر وصدّ عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقته

وارتدّ عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى ، أنه لن يضر الله شيئا ، وإنما يضر نفسه ، ويخسرها يوم مصادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده متقال بموضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات . اهـ .

(٥) والآية بتأنيها : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) .

(٦) قال الشوكاني في دفع القدير : « والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل

إلى بطلان الأعمال كالثأ ما كان من غير تخصيص بنوع معين . اهـ .

أَنْ قَوْمًا مِنَ الْأَعْرَابِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : أُنَبِّئُكَ طَائِعِينَ ، فَلَنَا عَلَيْكَ حَقٌّ ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » [الحجرات : ١٧] ، هَذَا قَوْلُ مَقَاتِلٍ ^(١) . قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي مُقَرَّبَةٍ لَمْ يَحْزُ لَهُ الْخُرُوجُ مِنْهَا قَبْلَ إِعَامِهَا ، وَهَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ فِي الْحَجِّ ، فَأَمَّا فِي الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ ، فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِحْبَابِ ^(٢) .

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُنَّ وَلَانِ تَوَافُتُوا وَتَقْتُلُوا بُيُوتَكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَنْتَكُمْ أَمْوَالُكُمْ . إِنْ يَسْتَنْتَلِكُمْوهَا فَيُخْفِضْكُمْ تُبْخَلُّوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُتَفَقَّهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

قوله تعالى : (فَلَا تَهِنُوا) أي : فلا تَضَعُفُوا (وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ)
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم :
« إِلَى السَّلَامِ » بفتح السين ؛ وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر السين ،
والمنى : لَا تَدْعُوا الْكُفَّارَ إِلَى الصَّلَاحِ ابْتِدَاءً . وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز
طلب الصَّلاح من المشرِّكين ، ودلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحاً ، لأنه
نهى عن الصَّلاح .

(١) ذكره البغوي عن مقاتل بدون سند .

(٢) روى أحمد والبيهقي بسند جيد عن أم هانئ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ شرب شراباً ، فناولها لتشرب ، فقالت : إني كنت صائمة ، ولكني كرهت أن أرد سؤرك ، فقال : « إِنْ كَانَ قَضَاءٌ مِنْ رَمَضَانَ ، فَاقْضِي يَوْمًا مَكَانَهُ ، وَإِنْ كَانَ نِطْوَعًا ، فَانْشُتْ فَاقْضِي ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَقْضِي » .

قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ) أي : أنتم أعزُّ منهم ، والحجة لكم ، وآخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات ^(١) (والله معكم) بالموثون والنصرة (ولن يترككم) قال ابن قتيبة : أي : لن ينقُصكم ولن يظلمكم ، يقال : وارتني حقِّي ، أي : بخسْتَنِيهِ . قال المفسرون : المعنى : لن ينقُصكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

قوله تعالى : (وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ) ^(٢) أي : لن يسألكموها كلها . قوله تعالى : (فَيُخْفِئُكُمْ) قال الفراء : يُجْهِدُكُمْ . وقال ابن قتيبة : يُلْجِئُ عليكم بما يوجهه في أموالكم (تبخلوا) ، [يقال : أخفاني بالمسألة وألحف : إذا ألح . وقال السدي : إن يسألكم جميع ما في أيديكم تبخلوا] .

(وَيُخْرِجُ أَضْفَانَكُمْ) وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن عباس ، وابن عمر : « وَيُخْرِجُ » بياء مرفوعة وفتح الراء « أَضْفَانَكُمْ » بالرفع . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وابن السميع ، وابن محيصن ، والجحدري : « وَتَخْرِجُ » بتاء مفتوحة ورفع الراء « أَضْفَانَكُمْ » بالرفع . وقرأ ابن مسعود ، والوليد عن

(١) قال ابن كثير : (فلا تهنوا) أي : لاتضعفوا عن الأعداء (وتدعوا إلى السلم) أي : إلى المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، قال : ولهذا قال : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) أي : في حال علوكم على عدوكم ، قال : فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمهادنة مصلحة ، فله أن يفضل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . اهـ .

(٢) والآية بنهايا : (إنما الحياة الدنيا لب وهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) .

يعقوب : « وَنُخْرِجَ » بنون مرفوعة وكسر الراء « أَصْنَانِكُمْ » بنصب النون ،
أي : يُظْهَرُ بُغْضُكُمْ وَعِدَاوَتُكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ؛ وَلَكِنَّهُ فَرَضَ عَلَيْكُمْ يَسِيرًا .
وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان .

أحدهما : إلى الله عز وجل . والثاني : البخل ، حكاهما الفراء . وقد زعم قوم
أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، وليس بصحيح ، لأننا قد بينّا أن معنى الآية :
إِنْ يَسْأَلُكُمْ جَمِيعَ أَمْوَالِكُمْ ؛ وَالزَّكَاةُ لَاتَنَافِي ذَلِكَ .

قوله تعالى : (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعني ما فرض
عليكم في أموالكم (فَنُكْمِ مِنْ يَنْخَلُ) بما فرض عليه من الزكاة (وَمَنْ يَنْخَلُ
فَانَمَا يَنْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) أي : على نفسه بما ينفعها في الآخرة (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ)
عنكم وعن أموالكم (وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ) إليه وإلى ما عنده من الخير والرحمة (وَإِنْ
تَوَلَّوْا) عن طاعته (يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أطوع له منكم (ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ) بل خيراً منكم . وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال .

أحدها : أنهم العجم ، قاله الحسن . وفيه حديث يرويه أبو هريرة
قال : لَمَّا نَزَلَتْ « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » كَانَ
سَلْمَانَ إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا ^(١) : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا تَوَلَّيْنَا اسْتَبْدَلُوا بِنَا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [يَدَهُ]
عَلَى مَنْكِبِ سَلْمَانَ ، فَقَالَ : « هَذَا وَقَوْمُهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ الدِّينَ
مَمْلُوقٌ بِالثَّرِيثَاتِ لَتَنَاولَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ » ^(٢) . والثاني : فارس والروم ، قاله

(١) في الاصل : فقال .

(٢) رواه ابن جرير الطبري : ٦٦/٢٦ ، وفي سننه مسلم بن خالد الهزيمي المعروف
بالزنجي ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : فقيه صدوق كثير الأوهام ، وذكره —

عكرمة . والثالث : من يشاء من جميع الناس ، قاله مجاهد . والرابع : يأتي بخلق جديد غيركم ، وهو معنى قول قتادة . والخامس : كندة والنخع ، قاله ابن السائب . والسادس : أهل اليمن ، قاله راشد بن سعد ، وعبد الرحمن بن جبير ، وشريح ابن عبيد . والسابع : الانتصار ، قاله مقاتل . والثامن : أنهم الملائكة ، حكاه الزجاج وقال : فيه بُعدٌ [لانه] لا يقال للملائكة « قومٌ » ، إنما يقال ذلك

— ابن كثير في التفسير من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقال : تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم ، والله أعلم . ورواه الترمذي في « سننه » : ١٥٨/٢ وفي سنده جعفر بن عبد الله بن نعيم ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : ضيف . وأورده السيوطي في « الدر » : ٦٧/٩ ، وزاد نسبته لمبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الدلائل » عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ١٥٢ : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم ، والطبري ، وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق الملاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، وله طرق عنه وعن غيره . ورواه البخاري في « صحيحه » : ٤٩٢/٨ ، ومسلم : ١٩٧٢/٤ بسبب زول سورة (الجمعة) ، ولفظه عند مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة (الجمعة) فلما قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال رجل : « من هؤلاء يا رسول الله ؟ » فلم يراجع النبي ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : « وفينا سلمان الفارسي » ، قال : فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتوح » : وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند زول قوله تعالى : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم) قال : ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند زول كل من الآيتين (يريد آية سورة « الجمعة » وآية سورة « محمد ») . اهـ . والحديث رواه مسلم في « صحيحه » دون سبب النزول عن أبي هريرة بلفظ : « لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس » (أو قال : من أبناء فارس) حتى يتناوله . ورواه أحمد في « المستند » عن أبي هريرة بلفظ : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس » وفي سنده شهر بن حوشب ، وهو صدوق كثير الارسال والأوهام كما قال عنه الحافظ ابن حجر في « التقريب » .

لِلأَدَمِيِّينَ ؛ قَالَ : وَقَدْ قِيلَ : إِنْ تَوَلَّى أَهْلُ مَكَّةَ اسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِهِمْ أَهْلَ
الْمَدِينَةِ ، وَهَذَا [مَعْنَى] مَا ذَكَرْنَا عَنْ مُقَاتِلٍ ^(١) .



(١) قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ)
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ : وَإِنْ تَوَلَّوْا أَيُّهَا النَّاسُ عَنْ هَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَرْتَدُّوْا
رَاجِعِينَ عَنْهُ (يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) ، يَقُولُ : يَهْلِكُكُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ بِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرَكُمْ بَدَلًا
مِنْكُمْ ، يَصْدَقُونَ بِهِ ، وَيَصْلَوْنَ بِرَأْسِهِمْ (ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) ، يَقُولُ : ثُمَّ لَا يَخْلَوُا بِمَا
أَمَرُوا بِهِ مِنَ النِّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَضَيِّمُونَ شَيْئًا مِنْ حُدُودِ دِينِهِمْ ، وَلَكِنْهُمْ يَقُومُونَ
بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ . اهـ .

زاد السير ٧ م (٢٧)

سورة الفتح

وهي مدنيّة كلّها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾

قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ..) [الآية] سبب نزولها أنه لما نزل قوله : (وما أدري ما يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) [الاحقاف : ٩] قال اليهود : كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَلُ به ؟ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس ^(١) .

وفي المراد بالفتح أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان يوم الحديبية ، قاله الأكثرون . قال البراء بن عازب : نحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان ^(٢) . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ، غُفِرَ له

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٩٧ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » ٣٤٠/٧ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « تعدُّون —

ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأطمعوا نخل خيبر ، وبلغ الهدى حمله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتسكن الإسلام في قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام قال مجاهد : يعني بالفتح ما مضى الله له من نحر الهدى

— أتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نمد الفتح يمة الرضوان يوم الحديبية . وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قوله : « ونحن نمد الفتح يمة الرضوان » يعني قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال : وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم ، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات ، فقوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) المراد بالفتح هنا : الحديبية ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين ، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب ، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك ، كما وقع لخالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وغيرهما ، ثم تبته الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح .

ثم قال : وأما قوله تعالى في هذه السورة : (وأتاهم فتحاً قريباً) فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح ، لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين ، قال : وقد روى أحمد وأبو دارد والحاكم من حديث جمع بن جارية قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع النخيل وقد جمع الناس قرأ عليهم : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ...) الآية ، فقال رجل : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : « أي والذي نفسي بيده إنه الفتح » ، ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية ، قال : وروى سميد بن منصور بسناد صحيح عن الشعبي في قوله : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال : صلح الحديبية ، وغفر له ما تقدم وما تأخر ، وتبايسوا يمة الرضوان ، وأطمعوا نخل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المسلمون بنصر الله . قال : وأما قوله تعالى : (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) فالمراد الحديبية . وأما قول الله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) وقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » فالمراد به فتح مكة باتفاق ، قال : فهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال بعون الله تعالى . اهـ .

بالحديبية وحلّق رأسه . وقال ابن قتيبة : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » أي : كَفَيْتَنَا لَكَ قَضَاءً عَظِيمًا ، ويقال للقاضي : الفَتَّاح . قال الفراء : والفتح قد يكون صَلَاحًا ، ويكون أَخَذَ الشَّيْءِ عَنَوَةً ، ويكون بالقتال . وقال غيره : معنى الفتح في اللغة : قمع المنطق ، والصِّلْح الذي جُمِلَ مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله تعالى .

الإشارة إلى قصة الحديبية ^(١)

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ رأى في النَّوْم كأن قاتلاً يقول [له] : « لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، فأصبح فحدث الناس برؤياه ، وأمرهم بالخروج للعمرة ^(٢) » ؛ فذكر أهل العلم بالسِّيَر أنه خرج واستنفر أصحابه للعمرة ، وذلك في سنة ست ، ولم يخرج بسلاح إلا السيوف في القُرْب . وساق هو وأصحابه البُذَن ، فصلّى الظهر بـ « ذي الحليفة » ، ثم دعا بالبُذَنِ فجلّلت ، ثم أشعرها وقلّدها ، وفعل ذلك أصحابه ، وأحرم ولبى ، فبلغ المشركين خروجُه ، فأجمع رأيهم على صدّه عن المسجد الحرام ،

(١) الحُدَيْبِيَّة : قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببشر عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحته ، أو بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع ، وبين الحديبية ومكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل .

(٢) قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلّقوا وقصّروا ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذاك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة ، قال المنافقون : والله ما حلّقنا ، ولا قصّرنا ، ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأزل الله هذه الآية . اهـ .

وخرجوا حتى عسكروا بـ « بَلَدَح »^(١) ، وقدّموا مائتي فارس إلى كُراع النعيم ، وسار رسولُ الله ﷺ حتى دنا من الحديبية ؛ قال الزجاج : وهي بئر ، فسمي المكان باسم البئر ؛ قالوا : وبينها وبين مكة تسعة أميال ، فوقفت يدًا راحلته ، فقال المسلمون : حَلْ حَلْ^(٢) يزجرونها ، فأبَت ، فقالوا : خَلَّاتِ القِصْوَاءُ^(٣) - والحِلاءُ في الناقة مثل الحِران في الفرس - فقال : « ما خَلَّاتُ » ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ، أما والله لا يسألوني خُطَّةً فيها تعظيمُ حُرمةِ الله إلا أعطيتُهم إِيَّاهَا ، ثم جرَّها فقامت ، فولَّي راجعاً عَوْدَهُ على بَدَنِهِ حتى نزل على نَمَدٍ من أشعاد الحديبية قليل الماء^(٤) ، فأنزعه سهباً من كُناتِهِ ففرزه فيها ، فجاشت لهم بالرَّوَاءِ^(٥) ، وجاءه بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءٍ في ركب فسلموا وقالوا : جئناك من

(١) قال في « معجم البلدان » : « بلدح » آخره حاء مهملة والذال قبله : وادٍ قبل مكة من جهة المغرب .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : حل حل ، بفتح الهمزة وسكون اللام : كلمة قال للناقة إذا تركت السَّيْرَ . قال الخطابي : إن قلت : « حل » واحدة ، فالسكون ، وإن أعدتها ، نوئت في الأولى ، وسكنت في الثانية . قال : حكى غيره السكون فيها والتنوين ، كظييره في : « بخر بخر » ، يقال : حَلَحَلْتُ فلاناً : إذا أزعجته عن موضعه . ٥١ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر : القِصْوَاءُ ، بفتح القاف بعدها مهملة ومد : اسم ناقة رسول الله ﷺ ، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق ، فقيل لها : القِصْوَاءُ ، لأنها بلغت من السبق أقصاه .

(٤) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » التَّمَدُ : حفيرة فيها ماءٌ مثمود ، أي قليل ، قال : وقوله : قليل الماء ، تأكيد لدفع توم أن يراد لفة من يقول : إن التمد : الماء الكثير . قال : وقيل : التمد : ما يظهر من الماء في الشتاء ويذهب في الصيف .

(٥) قال في « اللسان » : وماء رَوَاءَ ، محمود مفتوح الراء ، أي : عَذْبٌ .

عند قومك وقد استنفروا لك الأحايش ومن أطاعهم ، يُقْسِمُونَ ، لَا يُخْلَثُونَ
بينك وبين البيت حتى يُبَيِّدَ خَضْرَاءَهُمْ ^(١) ، فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ نَأْتِ
لِقِتَالِ أَحَدٍ إِلَّا جُنَّا لِنَطُوفَ بِهَذَا الْبَيْتِ ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ » ، فَرَجَعَ [بَدِيل] ،
فَأَخْبَرَ قَرِيشًا ، فَبَغْتُوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ ، فَكَلَّمَهُ بِحُجُورِ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَ قَرِيشًا ،
فَقَالُوا : كَرُّدُهُ مِنْ عَامِنَا هَذَا ، وَبَرَجِيعِ مَنْ قَابِلٍ فَيَدْخُلُ مَكَّةَ وَيَطُوفُ
بِالْبَيْتِ ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ، قَالَ : « أَذْهَبَ إِلَى قَرِيشَ
فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا جُنَّا زُورًا لِهَذَا الْبَيْتِ ، مَعَنَا الْهَدْيُ
تَحْرَهُ وَتَنْصَرَفُ ، فَأَنَامُ فَأَخْبِرْهُمْ ، فَقَالُوا : لَا كَانَ هَذَا أَبَدًا ، وَلَا يَدْخُلُهَا الْعَامَ ،
وَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُمَانَ قَدْ قُتِلَ ، فَقَالَ : « لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُتَاجَزَمَ » ،
فَذَلِكَ حِينَ دَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَمْعَةِ الرِّضْوَانِ ، فَبَايَعَهُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ^(٢) .
وَفِي عَدَدِهِ يَوْمُئِذٍ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .

أحدها : أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ ، قَالَهُ الْبَرَاءُ ، وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ، وَجَابِرُ ،
وَمُعْتَلُ بْنُ يَسَارٍ .

والثاني : أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ ، رَوَى عَنْ جَابِرٍ أَيْضًا ، وَبِهِ قَالَ ثَنَادَةٌ .

والثالث : أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسَ وَعِشْرُونَ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

والرابع : أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٍ ، قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى . قَالَ : وَخَضِرَبَ يَوْمُئِذٍ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشِبَالِهِ عَلَى يَمِينِهِ لِعُمَانَ ، وَقَالَ : إِنَّهُ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ،

(١) قَالَ فِي « اللِّسَانِ » : وَقَوْلُهُمْ : أَبَادَ اللَّهُ خَضْرَاءَهُمْ ، أَيِ سَوَادِهِمْ وَمُنْتَظَمِهِمْ .

(٢) حَدِيثُ قِصَّةِ الْحَدِيثِيَّةِ ، ذَكَرَهُ أَهْلُ السِّيَرِ ، وَهُوَ فِي « مَسْنَدِ أَحْمَدَ » وَ « صَحِيحِ

الْبُخَارِيِّ » وَأَبِي دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيَّ ، وَابْنَ جُرَيْرٍ ، وَغَيْرَهُمْ مُخْتَصَرًا وَمَطْوَلًا ، بِالْفَاظِ مُخْتَلَفَةً ،

وَانْظُرْ « صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ » ، ٢٤١/٥ ، وَ ٣٤٨/٧ ، وَ « الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ » ، لِابْنِ كَثِيرٍ ١٧٣/٤

و « الْفَرْدُ الْمَشْتُور » ، ٧٦/٦ ، وَ « تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ » ، ١٩٤/٤ .

وَجَمَلَتِ الرُّسُلُ تَخْتَلِفُ يَنْهَمُ ، فَأَجْمَعُوا عَلَى الصَّلَاحِ ، فَبِعَثُوا سَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو فِي عِدَّةِ رِجَالٍ ، فَصَالِحُهُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي (بِرَامَةِ : ٧) ، فَأَقَامَ بِالْحَدِيدِيَّةِ بَضْعَةَ عَشْرَ يَوْمًا ، وَيُقَالُ : عَشْرِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَلَمَّا كَانَ بِـ « ضَجَّانَ » ^(١) نَزَلَ عَلَيْهِ : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » ، فَقَالَ جَبْرِيلُ : يَهْنِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَهَنَاءُ الْمُسْلِمِينَ .
وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ ، رَوَاهُ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ ، وَبِهِ قَالَ السَّيِّدِي . وَقَالَ بَعْضُ مَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا : إِنَّمَا وُعِدَ بَفَتْحِ مَكَّةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ .
وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ فَتَحَ خَيْبَرَ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَالْعَوْفِيُّ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ كَالْقَوْلَيْنِ .
وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ الْقَضَاءُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَقَالَ غَيْرُهُ : حَكَمْنَا لَكَ بِإِظْهَارِ دِينِكَ وَالثَّوْرَةِ عَلَى عَدُوِّكَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لِيَتَفَرَّكَ لَكَ اللَّهُ) قَالَ ثَعْلَبٌ : اللَّامُ لَامٌ « كِي » ، وَالْمَعْنَى : لِكِي يَجْتَمِعُ لَكَ [مَعَ] الْمَغْفِرَةِ تَمَامَ النِّعْمَةِ فِي الْفَتْحِ ، فَلَمَّا انْضَمَّ إِلَى الْمَغْفِرَةِ شَيْءٌ حَدِثٌ ، حَسُنَ مَعْنَى « كِي » ، وَغَلِطَ مَنْ قَالَ : لَيْسَ الْفَتْحُ سَبَبُ الْمَغْفِرَةِ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالْمَعْنَى : « مَا تَقَدَّمَ » فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَ« مَا تَأَخَّرَ » مَا لَمْ تَعْلَمْهُ ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ ، كَمَا تَقُولُ : فَلَانِ يَضْرِبُ مَنْ يَلْقَاهُ وَمَنْ لَا يَلْقَاهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيُتِمِّمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .
أَحَدُهَا : أَنَّ ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ بِالنُّبُوءَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، رَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ : بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَخَيْبَرَ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِيُّ . وَالرَّابِعُ : بِإِظْهَارِ دِينِكَ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أَيُ : وَيُثَبِّتِكَ عَلَيْهِ ؛ وَقِيلَ :

(١) قَالَ فِي « مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ » : ضَجَّانُ : جَبَلٌ بِقَاعِيَّةٍ تَهَامَةٌ .

وَيَهْدِي بِكَ ، (وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ) على عدوك (نَصْرًا عَزِيزًا) قال الزجاج : أي : نَصْرًا ذَا عِزٍّ لَا يَبْقَى مَعَهُ ذُلٌّ (١) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ، لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كثيرة . غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تحريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يظلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، قال : ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها ، قال : فلما أطلع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك) أي : في الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أي بما يشعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرضك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبداً بقول إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى » . اهـ .

شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ
وَنُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَةٌ فِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *

قوله تعالى : (هو الذي أنزل السكينة) أي : الشكون والطمانينة (في
قلوب المؤمنين) ثلاثاً تزعج قلوبهم لما يرد عليهم ، فسلموا لقضاء الله ، وكانوا
قد اشتد عليهم صدُّ المشركين لهم عن البيت ، حتى قال عمر : علام تُمطي
الدَّيْنِيَّةَ في ديننا ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : « أُنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، لَنْ أَخَالِفَ
أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي » ^(١) ، ثم أَوْفَعَ اللَّهُ الرِّضَى بما جرى في قلوب المسلمين ،
فسلموا وأطاعوا .

(لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا) وذلك أنه كلما نزلت فريضة زاد إيمانهم .

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يريد أن جميع أهل السموات والأرض
مُتَّكٌ له ، لو أراد نصرته نبيته بغيركم لَفَعَلَ ، ولكنه اختاركم لذلك ، فاشكروه .
قوله تعالى : (لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ ..) [الآية] سبب نزولها أنه لما نزل
قوله : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ » قال أصحابُ رسولِ الله ﷺ : هنيئاً لك يا رسول الله
بما أعطاك الله ، فإلنا ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله أنس بن مالك ^(٢) . قال مقاتل :

(١) رواه أحمد في « المسند » بهذا اللفظ ، ورواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ،
وابن جرير بمناه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ، والبخاري ومسلم في « صحيحها » عن أنس بن مالك
رضي الله عنه ، ورواه الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر »
٧٠/٦ ، وزاد نسبه أجد الزقاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ،
وابن مردويه ، وأبي نعيم في « المعرفة » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

فلما سمع عبد الله بن أبيّ بذلك ، انطلق في تَفَرُّقٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا :
مالنا عند الله ؟ فنزلت : (وَبُعِذَ الْمُنَافِقِينَ . . .) الآية .

قال ابن جرير : كُثِرَت اللَّامُ في « لِيُدْخِلَ » على اللام في « لِيُغْفِرَ » ،
فالمعنى : إِنَّا قَتَحْنَا لك لِيُغْفِرَ لك اللهُ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ ، ولذلك لم يُدْخِلْ
بينهما واو المطف ، والمعنى : لِيُدْخِلَ وَلِيُغْفِرَ .

قوله تعالى : (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) ^(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : بضم
السين ؛ والباقون : بفتحها .

قوله تعالى : (وَكَانَ ذَلِكَ) أي : ذلك الوَعْدُ بادخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم
(عِنْدَ اللهِ) أي : في حُكْمِهِ (فَوْزاً عَظِيماً) لهم ؛ والمعنى : أنه حكم لهم بالفَوْزَ ،
فلذلك وعدم إدخال الجنة .

قوله تعالى : (الطَّائِفِينَ بِاللَّهِ ظَنٍّ السَّوْءِ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم ظنوا أن الله شريكاً . والثاني : أن الله لا ينصُرُ محمداً وأصحابه .
والثالث : أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيُقتل أو يُهْزَمُ ولا يعود
ظافراً . والرابع : أنهم ظنوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله .
والخامس : ظنوا أن الله لا يبعث الموتى . وقد بينّا معنى « دَائِرَةُ السَّوْءِ » في
(براءة : ٩٨) .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الفتح : ٤ ، الاحزاب : ٥٥] إلى قوله : (لِيُؤْمِنُوا)

(١) هذه الفقرة من الآية الكريمة تنتم لقوله تعالى : (الطائفين بالله ظن السوء) الذي
سيأتي بعد قليل ، وكان حق المؤلف أن يذكرها في محلها ، ولعله ذكرها هنا ليتكلم عن
الخلاف في قراءتها فقط ، لأنه لم يرد أن يفسرها في محلها حيث قال : وقد بينّا معنى (دائرة
السوء) في (براءة) .

بِاللهِ وَرَسُولِهِ (قرأ ابن كثير « وَأَبُو عَمْرٍو : « لِيُؤْمِنُوا » بِالْيَاءِ » وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ » كلُّهُنَّ بِالْيَاءِ ؛ وَالْباقُونَ : بِالتَّاءِ ؛ عَلَى مَعْنَى : قُلْ لِّهِمْ : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ، لِتُؤْمِنُوا وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : وَابْنُ السَّيْفِ : « وَيُعَزِّرُوهُ » بَزَائِنٍ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي (الْأَعْرَافِ : ١٥٧) مَعْنَى « وَيُعَزِّرُوهُ » حِنْدَ قَوْلِهِ : (وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ) .

قوله تعالى : (وَيُوقِّرُوهُ) أَي : يَعْظِمُوهُ وَيَجْلِسُوهُ . وَاخْتَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ الْوَقْفَ هَاهُنَا ، لِاخْتِلَافِ الْكُنْيَةِ فِيهِ وَفِيهَا بِمَدِّهِ .

قوله تعالى : (وَيُسَبِّحُوهُ) هَذِهِ الْهَاءُ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ^(١) . وَالْمُرَادُ بِتَسْبِيحِهِ هَاهُنَا : الصَّلَاةُ لَهُ . قَالَ الْمَفْسُورُونَ : وَالْمُرَادُ بِصَلَاةِ الْبُكْرَةِ : الْفَجْرُ ، وَبِصَلَاةِ الْآصِيلِ : بَاقِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ .

قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ) يَعْنِي بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ بِالْحُدُودِ . وَعَلَى مَاذَا يَبَايِعُوهُ ؛ فِيهِ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ يَبَايِعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ ، قَالَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ .

وَالثَّانِي : عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوْا ، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . وَمَعْنَاهَا مُتَقَارِبٌ ، لِأَنَّهُ أَرَادَ : عَلَى أَنْ لَا تَفِرُّوْا وَلَوْ مِنْكُمْ . وَسَمَّيْتُ بَيْعَةَ ، لِأَنَّهُمْ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ ، وَكَانَ الْمُقَدَّمُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَهُمْ يَبَايِعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّهُ ضَمَّنَ لَهُمُ الْجَنَّةَ بِوَفَائِهِمْ .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : يَدُ اللَّهِ فِي الْوَفَاءِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . وَالثَّانِي : يَدُ اللَّهِ فِي الثَّوَابِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . وَالثَّالِثُ : يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُنَّةِ بِالْمُهْدَايَةِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ بِالطَّاعَةِ ، ذَكَرَ هَذِهِ

(١) وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ فِي بَعْضِ الْفَرَاغَاتِ : « وَيُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

الاقوال الزجاج . والرابع : **قُوَّةُ اللَّهِ** وَنَصْرُهُ فَوْقَ قُوَّتِهِمْ وَنَصْرَتِهِمْ ، ذكره ابن جرير ، وابن كيسان .

قوله تعالى : (**فَمَنْ نَكَثَ**) أي : نقض ماعقده من هذه البيعة (فائماً **يَنْكُثُ** عَلَى نَفْسِهِ) أي : يرجع ذلك النقص عليه (ومن أوفى بما هدد **عَلَيْهِ اللَّهُ**) ^(١) من البيعة (فسئوته) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبان عن عاصم : « فسئوته » بالنون . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وهمة ، والكسائي : بالياء (أجراً عظيماً) وهو الجنة . قال ابن السائب : فلم ينكث العهد منهم غير رجل واحد يقال له : الجدة بن قيس ، وكان منافقاً ^(٢) .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَنفُسِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلٌ مِّنْ يَمُنُّكَ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْئًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

(١) قال الآلوسي في « روح المعاني » : قرأ الجمهور « عليه » بكسر الهمزة كما هو الشائع ، وضحا حفص هنا . ثم قال : وحسن الضم في الآية ، للتوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة اللاتم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام . اهـ .

(٢) ونقل الزعزعي في « الكشف » نحوه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، والذي في « صحيح مسلم » ١٤٨٣/٣ عن جابر : فبايئناه ، غير جد بن قيس اختبأ تحت بطن بيبره ، ولأبي بلى : بايئناه كلنا إلا الجدة بن قيس ، فإنه اختبأ تحت بطن بيبره ، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً .

وَالْأَرْضِ يَنْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (سيقول لك المخلّفون من الأعراب) قال ابن إسحاق : لما أراد العمرة استنفر من حَوْلَ المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه ، خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصدّ ، فتأفل عنه كثير منهم ، فهم الذين عني الله بقوله : « سيقول لك المخلّفون من الأعراب » ، قال أبو صالح [عن ابن عباس] : وم غفار ومزينة وجبينة وأشجع والدّيل وأسلم . قال يونس النحوي : الدّيل في عبد القيس ساكن الياه . والدّول من حنيفة ساكن الواو ، والدّيل في كنانة رهط أبي الأسود الدّؤلي^(١) . فأما المخلّفون ، فانهم تخلفوا مخافة القتل . (شَفَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلَانَا) أي : خِفْنَا عليهم الضّيمة (فاستنفر لنا) أي : ادعُ [الله] أَنْ يَنْفِرَ لَنَا تَخَلُّفْنَا عَنْكَ (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) أي : ما يبالون استنفرت لهم أم لم تستنفر لهم .

قوله تعالى : (فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « ضُرّاً » بضم الضاد ؛ والباقون : بالفتح . قال أبو علي : « الضّرّ » بالفتح : خلاف النفع ، وبالضم : سوء الحال ، ويجوز أن يكونا لفتين كالْفَقْرِ والفُقْر ، وذلك أنهم ظنّوا أن تخلفهم يدفع عنهم الضّرّ ، ويمجّل لهم النفع بسلامة أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه إن أراد بهم شيئاً ، لم يقدر أحد على دفعه [عنهم] ، (بل كان الله بما تعملون خبيراً) من تخلفهم وقولهم عن المسلمين أنهم سيهلكون ، وذلك قوله : (بَلْ ظَنَنْتُمْ) أي : توهمتم (أنْ

(١) قال أبو العباس المبرد : الدّؤلي مضمومة الدال مفتوحة الواو من الدّيل بضم الدال

وكسر الياه : وهو دابة .

لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ) أَي لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ،
لِاسْتِصْالِ الْمَدِينَةِ لِإِيَّامِ ، (وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ) وَذَلِكَ مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ .
قوله تعالى : (وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) قد ذكرناه في (الفرقان : ١٨) .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَاخِذُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا
كَذَابِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا
لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ) الَّذِينَ تَخَافُوا عَنْ الْحَدِيثِ
(إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْصَرَفُوا عَنْ الْحَدِيثِ بِالصِّلَحِ وَعَدَمَ
اللَّهُ فَتَحَ خَيْبَرَ ، وَخَصَّ بِهَا مِنْ شَهْدِ الْحَدِيثِ فَانْطَلَقُوا إِلَيْهَا ، فَقَالَ هَؤُلَاءِ
الْمُخَلَّفُونَ : (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)
وَقَرَأَ حَمْزَةً ، وَالْكَسَاةَ ، وَخَلَفَ : « أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ » بِكَسْرِ اللَّامِ .

وفي المعنى قولان .

أحدهما : أَنَّهُ مَوَاعِيدُ اللَّهِ بِغَنِيمَةِ خَيْبَرَ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ خَاصَّةً ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ .
وَالثَّانِي : أَمْرُ اللَّهِ نَبِيَّهُ أَنْ لَا يَسِيرَ مَعَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ
وَهُوَ بِالْحَدِيثِ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ خَيْبَرَ ، وَنَهَاهُ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ،
قَالَ مَقَاتِلُ .

وعلى القولين : قَصِدُوا أَنْ يُجِيزَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يَخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ ،
فَيَكُونُ تَبْدِيلًا لِأَمْرِهِ .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : قال : إن غنائم خيبر لِمَنْ شَهِدَ الحديبية ، وهذا على القول الأول .
والثاني : قال : لِمَنْ تَشَبَّهْنَا ، وهذا قول مقاتل .

(فسيقولون بل تحسدونا) أي : يَغنمُكم الحسد من أن تُصيب معكم الغنائم .

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ مُقَابِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

قوله تعالى : (سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ) المعنى : إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فستُدُّعُونَ إلى جهاد قوم (أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)

وفي هؤلاء القوم ستة أقوال .

أحدها : أنهم فارس ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عطاء .
ابن أبي رباح ، وعطاء الخراساني ، وابن أبي ليلى ، وابن جريج في آخرين .
والثاني : فارس والروم ، قاله الحسن ، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . والثالث :
أنهم أهل الأوثان ، رواه ليث عن مجاهد . والرابع : أنهم الروم ، قاله كعب .
والخامس : أنهم هوازن وغطفان ، وذلك يوم حنين ، قاله سميد بن جبير ، وقتادة .
والسادس : بنو حنيفة يوم اليمامة ، وهم أصحاب مسيلة الكذاب ، قاله الزهري ،
وابن السائب ، ومقاتل ^(١) . قال مقاتل : خلافة أبي بكر في هذه يَتَنَّةٌ مؤكدة .

(١) قال ابن كثير : اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين بدعوا إليهم ، الذين هم أولي

وقال رافع بن خديج : كُنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نَعْلَمُ مَنْ هُمْ حَتَّى دُعِيَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى قِتَالِ بَنِي حَنْظَلَةَ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ هُمْ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَّا فِي الْعَرَبِ ، لِقَوْلِهِ : (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) ، وَفَارِسَ وَالرُّومَ إِمَّا يِقَاتِلُونَ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُوَدُّوا الْجُزْيَةَ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، لِأَنَّهُ إِنْ أُريدَ بِهَا بَنُو حَنْظَلَةَ ، فَأَبُو بَكْرٍ دُمَا إِلَى قِتَالِهِمْ ، وَإِنْ أُريدَ بِهَا فَارِسَ وَالرُّومَ ، فَمَرَدُّمَا إِلَى قِتَالِهِمْ ، وَالْآيَةُ تُنْزِلُ مِنْهُمُ اتِّبَاعَ طَاعَةٍ مِنْ يَدْعُوهُمْ ، وَتَتَوَعَّدُهُمْ عَلَى التَّخَلُّفِ بِالْعِقَابِ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَتِهَا إِذَا كَانَ الْمُتَوَلِّي عَنْ طَاعَتِهَا مُسْتَحَقًّا لِلْعِقَابِ (١) .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَطِيعُوا) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَإِنْ تَطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعَمَرَ ، (وَإِنْ تَوَلَّوْا) عَنْ طَاعَتِهَا (كَمَا تَوَلَّيْتُمْ) عَنْ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمَسِيرِ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى : إِنْ تَبَيْتُمْ وَتَرَكْتُمْ نِفَاقَكُمْ وَجَاهَدْتُمْ ، يُوْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَقْتُمْ عَلَى نِفَاقِكُمْ ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَذَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢) .

بأس شديد على أقوال ، ثم قال : وعن مجاهد : هم رجال أولو بأس شديد ، قال : ولم يبين فرقة ، وبه يقول ابن جرير ، وهو اختيار ابن جرير . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) يعني شرع لكم جهادهم وقَاتِلَهُمْ ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ ، وَلَكُمْ النِّصْرَةُ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُسْلِمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ بِلَا بَاحْتِيَارٍ .

(٢) قال ابن كثير : (فَإِنْ تَطِيعُوا) أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدُّوا الذي عليكم فيه (يُوْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا) وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ (يعني زمن الحُدَيْبِيَّةِ حَيْثُ دُعِيتُمْ فَنُخَلَفْتُمْ) بِمَذَبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج) قال المفسرون : عَذَرَ اللهُ أَهْلَ
الرَّيْثَانَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْمَسِيرِ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ^(١) .

قوله تعالى : (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ) ^(٢) قرأ نافع ، وابن عامر : « يُدْخِلْهُ »
و « يُنْزِلْهُ » بالنون فيها ؛ والباقون : بإلواء .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَابَهُمْ فَفَتَحْنَا قُرْيَاهُ
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا .
وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا . وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْهَارَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

(١) قال ابن كثير : ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد ، فهذا لازم كالسعي والعرج المستمر ،
وعارض كالمرض الذي بطراً أليماً ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بدوي الأعذار
اللازمة حتى يبرأ . اهـ .

(٢) والآية بتمامها : (ومن بطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن
يتولّ يمهذه عذاباً أليماً) وذلك ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأن من نكل عن
الجهاد وأقبل على المعاش يمهذه عذاباً أليماً في الدنيا بالذلة ، وفي الآخرة بالنار .

زاد المسير ٧ م (٢٨)

ثم ذكر الذين أخلصوا نيتهم وشهدوا ببيعة الرضوان بقوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين) وقد ذكرنا سبب هذه البيعة آنفاً ^(١) . وإنما سميت بيعة الرضوان ، لقوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ، قال : بينما نحن قائلون زمن الحديبية ، نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة ، البيعة ، نزل روح القدس ، قال : ففُترنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة ، فبايعناه ^(٢) . وقال عبد الله بن مفضل : كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس ، ولما لم يرفع أغصانها عن رأسه ^(٣) . وقال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفسج نحو مكة ^(٤) . قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلون عندها ، فبايع ذلك عمر بن الخطاب ، فأوعدم فيها ، وأمر بها فقطعت ^(٥) .

قوله تعالى : (فمكِّم ما في قلوبهم) أي : من الصدق والوفاء ، والمكِّي : علمهم أنهم مُخْلِصُونَ (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) يعني الطمأنينة والرضى حتى

(١) انظر الصفحة (٤٢٠) .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٨٦/٢٦ وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعند مسلم ١٤٨٦/٣ من حديث مولى سلمة بن الأكوع قال : قلت لسلمة : على أي شيء يبايع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . والسمر : وزان رجُل وسبح : شجر الطلع ، وهو نوع من المعناء ، الواحدة : سمرة .

(٣) رواه الطبري ٩٣/٢٦ ، ٩٤ وإسناده حسن ، وهو في مسلم ١٤٨٥/٣ بمناء من حديث معقل بن يسار .

(٤) رواه الطبري ٨٦/٢٦ عن بكير بن الأشج أنه بلغه أن الناس يبايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، فقال رسول الله ﷺ : « على ما استطعتم » ، والشجرة التي يبيع تحتها بفسج نحو مكة .

(٥) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٣٤٥/٧ رواه ابن سعد بإسناد صحيح .

بَايَعُوا عَلَى أَنْ يِقَاتِلُوا وَلَا يَفِرُّوا (وَأَتَابَهُمْ) أَي : عَوَّضَهُمْ عَلَى الرِّضَى بِقَضَائِهِ
وَالصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِ (فَتَحُوا قَرِيباً) وَهُوَ خَيْبَر ، (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا)
أَي : مِنْ خَيْبَر ، لِأَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ عَقَارٍ وَأَمْوَالٍ . فَأَمَّا قَوْلُهُ بِمَدِّ هَذَا : (وَعَدَكُمْ
اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) فَقَالَ الْمَفْسُورُونَ : هِيَ الْفُتُوحُ الَّتِي تُفْتَنَحُ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ) فِيهَا قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا غَنِيمَةُ خَيْبَرٍ ، قَالَه مُجَاهِدٌ ،
وَقَتَادَةُ ، وَالْجُهُورُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ الصَّاحِحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ،
رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(١) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ) فِيهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .
أَحَدُهَا : أَنَّهُمُ الْيَهُودُ مِمَّنْ هُمَّا أَنْ يَغْتَالُوا عِيَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَلَفُوهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ،
فَكَفَّهِمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَه قَتَادَةُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ أَسَدٌ وَغُطَفَانٌ جَاؤُوا لِيَنْصُرُوا أَهْلَ خَيْبَرٍ ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . وَقَالَ الْفَرَاءُ : كَانَتْ أَسَدٌ وَغُطَفَانٌ
[مَعَ أَهْلِ خَيْبَرٍ ، فَقَصَدَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَالَحَهُمْ وَخَلَعُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَيْبَرٍ .
وَقَالَ غَيْرُهُمَا : بَلْ مَهَّمَّتْ أَسَدٌ وَغُطَفَانٌ [بِاِغْتِيَالِ [أَهْلِ] الْمَدِينَةِ ، فَكَفَّهِمُ اللَّهُ
عَنْ ذَلِكَ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ كَفَّهِمُ اللَّهُ بِالصَّاحِحِ ، حَكَاهُمَا الثَّعْلَبِيُّ وَغَيْرُهُ .

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِالصَّوَابِ مَا قَالَه مُجَاهِدٌ ، وَهُوَ أَنَّ
الَّذِي أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ مَسِيرِهِمْ ذَلِكَ مَعَ الْفَتْحِ الْقَرِيبِ : الْمَغَانِمُ الْكَثِيرَةُ مِنْ مَغْنَمِ خَيْبَرٍ ، وَذَلِكَ
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَضْمُوا بِمَدِّ الْحُدَيْبِيَّةِ غَنِيمَةً ، وَلَمْ يَفْتَحُوا فَتْحاً أَقْرَبَ مِنْ بَيْعَتِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
بِالْحُدَيْبِيَّةِ إِلَيْهَا مِنْ فَتْحِ خَيْبَرٍ وَغَنَائِمِهَا . اهـ .

ففي قوله : « عنكم » قولان . أحدهما : أنه على أصله ، قاله الأكثرون .
والثاني : عن عيالكم ، قاله ابن قتيبة ، وهو مقتضى قول قتادة .

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) في المشار إليها قولان .

أحدهما : أنها الفعلة التي فعلها بكم من كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ كانت آيةً
للمؤمنين ، فمَلِكُوا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى مَتَوَلَّى حِرَاسَتَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَنْعِهِمْ .

والثاني : أنها خير كان فتحها علامةً للمؤمنين في نصديق رسول الله ﷺ
فيما وعدهم به .

قوله تعالى : (وَيَنْهَيْكُمْ عَنْ صَرَاطٍ مُسْتَقِيمًا) فيه قولان .

أحدهما : طريق التوكُّل عليه والتفويض إليه ، وهذا على القول الأول .

والثاني : يَزِيدُكُمْ هُدًى بالتصديق بمحمد ﷺ فيما جاء به من وعد الله تعالى
بالفتح والغنيمة .

قوله تعالى : (وَأُخْرَى) المعنى : وعدكم الله مَنَافِعَ أُخْرَى ؛ وفيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها ما فُتِحَ للمسلمين بعد ذلك . روى سماك الحنفي عن ابن عباس

« وَأُخْرَى كَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا » قال : ما فتح لكم من هذه الفتوح ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنها خير ، رواه عطية ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال

ابن زيد .

والثالث : فارس والروم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الحسن ،

وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

والرابع : مكة ، ذكره قتادة ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) فيه قولان . أحدهما : أحاط بها علماً

أَنَّهُا سَتَكُونُ مِنْ مُتَوَحِّكِمٍ . والثاني : حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَنْعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى تَفْتَحْتُوهَا .
 قوله تعالى : (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) هذا خطاب لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، قاله
 قتادة ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مُشْرِكُو قُرَيْشٍ . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَعْنَى : لَوْ قَاتَلَكُمْ يَوْمَ
 الْحُدَيْبِيَّةِ (لَوْلَوْ الْأَدْبَارُ) لَمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّعْبِ (ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا) لِأَنَّ
 اللَّهَ قَدْ خَذَلَهُمْ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى : لَوْ قَاتَلَكُمُ مَنْ لَمْ يَقَاتِلْكُمْ لِنُصْرَتِهِ عَلَيْهِ ،
 لِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ النَّصْرَةُ لِأَوْلِيَائِهِ . وَ « سُنَّةَ اللَّهِ » مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ ، لِأَنَّ
 قَوْلَهُ : « لَوْلَوْ الْأَدْبَارُ » مَعْنَاهُ : سَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِذْلَانَهُمْ سُنَّةً . وَقَدْ
 مَرَّ مِثْلُ هَذَا فِي قَوْلِهِ : (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) [النساء : ٢٤] ، وَقَوْلُهُ : (صُنْعَ اللَّهِ)
 [النمل : ٨٨] .

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ) رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ
 ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ
 يَرِيدُونَ غِرَّةَ ^(١) النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، فَأَخَذَهُمْ سِلَاحًا ^(٢) ، فَاسْتَحْيَاهُمْ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ

(١) التبرئة : هي الغفلة ، أي : يريدون أن يعادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم
 ليتمكنوا من غدرهم والفتك بهم .

(٢) قال الامام النووي في « شرح مسلم » ١٨٧/١٢ : « سِلَاحًا » ضبطوه بوجهين . أحدهما :
 سَلَحًا ، والثاني : سَلْبًا ، قال الحلي : ومعناه : الصلح . قال القاضي في « المشرق » :
 هكذا ضبطه الأكثرون ، قال فيه وفي الترح : والرواية الأولى أظهر . والمعنى : أسرم . والسلم :
 الأسر . وجزم الخطابي بفتح اللام والسين ، قال : والمراد به : الاستسلام والاذعان ، كقوله تعالى :
 (وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ) أي : الانقياد ، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنتين والجمع ، قال
 ابن الأثير : هذا هو الأشبه بالقصة ، فانهم لم يؤخذوا صلحًا ، وإنما أخذوا قهراً ، وأسلموا
 أنفسهم عجزاً ، قال : وللقول الآخر وجه ، وهو أنه لما لم يجز معهم قتال ، بل عجزوا عن
 دفعهم والنجاة منهم ، فرضوا بالأسر ، فكانهم قد صولحوا على ذلك . اهـ .

هذه الآية ^(١) . وروى عبد الله بن مفضل قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة ، فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد ؟ » أو « هل جعل لكم أحد أماناً ؟ » قالوا : اللهم لا ، فخلّس سبيلهم ، ونزلت هذه الآية ^(٢) . وذكر قتادة أن رسول الله ﷺ بعث خبلاً ، فأتوه بانتي عشر فارساً من الكفار ، فأرسلهم ^(٣) ، وقال مقاتل : خرجوا يقاتلون رسول الله ﷺ ، فمزمهم النبي ﷺ بالطعن والنبل حتى أدخلهم بيوت مكة . قال المفسرون : ومعنى الآية : إن الله تعالى ذكر منته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتلوا حتى تم الصلح بينهم .

وفي بطن مكة ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الحديبية ، قاله أنس . والثاني : وادي مكة ، قاله السدي . والثالث : التنعيم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فأما « مكة » فقال الزجاج : « مكة » لانصرف لأنها مؤنثة ، وهي معرفة ، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق « بكّة » ، والميم يُبدل من الباء ، يُقال : ضربة لازم ، ولازب ، ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم : امتكّ الفصيل ما في ضرع الناقة : إذا مصّ مصّاً شديداً حتى لا يُبقي فيه شيئاً ، فيكون سميت

(١) رواه مسلم ١٤٤٢/٣ ، والطبري ٩٤/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٥/٦ ، وزاد نسبه لأحمد ، وعبد حميد ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن النذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري ٩٤/٢٦ وإسناده حسن ، والحاكم ٤٦٠/٢ وصححه ، والواحدي في « أسباب الغزوة » ٢١٨ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٨/٦ وزاد نسبه لأحمد ، والنسائي ، وأبي نعيم في « الدلائل » ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن مفضل رضي الله عنه .

(٣) « الطبري » ٩٤/٢٦ وهو مرسل ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٥/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد عن قتادة .

بذلك لشدة الازدحام فيها ؛ قال : والقول الأول أحسن . وقال قطرب : مكة
من تَمَكَّكْتُ المَخْ : إذا أكلته . وقال ابن فارس : تَمَكَّكْتُ العظيم :
إذا أخرجتُ مَخَّه ؛ والتَمَكَّكْتُ : الاستقصاء ؛ وفي الحديث : « لَأَتَمَكِّكُوا
على غُرَمائكم » ^(١) .

وفي تسمية « مكة » أربعة أقوال .

أحدها : لأنها مثابةُ يومئها الخلقُ من كُلِّ فَجٍّ ، وكأنها هي التي
تجذبُهم إليها ، وذلك من قول العرب : امتكَّ الفصيلُ ما في خُرع الناقة .
والثاني : أنها سميتْ (مكة) من قولك : بككتُ الرجلُ : إذا وضعتُ منه
وَرَدَدْتُ نَخْوَتَهُ ^(٢) ، فكأنها تَمُكُّ مَنْ ظلم فيها ، أي : تُهايكه وتُنْقِصه ، وأنشدوا :
يَا مَكَّةُ ، الفاجرُ مُكِّي مَكَّا وَلَا تَمُكِّي مَذْحِجًا وَعَكَّا ^(٣)
والثالث : [أنها] سميتْ بذلك لجهد أهلها .

والرابع : لقلَّة الماء بها .

وهل مكة وبكة واحد ؛ قد ذكرناه في (آل عمران : ٩٦) .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُم عَلَيْهِمْ) أي : بهم ؛ يقال : ظَفِرْتُ
بفلان ، وظَفِرْتُ عليه .

قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) قرأ أبو عمرو : [« يعملون »]
بالياء ؛ والباقون : بالتاء .

(١) هذا الحديث ذكره ابن الأثير في « النهاية » في غريب الحديث ، ولم نره في كتب الحديث .

(٢) كانت العبارة في الأصل هكذا (مَكَّكْتُ الرجلُ : إذا أردت نخوته) وقد صوبناها كما ترى
نقلًا عن المصنف كما أثبتته في الجزء الأول الصفحة (٤٢٧) عن اليزيدي وقطرب ، ومن كتب اللغة .

(٣) الرجز غير منسوب في « اللسان » و « التاج » : مكك .

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ النَّمِيمَةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ مِنْهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بني أهل مكة (وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أن تطوفوا به وتحلّوا من عمرتكم (وَالْهَدْيِ) قال الزجاج : أي : وصدّوا الهدى (مَكُوفًا) أي : محبوساً (أَنْ يَبْلُغَ) أي : عن أن يبلغ (حِمْلَهُ) قال المفسرون : « حِمْلُهُ » مَنْحَرُهُ ، وهو حيث يحلّ نَحْرُهُ (وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ) وهم المستضعفون بمكة (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ) أي : لم تعرفوهم (أَنْ تَطَّوُّوهُمْ) بالقتل . ومعنى الآية : لولا أن تطوّروا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بالقتل ، وتوقعوا بهم ولا تعرفونهم ، (فَتُصَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ) وفيها أربعة أقوال . أحدها : إثم ، قاله ابن زيد . والثاني : غرم الدية ، قاله ابن إسحاق . والثالث : كفارة قتل الخطأ ، قاله ابن السائب . والرابع : عيب بقتل مَنْ هو على دينكم ، حكاه جماعة من المفسرين . وفي الآية مخوف ، تقديره : لا دخلتكم من عامكم هذا ؛ وإنما حُلّت بينكم وبينهم (لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) أي : في دينه (مَنْ يَشَاءُ) من أهل مكة ، وهم الذين أسلموا بعد الصلح (لَوْ تَزَيَّلُوا) قال ابن عباس : لو تفرّقوا . وقال ابن قتيبة ، والزجاج : لو تميّزوا .

قال المفسرون : لو انماز المؤمنون من المشركين (لمدَّبْنَا الذين كفروا) بالقتل والسبني بأيديكم . وقال قوم : لو تزيَّل المؤمنون من أصلاب الكُفَّار لمدَّبْنَا الكفار . وقال بعضهم : قوله : « لمدَّبْنَا » جواب لكلامين ، أحدهما : « لولا رجال » ، والثاني : « لو تزيَّلوا » وقوله : (إذ جَمَل) من صلة قوله : (لمدَّبْنَا) . والحيَّة : الانثفة والجبريَّة . قال المفسرون : وإنما أخذتهم الحية حين أراد رسول الله ﷺ دخول مكة ، فقالوا : يدخلون علينا [وقد قتلوا] أبناءنا وإخواننا فتحدث الربُّ بذلك ! والله لا يكون ذلك ، (فأنزلَ اللهُ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) فلم يدخلْهم ما دخل أولئك فيخالفوا الله في قتالهم . وقيل : الحيةُ ما تداخل سبيلَ بن عمرو من الانثفة أن يكتب في كتاب الصلح ذكرَ « الرحمن الرحيم » وذكرَ « رسول الله » ﷺ .

قوله تعالى : (وألزمهم كلمة التقوى) فيه خمسة أقوال .

أحدها : « لا إله إلا الله » ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد في آخرين ، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ^(١) ؛ فعلى هذا يكون معنى : « ألزمهم » : حَكَمَ لهم بها ، وهي التي تنفي الشرك .

(١) روى الترمذي في « سننه » ، ١٥٩ : قال : حدثنا الحسن بن قزعة البصري ، حدثنا سفيان بن حبيب عن شعبة عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن الطفيل بن أبي كعب عن أبيه عن النبي ﷺ : (وألزمهم كلمة التقوى) قال : « لا إله إلا الله » ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة ، قال : وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . اهـ . وثوير بن أبي فاختة ضعيف ، ورواه الطبري ١٠٤/٢٦ بنفس السند ، وذكره السيوطي في « الدر » ٨٠/٦ وزاد نسبه لجد الله بن أحمد في « زوائد المسند » ، والمدارقني في « الأفراد » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء —

والثاني : « لا إله إلا الله والله أكبر » ، قاله ابن عمر . وعن علي بن أبي طالب كالقولين .

والثالث : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل

شيء قدير » ، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، قاله الزهري .

فعلى هذا يكون المعنى أنه لما أبى المشركون أن يكتبوا هذا في كتاب

الصالح ، أزمه الله المؤمنين (وكانوا أحق بها) من المشركين (و) كانوا

(أهلها) في علم الله تعالى .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الرُّبُيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ

الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

وَكُفِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبُيَا بِالْحَقِّ) قال المفسرون : سبب

نزولها أن رسول الله ﷺ كان أُرِي في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلا

يقول له : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) إلى قوله : (لَا تَخَافُونَ) ورأى كأنه

هو وأصحابه يدخلون مكة وقد حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ،

فلما خرجوا إلى الحديبية حسبوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك ، فلما رجعوا

— والصفات ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً ، وذكر السيوطي أيضاً من رواية ابن

مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ومن رواية ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع

رضي الله عنه مرفوعاً .

ولم يدخلوا قال المنافقون : أين رؤياه التي رأى ؟ فنزلت هذه الآية ^(١) ، فدخلوا في العام المقبل .

وفي قوله : (إن شاء الله) ستة أقوال .

أحدها : أن « إن » بمعنى « إذ » ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه استثناء من الله ، وقد علمه ، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون ، قاله ثعلب ؛ فملى هذا يكون المعنى أنه علم أنهم سيدخلونه ، ولكن استثنى على ما أمر الخلق به من الاستثناء .

والثالث : أن المعنى : لتدخلن المسجد الحرام إن أمركم الله به ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم ، لأنه علم أن بعضهم يموت ، حكاه الماوردي .

والخامس : أنه على وجه الحكاية لما رآه النبي ﷺ في المنام أن قائلا يقول :

« لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين » ، حكاه القاضي أبو بلى .

(١) روى سبب النزول هذا البنوي والخازن هكذا بغير سند . ورواه الطبري ١٠٧/٢٦

من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) إلى آخر الآية ، قال : قال لهم النبي ﷺ : « إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام علقين رؤوسكم ومقصرين » ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون في ذلك فقالوا : أين رؤياه ؟ فقال الله : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) فقرأ حتى بلغ (ومقصرين لا تخافون) إني لم أره يدخلها هذا العام ، وليكن ذلك .

وروى الطبري أيضاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : (الرؤيا بالحق) قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه علقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد ﷺ . وذكره السيوطي في « الدر » ٨٠/٦ وزاد نسبة للفرابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقي في « الدلائل » عن مجاهد .

والسادس : أنه يعود إلى الأيمن والخطوف ، فأما الدخول ، فلا شك فيه ،
حكاية النملي (١) .

قوله تعالى : (آمين) من المدوّ (محلّتين رؤوسكم ومقصّرين) من
الشعر (٢) (لاتخافون) عدوّاً .

(فمليكم ما لم تعلموا) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : علم أن الصّلاح في الصّالح . والثاني : أن في تأخير الدخول
صلاً . والثالث : فلم أن يفتح عليكم خير قبل ذلك .

قوله تعالى : (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) فيه قولان .
أحدهما : فتح خير ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ،
وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : صلح الحديبية ، قاله مجاهد ، والزهرى ، وابن إسحاق . وقد يئنا
كيف كان فتحاً في أول السورة .

وما بعد هذا مفسر في (براءة : ٣٣) إلى قوله (٣) : (وكفى بالله شهيداً)
وفيه قولان .

(١) قال ابن كثير : (إن شاء الله) هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء
في شيء .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (محلّتين رؤوسكم ومقصّرين) حال مقدرة ، لأنهم في حال
دخولهم لم يكونوا محلّتين ومقصّرين ، وإذا كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلّق رأسه ،
ومنهم من قصّره . اهـ . وقد روى مسلم في صحيحه ، ٩٤٦/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر للمحلّتين » قالوا : يا رسول الله ! والمقصّرين ،
قال : « اللهم اغفر للمحلّتين » قالوا : يا رسول الله ! والمقصّرين ، قال : « اللهم اغفر للمحلّتين »
قالوا : يا رسول الله ! والمقصّرين » قال : « والمقصّرين » .

(٣) قال ابن كثير : (فلم ما لم تعلموا) أي : فلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة —

أحدهما : أنه شهد له على نفسه أنه يُظهره على الدين كله ، قاله الحسن .
والثاني : كفى به شهيداً أن محمداً رسوله ، قاله مقاتل .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

قوله تعالى : (محمدٌ رسولُ الله) وقرأ الشامي ، وأبورجاه ، وأبو المتوكل ،
والجحدري : « محمداً رسولَ الله » بالنصب فيها . قال ابن عباس : شهد له بالرسالة .
قوله تعالى : (والذين معه) بني أصحابه والأشداء : جمع شديد . قال
الزجاج : والأصل : أشدّاء ، نحو نصيب وأنصباء ، ولكن الدالّين تحركتا ،
فأدغمت الأولى في الثانية ، [ومثله] (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ) [المائدة : ٥٤] .

قوله تعالى : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) الرُّحَمَاءُ جمع رحيم ، والمعنى أنهم يُغْلِظُونَ
على الكفار ، وَبَتَوَادُّونَ بَيْنَهُمْ ^(١) (تَرَامُ رُكْعًا سُجَّدًا) يَصِفُ كَثْرَةَ

— في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنهم (فجعل من دون ذلك) أي :
قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ (فتحاً قريباً) وهو الصلح الذي كان
بينكم وبين أعدائكم من المشركين . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وهذه صفة المؤمنين ، أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار
رحيماً برءاً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ،
كما قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) —

صَلَاتِهِمْ (يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ) وَهُوَ الْجَنَّةُ (وَرِضْوَانًا) وَهُوَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .
 وَهَذَا الْوَصْفُ لِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ^(١) وَرَوَى مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ عَنِ الْحَسَنِ
 الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِينَ مَعَهُ » أَبُو يَكْر « أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » عَمْر « رَحَمَاءُ
 فِيهِمْ » عُثْمَانُ « تَرَامُ رُكْعًا سُجَّدًا » عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ « يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ
 اللَّهِ وَرِضْوَانًا » طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ ^(٢) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (سَيِّمًا) أَي : عَلَامَتِهِمْ (فِي وُجُوهِهِمْ) ، وَهَلْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ
 فِي الدُّنْيَا ، أَمْ فِي الْآخِرَةِ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : فِي الدُّنْيَا . ثُمَّ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّهَا السَّمْتُ الْحَسَنُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ ؛
 وَقَالَ فِي رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ : أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي تَرَوْنَ ، وَلَكِنَّهُ سِيمَا الْإِسْلَامِ وَسَمْتُهُ
 وَخُشُوعُهُ ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ : لَيْسَ بِنَدَبِ التُّرَابِ فِي الْوَجْهِ ، وَلَكِنَّهُ الْخُشُوعُ
 وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُّعُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ نَدَى الطَّهَّورِ وَتَرَى الْأَرْضَ ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ . وَقَالَ
 أَبُو الْعَالِيَةِ : لِأَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ عَلَى التُّرَابِ لَا عَلَى الْأَثْوَابِ . وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ :
 بَلَنِي أَنَّهُ مَا حَمَلَتْ جِبَاهُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ .

— وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمِثْلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ
 تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَنَى وَالْمَهْرِ » وَقَالَ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنُ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بِمَضْمَنِهِ
 بَعْضُهُمَا وَشِبْكَهُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ » قَالَ : وَكَلَا الْحَدِيثَيْنِ فِي الْمَصْحُوحِ .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى : (تَرَامُ رُكْعًا سُجَّدًا) يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ
 وَرِضْوَانًا) وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا
 عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْإِحْسَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ وَهُوَ الْجَنَّةُ الْمَشْتَمِلَةُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
 وَهُوَ سَمَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاؤُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا :
 (وَرِضْوَانُ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ) . اهـ .

(٢) الثَّلَاثَةُ لَا تَحْتَمِلُ هَذَا التَّأْوِيلَ ، وَلَيْسَ مَعَ الْحَسَنِ قَوْلٌ يَثْبُتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 وَمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ الرَّادِي عَنِ الْحَسَنِ مَوْصُوفٌ بِالتَّدْلِيسِ .

والثالث : أنه السُّهُوم ^(١) ، فإذا سهم وجه الرجل من الليل أصبح مُصْفَراً .
قال الحسن البصري : « سِيَامٌ فِي وَجُوهِهِمْ » : الصُّفْرَةُ ؛ وقال سعيد بن جبير :
أثر السهر ؛ وقال شمر بن عطية : هو تهيج في الوجه من سهر الليل .
والقول الثاني : أنها في الآخرة ^(٢) . ثم فيه قولان .

أحدهما : أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم يابساً يوم
القيامة ، قاله عطية العوفي ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن ، والزهري . وروى العوفي
عن ابن عباس قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة .
والثاني : أنهم يُبْعَثُونَ غُرّاً حَجَّالِينَ من أثر الطُّهُور ^(٣) ، ذكره الزجاج .
قوله تعالى : (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ) أي : صِفَتُهُمْ ؛ والمعنى أن صفة محمد ﷺ
وأصحابه (في التوراة) هذا .

فأما قوله : (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) ففيه ثلاثة أقوال .

(١) قال في « اللسان » : السُّهُومُ والسُّهُامُ : الضمير وتغير اللون وذبول الشفتين . سَهُِمَ ،
بالفتح ، يَسَهُمُ سُهُاماً وسُهُوماً ، وسَهُِمَ أيضاً ، بالضم ، يَسَهُمُ سُهُوماً فيها ، وسُهُِمَ
يُسَهُمُ ، فهو مَسَهُومٌ : إذا ضمُرَ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك الصواب أن يقال : إن الله تعالى
ذكره أخبرنا أن سِيا هؤلاء اقوم الذي وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود ، قال :
ولم يخص ذلك على وقت دون وقت ، قال : وإذا كان ذلك كذلك ، فذلك على كل الأوقات ،
فكان سِيَامُ الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام ، وذلك خشوعه وهديه وزهده
وسمته ، وآثار أداء فرائضه وتطوعه ، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به ، وذلك الشُّرَّةُ
في الوجه ، والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء وياض الوجوه من أثر السجود . اهـ .
(٣) روى البخاري ومسلم في « صحيحهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال : « إن أمتي يأتون يوم القيامة غُرّاً حَجَّالِينَ من أثر الوضوء » واللفظ لمسلم .

أحدها : أن هذا المثل المذكور أنه في التوراة هو مثلهم في الإنجيل .
 قال مجاهد : مثلهم في التوراة والإنجيل واحد .
 والثاني : أن المتقدم مثلهم في التوراة فأما مثلهم في الإنجيل فهو قوله :
 (كزرع) ، وهذا قول الضحاك ، وابن زيد ^(١) .
 والثالث : أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع ، ذكر هذه الأقوال
 أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (أَخْرِجْ شَطَأَهُ) وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [« شَطَأَهُ »]
 بفتح الطاء والهمزة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي :
 « شَطَأَهُ » بسكون الطاء . وكلهم يقرأ بهمزة مفتوحة . وقرأ أبي بن كعب ،
 وأبو المالية ، وابن أبي عبله [: « شَطَأَهُ » بفتح الطاء [وبالمد] والهمزة وبالف .
 قال أبو عبيدة : أي : فراخه يقال : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئٌ : إذا أفرخ
 (فأزره) أي : ساواه ، وصار مثل الأثم . وقرأ ابن عامر : « فَأَزَرَهُ » مقصورة
 الهمزة مثل فَمَلَهُ . وقال ابن قتيبة : آزره : أعانه وقواه (فاستغلظ) أي :
 غلُظ (فاستوى على سُوقِهِ) وهي جمع « ساق » ، وهذا مثلُ ضربه الله عز وجل
 للنبي ﷺ إذ خرج وحده ، فأيدته بأصحابه ، كما قوى الطائفة من الزرع بما نبت
 منها حتى كبرت ^(٢) وغلُظت واستحكمت . وقرأ ابن كثير : « على سُوقِهِ »
 مهموزة ؛ والباقون : بلا همزة . وقال قتادة : في الإنجيل : سيخرج قومٌ يبنون
 نبات الزرع ^(٣) .

(١) وهو الذي اختار ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما .

(٢) كذا الاصل ، وفي غريب القرآن : حتى كثرت .

(٣) قال ابن كثير : أي : فكَذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزره وأيدوه ونصروه ،

فهم معه كالشطاء مع الزرع .

وفيمن أريدَ بهذا المثل قولان .

أحدهما : أن أصل الزرع : عبد المطلب « أخرج شطاه » : أخرج محمداً ﷺ (فأزره) : بأبي بكر (فاستغظ) : بمر (فاستوى) : بثمان (على سوقه) : علي بن أبي طالب ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس ^(١) .

والثاني : أن المراد بالزرع : محمد ^(٢) ﷺ « أخرج شطاه » : أبو بكر « فأزره » : بمر « فاستغظ » : بثمان « فاستوى على سوقه » : بعلي (يُعْجِبُ الزَّرْعَ) : يعني المؤمنين « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » وهو قول عمر لأهل مكة : لا يُعْبِدُ اللهُ سِيراً بعد اليوم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، ومبارك عن الحسن .

قوله تعالى : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) أي : إنَّما كثَّروهم وقوَّاهم لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وقال مالك بن أنس : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية . وقال ابن إدريس : لا آمَنُ أن يكونوا قد ضارَعوا الكُفَّارَ ، يعني الرافضة ، لأن الله تعالى يقول : « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » ^(٣) .

(١) هذا تأويل بعيد ، وليس تفسيراً لظاهر أفظ القرآن ، وقد ذكر مثل هذا المعنى السيوطي في « الدر » ٨٣/٦ من رواية ابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر عن ابن عباس ، والله أعلم بصحته ، وكذلك الخبر الذي بعد هذا من رواية الضحاك عن ابن عباس ، ومبارك عن الحسن ، والأولى في ذلك أن يكون هذا مثلاً لأصحاب رسول الله ﷺ في الانجيل على العموم ، ولا شك أن هؤلاء أفضل من غيرهم ، فهم داخلون بطريق الأولى .

(٢) في الأصل : « محمداً » .

(٣) ولا يجوز لمسلم أن يظن في الصحابة رضوان الله عليهم ، أو يتعرض لهم بسوء ، أو يضر في قلبه بنصاً لأحد منهم ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدأ أحدهم . ولا نصيفه » وروى مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « أصحابي أمانة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتاهم ما يوعدون » ، أي من القتن .

زاد المسير ٧ م (٢٩)

قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) قال الزجاج : في « مِنْ » قولان .

أحدهما : أن يكون تخليصاً للجنس من غيره ، كقوله : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) [الحج : ٣٠] ، ومثله أن تقول : أنفق من الدرهم ، أي : اجعل نفقتك من هذا الجنس . قال ابن الأنباري : معنى الآية : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ، أي : من جنس الصحابة .

والثاني : أن يكون [هذا] الوعد لمن أقام منهم على الإيمان والعمل الصالح ^(١) .



(١) قال ابن كثير في تمة الآية : (مغفرة) أي لذنوبهم (وأجرًا عظيمًا) أي ثوابًا جزيلاً ، ورزقاً كريماً ، قال : ووعد الله حقاً وصدق ، لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم ، فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد قل . اهـ .

سورة الحجرات

وهي مدنية باجماعهم

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله أعطاني السبع الطول^(١) مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المشاني ، وفضاني ربي بالمفصل^(٢) . أمّا السبع الطول فقد ذكرناها [« عند قوله »]^(٣) :

(١) السبع الطول ، بضم الطاء وفتح الواو ، جمع « الطول » مثل « الكبر » ، و « الكبرى » . قال ابن جرير الطبري : والسبع الطول : « البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس » في قول سعيد بن جبير ، قال : وإنا سميت هذه السور : السبع الطول ، لطولها على سائر سور القرآن . اهـ . وقال ابن كثير : قال سعيد ابن جبير : يثنّ فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام ، وقال ابن عباس يثنّ الامثال والخبر والعبر . اهـ .

(٢) أخرجه البخوي في « التفسير » بإسناد الثعلبي عن ثوبان رضي الله عنه ، وفيه ضعف ، ورواه أحمد في « المسند » ١٠٧/٤ ، و « الطبري » ١٠٠/١ عن وائلة بن الاسقع رضي الله عنه من طريق أبي داود الطيالسي عن أبي العوام عن قتادة عن أبي المليح عن وائلة ، وإسناده صحيح . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٥٨/٧ من حديث وائلة ، وقال : رواه أحمد ، والطبراني بنحوه .

(٣) زيادة ليست في الأصل .

(ولقد آتيناكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) [الحجر : ٨٧] . . وأما المثون ، فقال ابن قتيبة : هي ما ولي الطَّوَل ، وإنما سميتْ بِالمِثْنِ ، لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تُقَارِبُهَا ، والمَثَانِي : ما وَلِيَ المِثْنِ مِنَ السُّورِ التي دون المائة ، كأن المِثْنِ مَبَادٍ ، وهذه مَثَانٍ ، وأما المِفْصَلُ ، فهو ما يلي المَثَانِي مِنْ قِصَارِ السُّورِ ، وإنما سميتْ مُفْصَلًا لِقِصَرِهَا وَكَثْرَةِ الْفُصُولِ فيها بسطر : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

وقد ذكر الماوردي في أول تفسيره في المِفْصَلِ ثلاثة أقوال . أحدها : أنه من أول سورة (محمد) إلى آخر القرآن ، قاله الأكثرون . والثاني : من سورة (قاف) إلى آخره ، حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة . والثالث : من (الضحى) إلى آخره ، قاله ابن عباس ^(١) .

(١) قال ابن كثير في أول سورة (ق) هذه السورة هي أول الحزب المفصل ، وقيل : من (الحجرات) ، قال : وأما ما يقوله المولم : إنه من (عم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء - رضي الله عنهم - المتبرين فيما نعلم ، قال والدليل على أن هذه السورة (يعني سورة « ق ») هي أول المفصل ، ما رواه أبو داود في « سنته » « باب تحزيب القرآن » ثم قال : حدثنا مسدد ، أخبرنا قُرْآن (الأصل : قرأب وهو خطأ) بن تمام - ح - وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، ثنا سليمان بن حبان ، وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن بعل ، عن عثمان ابن عبد الله بن أوس عن جده ، قال عبد الله بن سعيد : حدثني أوس بن حذيفة ، ثم اتفقا ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبه رضي الله عنه ، وأزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبْة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد المشاء يحدثنا ، قال أبو سعيد : قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما بقي من قومه قريش ، ثم يقول ﷺ : « لا سواء » (في ابن كثير : « لا أساء » وفي « تهذيب السنن » « لا أنسى » وكلاهما خطأ) وكنا مستضعفين مستذلين ، —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ

— قال مسدد : بمكة - فلما خرجنا الى المدينة كانت الحرب سجلاً بيننا وبينهم ، فندال عليهم ،
وُبدلون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عنا عليه السلام عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، قتلنا : لقد
أبطأت علينا الليلة ، قال عليه السلام : « إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن ، فكرهت أن أجيء حتى
أتمه » قال أوس (يعني بن حذيفة) سألت أصحاب رسول الله عليه السلام : كيف يجزئون القرآن ؟
فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، واحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل
وحدده . قال ابن كثير : ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر
به . قال : ورواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن - هو
ابن يعلى الطائفي - به . ثم قال ابن كثير : اذا علم هذا ، فاذا عددت ثمانياً وأربعين سورة ،
فالتى بمدنها سورة (ق) ثمان : ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، « وخمس » :
المائدة ، والانعام ، والاعراف ، والانفال ، وبراءة . « وسبع » : يونس ، وهود ، ويوسف ،
والرعد ، وابراهيم ، والحجر ، والنحل . « وتسع » : سبحان ، والكهف ، ومريم ، وطه ،
والانبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان . « واحدى عشرة » : الشراء ، والنمل ،
والقصص ، والضحكوت ، والروم ، ولقمان ، وآلم والسجدة ، والاحزاب ، وسبأ ، وفاطر ،
ويس . « وثلاث عشرة » : الصافات ، وس ، والزمر ، وغافر ، وحسم السجدة ، وحج
عسق ، والزخرف ، والدخان ، والجنات ، والاحقاف ، والفتح ، والحجرات . ثم
بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم ، قال : فتمين أن أوله سورة (ق)
وهو الذي قلنا ، والله الحمد والمنة . اهـ .

بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُسُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِتَتَّقُوا لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرٌ عَظِيمٌ *

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) في سبب نزولها أربعة أقوال ،

أحدها : أَنْ رَكِبْنَا مِنْ بَنِي تَيْمٍ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمِيرُ الْقَعْقَاعِ بْنُ مَعْبُدٍ ، وَقَالَ عُمَرُ : أَمِيرُ الْأَقْرَعِ بْنُ حَابِسٍ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي ، وَقَالَ عُمَرُ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَتَهَارَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصَوَاتُهُمَا ، فَزَلَ قَوْلُهُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » إِلَى قَوْلِهِ : « وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا » ، فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ] حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ ، رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ^(١) .

والثاني : أَنْ قَوْمًا كَذَّبُوا قَبْلَ أَنْ يُبْصَلَّتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ ، فَأَمَرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعِيدُوا الذَّبْحَ ، فَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ الْحَسَنُ ^(٢) .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » ٤٥٤/٨ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ عَنْهُ ، بَابُ : (أَنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُمْ لَا يَعْقِلُونَ) مَا دُونَ قَوْلِهِ : « فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ » فَانَّهُ ذَكَرَهُ فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ ٤٥٢/٨ بَابُ : (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . . .) الْآيَةُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي مَلِيكَةَ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ ، يَرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . . .) الْآيَةُ . وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي « أَسْبَابِ النُّزُولِ » ٢١٨ بِسَنَدِهِ ، دُونَ قَوْلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ : « فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ » وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرَجَاتِ » ٨٣/٦ بِنَحْوِهِ مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ ، وَزَادَ نُسْبَتَهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ ، وَإِنْ مَرَدُّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) ذَكَرَهُ الطَّائِبِيُّ عَنِ الْحَسَنِ بِغَيْرِ سَنَدٍ ١١٧/٢٦ وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرَجَاتِ » ٨٤/٦ : وَزَادَ نُسْبَتَهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ ، وَإِنْ الْمُنْذَرُ عَنِ الْحَسَنِ .

والثالث : أنها نزلت في قوم كانوا يقولون : لو أنزل الله في كذا وكذا فكره الله ذلك ، وقدّم فيه ، قاله قتادة ^(١) .

والرابع : [أنها] نزلت في عمرو بن أمية الضمري ، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله ﷺ ، قاله ابن السائب ^(٢) . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ^(٣) . وروى العوفي عنه قال : «نُهِوا أن يتكلموا بين يدي كلامه» ^(٤) . وروى عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم ^(٥) . ومعنى الآية على جميع الأقوال . لا تمجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل . قال ابن قتيبة : يقال فلان يُقدّم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه ، أي : يُعجّل بالأمر والنهي دونه .

فأما « تُقدّموا » فقرأ ابن مسعود ، وأبو هريرة ، وأبو رزين ، وطائفة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والضحاك وابن سيرين ، وقاتدة ، وابن يعمر ، ويعقوب : بفتح التاء والذال ؛ وقرأ الباقر : بضم التاء وكسر الدال . قال الفراء :

(١) رواه الطبري ١٩٧/٢٦ عن قتادة ، وذكره السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ وزاد نسبه لبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٢) ذكره الآوسي بمناه بغير سند ولم يعزه لاحد .

(٣) رواه الطبري ١١٦/٢٦ وذكره السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٤) « الطبري » ١١٦/٢٦ وذكره السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٥) ذكره السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ من رواية الطبراني في « الأوسط » وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها .

كلاهما صواب ، يقال : قَدِمْتُ ، وَتَقَدَّمْتُ ؛ وَقَالَ الرَّجُلُ : كِلَاهُمَا وَاحِدٌ ؛ فَأَمَّا « بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فهو عبارة عن الأمام ، لأن ما بين يَدَيِ الْإِنْسَانِ أَمَامَهُ ؛ فَاْلَمْحَى : لَا تَقْدَمُوا قُدَّامَ الْأَمِيرِ .

قوله تعالى : (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أبا بكر وعمر رفعاً أصواتهما فيما ذكرناه آنفاً في حديث ابن الزبير ، وهذا قول ابن أبي مليكة ^(١) .

والثاني : [أنها] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان جهنوري الصَّوْت ، فربما كان إذا تكلم ناذى رسولُ اللَّهِ ﷺ بصوته ، قاله مقاتل ^(٢) .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » ٤٥٢/٨ بَاب (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...) الْآيَةِ ، مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ أَبِي مِلْكِةَ قَالَ : كَادَ الْحَيَّرَانِ أَنْ يَهْلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكِبَ بَنِي تَيْمٍ ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي جَاشَعٍ ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ ، قَالَ نَافِعٌ : لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : مَا أَرَدْتُ إِلَّا خِلَافِي ، قَالَ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ ، فَأَنزَلَ اللَّهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ...) الْآيَةَ ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ ، بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ . هـ . وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ : وَمَا ذَكَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ جَدَّهُ ، بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ . هـ . وَالحديث أورده السيوطي في « الدرر » ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر ، والطبراني عن ابن أبي مليكة .

(٢) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي « أَسْبَابِ النَّزُولِ » ٢١٨ بِفَيْرِ سَنَدٍ ، وَلَمْ يَرْوِهِ لِأَحَدٍ . وَحَدِيثُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » ٤٥٤/٨ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ ، فَأَنَامَ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مَنكَسًا رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : شَرٌّ ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَتَى الرَّجُلَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذِبًا وَكَذِبًا ، فَقَالَ مُوسَى (بَعَثَ ابْنُ أَنَسٍ) فَرَجَعَ —

قوله تعالى : (ولا تجهروا له بالقول) فيه قولان .

أحدهما : أن الجهر بالصوت في مخاطبة ، قاله الأكثرون .

والثاني : لا تدعوه باسمه : يا محمد ، كما يدعو بعضهم بعضاً ، ولكن قولوا : يا رسول الله ، وبإني الله ، وهو معنى قول سعيد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل .
قوله تعالى : (أن تحبّط) قال ابن قتيبة : لثلاث تحبّط . وقال الأخفش : مخافة أن تحبّط . قال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل معنى الاحباط هاهنا : نقص المنزلة ، لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر .

قوله تعالى : (إن الذين يَغْمُضُونَ أصواتهم) قال ابن عباس : لما نزل قوله : « لا ترفعوا أصواتكم » نالني أبو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار ، فأنزل الله في أبي بكر : « إن الذين يَغْمُضُونَ أصواتهم » ، والنقص : النقص^(١) كما يدلُّنا عند قوله : (قل للمؤمنين يغْمضوا) [النور : ٣٠] .

— إليه مرة الآخرة بشارة عظيمة ، فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكذك من أهل الجنة » . ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ وزاد نسبه لأحمد ، وأبي يعلى في « معجم الصحابة » وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه والبيهقي في « الدلائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٩٩ عن ابن عباس بغير سند ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشف » : وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال : لما نزل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) قلت : يا رسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله ، قال : وأخرجه الحاكم والبيهقي في « المدخل » من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت (الذين يغْمضون . .) الآية ، قال أبو بكر : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(أَوَانِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَخْلَصَهَا (لِلتَّقْوَى)
 مِنَ الْمَصِيئَةِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : اخْتَبَر قُلُوبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ مُخْلِصِينَ ، كَمَا تَقُولُ : قَدْ امْتَحَنْتَ
 هَذَا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، أَيِ : اخْتَبَرْتَهُمَا بِأَن أَدْبَهَا حَتَّى خَلَصَهَا ، فَعَلِمْتَ حَقِيقَةَ كُلِّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : اخْتَبَرَهَا بِامْتِحَانِهِ لِإِيَّاهَا ، فَاصْطَفَاهَا وَأَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى .
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ آمِينَ وَرَاءَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) فِي سَبَبِ نَزُولِهَا
 ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّ بَنِي تَيْمٍ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَادَوْا عَلَى الْبَابِ : يَا مُحَمَّدُ
 اخْرُجْ إِلَيْنَا ، فَإِنَّ مَدْحَنَا زَيْثُنَ وَإِنْ دَمْنَا شَيْئًا ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : « إِنَّمَا
 ذَلِكَمُ اللَّهُ » ، فَقَالُوا : نَحْنُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ جِئْنَا بِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا نَشَاعِرُكَ
 وَنَفَاخِرُكَ ، فَقَالَ : « مَا بِالْشُعْرِ بُعِثْتُ وَلَا بِالْفَضَارِ أُمِرْتُ » ، وَلَكِنْ هَاتُوا ،
 فَقَالَ الزُّبْرَقَانُ بْنُ بَدْرٍ لَشَابَةِ مِنْهُمْ : قُمْ فَاذْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ ، فَقَامَ
 فَذَكَرَ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ، فَأَجَابَهُ ، وَقَامَ شَاعِرُهُمْ ،
 فَأَجَابَهُ حَسَانٌ ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْأَمْرُ ؟ انْكَلِمْ
 خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أَحْسَنَ قَوْلًا ، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ أَشْعَرَ ، ثُمَّ
 دَنَا فَأَسْلَمَ ، فَأَعْطَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَسَاهُمُ ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَكَثُرَ
 اللَّخْطُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي
 آخِرِينَ ^(١) . وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : نَزَلَتْ فِي جُفَاءَةِ بَنِي تَيْمٍ ، وَكَانَ فِيهِمُ الْأَقْرَعُ

(١) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي « سَبَابِ النَّزُولِ » ، ٢٢٠ مَطْوَلًا ، مِنْ رَوَايَةِ مَالِكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ —

ابن حابس ، وعينة بن حصن ، والزرقان بن بدر ، [وقيس بن عاصم المنقري] ،
وخالد بن مالك ، وسويد بن هشام ، وهما نهشليان ، والقمقاع بن معبد ، وعطاء
ابن حابس ، ووكيع بن وكيع ^(١) .

والثاني : أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى بني النضير ، وأمر عليهم
عينة بن حصن الفزاري ، فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم ، فسبهم عينة ،
فجاء رجالهم يفتقدون الداراري ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ قائل ،
فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه ، فنزلت هذه الآية ، قاله
ابن عباس ^(٢) .

والثالث : أن ناساً من العرب قال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ،
فإن يكن نبياً نكن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكاً نكس في جناحه ، فجاءوا ،
فجعلوا ينادون يا محمد ، يا محمد ، فنزلت هذه الآية ، [قاله زيد بن أرقم] ^(٣) .

فأما « الحجرات » فقرأ أبي بن كعب ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ،
ومجاهد وأبو العالية ، وابن عمر ، [وأبو جعفر ، وشيبة] : بفتح الجيم ؛ وأسكنها
أبرزين ، وسعيد بن المسيب ، وابن أبي عتبة ؛ وضما الباقون . قال الفراء : وجه

— عبد الحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر بن عبد الله ، وفي سنده معلى بن
عبد الرحمن الواسطي ، ضعفه الدارقطني وغيره ، وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٩ عن محمد بن إسحاق بغير سند .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « تخرج الكشاف » أخرجه ابن مردويه من رواية إسحاق
عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وهو استناد قالف .

(٣) رواه الطبري ١٢١/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدرر » ٨٦/٦ وزاد نسبه لابن راهويه ،
ومسند ، وأبي يعلى ، والطبراني ، وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم ، وبمض العرب يقول : الحُجُرَات والرُّكَبَات ، وربما خَفَّفُوا فقالوا : « الحُجَرَات » ، والتخفيف في تيم ، والتثنية في أهل الحجاز . وقال ابن قتيبة : واحد الحُجُرَات حُجْرَةٌ ، مثل ظُلْمَةٍ وظُلُمَاتٍ . قال المفسرون : وإنما نادَوْا من وراء الحُجَرَات ، لأنهم لم يعلموا في أيِّ الحُجَرِ رسولُ الله .

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) قال الزجاج : أي : لكان الصَّبرُ خيراً لهم . وفي وجه كونه خيراً لهم قولان . أحدهما : لكان خيراً لهم فيما قَدِمُوا له من فداء ذراريهم ، فلصَّبروا خلَّى سبيلهم بغير فداء ، قاله مقاتل .

والثاني : لكان أحسنَ لآدابهم في طاعة الله ورسوله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي : لمن تاب منهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنِّ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) نزلت في الوليد بن عتبة ،

بمنه رسولُ الله ﷺ إلى بني المصطلق ليَقْبِضَ صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عدواة في الجاهلية ، فسار بعض الطريق ، ثم خاف فرجع فقال : إنهم قد مننوا

الصدقة وأرادوا قتلي ، فصرف رسولُ الله ﷺ البعْثَ إليهم ، فنزلت هذه الآية ^(١) . وقد ذكرتُ القصد في كتاب « المُلغني » وفي « الحقائق » مستوفاة ، وذكرتُ معنى « فتبينوا » في سورة (النساء : ٩٤) ، والنَّبَأُ : الخبر ، و« أن » بمعنى « لئلا » ، والجهالة هاهنا : أن يجهل حال القوم ، (فتصبرحوا على ما فعلتم) من إصابتهم بالخطأ (نادمين) .

ثم خوفهم فقال : (واعلموا أن فيكم رسولَ الله) أي : إن كذبتموه أخبره الله فافتضحتم ، ثم قال : (لو يُطِيعُكُمْ في كثيرٍ من الأمر) أي : مما تجربونه فيه بالباطل (لعنتيم) أي : لو قمتم في عنتٍ . قال ابن قتيبة : وهو الضرر والفساد . وقال غيره : هو الإثم والهلاك . وذلك أن المسلمين لما سمعوا أن أولئك القوم قد كفروا قالوا : ابعثْ إليهم يارسولَ الله واغزهم واقتلهم ؛ ثم خاطب المؤمنين فقال : (ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمان) إلى قوله : (والعصيان) ، ثم ماد إلى الخبر عنهم فقال : (أولئك هم الراشدون)

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٢ بغير سند ، ورواه الطبري من حديث أم سلمة ، وفي مسنده موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، ورواه أحمد في « المسند » من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : رواه ابن اسحاق ، والطبراني من حديث أم سلمة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف . قال : ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي . وأخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر . قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، قال : ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد في « مسنده » من رواية ملك بن المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها ، ثم قال : وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حبان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة ، والله أعلم .

أي : المهتدون إلى محاسن الأمور ، (فضلاً من الله) قال الزجاج : المعنى :
ففعل بكم ذلك فضلاً ، أي : للفضل والنعمة .

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَانِبُوهَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ ...) الآية ، في سبب نزولها قولان .

أحدهما : ما رواه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك قال : قيل لرسول الله ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبيّ ، فركب حملاً وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلما أتاه النبي ﷺ ، قال : إليك عني ، فوالله لقد آذاني تشن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجرید والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم « وَإِنْ طَائِفَتَانِ ... » الآية ^(١) . وقد أخرجنا جميعاً من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عباد ، فمر بمجلس فيهم عبد الله بن أبيّ ، وعبد الله بن رواحة ، فحمر ابن أبيّ وجهه بردائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فذكر الحديث ، وأن

(١) رواه البخاري ٢١٨/٥ ، ومسلم ١٤٢٤/٣ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩٠/٦ ، والحديث رواه أيضاً أحمد في « المسند » وابن جرير الطبري في « التفسير » ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩٠/٤ ، وزاد نسبه لابن النذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

المسلمين والمشركين واليهود استنبوا^(١) . وقد ذكرت الحديث بطوله في « المنى » و « الحقائق » . وقال مقاتل : وقف رسول الله ﷺ على الأنصار وهو على حمار له ، فبال الحمار ، فقال عبد الله بن أبيّ : أف ، وأمسك على أنفه ، فقال عبد الله بن رواحة : والله لَهَوَ أطيبُ ريحاً منك ، فكان بين قوم ابن أبيّ وابن رواحة ضرب بالنعال والأيدي والسَّعَف ، ونزلت هذه الآية .

والقول الثاني : أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُماراة في حقّ بينهما ، فقال أحدهما : لَأَخْذَنَّ حَتَّى عَنَوَ ، وذلك لكثرة عشيرته ، ودماه الآخر لِحَاكَمِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، قاله قتادة^(٢) . وقال مجاهد : المراد بالطائفتين : الأوس والخزرج ؛ اقتتلوا بالمصي بينهم . وقرأ أبيّ بن كعب ، وابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « اقتتلا » على فعل اثنين مذكّرين . وقرأ أبو التوكل الناجي ، وأبو الجون ، وابن أبي عتبة : « اقتتلتا » بتاء وألف بعد اللام على فعل اثنين مؤنثتين . وقال الحسن و قتادة والسدي (فأصلحوا بينهما) بالدماء إلى حكم كتاب الله عز وجل والرضى بما فيه لهما وعليهما (فان بغت إحداهما) طلبت ما ليس لها ، ولم ترجع إلى الصلح ، (فقَاتِلُوا الَّتِي تَبْنِي حَتَّى تَفِيءَ) أي : تَرْجِعْ (إلى أمر الله) أي : إلى طاعته في الصلح الذي أمر به .

(١) رواه البخاري ١٧٣/٨ ، ومسلم ١٤٢٤/٣ .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » ٩٠/٦ من رواية عبد بن حميد ، وابن جرير ،

وابن المنذر ، عن قتادة قال : « ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مَماراة ... الخ .

قوله تعالى : (وَأَنْسِطُوا) أي : اعدلوا في الإصلاح بينهما ^(١) .

قوله تعالى : (إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) قال الزجاج : إذا كانوا متفقين في دينهم رجعوا باتفاقهم إلى أصل النسب ، لأنهم لآدم وحواء ، فإذا اختلفت أديانهم اختلفوا في النسب ^(٢) .

قوله تعالى : (فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْيَبَكُم) قرأ الآكثرون : [« بَيْنَ أَخْيَبِكُمْ »] بيا على التثنية . وقرأ أبي بن كعب ، ومعاوية ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، [وقناة] ، وأبو الماية ، وابن يعمر ، وابن أبي عملة ، ويعقوب : « بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ » بناء مع كسر الهزة على الجمع . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشمسي ، وابن سيرين : « بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ » بالنون وألف قبلها . قال قناة : يعني بذلك الأوس والخزرج .

(١) وتتم الآية (إن الله يحب المقسطين) أي : إن الله يحب الماديين في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالقسط وهو العدل ، وروى مسلم في « صحيحه » ١٤٥٨/٣ عن عبد الله بن عمرو ابن الماص رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلنا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُطئوا » .

(٢) قال ابن كثير ، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) أي الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسله » وفي الصحيح « والله في عون المبدما كان في عون أخيه » وفي « الصحيح » أيضاً : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثله » والأحاديث في هذا كثيرة قال : وفي « الصحيح » « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسحر والهر » . وفي « الصحيح » أيضاً : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ﷺ . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُمُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِثَسِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) هذه الآية نزلت على ثلاثة أسباب ؛ فأما أولها إلى قوله تعالى : (خيراً منهم) فنزلت على سبب ، وفيه قولان . أحدهما : أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوماً يريد الدُّنُوَّ من رسول الله ﷺ ، وكان به صمم ، فقال لرجل بين يديه : افسح ، فقال له الرجل : قد أصبت مجلساً ، فجلس مُغَضَّباً ، ثم قال للرجل : من أنت ؟ قال : أنا فلان . فقال ثابت : أنت ابن فلانة !! فذكر أمّا له كان يعير بها في الجاهلية ، فأغضى الرجل ونكس رأسه ، ونزل قوله تعالى : (لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ) ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ^(١) .

والثاني : أن وفد تبعم استهزؤوا بفقره أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا من رثائه حالهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك ومقاتل ^(٢) . وأما قوله تعالى : (وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءٍ) فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ، ٢٢٣ بنير سند ولم يزمه لأحد . وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند . وقال الحافظ بن حجر في « تخريج الكشاف » ، ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بنير سند .

(٢) ذكره البغوي والخازن عن الضحاك بنير سند . وأورده السيوطي في « الدرر » ، ٩١/٦ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل .

أحدها : أن نساء رسول الله ﷺ عيَّرن أمَّ سلمة بالقِصر ، فنزلت هذه [الآية] ، قاله أنس بن مالك ^(١) . وزعم مقاتل أن عائشة استهزأت من قِصر أمِّ سلمة .

والثاني : أن امرأتين من أزواج رسول الله ﷺ سَخِرنا من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، وكانت أم سلمة قد خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها على حَقْوِها ، وأرخت الطرف الآخر خلفها ، ولا تعلم ، فقالت إحداها للآخرى : انظري ما خَلَفَ أم سلمة كأنه لسان كلب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ^(٢) .

والثالث : أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : إن النساء يعيِّرني ويقولن : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلَا قُلْتُ : إن أبي هارون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد ، فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس ^(٣) .

وأما قوله تعالى : (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة ولهم ألقاب يُدْعَوْنَ بها ، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه ، فقيل له : يا رسول الله : إنهم يكرهون هذا ، فنزل

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » عن أنس بن مالك بغير سند ، وكذلك البغوي والغازن .

(٢) ذكره الآلوسي بغير سند ولم يمهز لأحد .

(٣) ذكره البغوي والغازن في « التفسير » والواحدي في « أسباب النزول » عن عكرمة

عن ابن عباس بلا سند .

قوله تعالى : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » ، قاله أبو جيرة بن الضحاك ^(١) .

والثاني : أن أباذر كان بينه وبين رجل منازعة ، فقال له الرجل : يا ابن اليهودية ، فزلت : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » ، قاله الحسن .

والثالث : أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حذردد الأسلمي كلام ، فقال له : يا أعرابي ، فقال له عبد الله : يا يهودي ، فزلت فيها « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » قاله مقاتل .

وأما التفسير ، فقوله تعالى : (لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) أي : لا يستهزئ غني بفقر ، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يُستر عليه ، ولا ذو حَسَبٍ بثيم الحَسَبِ ، وأشبه ذلك مما ينتقص به ، عسى أن يكون عند الله خيراً [منه] . وقد يئتنا في (البقرة : ٥٤) أن القوم اسم الرجال دون النساء ، ولذلك قال : « وَلَا نِسَاءَ مِنْ نِسَاءٍ » و « تَلْمِزُوا » بمعنى تَمَيَّبُوا ، وقد سبق يسانه [التوبة : ٥٨] . والمراد بِالْأَنْفُسِ هاهنا : الإخوان . والمعنى : لَا تَمَيَّبُوا إِخْوَانَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ كَأَنْفُسِكُمْ . والتنازع : التفاعل من التَّبَزَّ ، وهو مصدر ، والتَّبَزَّ الاسم . والألقاب جمع لقب ، وهو اسم يُدعى به الإنسان سوى الاسم الذي سَمِّيَ به . قال ابن قتيبة : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » أي : لَا تَتَدَاعَوْا بِهَا . و « الْأَلْقَابِ » و « الْأَتْبَازِ » واحد ، ومنه

(١) رواه الترمذي ١٥٩/٢ وقال : حديث حسن ، ورواه الطبري ١٣٢/١٦ ، والواحدي في « أسباب النزول » ، وأورده السيوطي في « الدر » ٩١/٦ وزاد نسبه لأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، والبغوي في « معجمه » ، وابن حبان ، والشيرازي في « الألقاب » ، والطبراني ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي جيرة بن الضحاك .

الحديث : « نَبَزُومُ الرَّافِضَةِ » أي : لِقَبُّهُمْ ^(١) . وللمفسرين في المراد بهذه الألقاب أربعة أقوال .

أحدها : تمييز الثائب بسيئات قد كان عملها ، رواه عطية الموفى عن ابن عباس ^(٢) .

والثاني : أنه تسميته بمد إسلامه بدينه قبل الإسلام ، كقوله لليهودي إذا أسلم : يا يهودي ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ^(٣) ، وبه قال الحسن ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء الخراساني ، والقرظي .

والثالث : أنه قول الرجل للرجل : يا كافر ، يا منافق ، قاله عكرمة ^(٤) .

والرابع : أنه تسميته بالأعمال السيئة ، كقوله : يا زاني ؛ يا سارق ، يا فاسق ، قاله ابن زيد ^(٥) . قال أهل العلم : والمراد بهذه الألقاب : ما يكرهه المنادي به ، أو يُعَدُّ ذمّاً له . فأما الألقاب التي تكسب حمداً وتكون صدقاً ، فلا تُنكره ، كما قيل لأبي بكر : عتيق ، ولعمر : فاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلي : أبو تراب ،

(١) قال ابن قتيبة في « غريب القرآن » : ومنه قيل في الحديث : « قوم نَبَزُومُ الرَّافِضَةِ ، أي لِقَبُّهُمْ ، قال الفقيه شهاب الدين أحمد بن حجر الميمني في مقدمة كتابه « الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والضلالة » ، أخرج الدارقطني عن علي عن النبي ﷺ : « سيأتي من بمدى قوم لهم نَبَزٌ يقال لهم : الرافضة . . . » الحديث ، ولم نثر عليه ، والله أعلم بصحته .

(٢) « الطبري » ٢٦/١٣٣ .

(٣) ذكره الطبري ٢٦/١٣٣ عن الحسن ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩١/٦ من رواية عبد الرزاق عن الحسن .

(٤) « الطبري » ٢٦/١٣٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩١/٦ وزاد نسبه لبدين حميد ، وابن المنذر عن عكرمة .

(٥) « الطبري » ٢٦/١٣٣ .

ونحو ذلك ، ونحو ذلك . وقوله : (بئس الاسمُ الفُسوق) أي : تسميته فاسقاً أو كافراً وقد آمن ، (ومن لم يَتُب) من التَّائِبُز (فأولئك هم الظالمون) وفيه قولان .

أحدهما : الضارُّون لأنفسهم بمصيبتهم ، قاله ابن عباس . والثاني : هم أظلم من الذين قالوا لهم ذلك ، قاله ابن زيد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَمَعْزُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (اجتنبوا كثيراً من الظَّنِّ) قال ابن عباس : نهى الله تعالى المؤمن أن يظُنَّ بالمؤمن شراً . وقال سعيد بن جبير : هو الرجل يسمع من أخيه كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخل مَدْخِلاً لا يريد به [سوءاً] ^(١) ، فيراه أخوه المسلم فيظُنُّ به سوءاً . وقال الزجاج : هو أن يظُنُّ بأهل الخير سوءاً . فأما أهل السوء والفسق ، فلنا أن نَظُنُّ بهم مثل الذي ظهر منهم . قال القاضي أبو يعلى : هذه الآية تدل على أنه لم يُنَّه عن جميع الظَّنِّ ؛ والظَّنُّ على أربعة أضرب . محذور ، ومأمور به ، ومباح ، ومنذوب إليه ، فأما المحذور ، فهو سوء الظن بالله تعالى ، والواجب : حُسْنُ الظنِّ بالله ^(٢) ، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم المدالةُ محذور ^(٣) ، وأما الظن المأمور به ، فهو ما لم ينصب عليه

(١) زيادة ليست في الأصلين .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » ٢٢٠٦/٤ عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

(٣) روى البخاري ومسلم في « صحيحهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ —

دليل يوصل إلى العلم به ، وقد تُعْبِدُنَا بِتَنْفِيزِ الْحُكْمِ فِيهِ ، والاقتصار على غالب الظن ، وإجراؤه الحكم عليه واجب ، وذلك نحو ما تُعْبِدُنَا به من قبول شهادة المدول ، وتحريمي القبلة ، وتقويم المستهلكات ، وأرواح الجنائيات التي لم يرد بمقاديرها توقيف ، فهذا وما كان من نظائره قد تُعْبِدُنَا فِيهِ بِأحكام غالب الظنون . فأما الظن المباح ، فكالثالث في الصلاة إذا كان إماماً ، أمره النبي ﷺ بالتحريم والعمل على ما يغلب في ظنّه ، وإن فعله كان مباحاً ، وإن عدل عنه إلى البناء على اليقين كان جائزاً وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تَحَقُّقُوا » ، ^(١) ، وهذا من الظن الذي يَعرِض في قلب الإنسان في أخيه فيما يوجب الرّيبه ، فلا ينبغي له أن يحقّقه . وأما الظن المندوب إليه ، فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يُنْدَب إليه ويُنْتاب عليه . فأما ما روي في الحديث : « احترسوا من الناس بسوء الظن » ^(٢) ، فالمراد : الاحتراس بحفظ المال ، مثل أن يقول : إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السرّاق .

— قال : « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ، ولا تناجسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تداربوا ، وكونوا عباد الله إخواناً . »

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » من رواية الطبراني ، ولفظه بتمامه : « ثلاث لازيات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن ، قال رجل : وما يذهبن يارسول الله عنهن فيه ؟ قال ﷺ : « إذا حسدت فاستغفر ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فأمض » ، وأورده الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧٨/٨ وقال : رواه الطبراني ، وفيه اسماعيل بن قيس الأنصاري ، وهو ضعيف .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » وابن عدي من حديث بقية بن الوليد عن معاوية بن يحيى عن سليمان بن سليم عن أنس مرفوعاً ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨٦/٨ : بقية بن الوليد مدلس ، وبقية رجاله ثقات ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » : قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : أخرجه الطبراني في « الأوسط » من طريق أنس ، وهو —

قوله تعالى : (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) قال المفسرون : هو ما تكلم به مما ظنَّه من الشؤء بأخيه المسلم ، فإن لم يتكلَّم به فلا بأس ، وذهب بعضهم إلى أنه يأثم بنفس ذلك الظن وإن لم ينطِق به .

قوله تعالى : (وَلَا تَجَسَّسُوا) وقرأ أبو رزين ، والحسن ، والضحاك ، وابن سيرين ، وأبو رجا ، وابن عمر : بالحاء . قال أبو عبيدة : التجسس والتجسس واحد ، وهو التَّبَحُّث ، ومنه الجاسوس . وروي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : التجسس ، بالجيم : البحث عن عورات الناس ، وبالحاء : الاستماع لحديث القوم . قال المفسرون : التجسس : البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم ؛ فالمعنى : لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطَّلِع عليه إذ ستره الله . وقيل لابن مسعود : هذا الوليد ابن عقبة تقطر لحيته خمرأ ، فقال : إنا نُهيننا عن التجسس ، فإن يَظهر لنا شيء نأخذُه به .

قوله تعالى : (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا) أي : لا يتناول بعضكم بعضاً بظَهَر الغَيْب بما يَسُوؤُه . وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سئل ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » . قال : أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول . قال : « إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » ^(١) .

— من رواية بقية بالمنعة ، عن معاوية بن يحيى وهو ضعيف ، فله علتان . قال : وصح من قول مطرف ، أخرجه مسدد . وقال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : رواه أحمد في « الزهد » والبيهقي في « السنن » وغيرهما ، كلاهما من قول مطرف بن الشخير أحد التابعين . اهـ والحديث غالف للأحاديث الصحيحة التي يأمر فيها النبي ﷺ المسلمين بأن لا يسيئوا الظن بأخوانهم ، منها قوله ﷺ في الحديث الذي تقدم : « إياكم والظن ... » الحديث ، ولا تستقيم العاملة مع الناس على إسامة الظن بهم .

(١) رواه أبو داود في « سنته » رقم (٤٨٧٤) والترمذي في « جامعه » ١٥/٢ وقال : —

ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ مَثَلًا ، فَقَالَ : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) وَقَرَأَ نَافِعٌ « مَيْتًا » بِالتَّشْدِيدِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَيَأْنَهُ أَنْ ذَكَرَكَ بِسَوْءِ مَنْ لَمْ يَحْضُرْ ، بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ لَحْمِهِ وَهُوَ مَيْتٌ لَا يُحْسِبُ بِذَلِكَ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بِلَى : وَهَذَا تَأْكِيدُ تَحْرِيمِ النَّبِيِّ ، لِأَنَّهُ أَكَلَ لَحْمَ الْمُسْلِمِ مُحْظُورٌ ، وَلِأَنَّ النَّفْسَ تَعَاقُفُهُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبْعِ ، فَيُذْنِي أَنْ تَكُونَ النَّبِيُّ بِمَنْزِلَتِهِ فِي الْكَرَاهَةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَكْرِهْتُمُوهُ) وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ ، وَعَاصِمُ الْجَعْدَرِيُّ : « فَكْرِهْتُمُوهُ » بَرَفْعِ الْكَافِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ . قَالَ الْفَرَّاءُ : أَيُ : وَقَدْ كَرِهْتُمُوهُ فَلَا تَفْعَلُوهُ ، وَمَنْ قَرَأَ « فَكْرِهْتُمُوهُ » أَيُ : فَقَدْ بُقِضَ إِلَيْكُمْ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَالْمَعْنَى : كَمَا تَكْرَهُونَ أَكْلَ لَحْمِ مَيْتًا ، فَكَذَلِكَ تَجْتَنِبُوا ذِكْرَهُ بِالسَّوْءِ غَائِبًا . قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ) أَيُ : فِي النَّبِيِّ (إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ) عَلَى مَنْ تَابَ (رَحِيمٌ) بِهِ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

— هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن جرير ١٣٧/٢٦ . وأورده السيوطي في « الدرر » ٩٤/٦ وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه مسلم في « صحيحه » ٢٠٠١/٤ ولفظه : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما النبوة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » . أي : قلت فيه البهتان ، وهو الباطل .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله : (لا يسخر قومٌ من قوم) [الحجرات : ١١] ^(١) .

والثاني : أنه لما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالاً فصعد على ظهر الكعبة فأذّن ، وأراد أن يذلل المشركين بذلك ، فلما أذّن ، قال عتاب بن أسيد : الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يكفره الله شيئاً يغيره ، وقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئاً ، فأتيت إن قلت شيئاً لتشهدن علي الساء ، ولتخبرن عني الأرض ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل ^(٢) .

والثالث : أن عبداً أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ ، ثم قبض فتولّى غسله وتكفينه ودفنه ، فأنكر ذلك عند الصحابة ، فنزلت هذه الآية ، قاله يزيد ابن شجرة ^(٣) . فأما المراد بالذكور والائمه ، فأدم وحواء . والمعنى : إنكم تتساوون في النسب ؛ وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب . فأما الشعوب ، فهي جمع شعب . وهو الحي العظيم ، مثل مضر وريعة ، والقبائل دونها ، كبكر من ربيعة ، وتيم من

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٣ بلا سند ، ولم يزه لأحد ، وذكره البقوي والخازن عن ابن عباس بلا سند أيضاً . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ذكره الثعلبي ومن قبله عن ابن عباس بغير سند .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٤ عن مقاتل .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٥٩ : هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند .

مضر ، هذا قول الجمهور من المفسرين وأهل اللغة . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالشعوب : الموالي ، والقبائل : العرب . وقال أبو رزين : الشعوب : أهل الجبال الذين لا يَعتَزُونَ لأحد ، والقبائل : قبائل العرب . وقال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل : إن القبائل هي الأصول ، والشعوب هي البُطون التي تنشعب منها ، وهذا ضد القول الأول .

قوله تعالى : (لَتَعَارَفُوا) أي : لَيَعْرِفَ بعضكم بعضاً في قُرب النسب وبُعده . قال الزجاج : المعنى : جعلناكم كذلك لتعارفوا ، لا لتفاخروا . ثم أعلمهم أن أرفعهم عنده منزلة أتقاهم وقرأ أبي بن كعب . وابن عباس ، والضحاك ، وابن عمر ، وأبان عن عاصم : « لَتَعْرِفُوا » بأسكان العين وكسر الراء من غير ألف . وقرأ مجاهد ، وأبو المتوكل ، وابن محيصن : « لَتَعَارَفُوا » بتاء واحدة مشددة وبألف مفتوحة الراء مخففة . وقرأ أبو نهيك ، والأعمش : « لَتَتَرَفُوا » بتاءين مفتوحة الراء وبتشديد هاء من غير ألف .

قوله تعالى : (إِنْ أَكْرَمَكُمْ) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء : « أَنْ » بفتح الهمزة قال الفراء : من فتح « أَنْ » فكأنه قال : لتعارفوا أَنْ الكريمِ التَّيِّبِ ، ولو كان كذلك لكانت « لَتَعْرِفُوا » ، غير أنه يجوز « لَتَعَارَفُوا » على معنى : ليعرف بعضكم بعضاً أَنْ أكرمكم عند الله اتقاهم ^(١) .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى (إِنْ أَكْرَمَكُمْ عند الله اتقاهم) أي : إفا تفاضلون عند الله تعالى بالتقوى ، لا بالأحساب . قال : وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله اتقاهم » ، وروى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إِنْ الله لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ، وروى أبو داود في « سننه » ، والترمذي وحسنه عن أبي هريرة —

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا) قال مجاهد : نزلت في أعراب بني أسد ابن خزيمة . ووصف غيره حالهم ، فقال : قدِموا المدينة في سنة مُجَدِّبَةٍ ، فأظهروا

— رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (كِبَرَهَا وَنَحْوَهَا) وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ ، مُؤْمِنٌ قَتِي ، وَفَاجِرٌ شَقِي ، أَتَمُّ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، لَيْدَعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَمَ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحَمٌ مِنْ فَحَمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بَأَنْفُسِهَا النَّتَنَ » .

وروى أحمد في « المسند » بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا أَنْ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَجْمَعِي ، وَلَا لِعَجْمِي عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالْقُوَى » ، ثم قال ابن كثير في تلميح الآية : (إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أي عَلِيمٌ بِكُمْ ، خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَبِرَحْمٍ مِنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَبِفَضْلٍ مِنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، قَالَ : وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الطَّلَاءِ إِلَى أَنَّ الْكَفَاةَ فِي الذِّكَاكِ لَا تَشْتَرِطُ ، وَلَا يَشْتَرِطُ سِوَى الدِّينِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) قُلْتُ : وَيُزِيدُهُ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ « إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَاتَهُ فَرُوجُهُ إِلَّا تَقَلُّوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيسٌ ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

الإسلام ولم يكونوا مؤمنين ، وأفسدوا طرق المدينة بالمذرات ، وأغدوا أسعارهم ، وكانوا يَمْشُونَ على رسول الله ﷺ فيقولون : أتيناك بالانتمال والتميل ، ولم نُقَاتِلْكَ ، فنزلت فيهم هذه الآية ^(١) . وقال السدي : نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار [وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة (الفتح)] وكانوا يقولون : آمنا بالله ، ليأمنوا على أنفسهم [، فلما استنَفَرُوا إلى الحديبية تخلفوا ، فنزلت فيهم هذه الآية ^(٢) . وقال مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، فكانوا إذا مرَّت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دماءهم وأموالهم ، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم يَنْفِرُوا معه .

قوله تعالى : (قُلْ كَمْ تَؤْمِنُوا) أي : كَمْ تُصَدِّقُوا (ولكن قولوا أسلمنا) قال ابن قتيبة : أي : استسلمنا من خوف السيف ، وانقذنا . قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخضوع والقبول لما أتى به رسول الله ﷺ ، وبذلك يُحَقِّقَنَّ الدِّمَ ، فإن كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الإيمان ، فأخرج الله هؤلاء من الإيمان بقوله : (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي : كَمْ تُصَدِّقُوا ، إنما أسلمتم نعوذاً من القتل . وقال مقاتل : « ولما » بمعنى « ولم » يدخل التصديق في قلوبكم ^(٣) .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » والبنوي والخازن في « التفسير » بلا سند .

(٢) ذكره البنوي والخازن عن السدي بغير سند ، ولم يمزواه لأحد .

(٣) قال ابن كثير : يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادَّعَوْا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) قال : وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أحسن من الإسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، قال : ويدل عليه —

قوله تعالى : (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنْ تَخَلَّصُوا
 الْإِيمَانَ (لَا يَأْتِيَنَّكُمْ) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو : « بِأَلِثْكُمْ » بِأَلْفٍ وَهَمْزٍ ؛ وَرَوَى عَنْهُ
 بِأَلْفٍ سَاكِنَةٍ مَعَ تَرْكِ الْهَمْزَةِ : وَقَرَأَ الْبَاقُونَ : « بِلِثْكُمْ » بِغَيْرِ أَلْفٍ وَلَا هَمْزٍ .
 فَقَرَأَهُ أَبُو صَمْرُو مِنْ أَلْتِ بِأَلْتِ ، وَقَرَأَهُ الْبَاقِينَ مِنْ لَاتِ يَلِيتُ ، قَالَ الْفَرَّاءُ :
 وَهِيَ لَتَانٌ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : مِثْلُهَا وَاحِدٌ . وَالْمَعْنَى : لَا يَنْقُصْكُمْ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ :
 فِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ : أَلْتِ بِأَلْتِ ، تَقْدِيرُهَا : أَفَكَ يَا فِكَ ، وَأَلَاتِ يَلِيتُ ،
 تَقْدِيرُهَا : أَقَالَ يُقِيلُ ، وَلَاتِ يَلِيتُ ، قَالَ رُوَيْبَةُ :

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ نَدَى سَرَيْتُ وَلَمْ يَلِثْنِي عَنْ سُرَاهَا لَيْتٌ ^(١)

قوله تعالى : (مِنْ أَعْمَالِكُمْ) أَيُ : مِنْ ثَوَابِهَا . ثُمَّ نَمَتِ الصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ
 بِالْآيَةِ الَّتِي نَلِيَ هَذِهِ ^(٢) . وَمَعْنَى : (يَرْتَابُوا) يَشْكُكُوا . وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْجِهَادَ ، لِأَنَّ
 الْجِهَادَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ فَرَضًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)
 [فِي إِيْمَانِهِمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ
 صَادِقُونَ] فَزَلَّتْ [هَذِهِ الْآيَةُ] .

قوله تعالى : (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) وَ « عَلِمَ » بِمَعْنَى « أَعْلَمَ » ، وَلِذَلِكَ
 دَخَلَ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ : « بِدِينِكُمْ » وَالْمَعْنَى : أَتُخْبِرُونَ [اللَّهَ] بِالَّذِينَ الَّذِينَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ ١٢ ،

— حَدِيثُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ ، فَتَرَقَّى
 مِنَ الْأَعْمِ إِلَى الْأَخْصِ ثُمَّ لِلْأَخْصِ مِنْهُ . اهـ .

(١) الرجز في مجاز القرآن : ٢٢١/٢ ، و « الطبري » : ٢/١٥ و ١٤٣/٢٦ ،

و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : لَيْتَ .

(٢) وهي قوله تعالى : (إِنْ غَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

أي : هو عالمٌ بذلك لا يحتاج إلى إخباركم ؛ وفيهم نزل قوله تعالى : (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) قالوا : أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَقَاتِلِكَ ^(١) [والله أعلم] .

* * *

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » ١٠٠/٦ : أخرج ابن المنذر ، والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأزل الله (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ...) الآية ، قال الحافظ الهيثمي في « الجمع » ١١٢/٧ رواه الطبراني في « الكبير » ، و « الأوسط » ، وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة ، ولكنه مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وذكره ابن كثير عن البزار من طريق أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ثم قال : قال البزار : لا نعلمه يروي إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم يروي أبو عون محمد بن عبد الله غير هذا الحديث . وذكره السيوطي في « أسباب النزول » من رواية النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس ، ومن رواية سعيد بن منصور وعبد ابن حيد وابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن جبير ، ومن رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . والله أعلم .

تم — بعون الله تعالى وتوفيقه — الجزء السابع من كتاب
« زاد المسير في علم التفسير » للإمام ابن الجوزي
ويليه الجزء الثامن ، وأوله
تفسير سورة « ق »